العابرون إلى الضفاف

محمد الرشيد

العابرون إلى الضفاف

محمد الرشيد

ISBN 9789776597280
Deposit number:67689/2021

© Willows House 2021

الطبعـة الأولـى: 2021 منشورات ويلوز - جوبا / القاهرة

جميـع حقـوق النشـر محفوظـة للناشـر، ولا يحـق لأي شـخص أو مؤسسـة أو جهـة، إعـادة إصـدار هـذا الكتـاب، أو جـزء منـه، أو نقلـه، بـأي شـكل أو واسـطة مـن وسـائط نقـل المعلومـات، سـواء أكانـت إلكترونيـة أو ميكانيكـة، بمـا في ذلـك النسـخ أو التسـجيل أو التخزيـن أو الاسـترجاع، دون إذن خطّـيّ مـن الناشـر.

All copyrights are reserved to the publisher, and no person, institution or entity has the right to reissue this book, or part of it, or transfer it, in any form or medium of information transmission, whether electronic or mechanical, including copying, recording or storing Or, without written permission from the publisher

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي النّاشر

Willows House
منشورات
ويلوز هاوس

جنوب السودان، جوبا، كاتور، مربع ٨ جوار مركز جبران

www.willowshouse.net
www.jubabok.com
gatawillow@gmail.com
gmail.com@willowshouse3
+211927302302

العابرون إلى الضفاف

محمد الرشيد

Willows House
منشورات
ويلوز هاوس

على ضفاف الحياة كنت أمشي...

فوجدت مخطوطات مهملة،

أخذتها من تلة منسية

ووضعتها بين يديك.

إهداء

إلى رفيق الحياة

وأصدقاء الشتات الأبدي

م. م. هـ.

الفصل الأول

الجليد والصحراء

بالحب وحده ينجو الإنسان... هذا ما كانت تؤمن به. لذا، في عصر الجائحة لم تتذكّر أحدًا سوى حبيبها.

التقيت زينة في إحدى الضفاف البعيدة عندما كنت صبيًّا في الحب. كان لقاؤنا الأول طبيعيًّا وغير طبيعي، لقاء أشبه بالمعركة الاحتفالية. بعد الخروج من المحاضرة، تناقشنا حول مسألة ربما لا ناقة لها فيها ولا جمل. لم أكن أعرف دافعها، أما أنا فكنت في حاجة مُلِّحة إلى معركة مصطنعة لتكون غطاءً لهدف أسمى. في تلك المعركة كانت زينة تتباهي بجدائلها التي كانت تشبه غابات إفريقيا المليئة بالكنوز! هناك رأيت أنا الابن الشقي السعيد خيرات عظيمة: انعكاس قوس قزح، الموسيقى الإفريقية بإيقاعاتها المتفردة. أما عينيها فكانتا مشتعلتين برغبتها في الحياة وجنونها البريء.. أليس هذا هو الجمال المُهمل؟ أنا مكتشف كُلِّ ما هو منسي وخفي! لماذا أنا بهذا القدر من الثقة! ربما محاكاة لنيتشه عندما تساءل قائلًا: لماذا أنا بهذا القدر من الذكاء؟ «هذا هو الإنسان». الزمن لا يهتم بما نفعل، لذلك يمضي دون أن يلتفت إلينا.. عدت إلى الوراء أيامًا أخرى منذ لقائنا الجميل، فقررت بشكل مقصود أو بأمر من قلبي أن أوجه طاقاتي إلى لقاءات أخرى متكررة ودعوات للمؤانسة لانهاية لها..

ذات مرة، التقينا بحديقة عامة لنقضي بعضًا من الوقت، أهديتها وردة روز حمراء. لم أكن أدري حينها بأن اللون الأحمر يرمز إلى passion[1] ما المشكلة هنا؟ سألت نفسي، ثم أجبت: إنها تكمن في

(1) الشغف – ترجمة عن الإنجليزية

التعبير عن شغفي بجسدها من الوهلة الأولى. وهذا ما لم أكن أريد إظهاره. أردتُ أن أسبح في مدار الروح أولًا، ثم أهبط شيئًا فشيئًا إلى الجسد، حيث الجبال والهضاب معًا.

في يوم الجمعة من ربيع ذلك العام، حدث وأن استقبلت اتصالًا منها:

- آلو، صحة لا بأس؟ وين أنت يا زول؟

- في السكن الجامعي.

- هل أنت وحدك؟

- نعم، بكل تأكيد.. وحدي.

بعد هذا السؤال، أخذت فكرة جميلة تطرق باب ذهني: زينة تريد أن نكون على انفراد، حيث مساج الروح والجسد معًا؛ القبلات التي طال انتظارها؛ أن أكتشف لون ثيابها الماورائي، لأستنشق عطرها، عبق جسدها، ثم أرفع علم إمبراطوريتي عاليًا في جبال إفريقيا تلك وعلم صغير في تلالها هي.

- من الأفضل أن تأتي إليَّ، أنا أقف أمام مدخل السكن الجامعي.

عندما سمعت هذه الكمات تبخرت أحلامي، وفهمت أن من طرق باب ذهني كان الوهم لا غيره. قلت معترضًا:

- لماذا لا تريدين القدوم إليَّ؟ من الأفضل أن تأتي أولًا لنبقى هنا قليلًا ثم نخرج، سأعد لنا فطورًا بنكهة قارتنا.

أضفت هذه الكلمات ظَنًّا مني بأن الأكل ربما يجعلها تعيد النظر في موقفها الرافض بالمجيئ إليَّ في وحدتي.. لكني نسيت أن الرجال هم

من يقعون في شباك الغرام عبر بطونهم التي لا تشبع، أما الطريق إلى قلوب النساء فمختلفة تمامًا.

- لا تتأخر كثيرًا، سأنتظرك بالقرب من المصعد.

لبست تيشيرتًا، بحثت عن عطري الذي تعشقه لكنني لم أجده. ربما أخذه جاري الذي أتى من بلاد الصين ويعيش معي بالغرفة نفسها. تبادل الأشياء مقبول هنا، إذ إننا نعيش في معقل الاشتراكية، بالرغم من أن النظام السياسي والاجتماعي هناك لم يكن يختلف الآن عن الأنظمة في بقية الدول، فإن بعض مظاهر مشاطرة الحياة، أما صديقي فكان يظن أن هذه الظاهرة تعتبر من إرث الاشتراكية التي لا تزال تعيش هناك ولو بشكل خفي. مثلًا، تجد الشباب يتبادلون السجائر في الطرقات، تلتقي بشكل يومي مشاهد مثل أن يقتسم أحد المارة قطعة سيجارة مع شابة تقف وتدخن ذلك الصباح الشتوي.

عندما اقتربتُ من المصعد، وجدت زينة تقف وشعرها متدليًا مثل عناقيد العنب. ذهبنا إلى الحديقة ــ الغابة التي تقع بجوار الجامعة - قضينا وقتًا ممتعًا نتحدث فيه عن تفاصيلنا اليومية الصغيرة، وعن خطط المستقبل، وأخذت ذكريات الطفولة نصيبها أيضا. سألتها عن حلمها الأكبر، والأجدر بالتضحية، فردت عليَّ قائلة:

- أريد أن أشيِّد مدارس لأطفال إفريقيا الذين يعانون للأسباب التي تعرفها، وأنهم لا يستطيعون الذهاب إلى المدارس، نظرًا إلى إمكانياتهم المادية المحدودة.. هذا هو حلمي الذي أريد تحقيقه يومًا ما.

أردفتُ بدوري قائلًا:

- هذا يعني أن الدراسة ستكون بالمجان.

- بالضبط!

ثم أضفت قائلًا:

- هـذا حلـم يسـتحق التضحيـة، لكننـي أرى أنـه مـن الأفضـل لـك العمـل أولًا في منظـمات الأمـم المتحـدة، وبعـد ذلـك يمكنـك صقـل معارفـك وخبراتـك السـابقة في حقـول المعرفـة، وتكريـس كل وقتـك وطاقتـك لحلمـك هـذا. بالإضافـة إلى أن العمـل في المنظـمات يمنحـك فرصـة السـفر حـول العـالم، واكتسـاب تجـارب جديـدة لا يمكـن إيجادهـا في مواقـع التواصل الاجتماعـي.

كان لـدى زينـة اسـتعداد فطـري غـير طبيعـي في تعلـم اللغـات الأجنبية. ففـي ذلـك الوقـت كانـت تتحـدث الفرنسـية، العربية، الإنجليزية، الروسـية والبربريـة. والآن، تتحدث الإسـبانية أيضًا.

كانـت الغابـة ــ الحديقـة تقـع في الجهـة الشـمالية مـن المبنـى الرئيس للجامعـة التـي درسـنا فيها. أشـجارها كثيفة وطويلـة: البتولا، والصنوبـر هـي أكثر الأنواع حضـورًا فيهـا. ثـم إن أشـجار الصفصـاف واليولـكا تزينهـا بخضرتهـا الدائمـة. كانـت توجـد بهـا مقاعـد تسـع لمحبَّـين مثلنـا، وهنـاك مقاعـد أكـبر مخصصـة لمجموعـات كبـيرة. وهنـاك مظَّـلات كبـيرة. عندمـا يحِـلُّ فصـل الربيـع والصيـف كان الطـلاب يشـوون شرائـح اللحـم. أمـا في فصـل الشـتاء تكـون خاليـة مـن طـلاب خـط الاسـتواء، مـا عـدا بعـض السـكارى المغامريـن الذيـن يتسـكَّعون هنـا ويتمايلـون هنـاك. بينـما كنـا نتمـشَّى عابريـن في أزقتهـا، رأيـتُ «واقيًـا ذكريًّـا» ملقًـى يعـترض طريقـي، فأدركـت أن هـذه الغابـة الصغيرة تحمـل أسرارًا وقصصًـا أخـرى. أو ربمـا الغابـة أرادت أن توحـي لي إلماحًـا بـأن أؤدي دورًا مـا مـع حبيبتـي مسـتخدمًا واقيًـا ذكريًّـا. لا أدري، ربمـا! اكتفينـا أنـا وزينـة في تلـك الأمسـية

بالتجـوال طويـلًا حتـى بلغنـا البحـيرة الوحيـدة التـي تسـتلقي عـلى حـواف الطـرف الشـمالي الغـربي مـن الحديقـة. ومـن ثـم تمشـينا حتـى محطـة المـترو. كان لا يزال العطـش يسـيطر عـليَّ. فلـم أشـبع مـن رؤيتهـا، مـن عبقهـا، مـن ملامحهـا الطفوليـة، ومـن امتـلاء نظـري بصدرهـا الشـاهق. لذلـك قـررَّتُ أن أقطـع معهـا المسـافة حتـى أصـل قريبًـا من منـزل أسرتها، لعـلي أرتـوي مـن هـذا العطـش الحلـو الجميـل! غـدًا لـن آتي إلى الجامعـة. ولا أدرس يـوم السـبت. لذلـك، سـأبقى بالبيـت مـع أسرتي، وسـأمارس الرياضة. سـأكتب لكِ في عطلـة نهايـة الأسـبوع وسـأراكِ في يـوم الاثنـين. إلى اللقاء. سـيمضي وقـت طويـل، إذًا، لسـوف أنـدم عـلى خـوفي وجبنـي بعـدم قطفـي فاكهـة المسـاء مـن شـفتيها!

سـبع سـنوات مضـت منـذ لقـائي الأول بزينـة الأجمـل عـلى الإطـلاق. فهـي فتـاة خفيفـة الـروح، تملـكُ قلبًـا بحجـم البلـد الـذي ولـدت فيـه، حيـث رأت هنـاك شـمس إفريقيـا الدافئـة. وكانـت قـد نشـأت في أسرة ليسـت بالكبـيرة، وذلـك بالمعايـير السـائدة في إفريقيـا. إذ تتكـون أسرتهـا من خمسة أشـخاص: الأبُ والأم وولديـن بالإضافـة إلى بنـت واحـدة، هـي زينـة، إذ بـدأت دراسـتها الأساسـية في أرض الأمازيـغ، ثـم المرحلـة الثانويـة في إحـدى الـدول الأوربيـة، أمـا المرحلـة الجامعيـة فكانـت مـن نصيـب إمبراطوريـة الجليـد.

كان والدهـا يدعـى محمـود، طويـل القامـة، أصلـع الـرأس ونظرتـه كانـت دائمـا متأملـة وفاحصـة. كان يعمـل دبلوماسـيًّا بسـفارة بلـده في ضفـاف الجليـد. لا أعـرف المهـام التـي كان يفعلهـا بالضبـط، لكـن أظنـه كان يهتـم بالمعلومـات والتقاريـر السرية جـدًّا التـي تتعلـق بالعلاقـات بـين البلديـن. عـلى الرغـم مـن هـذه المهمـة الحساسـة، كانـت لديـه توجهـات ضـد السـلطة الحاكمـة في بلـده. كان يظـن أن الديكتاتـور يجـب أن يرحـل ويـترك المجـال للشـباب، حتـى ينعـم الشـعب بالخـيرات النفطيـة والمعدنيـة

التي تتميز بها بلاده. لم أره سوى مرة واحدة عندما دعتني زينة إلى حفل الوداع الذي أقيم في منزلهم. كان محمود قد رحب بنا بلطف وكرم عظيمين قائلا:

- أشعر دائمًا بسعادة بالغة عندما أرى أبناء قارتي.

لم نبقَ هناك كثيرًا، مع ذلك استطعت أن أتبادل معه بعض المعلومات الشخصية، وملامحه ما تزال راسخة في مخيلتي. كان قد أكمل المدة الزمنية للابتعاث بالخارج، لذلك كان لا بدَّ أن يعود بصحبة أسرته وزينة. أما والدتها فكانت تدعى أماني، جميلة الملامح، شعرها أسود تشع منها نجيمات صغيرة، ابتسامتها لا تفارق شفتيها، متوسطة القامة. وهبت كل وقتها أسرتها، لذلك كانت تؤدي جميع الأعمال المنزلية؛ تُعِدُّ وجبات الطعام بالحنان والدفء، تنتظر عودة أفراد الأسرة، وفي الليل قبل النوم كانت تسأل زوجها: ما هو برنامجك ليوم غد؟ ثم تضيف مازحة: لا تنسَ أن تصرف لي راتبي الشهري، فإنني أعمل موظفة لديك بدرجة سكرتيرة. كانت تُعِدُّ له بنود الاجتماعات، وتشاركه في تحليل بعض المعلومات. أما عندما كانت زينة تمارس الرياضة في شرفة البيت، كانت والدتها تأتي وتشاركها وأحيانًا تتحداها في قوة التحمُّل. وكذلك الحال مع ياسين الابن الصغير ذي السبعة عشر ربيعًا، طويل القامة وكأنه ولد ليكون لاعب كرة السلة بجانب مايكل جوردان، لكنه فضَّل المدرسة التقليدية وكرة القدم. كانت أماني تمرر له الكرة عندما كان يلعب وحيدًا في فناء المنزل بعد عودته من المدرسة الثانوية. أما الأخ الأكبر بن علي كان طالبًا للدكتوراة في الإعلام بذات الجامعة التي كانت تدرس فيها زينة، كان يكبُرها بثلاث سنوات. لم ألتقِه، لكن رأيته من على البعد، وكان ذلك عندما كنا ندخن بالرصيف أنا وزينة. خذ، خذ، بصورة مفاجئة قالت.. أخذت منها سيجارتها ولم أفهم ما يجري، سألتها: ماذا حدث؟ حينها قالت:

انظـر، ذاك الشـخص الـذي يدخـن هـو أخـي، لا أريـد أن يـراني وأنـا أدخـن. فهمـت أنهـا كانـت تخشى الوشـاية لوالدهـا الـذي لم يكـن يعلـم بـأن ابنتـه كانـت تدخـن، بالرغـم مـن اهتمامـه بملفـات سريـة ضخمـة عابرة للقـارات.

إن لقـائي بزينـة - التـي أخـذت مـن كل قـارة نصيبهـا في الجـمال – كان محض مصادفـة، أو يـا لحظـي السـعيد الـذي حتَّـم عـلى حيـاتي هـذا اللقـاء الـذي غيرهـا إلى الأبـد وقلـب كيـاني رأسًـا عـلى عقـب. ومنـذ ذلـك الوقـت، عـبرت ميـاه كثـيرة تحـت الجـسر. إن الحـب دائمًـا مـا يُباغتِنـا ونحـنُ غافلـون عنـه. يـأتي الحـب عندمـا لا ننتظـره. ثلاثـة أعـوام عشـنا فيها عَلاقة تحمـل وجهـين: صداقـة تسـتبطن حبًّـا بـلا نهايـة، وحُبًّـا يضـم بـين جناحيـه صداقـةً. كُنـتُ كل صبـاح عندمـا أسـتيقظ، كانـت صورتهـا أجمـل لوحـة تدلـف إلى ذهنـي وتجـول بمخيلتـي.

ذات مـرة، وبينـما كان الجليـد يغطـي شـوارع المدينـة، اسـتيقظت مـن النـوم في ذلـك الصبـاح عـلى وقـع رنـين هاتفـي.. ألقـت زينـة عـليَّ تحيـة الصبـاح وسـألتني إن كنـت بالجامعـة. وقبـل أن أجيـب، أدركـت بأننـي في الغرفـة. ربمـا صحـوت للتـوِّ، لأن صـوتي كان يـدل عـلى ذلـك. طلبـت منـي أن ألتقيهـا في كافيه الكليـة. نهضـتُ راكضًـا إلى غرفـة الحـمام حيـث أخـذت قسـطًا مـن المسـاج المـائي، ولبسـت قميـصي المُحَبَّـب، فتسـاقطت بلـورات عطـر صغـيرة عـلى جسـدي – كان عطـرًا بنكهـة البرتقـال. فأنـا عاشـق لبرتقـال النسـاء وبرتقـال الطبيعـة عـلى حـدٍ سـواء! - وعندمـا حـضرت، لم تكـن زينـة وحدهـا، كانـت بجانبهـا فتـاة سمراء. سـأعرفُ لاحقًـا، بـأن هـذه السـمراء صديقتها البرازيلية التـي حدثتنـي عنهـا ذات مـرة، لكننـي كُنـتُ قـد نسـيت لأن ذهنـي لا يتذكـر سـوى امرأتـين: أمـي الحبيبـة، وزينـة.

كانـت صديقتهـا تدعـى ميرانـدا، جـاءت مـن بـلاد السـامبا والكرنفـال. إذا كانـت بـشرتي تحمـل ملامـح القهـوة بالشـوكولاتة، فـإن بـشرة ميرانـدا

كانت أشبه بمزيج القهوة والحليب، طويلة القامة لكن تقصرني قليلًا، جدائلها مثل رقصة السالسا لا تعرف من أين تبدأ وتنتهي، متداخلة، مترابطة، مجعدة، وأحيانًا لا ترى تجاعيد. نحيلة القامة مثل قامة لاعب كرة القدم نيمار، لكنها لا تحب التصنع كثيرًا. كانت ميراندا متزوجة من رجل من إمبراطورية الجليد ولديها طفل. التقت هذا الرجل في شواطئ البرازيل قبل سنوات، عندما كانت تعمل نادلة بأحد مقاهي المنتزهات السياحية. انتهى الكرنفال وأيام عطلته، لذلك عاد الرجل إلى بلاده سارقًا قلب ميراندا. ولكن لم ينقطع الوصل بينهما، من وقت إلى آخر كانت تراسله ويراسلها. رغم جمال الحياة والكرنفال هناك، فإن روحها كانت في بلاد أخرى، لذلك قررت أن تلقى الرجل. لم يكن أرتيوم معارضًا مجيئها، لذلك اقترح عليها أن تأتي إلى إمبراطورية الجليد بصفتين: أولًا، طالبة، ثم حبيبة. كانت ميراندا في غاية السعادة، تركت العمل وأسرتها وباولو كويلو وأتت خلف مصيرها. كانت تحب الرجل، لذلك قبل الالتحاق بالجامعة، تقدمت له بالزواج، فرفض أرتيوم الزواج بها قائلًا: خلينا نصبر، ما في داعي للاستعجال، كل شيء بوقته. ظلت هي بالسكن الجامعي، تذهب إلى المحاضرات. مع ذلك كان أرتيوم يواعدها، يأخذها إلى منزله. استمر الحال كذلك عامًا.. وذات مرة، كان الصباح جميلًا، وهبوب الشمال الباردة تهب، استيقظت من حضنه عندما شعرت بوهن ووخز في بطنها، دخلت إلى الحمام لتكتشف حملها. كانت تقفز من شدة الفرح، دلفت إلى الغرفة وأطلعته بالخبر السعيد. أحنى رأسه قليلًا، ثم قال:

- أنت متأكدة من الحنك دا؟ ياخ امشي اعملي تيست تاني.

لكن ميراندا قالت له:

- أنـت فرحـان بالخبر دا؟ لـو فرحـان بقـول ليـك الحمـل دا حصـل، ولـو مـا فرحـان برضـو حصـل.

لم يكـن أرتيـوم سـعيدًا، ولم يكـن يخطـط لهـذا الطفـل القـادم مـن بـلاد السـحرة. كان يريـد أن يـأكل الوجبـات اللذيـذة لكـن دون عنـاء «تـاكل كسرتنـا وتـابى زعطنـا» كـما يقـول مبتكـرو العبـارات السـاخرة.

عندمـا أتيـت إلى المقهـى في ذلـك اليـوم، كانـت زينـة تجلـس ومعهـا ميرانـدا، وكعـك عيـد الميـلاد كان يزيـن الطاولة.. أهديتهـا عنـاق الصبـاح، فـردت: Happy birthday to you, happy birthday tooo youuuu[1] فقـط حينهـا تذكـرت بـأن هـذا اليـوم مـن نوفمـبر يوافـق عيـد ميـلادي – ذكـرى الصرخـة الأولى مـن جـمال الحيـاة الـذي لا يحتمـل - لم أُظهِـر لها أني نسـيت عيـد ميـلادي، فهـذا غـير معقـول. وخشـيت أن تظـن بأننـي أعيـش في القـرون الوسـطى فيزيـد ذلـك مـن احـتمال الخسـارة. احتفلنـا بعيـد الميـلاد، بعـد أن قدمـت لي بعـض الهدايـا. وتناولنـا كعـكًا وشـايًا بطعـم النعناع. لقـد منحتنـي بريـق عينيهـا وابتسـامة تخفـي إحساسًـا بإعجابهـا. لم أكـن أتوقـع بـأن يومـي سـيبدأ بهذا الجمال! يقـول صديقـي، بـأن البدايـة السـعيدة تـؤدي إلى النهايـة السـعيدة. عـدتُ محُمَّـلًا بالهدايـا وكنـتُ أحلِّـقُ عاليًـا. تُحلِّـق الـروح عندمـا تعانق امرأة تحبهـا. أو كأن تلامـس راحتـي حبيبتـك. أو أن تسـمع موسـيقى الحياة التي تتبخَّـر عـبر جدائـل زينـة. لم يفارقنـي التفكـير في اللحظـة الجميلـة التـي أهدتني إياها تلـك البنـت المجنونـة. كان ذلك الاحتفال المفاجـئ هـو الأول في حيـاتي، لم أكـن أعـرف ثقافة الاحتفال بعيـد الميـلاد. جلسـت في مسـاء ذلـك اليـوم أنظـر إلى الهدايـا مُتأمِّـلًا: مـاذا يمكـن أن أقدمـه في المقابـل. غرفتـي التـي لم تعـرف هدايـا عيـد ميـلاد، الآن تَضِجُ بهـا. إذًا، لا بـدَّ لي أنـا أقدم شـيئًا، بعـد سـاعات مـن

(1) عيد ميلاد سعيد – ترجمة عن الإنجليزية

التفكير رسيت على شواطئ الشعر. نعم الشعر! ستسألني، كيف وأنا الذي لم أكتب حتى قصيدة واحدة طوال العمر؟ سأقول لك إذا كان الحب قادرًا أن يقتل، فأهون عليه أن يجعلني شاعرًا. على العموم، سأقرأ النص ولا أبالي، لأني لم أكتبها لكَ يا عزيزي، فهي هدية لحبيبتي التي أسعدتني:

«البنت العصفورة، خفيفة كطيف،

كبالونة سحرية تحلق في الأعالي.

هذا الجسد الخفيف، مترع باخضرار شجرة اليولكا،

كسحابة حُبلى بالحياة تطوف حول العالم.

وفي جدائلها تُرسم غابات الكون، تتجمل وتتحول، مثل الفصول

شتاؤها، يسافر بنا إلى الجنوب، حيث الجدائل المقهورة

صيفها وربيعها، قوس قزح يرحل بنا إلى ماما أفريكا!

والخريف الذهبي يذكّرنا بإمبراطورية الجليد!

كلما تراك، تنزُّ ينابيع الحياة في عينيك،

تتفتح تويجات الزهور في القلب.

عصفورتي الصغيرة، أم حديقتي الجميلة، كيف تسميها؟

كبرياءُها كزرافة تتباهى بعنقها الفاره،

بسيطة مثل طاووسة لا تأبه بالتجمُّل

أنيقة كنافورة في ثوب من نور!

إن تطلب منها، تغني لك

يا لها من شقشقات،

كمنجات العالم وكل المدن الساحرة

كلها تتدافع إليها، كأنك تسمع صوت ملاك!

عصفورة من سلالة الصحراء، تغرد بكل اللغات،

ربما عصافير الأعالي، تسكن في الصحاري،

كلما تنظر إليها،

تعتريك رغبة في أن تحملها في حقيبتك

وتُحلِّق، لكنك تخشى على العالم أن ينضب جمالًا».

إن للنصوص الشعرية سحر الهدايا الخالدة، خاصة عندما يكون الكلام عمَّن نحب.

لم تبخل المدينة عليَّ، بل أكرمتني بجمالها ألف مرة ومرة. كنت في ذلك الصباح أحاول إعداد فطوري، لذلك ذهبت إلى المطبخ المشترك بالطابق الذي كنت أعيش فيه. لم أجد موقدًا خاليًا، فالطلاب والعاملون بالجامعة كانوا يلبون نداء الغريزة أيضا. أخذت بهاراتي الحارة تلك، والبطاطا وقطعة الدجاج واتجهت عائدًا إلى الغرفة. قالت إحدى الطالبات:

- اسمع، لو عايز تطبخ، أنا بخلص بعد عشر دقايق، ممكن تاخد مكاني دا.

قلت لها:

- تمام، ممكن أجي راجع بعد شوية.

شكرتها على العرض ثم ذهبت. عندما عدت وبدأت في تقطيع بصل التحمير، ووضعت الدجاجة المجمدة تحت الماء، قالت لي الفتاة:

- عايز تطبخ شنو؟ يعني أكلة من بلدكم؟

فقلت:

- عايز أطبخ ملاح بامية بالجداد، وعازمك كمان تدوقي أكلتنا.

سألتني:

- شنو يعني بامية؟

لم أكن أعرف كيف أشرح لها، لذلك ركضت إلى الغرفة وأخرجت كيسًا من المجمِّد وقدمته إليها. وافقت على الدعوة. ثم حدثتني عن بلدها التي تقع في أقصى شمال ضفاف الجليد، وأن لحوم الخيل تعد المحببة لديهم. غادرت الفتاة، وظللت أنتظر قطعة الدجاجة التي لا تزال مجمدة. بينما كنت كذلك، رن هاتفي. كانت زينة تنتظرني أمام السكن الجامعي. تركت الجمل بما حمل، وخرجت لمقابلتها. لم تكن وحدها، بل كانت مرة أخرى مع ميراندا. ألقيت عليهما السلام معانقًا، ثم سألت:

- إن شاء الله خير؟ طبعًا أنا فرحان بشوفتكم، لكن عايز أعرف في حاجة حصلت ولا كدا؟

قالت ميراندا:

- والله أنا طلبت من زينة تناديك عشان نمشي نتغدى في مطعم هندي قريب. أنا عازماكم.

- ياخ والله، أنا شاكر كتير، كنت عايز أطبخ الليلة لكن كنت حاسس بكسل، كأني حسيت بيك.

قالت زينة بلهجتها الأمازيغية تلك:

- علي، يا بتاع الحركات، ما نحبش نحدر معك.

حتى أزيل الغيرة منها، عانقتها وشكرتها أيضًا. اتجهنا إلى المطعم الذي كان يقع على بعد خمسين مترًا. كان مزينًا بالأسلوب الهندي، شعرت وكأني أمام مبنى تاج محل. وكانت الموسيقى تأتي من كل الجوانب، وفيلم هندي كان معروضًا عاد بي إلى تسعينيات القرن الماضي، والعبارة المشهورة في بلاد «فيلم هندي ولا ناكل باسطة». كان الفيلم هنديًّا والمكان كذلك، لذا لم يكن نصيب من الباسطة سوى عسل ميراندا وزينة.

إذا كانت الشعوب الآسيوية كغيرها من الأمم تتسم بسمات إيجابية بلا حدود، فإن النادل الهندي كان يجسد التهذيب واللطف في المعنى المجرد. جاء إلينا حاملًا قائمة الطعام وكأنه يحمل وردة لمحبوبته. كان يتحدث معنا همسًا. طلب كل منا وجبة البرياني، وطلبنا إبريق شاي. بينما كنا ننتظر قدوم العروس، قالت ميراندا:

- عندي رغبة أتعرَّف عليك من قريب، عشان كدا قلت نتلاقى.

أجبت قائلا:

- والله كلمتني زينة عنك كتير، لكن ما الشارع ما لمّاني بيك إلا في عيد ميلادي. المهم هسى اتلاقينا مرة تانية وإن شاء الله نكون على تواصل باستمرار.. أنا موجود في الجامعة، كل ما يكون عندك رغبة نتلاقى اديني خبر.

كانت زينة تشاهد الفيلم الهندي تارة، وتارة تسمع إلى حديثنا.

سألتها:

- من متين أنتو أصحاب؟

قالت:

- أنـا وميرانـدا اتعرفنـا قبـل سـنة، حكيـت لهـا عنـك، مـا شـاء اللـه عليهـا، إنسـانة أصيلـة.

تدخلت ميراندا قائلة:

- بطّـلي، بطّـلي، أنـا إنسـانة عاديـة زي كلـو النـاس، بـس مشـكلاتي كتـيرة شـوية لكـن الحمـد للـه.

طلبت منها أن تحدثني عن بلدها وأسرتها قليلًا.

فقالت:

- نحـن سـاكنين في سـيلفادور، جدودنـا جـو مـن أنجـولا قبـل قـرون، عنـدي إخـوات وإخـوان، بلـدي جميلـة، لكـن الإعلام مـا قاعد ينقـل حاجات تانيـة كتـيرة كعبـة، عندنـا الجريمـة منتـشرة في بلدنـا، والمافيـا والشرطـة مـا في فـرق كتـير، يعنـي مـن الصعـب للبنـت تمـشي بالليـل في أماكـن مظلمـة لوحدهـا. بلدنـا مـا الكرنفـال وشـواطئ البحـر.

كان النـادل قـد أتى حامـلًا الأكل وظـل واقفـا خلفـي حتـى توقفـت ميرانـدا عـن الـكلام.

قال:

- لو سمحت، الأكل جاهز.

أفسحت له المجال، وضع الأطباق اللذيذة على الطاولة كأنها لوحة لفان جوخ أو كأنها أوركسترا عدَّت نفسها لحفل موسيقى فريد. بدأنا نأكل غداءنا، حينها قالت زينة:

- خلونا نلتقط صورة، عشان نوثق لليوم الجميل هذا.

بعد أن لبّينا طلبها، نظرت إليَّ وغمزت لي. أدركت أنها تريد مزيدًا من الاهتمام، أن يتحول مركز الضوء من ضفاف السامبا إلى الصحراء وغابات إفريقيا. كنت أتحدث تارة إليها، وتارة إلى ميراندا. كانت إحساسي تجاه زينة أكثر من صداقة، وكانت هي نجمتي. أما ميراندا كانت تشدني إلى شيء ما خفي، لم أجد له تفسيرًا، كنت أرى فيها سحرًا فريدًا، وفي عينيها حزنًا جميلًا. فرغنا من تناول الطعام، وبدأنا نحتسي الشاي، من حين إلى آخر كان النادل يأتي ويقول:

- هل الأكل لطيف؟ أتحتاجون إلى شيء إضافي؟ ماذا عن الموسيقى؟

وكانت إجابتنا دائمًا:

- ممتاز، كلو شيء ممتاز. شكرًا ليك كتير.

كان يهز رأسه شكرًا على عبارات الشكر ويغادر. مثلما كان الشاي طيبًا وخفيفًا على الروح، أصبح مزاجنا جيدًا، ولحن الكلام أصبح أعمق، يخرج صافيًا من القلب، تتقاطع الطبول الإفريقية، ورقصات السامبا بالبخور الهندي لتتحول إلى مقطوعة موسيقية ساحرة من هذا العالم ومن خلق الإنسان البسيط، ومن صنع الإيقاع اليومي المهمل.

خرجنـا مـن هنـاك، ولم يعـد النـادل إلى الداخـل إلا بعـد أن اختفينـا مـن أنظـاره. عـادت ميرانـدا إلى البيـت لأنهـا قـد اشـتاقت إلى طفلهـا، أمـا زينـة فطلبـت أن نتمـشى بـلا هـدف، لكـن انتهـى بنـا المقـام في «سـتارباكس» وأيادينـا كانـت مثقلـة بالقهـوة الباهظـة الثمـن.

باقة الورد

كانت المدينة على الرغم من سحرها وجمالها، فإنها لم تكن تخلو من التحديات التي تواجه الناس في كل الأماكن والأزمان. عندما أتيت إلى تلك الساحرة، لم يخطر على بالي المرض على الإطلاق. كنتُ أرتدي الملابس الخفيفة التي لا تناسب الطقس هناك، وأتجول في فصل الشتاء مرتديًا حذاءً صيفيًّا في مخالفة واضحة لمتطلبات المناخ. كنت سعيدًا بهذا السلوك، يذكرني ببلدي ومناخها الحار. لم أهتم كثيرًا بنظرات العابرين المحذِّرة من العواقب الوخيمة التي تنتظرني. وذات صباح ربيعي دافئ، شعرت برغبتي في التبول. فذهبت إلى الحمام ولكنني لم أستطع. رفض البول الخروج. فضَّل البقاء في الداخل وكأن العالم الخارجي يُشكِّلُّ خطرًا عليه. عدت إلى غرفتي، وبعد نصف ساعة من الزمن عدت مجددًا إلى المرحاض لتخفيف الثقل الذي يؤرقُّني. ولكن البول لم يرغب في الخروج إلى التنزه.. بدأ القلق يسيطر عليَّ، فقلت مُحدِّثًا نفسي: يجب أن أشرب المزيد من الماء، أخذت كوبًا وشربت لترًا من الماء، ثم ذهبت إلى المرحاض، وكنتُ مقتنعًا من صواب قراري، ولكنني لم أستطع التبول. عندئذٍ قررتُ الذهاب إلى الطبيب. المركز الصحي لم يكن بعيدًا.. عندما أتيت إلى مكتب طبيب المسالك البولية، عند المدخل كان الطلاب وغيرهم يقفون في صفٍّ طويل، كل واحد ينتظر دوره. حجزت موقعًا وكان أمامي عشرة أشخاص. من شدة امتلاء البطن بالماء، بدأت أتصببُ عرقًا، والصفوف في تلك البلاد مقدسة، يجب احترامها.. نهضت من على المقعد وبدأت أتمشَّى جيئةً وذهابًا حتى أنسى ألم البول ومكره الذي اتخذني بيتًا آمنًا له ولا يريد الخروج ويحرِّرني من أسرِه. تمكنت أخيرًا من مقابلة الطبيب.

بدأتُ الحديث مباشرة:

- مرحبًا، ما قادر أبول.

سألني الطبيب:

- من متين؟

- تقريبا أربع ساعات.

- خد الورقة دي، وامشي الصيدلية إن شاء الله يحصل خير.. مع السلامة.

خرجت حاملًا روشتة وركضت إلى الصيدلية. في ذلك اليوم، لم تكن صيدلية الجامعة تستقبل العملاء، لذلك اضطررت إلى الذهاب إلى صيدلية أخرى تبعد كيلو مترًا عن الجامعة.. كنت أركض نحوها في وضح النهار بكل ما أملك من قوة، والعابرون ينظرون إليَّ بفضولٍ. ولأنني لم أكن ارتدي ثيابًا رياضية، فلم يكن الأمر مفهومًا لهم.. بينما كنت أركض، سمعت أحدًا ينادي اسمي، التفت لأجد إحدى المعجبات، ولأن الوقت لم يكن يسمح بمثل هذه الأشياء (معجبات، حسناوات)، كنت أصارع من أجل البقاء. لذلك لم أهتم لندائها فواصلت الركض. عندما وصلت إلى الصيدلية، وجدت صفًّا آخر. وقفت أنتظر والعرق يتصَّبب من جسدي. وبدأ قضيبي يؤلمني. لم أنتظر طويلًا. فبعد دقيقتين تمكَّنت من الوقوف أمام الصيدلانية.

سألتها مشيرًا إلى الروشتة:

- عندكم الدواء دا؟

قالت:

- انتظر، دعني أتأكد.

من حسن الحظ، جاءت الصيدلانية بالدواء المطلوب. دفعتُ الثمن وخرجت. عند المخرج، تناولت الدواء. بعد ذلك دخلت إلى السوبرماركت بالقرب من الصيدلية، اشتريت ماءً. بينما كنت أمشي صوب الغرفة، أخذتُ أشرب وأشرب مرارًا ومن دون توقف، حتى شعرت بوخز ألمٍ حاد في قضيبي، فالبول لا يزال يسبح في داخلي عبثًا يحاول أن يجد منفذًا للخروج. وعندما وصلت إلى الغرفة، لم يتبقَّ من الماءِ إلَّا القليل، ولكن بطني استحال إلى حوض مليء بالبول. لم يأتِ الدواء بنتيجة، بل ازداد الأمر تعقيدًا، فأخذ العرق يتصبَّب من كل المسامات. وفي هذه اللحظة العصيبة، اتصلت طالبًا الإسعاف. عندما أتى الطبي وفحصني، لم يتردد لحظة في الاتصال بأقرب مستشفى قادر على استقبال مريض يحتاج إلى عناية مركزة.

قال الطبيب موبخًا:

- أنت زول غريب، لكن مالك طلبت الإسعاف هسى؟ كان تعمل الحاجة دي قبل ساعات.\

أجبت:

- كنت قايل الموضوع دا ساهل عشان كدا ما اتصلت.

قال الطبيب:

- شكلك قنعان من الحياة دي.. لكن ما تخاف، حتعيش لسه.

خرجنا من السكن واتجهنا إلى المستشفى. كانت هذه أول مرة تقلني فيها سيارة إسعاف. صفارات الإنذار تعمل، وأنا مُستلقٍ على السرير أطلب من السائق أن يزيد من سرعة السيارة، ولكنه لم يعرني اهتمامًا. عندما وصلنا كنت بين الموت والحياة، أرى ولا أرى، أشعر ولا أشعر، أسمع ولا أسمع. لا أتذكر بالضبط ما الذي حدث بعد ذلك. ما أعرفه أن الأطباء فعلوا كل شيء لإنقاذ حياتي. استيقظت في الصباح الباكر، وأنا في عنبر المستشفى. كتبت لزينة بما حدث لي. لم أكن أرغب في زيارة من أحد، تجمد شعوري بأي شيء. جاء الطبيب وحدَّثني أن الوضع مُستقر وسأخرج من المستشفى في غضون أيام. لم تكن لدي رغبة في الخروج من المستشفى ولا البقاء فيه. لم أكن أشعر بالحياة. في نهار ذلك اليوم، جاءت إليَّ زينة زائرة تحمل باقة ورد، ولم تكن ميراندا برفقتها هذه المرة. لم تبقَ طويلًا، وضعت باقة الورد، تمنَّت لي الصحة والعافية، وأهدتني برتقالتين ثم قالت: سأزورك مجدَّدًا. بعد مغادرتها، بدأت أنظر إلى باقة الورد، وتذكَّرت أول مرة في حياتي أستقبل باقة ورد هدية. ثم أن إطلالة زينة غيَّرت كل شيء: نقاء روحها، ابتسامتها، العطر الذي كان يفوح منها.. عاد إليَّ الإحساس بالحياة، رغبتي في العيش والحب. كانت تأتي يوميًّا، تسأل عن صحتي. وبعد كل زيارة لها، كُنت أشعر بتحسُّنٍ كبير، ورغبة أكبر في الخروج من المستشفى. كانت تقول: عندما تخرج متعافيًا، سنتجوَّل مجدَّدًا. نزور حدائقنا الجميلة ولن تصاب بوعكة صحية أخرى. بعد يومين، جاء الطبيب بالخبر السعيد، قائلًا:

- الظاهر، مرضت عشان الجو البارد، ياخ البس زي الناس ملابس دافية. دي ما إفريقيا.

سألته عن تكلفة العلاج، فأخبرني أن العلاج مجانًا للمرضى الذين يأتون عبر سيارة الإسعاف. خرجت من المستشفى وقد تعافيت تمامًا.

ومنـذ ذلـك الحـين لم أعـانِ المـرض، كنـت أفعـل كل شيء يقينـي تجربـة أخـرى مماثلـة. وبعـد مـرور أعـوام سـأدرك أننـي قـد وقعـت في حبهـا في اللحظـة التـي أهدتنـي باقـة الـورد. أجمـل الأشـياء وأعظمهـا هـي تلـك التفاصيـل الصغـيرة الرائعـة التـي تحـدث في حياتنـا يوميًّـا.

في اليـوم التـالي، كنـت ذاهبًـا إلى الكليـة عندمـا التقيـت ميرانـدا. كانـت ترتـدي بنطـالًا أسـود وقميصًـا أزرق. عانقتنـي ثـم قالـت:

- والله أنـا سـمعت بمرضـك، لكـن كنـت مشـغولة مـع الولـد عشـان كدا مـا قـدرت أزورك. سـامحني.

قلت لها:

- يا زولة، يا زولة، معقولة لكن، أنا مقدر والله.

قالت:

- شكرا على الفهم دا.

ثـم أهدتنـي ابتسـامة وداع وذهبـت إلى المحـاضرة. لم يكـن بإمـكاني معاتبـة ميرانـدا عـلى عـدم زيـارتي، لأنهـا بعـد أن اكتشـفت الحمـل، طلـب أرتيـوم منهـا أن تجهـض الطفـل قائـلًا:

- أنـا مـا جاهـز هـسى، لازم تنـزلي الطفـل دا، قومـي ارحـكي الصيدليـة عشـان نشـتري نخلـص مـن الموضـوع دا.

كان رد فعلـه بمنزلـة صدمـة كبـيرة، لأنهـا كانـت تحبـه، وكانـت تخطـط أن تعيـش معـه تحـت سـقف واحـد العمـر كلـه، لذلـك لم تفهـم عـدم سـعادته. قالـت لـه:

- والله ما أنزل الطفل، دا لو حصل شنو داك ذاتو، إذا أنت ما عايزه أنا بربي براي.

عادت ميراندا إلى السكن الجامعي والحزن يخيم عليها، فهي لم تترك شيئًا خلفها، ودَّعت الكل هناك، أسرتها، أصدقاءها والعمل. والآن في ضفاف الجليد، هي وكائن حي صغير في رحمها. بعد ستة أشهر من تلك الليلة، جاء أرتيوم إلى السكن الجامعي باحثًا عنها. لم يجدها في الغرفة، ولم يستطع الاتصال بها لأنها حظرته من حياتها بكل ما تحمل الكلمة من معنى. ظل عند مدخل الجامعة أيامًا، يأتي من الصباح الباكر ويبقى حتى المساء، وعندما لا يجدها يعود إلى بيته. حيث كانت أمه قد عادت من القرية وحكى لها قصته مع ميراندا، لذلك قالت له:

- اطلع من البيت دا وما تجي إلَّا معاك البت وحفيدي.

ذات يوم بديع، عندما كانت ميراندا عائدة بعد مقابلة طبيب النساء والتوليد، رأته جالسًا في الرصيف، اقتربت منه، ثم لسعته بيدها في خده الأيسر. قالت له:

- داير شنو؟ الجابك هنا شنو؟ أنا بعدما نسيتك وبديت أعيش حياتي بي هدوء تاني ظهرت لي عشان تعكر مزاجي وتجننّي؟

كان أرتيوم في حيرة من أمره، لأنه لم يتعرض من قبل لضربة مؤلمة في خده، ولم يكن يعرف سوى ميراندا الحنونة، الجميلة ونارها الحارقة ليلًا. قال:

- والله الحاجة، طردتني من البيت، بعدما حكيت ليها قصتي معاك، عشان كدا لازم تمشي معاي البيت، أنا لي أسبوع ما نايم كويس،

بقيف هنا أكثر من ناس المرور.

رفضت أن تذهب معه، لأنها لم تكن تريد أن تعود من أجل أمه.

كان ذلك في فصل الصيف، عندما أخبرتني زينة بأنها لن تكمل الجامعة هنا بهذه الأرض الباردة، ستغادر إلى البلاد الحارة، إلى خط الاستواء، حيثُ إفريقيا وغاباتها. وأردفت قائلة: بعد شهر من الآن سأرحل يا علي. بعد كتابتي لنص «البنت العصفورة»، كنت أفكر في كيفية تقديمها للفتاة الشقية، العنيدة، هذه الحسناء البربرية المُترعة بنكهة إفريقية لتكون مفاجأة جميلة.. قلت لنفسي، إذًا هذا هو الحدث المناسب لتقديم الهدية وأشياء أخرى أريد أن أفعلها معها. حتى تلك اللحظة، كنا فقط على مشارف الوقوع في الحب، وليس ذلك الحب النابع من الصداقة وحنانها، وإنما علاقة حب بالمعنى الحرفي للكلمة. كتبتُ «البنت العصفورة» على ورق مقوّى يستخدم في تزين الورود، بخط عريض. مع أن خطي لم يكن جميلًا. فإن التوتر اللطيف جعلني أخرجة لوحة في غاية الجمال. ربطت الورق بشريط وردي. ثم وضعته في الغرفة وتحديدًا بين الكتب. كانت مكتبتي بالغرفة التي أسكن فيها تحتوي على عدد من الكتب في الآداب، الفلسفة، الدين والأعمال غير الكاملة للشاعر محمود درويش، إضافةً إلى رواية «الحرب والسلام». شعرت بأن قصيدتي لا تقل قيمةً عن أعمال هؤلاء الأدباء والعلماء، لأن النص الذي كتبته خرج من أعماقي محُمَّلًا باعترافات الحب. وفيه وصف وكشف لمواطن جمال عالم زينة. ألا يستحق هذا الاحتفاء به على المستوى الشخصي على الأقل؟ اشتريت وردة حمراء واحدة ووضعتها بين الكتب، بالقرب من «البنت العصفورة» لأعبِّر عن حبي لا للنص، بل للحسناء التي كتبت النص من أجلها أو بإلهام منها. لا أدري إن كان محمود درويش قادرًا على البقاء مع أنثى واحدة مدة سبع

سـنوات بالرغْم من قدرتـه الفائقـة عـلى كتابـة الشـعر عـن الحـب وعـن النسـاء؟ لكننـي فعلـت ذلـك حتـى الآن. لا أسـتطيع أن أتحدث عـن قـدرة مؤلـف «الحـرب والسـلام» لأنـه مـات عـن عمـر يناهـز التسـعين وبقـي مـع زوجـة واحـدة طـوال حياتـه، فهـو إنسـان مـن زمـن القيـم السـامية، لذلـك سـيكون دراميًّـا المقارنـة بـين هـذا وذاك. تبقَّى أسـبوعان من سـفرها، وأنـا أُفكِّـر في سـيناريوهات اللقـاء الأخـير. أحـد تلـك السـيناريوهات هـو أن أدعوهـا إلى العشـاء في أحـد المطاعـم في وسـط المدينـة، عـلى أن يكـون المطعـم مختلفًـا عـن ذلـك الـذي اعتـدت ارتيـاده، فجـاء إلى ذهنـي مطعـم مكسـيكي يقـدم وجبـات لاتينيـة طيبة مثـل «الفاخيتـاس» باللحـم أو الفراخ، وبـه أجـواء رومانسـية وموسـيقى راقصـة. لم أتـردد في اعتـماد هـذا الخيـار، لأني أردت أن أتـرك انطباعًـا ممتـازًا لا يمكـن نسـيانه، كأن تتـذوَّق حبيبتـي «صديقتـي» طعامًـا مكسـيكيًّا جديـدًا، وتسـتمتّع بالأجـواء الرائعـة تلـك ثـم أدعوهـا لـكي نرقُـص معًـا، ولـكي أضمها قريبًـا إلى قلبـي مُتحسِّسًـا صدرهـا وبرتقالهـا اليانـع، وهـي تهمـس في أذني. قـد يعـترف كُلٌّ منـا للآخـر بالحـب، ولسـوف نخـرج مـن المطعـم عنـد منتصـف الليـل، وسـأطلب منهـا أن تـأتي معـي إلى غرفتـي. لكننـي تذكَّـرت أن أسرتهـا هنـا، وأيضًـا والدهـا الـذي لا ينـام قبـل أن يتيقَّـن مـن وجـود ابنتـه الوحيـدة بالبيـت. سـأغيِّر خططـي، لــن أدعوهــا إلى غرفتــي البائســة تلـك. فقط سـأقدم لها تلـك القصيـدة وهـي قـد تطلـب منـي قراءتهـا. إذًا، سـأقرأها بـكل مـا أكنـه لهـا مـن حـب، وبالموسـيقى نفسـها التـي تَتَرقـرَق مـن داخـلي عندمـا أذكرهـا أو أراهـا، أو أتنشـق عبـق جسـدها. سـتفرح كثـيرًا بسـماع قصيـدة عنهـا، قصيـدة يقرأهـا لهـا هــذا الرجـل الــذي يقـف أمامهـا لأنهـا بمنزلة الاعـتراف بالوقـوع في شِرَاك الحـب. بعـد ذلـك سـأطلب التاكـسي وسـأمضي معهـا حتـى البوابـة الخارجيـة لمنزلهـا. لـن أتمنـى لهـا ليلـة هادئـة ولا حتـى أحلامًـا سـعيدة: فقـط سـأقبلها في صمـت ليكـون «ختامـهُ مسـكٌ».

كان ذلك يوافق يوم الأربعاء، أجريت اتصالين مُهمَّين، الأول بالمطعم لأحجز طاولة، والآخر كان بصديقتي «حبيبتي» لأخبرها برغبتي في تناول وجبة العشاء معًا. كان رد المطعم إيجابيًّا: «مرحبًا بكم في مطعمنا، هل قلت إنك تريد حجز طاولة لشخصين ليوم الجمعة، ليكون الحضور عند السابعة مساء؟» فأكدت كلامي، حينها قالت منسقة المطعم: «سنكون سعداء برؤيتكم، إلى اللقاء» شكرتها ثم أنهيت المكالمة. أما حبيبتي، ففوجئت بالاتصال وبالدعوة، قالت إن والدها يدعوها إلى الخروج معها يوم الجمعة لشراء هدايا ما قبل السفر وبعض الأغراض الشخصية الأخرى. لذلك لا تستطع تناول العشاء معي، واقترحت عليَّ أن نلتقي في يوم الخميس. ولما كان الوقت يمضي ولم تكن لديَّ خيارات أخرى، والقصيدة ترفرف بأجنحتها في إشارة إلى رغبتها في الرحيل من هذه المكتبة، فوافقت. في اليوم التالي كنت بداخل غرفتي حتى الرابعة، لم يكن هناك خبر يشير إلى وصولها. تأخر الوقت، هممت بالاتصال بها حتى رن هاتفي: «آلو، هل أنت بالغرفة؟ أنا الآن بالسكن الجامعي وأقف عند الاستقبال.. آسفة لعدم الحضور في الموعد المُحدَّد». طلبت منها أن تنتظرني حيث هي، لآتي لمقابلتها ثم نصعد معًا إلى الطابق العلوي حيث توجد غرفتي. ذهبت، التقيتها، عانقتها، دعوتها للصعود. فقالت إنها على عَجَلَة من أمرها، عليها أن تعود إلى البيت الآن. طلبت منها أن تنتظر بالاستقبال قليلًا، ركضت إلى غرفتي، أخذت «البنت العصفورة» وهدية أخرى صغيرة «كوب للقهوة» عليه اسمها، ثم عدت مسرعًا، قدمت لها هذه الأشياء. ولأنها على عَجَلَة من أمرها، ألقت نَظْرَة سريعة على الهدايا ثم عانقتني تعبيرًا عن شكرها. ثم قالت: «ربما سنلتقي مجددًا قبل السفر، سأطلعك على الزمن لاحقًا، مع السلامة». ثم هرولت. لم أستطع أن أخبرها بحجز طاولة للعشاء، واسم المطعم وعنوانه، والوجبات اللذيذة «الفاخيتاس المكسيكي»، والأهم من

ذلـك الطقـس الحميـم الـذي كان يمكـن الاسـتمتاع بـه. لم أخبرهـا، ليـس لعـدم رغبتـي في ذلـك، بـل لأنهـا لم تكـن مُسـتعدة نفسـيًّا وذهنيًّـا لسـماع وتخيُّـل مـا كنـت سـأقوله، فهـي كانـت عـلى عجـل.

عـدت إلى غرفتـي والحـزن يخيـم عـليَّ، ولكـن عندمـا تذكـرت ميرانـدا وقدرتهـا عـلى تجـاوز الصعـاب زادت عزيمتـي في القتـال حتـى الرمـق الأخير. عندمـا رفضـت ميرانـدا في ذلـك اليـوم العـودة معـه، عـاد أرتيـوم إلى البيـت عنـد منتصـف الليـل. دخـل إلى الغرفـة بهـدوء حتـى لا تشـعر أمـه بقدومـه. ومـا إن وضـع معطفـه الثقيـل، سـمع صوتًـا:

- مالـك جيـت بـراك، ويـن حفيـدي وأمهـا؟ مـا قلـت ليـك مـا تجـي براك؟

لم يعرف ماذا يقول، اقترب منها، أخذ نفسًا عميقًا ثم قال:

- واللـه يـا حاجـة أنـا لقيـت البـت، واتكلمـت معاهـا، لكـن رفضـت تجي .

حينها سألته أمه:

- قلت ليها شنو أنت؟

- كيـف قلـت ليهـا شـنو يـا أمـي؟ قلـت ليهـا لازم ترجعـي معـاي، وأمـي عايـزة تشـوفك.

أدركـت أمـه أن الولـد لم يتـصرف بحكمـة، لذلـك أوصتـه أن يذهـب في اليـوم التـالي ويقابلهـا ويعتـذر لهـا، ثـم يعـترف بذنبـه وبحبـه ثـم يدعـودهـا إلى البيـت. نجحـت خطـة الوالـدة، ورحلـت ميرانـدا ببطنهـا الكبـير إلى منـزل أرتيـوم. كان المنـزل يتألـف مـن طابقـين، في كل دور كانـت توجـد شـقة

تتكون من ثلاث غرف. أصبحت ميراندا تعيش في الدور الثاني، أما أرتيوم وأمه بالدور الأول. بعد شهور أنجبت طفلًا مجعد الشعر. ظلت بالبيت عامًا من الزمن تعتني بطفلها ثم عادت إلى الجامعة. لم يحمل الابن ابنه بين ذراعيه ولو مرة واحدة، ولم يضاجع حبيبته منذ أن حملت. رغم أنها كانت تنتظر حنانه، تحتاج إلى حضن رجل يخفف عنها عناء الحياة، ولكنه لم يكن يرى مستقبلًا مشتركًا لهما.. حتى وجودها بالبيت مع الطفل كان تلبية لرغبة أمه التي كانت فرحة بحفيدها. كانت أمه تعتني بالطفل الذي بلغ عامه الأول، لذلك استطاعت العودة إلى الجامعة. لم تكن ميراندا تبقى بالكلية طويلًا، تعود إلى فلذة كبدها بعد نهاية اليوم الدراسي مباشرة، تأخذه إلى جولة المساء، تطعمه وجبة العشاء ثم يخلد إلى النوم. كانت تنجز الأعمال المنزلية عندما يكون الطفل نائمًا، تغسل الثياب بما في ذلك ملابس زوجها، تنظف البيت ثم تجلس للقراءة والإعداد لدروس الغد.

أما زينة فكانت تستشعر طريقها للمستقبل دون أي ضغوطات من الأسرة، ولم تكن قد دخلت في الحياة الزوجية بعد، لذلك لا تعرف مشكلات من هذا النوع. لم نلتقِ بعد ذلك اليوم حتى سافرت بعيدًا إلى إفريقيا وتركتني في حضن الأمل بلقاء جديد. أين ومتى سيكون هذا اللقاء؟ لا أحد يعرف.

بعد أن أخفقت في تحقيق أمنيتي بالوداع الجميل، سافرت صديقتي ــ حبيبتي إلى بلدها دون أن تتذوق طعم «الفاخيتاس» المكسيكي، ولم أحظَ أنا بالرقص معها على إيقاع الموسيقى اللاتينية. رحلت إلى إفريقيا وتركتني في إمبراطورية الجليد لا أحد يحميني من شدة البرد سوى «كوت» كنت قد اشتريته من سوق شعبية. لم تكن تعرف زينة بأنها قد أخذت قلبي معها ورحلت وسلبتني مصدر إلهامي في كتابة الشعر والذي لم يعد حاضرًا بغيابها. إذ لم أستطع كتابة

قصيدة أخرى. كلانا لم يعرف مصير حبنا الذي كان أخذ ينمو بسرعة جنونية، ولم نكن ندري إذا كانت هناك فرص للقاء آخر. لكن آخر من يموت هو الأمل. عندما حطت الطائرة في أرض الصحراء، كانت حبيبتي تتأمل في سيناريوهات الوجود هناك، لا فرص أخرى للعودة إلى ضفاف الجليد. كان ينبغي عليَّ أن أتكيَّف وأبدأ صفحة جديدة من حياتي، هكذا كان لسان حالها. بعد مرور يومين من عودتها، بعثت إليَّ رسالة تخبرني فيها بوصولها، وعن الطقس هناك، سائلة عن أحوالي إذا كنت لا أزال بخير. بعدها، انقطع الوصل بيننا مدة لا تقل عن نصف العام. كانت تحاول أن تتأقلم في الوضع الجديد بعد غياب دام ثلاث سنوات أو ينقص قليلًا. ولأن الإنسان يحتاج إلى التأقلُّم ليس فقط مع الطقس، ولكن أيضا مع البيئة المحيطة بشكل كامل بما في ذلك أصدقاء جدد، ومؤسسات جديدة، وأحباب جدد. ولأنني كنت أقرب الشبان إلى قلبها لكنني الآن بعيد، فأرادت أن تفسح المجال لتجارب جديدة. بالرغْم من ذلك، استمرت رسائلي، كنت أكتب لها مرة أو اثنين في كل أسبوع، ومع تواصل غياب الرد على الرسائل، حدثني قلبي بأن أتوقف مدة ما عن التفكير فيها، لا لأنساها، بل لأعطيها الحق في العيش بهدوء، ولأن الحب من مسافات بعيد يعذِّب العشَّاق أكثر مما يسعد. فأنصتُّ لقلبي، ولم أعد أبعث برسائل جديدة.

كان كلانا يحاول خوض تجارب عاطفية جديدة، على الرغْم من أنني لم أعترف لها بحبي بشكل صريح قبل أو بعد سفرها وهي أيضا لم تفعل أيضًا، فإننا كنا نشعر في صميم قلبينا بالحب. حاولت هي أن تخرج إلى العشاء مع صديق قديم لتستعيد ذكريات الماضي وتعطيه مجالًا للدخول إلى عوالم قلبها واكتشافها. وكانت تتجول مع الولد الذي كان يحبها في المدرسة عندما كانا صغيرين لترى إن كان الحب لا يزال باقيًا، وكانت تخرج لتناول كوب من القهوة مع ابن

الجيران الـذي سـافر هـو الآخـر إلى الخـارج وعـاد للتـو، ليتبـادلا تجاربهـما في البـلاد البعيـدة ويبحثـان معًـا عـن آفـاق التواصـل والقواسـم المشـتركة. أمـا أنـا فكنـت قـد أعـدت مراجعـة دفاتـري العاطفيـة القديمـة فلـم أجـد شـيئًا، لذلك كنـت أخـرج إلى الصيـد في إجـازة نهاية الأسـبوع، عـلى أمـل أن أجـد حسـناء تحمـل ملامـح زينـة، أو أحمـل أنـا ملامـح حبيبهـا القديـم فتدعـوني لمشـاهدة فليـم «العشـق الأبدي» بإحـدى دور السـينما، وتطلـب منـي أن أدعوهـا إلى العشـاء في أحـد المطاعـم الفخمـة فأعتـذر لهـا عـن ذلـك بحجـة أننـي لا أدعـو إلى العشـاء في اللقـاء الأول، ولكـن السـبب الحقيقـي هـو أننـي لا أملـك في ذلـك الوقـت الكثـير مـن المـال. أو ربمـا تعـترف لي زميلـة الدراسـة بالإعجـاب فأدعوهـا إلى رحلـة شـواء في الغابـة التـي تقـع بالقـرب مـن جامعتنـا.

كلـما كنـت أخـرج مـع فتـاة جديـدة، لم أكـن أسـتطيع التوقـف عـن المقارنـة، مقارنـة جـمال صديقتـي ـــ حبيبتـي البعيـدة، ذكاؤهـا، إحساسـها العـالي بالفكاهـة، حياؤهـا الخفـي عندمـا يكـون الـكلام عـن مفاتـن النسـاء، فلـم أكـن أجـد خصـالًا كثـيرة مشـتركة بـين الفتيـات الجـدد وزينـة. هـل يبحـث الإنسـان دائمًـا عـن ملامـح حبـه الأول في وجـوه الآخريـن؟ هـل كانـت حبيبتـي أيضًـا تحـاول أن تخـدع نفسـها بأنهـا سـعيدة، وأن وقتهـا كان يمـضي برضـا واسـتمتاع كامليـن، وأن قراراهـا بوقـف التواصـل معـي كان صائبًـا؟ كانـت تخـدع نفسـها، لأن هـذا الإحسـاس بالرضـا والسـعادة لـن يسـتمر طويـلًا، لأن أنـا مـن كان أكـثر عمقًـا في قلبهـا كـما كانـت هـي الأكـثر تجـذّرًا في دواخـلي. لم أكـن أغـار كثـيرًا بسـبب خروجهـا لقضـاء وقـت مـع شـبان آخريـن، لأن التجربـة تعنـي ظهـور نمـوذج شـخص آخـر جديـد، وهـذا مـا يجعلهـا تتـورّط في المقارنـة بينـي وبـين الشـبان الجـدد، وسـأكون أنـا المنتـصر دائمًـا وأبـدًا.

لم يكـن رحيـل زينـة مؤلمًـا بالنسـبة إليَّ فحسـب، بـل لميرانـدا أيضـا. إذ

إنهـا كانـت تشـاركها الهمـوم، تطلـب منهـا النصـح في كثـير مـن القضايـا، خاصـة في تلـك التـي تتعلـق بزوجهـا. كانـت ميرانـدا تفضـل المحادثـة المبـاشرة لتعبر فيهـا عـن أحاسيسـها. بينـما كنـت في جولـة للتسـوق، تلقيـت رسـالة: «عـلي، ممكـن نتلاقـى لمـن تكـون فـاضي؟ محتاجـة أتكلـم معـاك». التقيتهـا في اليـوم التـالي في محطـة البـص القريـب مـن منزلهـا. ألقـت عـليَّ التحيـة ثـم قالـت:

- سعيدة بجيِّتك، وآسفة على إزعاجك كمان.

قلت لها:

- مـا في داعـي للأسـف، أنـا أصـلًا كنـت قاعـد في البيـت ومـا عنـدي برنامـج، عشـان كـدا كويـس أنـو اتلاقينـا.

فرحـت بكلامـي هـذا، ثـم ركبنـا الحافلـة. كانـت الحافلـة شـبه خاليـة مـن الـركاب، جلسـت في المقاعـد الخلفيـة، اختـارت هـي النافـذة وأنـا بجوارهـا.

سألتها:

- نحن ماشيين وين؟

- نلـف بـس، لمـن البـص يقـف آخـر محطـة، نركـب بـص تـاني ونرجـع.

بـدا الأمـر غريبًـا بالنسـبة إليَّ. كنـت قـد التقيـت أناسًـا كـثُرًا منـذ أن أصبحـت شـابًّا، لكـن لم يطلـب منـي أحـد ولـو مـرة واحـدة أن نلتقـي عنـد محطـة الحافـلات أو القطـار. تحركـت الحافلـة، وبـدأت ميرانـدا تقـول:

- أنـا طلبـت أقابلـك بـس عشـان أتكلـم، مـا بالـضرورة تدينـي إجابـات، بـس اسـمعني كويـس. أنـا لي سـنتين وراجـلي مـا قاعـد يقـرِّب منـي، يتعامـل معـاي كأني مـا موجـودة، مـا أخـد الطفـل في يـده ولا مـرة. صحيـح هـو قاعـد يدينـي مصاريـف الأكل والـشراب وبدفـع لي رسـوم الجامعـة، لكـن أنـا مـا سـعيدة معـاه.

سألتها:

- طيب، أنتِ قاعدة معاه عشان الولد؟ ولا الرسوم الدراسية؟
- لا لا، ما عشان كدا.. أنا قاعدة معاه لأني عايزة أكتشفه للآخر.

قلت عندما لم أفهم ما تقصدها:

- يعني كيف؟

قالت:

- يعنـي نحـن بدينـا نتواعـد في بلـدي، وبعـداك أنـا جيـت وراه لأنـه اتفقنـا نكـون مـع بعـض. هـو قـال لي، إذا أنـا جـادة معـاه، ممكـن أثبـت الحاجـة دي. أثبـت ليـه لمـن خليـت كلـه شيء هنـاك وجيـت، لكـن بعـد الحمـل تغـير كل شيء. أنـا في رأيـي عشـان تكتشـف إنسـان قاعـد تحبـه بتكـون محتـاج لعمـر كامـل. فأنـا مـا اكتشـفته كويـس، عشـان كـدا مـا عايـزة أتخـلى عنـه.

كانـت ميرانـدا تنظـر إلى البنايـات الشـاهقة والمـارة عـبر النافـذة وتتحـدث. تتوقـف الحافلـة في المحطـات التـي لا تنتهـي، ينزل منها شـخصان وتركـب فتـاة واحـدة. أمـا أنـا فكنـت أراقـب كل هـذا وأسـتمع لهـا. قالـت

إنها تحتاج إلى عام كامل لتتعرَّف رائحة جسد زوجها، وعامين لتحفظ عدد الشامات في جسده، أما سلوكه فتحتاج إلى سنوات العمر كله، لأن الإنسان يُظهر في أي موقف في الحياة سلوكًا مختلفًا. إضافة إلى ذلك، متى نسافر معًا حول العالم نكتشف معًا أماكن لم تطأها قدم بعد، ثم متى نستلقي معًا على شواطئ المحيطات وننظر إلى ابننا يلعب بالماء.

سألتها:

- طيب ممكن، تعملي الحاجات دي مع راجل تاني، ليه الإصرار على الراجل دا بس؟

قالت:

- أنا ما شايفة معنى أنه اتخلى منه، وأبحث عن رجل آخر.. هو أب لابني، وهو الرجل الذي أحبه، عشان كدا بدلًا عن البحث، أحسن أتمسك بيه احتمال يتغير. أنا مستغربة، الناس كيف تطلق بسرعة كدا، هو الحياة دي قصيرة قدر شنو، عشان تخلي حبيبك، وحتى قبل ما تعرفه كويس، تمشي تفتش في زول تاني. ما شايفة منطق في الموضوع دا. صحيح مرات الناس بيشوفوني مجنونة لمن أقول الكلام دا، لكن أنا مقتنعة أنه راجل واحد يكفيني العمر كله.

- لغاية متين مستعدة تنتظري، عشان الراجل دا ينعدل؟

- بنتظر بلا حدود.. لغاية الآن هو ما عنده مَرَة تانية، معناته في أمل كبير يرجع لي، بعداك أمه بتحب الولد شديد عشان كدا.. أنت عارف هو بطلع الشغل وبجي راجع بعزف في البيانو الليل كله، أنا بخلص كل واجباتي وبنوم، هو يكون قاعد يعزف ويعزف.

- ما قاعدة تفكري ترجعي بلدك؟ تشيلي ولدك وتمشي لأهل وتبدي حياة جديدة هناك؟

ضحكت من سؤالي هذا، وقالت:

- أنت ما سمعتني كويس، أنا قلت ليك بس اسمعني ما ضروري تديني إجابات. أنا حياتي ما مربوطة بمكان، بل أهم شيء أكون إنسانة حقيقية، أواجه مشكلاتي، أعيش الحياة، أقيم أسرتي والحاجات العندي.

وصلنا المحطة الأخيرة وعدنا مرة أخرى حيث بدأت رحلتنا. شكرتني على سماعي لها ثم افترقنا.

ذات مساء شتوي بارد، بعد مرور نصف عام من رحيلها، تلقّيت مكالمة منها. في بادئ الأمر سألتني عن صحتي وأحوالي، قلت إنني بخير وسعيد جدًّا بهذه المكالمة واعترفت لها بأنني أفتقدها كثيرًا. فكانت المفاجأة: «أريد أن أكون زوجتك، نعيش معًا تحت كل الظروف حتى إذا متنا سنموت في يوم واحد». لم أفقد السيطرة على نفسي مع أنَّ وقع الكلمات كان يمكن أن يُزلزل نفسي، قلت لها إن هذه أمنيتي أيضًا وسوف نحققها عاجلًا أم آجلًا. كانت تلك المكالمة بمنزلة الاعتراف الصريح بالحب. أدركنا أن المسافات لا تستطيع أن تهدم الشعور الحقيقي والصادق، بل أحيانًا تزيده عمقًا وشفافيةً، كمثل الذي يكون داخل البحر ويخرج منه ليحس بالجمال الحقيقي للأمواج التي تتراقص.

إن الإنسان في كثير من الأحيان لا يشعر بقيمة الأشياء إلا عندما يراها من على البعد أو يفقدها. ثلاث سنوات كنا في مدينة واحدة، جامعة واحدة، ومع ذلك لم نعترف لبعضنا بعضًا صراحةً بالحب ولم نُخطِّط لبناء مستقبلنا معًا. لم تستمر تلك المكالمة، مكالمة الاعتراف ال

عظيـم طويـلًا، لأن الهـدف كان واضحًا، والاعـتراف كان صريحًـا أيضًا. فقـط تبقَّـى تحديـد المـدة الزمنيـة لتحقيـق الحلـم. بـدأت أفكـر في خيـارات اللقاء، الزواج، بنـاء أسرة معًـا. هـل أدعوهـا إلى المجـيء إلى ضفـاف الجليـد لـكي نعيـشَ معًـا حيـاةً واحـدةً؟ لا أظـن أنـه الخيـار الأفضـل لأنهـا لا تحـب المنـاخ البـارد. هـل أذهـب إلى موطنهـا لنعيـش هنـاك بجانـب أهلهـا وذكريـات الطفولـة؟ لكـن مـاذا سـأفعل هنـاك؟ ليـس عـلى الحـب وحـده تُبنـى الأسر، لا بـدَّ لي أن أجـد عمـلًا يوفِّـر لنـا احتياجاتنـا الأساسـية. قلـتُ لنفـسي: إذًا، علينـا أن نجـد خيـارًا ثالثًـا يتـماشى وأمنياتنا المشـتركة؛ مثـل أن نسـافر إلى دولـة أخـرى لنبـدأ صفحـة جديـدة مـن حياتنـا هنـاك. لم أسـتطع تحديـد دولـة بعينهـا، قـررت أن أتـرك هـذا الأمـر للزمن، قـادم الأيـام سُـتحدِّد مـكان عيشـنا المسـتقبلي. بالرغـم مـن أننـي كنـت أنـوي دراسـة الدكتـوراه، فإننـي قـررت أن أنـال درجـة الدكتـوراه في الحـب، في تكويـن أسرة مـع الحبيبـة، لأن النجـاح في هـذا المجـال يعنـي النجـاح في كل المجـالات الأخـرى والنتيجـة النهائيـة لهـذا النجـاح هـي السـعادة. أليسـت السـعادة مـا نبحـث عنـه طـول الوقـت؟ منـذ تلـك الليلـة والأيـام التاليـة أصبحـت حيـاتي ذات طعـم ونكهـة مختلفتـين. الهـدف الأسـاسي، إذًا، أصبـح واضحًـا. اللوحـة التـي كنـت أرسـمها قـد اكتملـت معالمهـا الآن. تبقَّـى فقـط العمـل المسـتمر بالتركيـز عـلى الحلـم حتـى تحقيقـه. كانـت زينـة تراسـلني مـن حـين إلى آخـر، وأنـا أبادلهـا الرسـائل بالقـدر نفسـه أو أكـثر قليـلًا. كنـا أحيانًـا نبحـث عـن صورنـا القديـم ونتبادلهـا، نمـزح في أشـياء مختلفـة تبـدو تافهـة لكنهـا كانـت عزيـزة بالنسـبة إلى عشَّـاق مثلنـا. ثـم تحوَّلـت مكالمتنـا مـن صوتيـة إلى مكالمـة عـبر الفيديـو. كُنـتُ أتحـدث إليهـا وأرى صدرهـا الشـامخ وشـفتيها المثيرتـين. لكـن أكـثر مـا كان يشـدُّني هـو غابـة شـعرها المُجعَّـد المُشـتعلة فـوق رأسـها. كُنـت أودُّ لـو أتمكـن مـن مداعبـة شـعرها وأن أتنشـق عطـر جسـدها.

كان فصل الخريف قد حلَّ والأمطار بدأت تنهمر مدرارًا على الجميع بالتساوي، حيث غيوم المدينة تتجه إلى إفريقيا محمَّلة برسائلي وأشواقي، وغيوم أخرى تأتي من خط الاستواء تحمل إليَّ قُبل وأحضان حبيبتي، وبينما أرتشف القبلات ممزوجةً بقطرات المطر ورذاذه. استحالت الحياة إلى نعيم، يومًا بعد يوم أغوص عميقًا في صحراء حبيبتي، وهي تسبح بين ضفافي. سألتها ذات مرة عن الموعد والمكان المناسبين للقائنا المرتقب، فقالت أغسطس هو شهري المفضل، ففي أغسطس كانت قد رحلت إلى موطنها. فهمت الدرس، سنلتقي إذن، في شهر أغسطس ولكن في أي عام لا أعرف، فهي لم تقل. ربما تركت الأمر لي، لكي أختار العام المناسب. أما بخصوص المكان، فكندا كانت هي الخيار المحبب بالنسبة إليها. لم أرفض هذا المقترح، لكن كانت لي شكوك تتعلق في إمكانية تحقيق هذا الحلم في المستقبل القريب، لأن شروط السفر إلى هناك معقدة جدًّا. فقلت لها: إن كندا تُعدُّ مكانًا مناسبًا لكن أُفضِّل أن نسافر إلى هناك مستقبلًا، أي بعد أن نلتقي، فنكمل إجراءات الزواج ومن ثَمَّ نذهب إلى شهر العسل، وبعد ذلك نفرد خريطة كندا ونتأملها مليًّا. لم تُبدِ زينة اعتراضًا على حديثي. بل رأت أن كلامي يحمل الكثير من التحليل المنطقي.. استمر نقاشنا في قضايا الحب وبناء أسرة مددًا طويلة، حتى فاجأنا أغسطس ولم يجدنا معًا، أنا في إمبراطورية الجليد، وهي هناك بين صحاري وغابات إفريقيا. الشيء الوحيد الذي اختلف في ذلك الوقت هو أن أحلامنا كبرت بكثير. وإيماننا بالحب والحياة ازداد قوةً أكثر.

ذات مساء، بعثت برسالة إليها: «مساء الخير، حبيبتي، أتمنى أن تكوني بخير، لم نلتقِ حتى الآن، وأغسطس قد رحل لتوِّه، لكن إيماني باللقاء يزداد ثباتًا، أحبك». فأجابت زينة: «أنا لست في علاقة حب.. مع السلامة». أصابتني الحيرة، لم أكن أفهم فحوى هذه الرسالة في بادئ

الأمر. ربما حبيبتي كانت واقعة تحت تأثير الكحول، سألت نفسي؟ ثم أدركت أنها لم تتناول الكحول. هل ظهر شخص آخر في حياتها يحمل خططًا أكثر واقعية لتحقيق أحلامها فنست العاشق البعيد؟ هل خاب الأمل بغياب أغسطس؟ فأعدت كتابة رسالةً أخرى، أسأل فيها أكانت تعي ما كتبته لي؟ فقالت إنها تفهم معاني هذه الكلمات بحيث لا تدع مجالًا للشك فيما تقول.

لم يكن باستطاعتي مقابلتها في لحظة حدوث الانقلابات المفاجئة حتى أصلح ما انكسر، كما يقول المثل «الماعون اللَّين غسيله هيِّن». فلم يكن لديَّ خيار آخر سوى أن أترك الزمن يعالج قسوة أغسطس المُكابر العنيد. شعرت بألم حاد في قلبي وجرح ينزف في داخلي، لأن جراحات الحب تفوح عطرًا جميلًا دائمًا. لم يزرني النوم في تلك الليلة التي قرأت فيها الرسالة، فكنت بين الفينة والأخرى أعيد قراءتها لكي أتأكد إن كنت في حلمٍ عميقٍ. وكل مرة كنت أرى الحقيقة المرة «أنا لست في عَلاقة عاطفية.. مع السلامة»، وعندما أدركت أن الرسالة حقيقية، بدأت التأكد من المرسل، ربما فتاة أخرى كتبت لي رسالة تعترف فيها بوحدتها، وتريد أن تعيش تجربة عاطفية، فكان اسم المرسل يتطابق مع اسم حبيبتي فازداد الجرح عمقًا. راودتني فكرة أخرى، عليَّ أن أتأكد من رَقَم المرسل، فكان الرَّقَم هو نفسه، رَقَم زينة. حينها، تيقَّنت من حجم الكارثة التي حلت بي، شعرت ضربات قلبي تزداد سرعة وكأنه سيتوقف قريبًا، والجرح لم يعد يفوح عطرًا. نهضت من الأريكة، بدأت أمشي يمنةً ويسارًا، بعد مرور دقائق على هذه الحالة قلت لنفسي: فلتذهب زينة إلى الجحيم.

إذا كنت أعاني في ذلك الوقت بعاد زينة وتمردها، فكانت ميراندا تعاني قرب زوجها وعناده. بعد أن دعتني لجولة سياحية حول المدينة لأقاسمها الألم وقسوة الحياة، لم نلتقِ مجددًا إلَّا بعد مرور شهرين من

الزمـن. التقيتهـا في صفـوف الحيـاة التـي لا تنتهـي. كانـت تقـف لتأخـذ كتابًـا مـن مكتبـة الجامعـة وكان أمامهـا شـاب طويـل القامـة يرتـدي قبعـة بيضـاء. قلـت لهـا:

- سلامات ميراندا.

- آه، علييبي، كيفك؟

عانقتني ثم أضافت:

- واللـه كنـت في بـالي.. الامتحانـات قرّبـت عشـان كـدا اليومـين بقيـت أجـي الصبـاح أقـرا في المكتبـة، بعمـل الواجبـات وأعـمال السـنة بعـداك أرجـع البيـت. وأنـت عامـل شـنو؟

- أنا جيت أجمع كتاب، لكن الأمور كلها تمام.

- آهـا زينـة قاعـدة تكتـب ليـك؟ لي مـدة طويلـة مـا اتواصلـت معهـا.

قلت:

- خلينا نتكلم بعدين لو في سكة.

- الساعة اتنين جنب الكافي.. طيب أنا مستعجلة.. سلام.

ركضـت إلى قاعـة المذاكـرة، وظللـت أنـا أنتظـر الصـف حتـى أعيـد الكتـاب. كانـت ملاحهـا في تلـك اللحظـة أكـثر حيويـة وإصرارًا عـلى مواصلـة الحيـاة. صنعـت تسريحـة شـعر جديـدة غايـة في الجـمال، نصـف الشـعر مجعـد، والنصـف الآخـر ممـوج وكانـت هنـاك ثـلاث خصـلات مـن جدائلهـا تتـدلى في جبينهـا. كانـت قـلادة مـن الأحجـار الكريمـة تزيـن صدرهـا، وعطـر

بـارد بنكهـة الليمـون يطـلُّ مـن جسـدها. أعـدت الكتـاب إلى أهلهـا ثـم اتجهـت صـوب غرفتـي لأنظفـه، لأن جـاري قـد ذكـرني عندمـا كنـت خارجًـا:

- عـلي، الليلـة النظافـة عليـك، مـا تنـسى زي المـرة الفاتـت.. إذا عايـز الحسـناوات يقعـوا في الـشراك، أحسـن نهتـم بنظافـة الغرفـة. والجـواب يكفيـك مـن عنوانـه.

عـلى الرغـم مـن أن مـبرره كان مقنعـا، فإننـي لم أكـن أهتـم بصيـد الحسـناوات، بـل كنـت أحـاول أن أصطـاد الغزالـة الإفريقيـة ولا شيء غيرهـا.

في كل ليلـة كان ذهنـي يفكِّـر فيهـا ويبحـث عـن إجابـات لهـذه الجملـة «أنـا لسـت في عَلاقـة عاطفيـة».. هـل كل مـا جـرى بيننـا لم يكـن صادقًـا؟ هـل كنـا نلعـب أم أرادت زينـة أن تختـبر ردة فعـلي، خاصـة أن الحسـناوات يعشـقن تضحيـات الرجـال مـن أجلهـن؟ كل هـذه الأسـئلة كانـت تحـول بينـي وبـين النـوم. إذ أصبـح الأرق يسـيطر عـليَّ مـدة أسـبوع أو أكـثر، حتـى تمكنـت مـن دحـره. لا أعـرف مـن أيـن تـأتي طاقـة الحـب هـذه. أتسـاءل هنـا، لأن العـالم كان ولا يـزال وسـيكون مليئًـا بالحسـناوات، إلا أن القلـب يختـار واحـدة فقـط، وإذا مـا ذهبـت بعيـدًا، فسـيظل ينتظرهـا سـنوات متمسـكًا بالأمـل في لقـاءٍ جديـد. أمـا إذا حـدث خصـام مـا يتـألم القلـب وكأنـه يتوقـف عـن الخفقـان، يتحمـل كل هـذه الأوجـاع، لكـن لا يفقـد الأمـل بتكـرار القبلـة الأولى تلـك، والـدفء الـذي كان يستشـعره بجانـب الحبيبـة. إن القلـب لا يبحـث عـن بديـل للحبيبة، إلا عندمـا تخـون. فكنـت أشـعر بضبابيـة في الرؤيـة، لم أفهـم دوافعهـا لذلـك طلبـت مـن ذهنـي أن يكـون رحيـمًا بي فيتوقـف عـن التفكـير.. توقـف الذهن، وسرعـان مـا بـدأ القلـب بالشـكوى والأنـين. الحـب هـو الغـذاء الـذي يعـبر إلى الـروح مـن بوابـة القلب، وعنـد توقفه، يبـدأ القلـب والـروح معًـا بالنضـوب والجفـاف. عندها تشـعر بوهـن في جسـدك، أرجلك لا تقـوى عـلى حملـك

أكـثر من خطواتٍ معـدودةٍ. فجفـاف القلـب يتحـوَّل إلى جفـاف في المعدة، فتفقـد الرغبـة في الأكل، وفقـدان الشـهية يمنعـك مـن رؤيـة جـمال العـالم الـذي يحيـط بك، فتشـعر بأنـك أسـير، لكـن أسرى الحـب سـعداء دائمًـا. بقيـت في أسري أسـبوعًا أو يزيـد، بعـد ذلـك اسـتطعت أن أهـرب عائـدًا إلى الواقـع. عـالم الحـب يتَّسـم بالعدالـة دائمًا، خاصـة إذا كان الشـعور متبـادل بـين العاشـقين، فالألم والسـعادة ينبعـان مـن المصـدر نفسـه، وفي سـاعات الأزمـات يعـودان إلى هنـاك أيضًا. لذلـك فإن الإحسـاس بخيبة الأمـل لم يجتَح قلبـي وحده، وإنمـا زار قلـب حبيبتـي أيضًـا.. هكـذا كنـت أطمـئن نفـسي.. توقَّفـت الرسـائل والمكالمـات الهاتفيـة بيننـا مـدة طويلـة، لكـن الحـب في القلـوب كان يـزداد يومًـا بعـد يـوم. ذات صبـاح شـتوي بارد، اسـتيقظت من نومـي، إذا بفكـرة غريبـة خطـرت ببـالي، تقـول لي إن حبيبتـي أغلقـت البـاب أمـام قلبـي، لأنهـا تريـد أن تعـرف أكنـت أحبهـا بالقـدر نفسـه الـذي كنـت أفعـل عندمـا كنـا في مدينـة واحـدة، أم أصبحـت مـن الماضي وأعيـش الآن ذكرياتنـا التـي لم تكتمـل.. الأفـكار التـي تـأتي في الصبـاح دائمًـا تبـدو أكـثر منطقيـة وأكـثر إقناعًـا، لذلـك صدقتهـا. فأصبحـت أفكـر في خطـواتي القادمـة لإعـادة الأمـيرة المفقـودة. كانـت لدينـا صـور كثـيرة مشـتركة، وثَّقنـا عـددًا كبـيرًا مـن لقاءاتنـا بكامـيرات الهواتـف، فقلـت هـذه مـادة جاهـزة يمكـن اسـتخدامها، فللذكريـات سـحرٌ يعيـد كل مـا هـو جميـل. ومـن حسـن الحـظ، ذاكـرة الحسـناء لا تنـسى اللحظـات الجميلـة. عندمـا بحثـت في ألبومـي، وجـدت نحـو خمسـة آلاف صـورة تخلِّـدُ تجربتنـا، فاخـترت خمسـين صـورة بمعدل عـشر مـن كل ألـف، بـدأت أرسـل صـورة واحـدة كل عـشر دقائـق عـبر الماسـينجر، عندمـا بعثـت الصـورة رَقَـم خمسـين كانـت السـاعة تقـترب مـن الخامسـة مسـاءً. كنـت أنتظـر ردًّا مـن حبيبتـي، لكنهـا لم تفعـل، والسـبب هـو أنهـا حتـى لم تفتـح رسـائلي. فقلـت ربمـا لم تعـد تسـتخدم تطبيـق الماسـينجر. بـدأت أبحـث عـن رَقْـم الهاتـف

لأرسلها عبر تطبيق الواتساب، لم أجد رَقْم الهاتف، لأنني مسحتها غضبًا من نكرانها علاقتنا العاطفية. كان القلب مجروحًا. لذلك أمرني بأن أمحو كل شيء يتعلَّق بالحبيبة. لم يعد القلب يتحمل أكثر.. بدأ القلق والغضب يسيطران عليَّ، كنت أقول لنفسي ليس من العدل أن أهدر يومًا كاملًا في محاولة لاستعادة الأميرة الإفريقية وفي النهاية الأمر تكون النتيجة بهذا الشكل. رسائل لم تُقرأ بعد، رَقْم هاتف مفقود لماذا كل هذه القسوة، ماذا فعلت حتى أستحق كل هذا؟ كنت أطرح هذه الأسئلة وكأني لم أكن أنا من مسح رَقْم الهاتف.. رميت الهاتف على الأرض. الوقت هو الطبيب الحقيقي لكل جرح، لكنَّ المحبين لا يدركون ذلك إلا بعد لسعات متكررة. ربما السبب وراء ذلك هو أن التجارب العاطفية لا يمكن تدريسها، لأن أي عَلاقة حب مستقلة بذاتها ولا يجدي أن تُأخذ كقاعدة وتطبق في تجارب أخرى. وهذه هي السمة المميزة للعلاقات العاطفية، كل تجربة لها خصالها المختلفة عن الأخريات.. الفرد الواحد يمكن أن يحب أكثر من حسناء – في أزمنة مختلفة بالطبع - وعندما يتذكر حبيباته السابقات يجد أن كل عَلاقة تختلف تمامًا عن أخواتها. يمضي الوقت والتواصل مع حبيبتي متوقف، لا الصور التي أرسلتها ضمدَّت جراحي ولا الآمال الوهمية. مع مرور الوقت أدركت أن العيش ممكن، ما دامت الحياة لم تتوقف، والطرقات مليئة بالحسناوات والمارة والمشردين، فيبقى الإيمان بها ممكنًا. كنت في تلك الأيام أهتم كثيرًا بالدراسة، وقراءة الشعر. وبشكل غير مقصود وجدت غذاءً بديلًا للروح. تعرَّفت شعراء جددًا. نشأت علاقات جيدة بجزء منهم، فأهدوني السكينة بكلماتهم. بدأت أتعرَّف نفسي من زوايا مختلفة بفضل الشعراء. كنت أسافر بمخيِّلتي إلى مدنٍ بعيدة. وكلما توجهت صوب بلاد حبيبتي، شعرتُ بمرارة الخصام فأغير مساري إلى أرض ثانية لم أعرفها من قبل. أدركت أنني محب للموسيقى، فتارةً

أسـمع موسـيقى كلاسـيكية وتـارةً أخـرى موسـيقى راقصـة. فرغبـت في تعلُّـم الرقـص؛ أقصـد انتابتنـي رغبـة في ممارسـة الرقـص، لأن الفعـل «يتعلَّـم» لا يتـماشى مع أطفـال إفريقيـا، خاصـة عندمـا يكـون الـكلام عـن الرقـص. كل إفريقيـا ترقـص. فإيقـاع الموسـيقى موجـود في دمـاء الأطفـال. كل الأزقـة والشـوارع تضـج بالراقصـين عـلى مـدار السـاعة. الرقـص نمـط حيـاة. نعـم، بـدأتُ أمـارس الرقـص. ولأننـي لم أكـن محترفًـا، دعـاني أحـد الزمـلاء للذهـاب إلى مدرسـة رقـص. فقلـت لا أسـتطيع أن أفعـل ذلـك. ربمـا لأننـي لسـت مقتنعًـا بهـذه الفكـرة. وثانيًـا سـيتخلَّى عنـي أهـلي وسـينكرونني. يعـد هـذا عـارًا لـلأسرة. بـدأت أشـعر بالحريـة، بالرغـم مـن أن الألم كان يسـيطر عـليَّ في بـادئ الأمـر بسـبب انقطـاع الوصـل مـع الحبيبـة، فإننـي اعتـدت الوحـدة مـع مـرور الوقـت، بـل أكـثر مـن ذلـك أصبحـت أسـتمتع بالحريـة، حريـة الوحـدة: قلبـك لـك فحسـب، ولا أحـد يؤرِّقـه. هاتفـك لا يسـتقبل رسـائل غراميـة. تنـام دون أن تكـون ملزمًـا بكتابـة رسـالة «تصبحـين عـلى خـير حبيبتـي أحبـك». أو تسـتيقظ وأول نشـاط تفعلـه «صبـاح الخـير حبيبتـي». تخلصـت مـن كل هـذه الالتزامـات. يمكننـي أن أتمنـى لنفـسي فقـط - ولأمـي أيضًـا - أحلامًـا سـعيدة. دائمًـا هنـاك أنثـى يمكـن أن تبـل الـروح فيهـا وتكتـب آلاف القصائـد مـن أجلهـا وفي جمالهـا هـي الأم دومًـا.

لم أكـن أعـرف أن الوقـت يمكـن أن يفتـح لي أبوابًـا بهـذا القـدر مـن الجـمال، أبـواب المـاضي التـي يطلـع منهـا حنـان الأم وابتسـامتها. نسـيت كل هـذه الأشـياء الجميلـة التـي شربتهـا عنـد الرضاعـة بسـبب أنثـى أخـرى يمكـن أن تتخـلَّى عنهـا أو تتخـلى عنـك في أي لحظـة. لكـن مـن مسـاوئ خصـام الحبيبـة هـو عـدم الاعتنـاء بالنفـس كـما كنـت أفعـل سـابقًا. كنـت ألبـس أجمـل الثيـاب قبـل لقـائي بزينـة، أزيـن شـعري في الداخـل والخـارج، أفـوِّح نفـسي وقميـصي أطيـب أنـواع العطـور. كنـت أنيقًـا. اختفـت هـذه الطقـوس، نسـيتها، بعـد توقـف التواصـل بيننـا. فكـرت

لحيتـــي، طالــت أظافــري، فتيــل العطــر توقــف عــن النقصــان، البطالــة أرهقـت ثيـابي لأنهـا لم تكـن تخـرج مـن رفوفهـا، ولم أكـن أرغـب في تغيـير القميـص بشـكل يومـي. كنـت أقـول: لمـاذا سـأفعل ذلـك ومـن أجـل مـن؟ مـع ذلـك لم تفُـح رائحـة كريهـة مـن جسـدي، لأننـي كنـت أقـوم بمسـاج مـائي كل صبـاح وقبـل الذهـاب إلى النـوم.. عندمـا نظـرت إلى المـرآة بعـد شـهر، لم أسـتطع تعـرُّف الوجـه الـذي أراه أمامـي، كانـت اللحيـة تغطـي نصـف الوجـه، شـعري كان مُجعَّـدًا وكأني عـدت مـن غابـات الاسـتواء للتـو، حبـوب تمـرح في فِنَـاء وجهـي كالأطفـال الذيـن يلعبـون كـرة القـدم في فِنَـاء المنــزل فرحًــا، هــل هــذا أنــا؟ ســألت نفــسي مــع أن الإجابــة واحــدة ولا توجـد خيـارات أخـرى. أصبـت بالإحبـاط، لأن ليـس الحـب وحـده يجـب أن يجعلنـي أنيقًـا، فالثقافـة يمكـن أن تـؤدِّي هـذا الـدور، قـراءة الشـعر أيضًـا تسـهم في ذلـك، ذكريـاتي عـن الأم، ولكـن الأهـم مـن ذلـك كلـه، يجـب أن أكـون أنيقًـا جميـلًا مـن أجـل نفـسي.. لم أصـل لهـذه القناعـة مصادفـة، فالحـب علَّمنـي الكثـير مـن أهـم الـدروس: «كـن جميـلًا مـن أجلـك». أصبحـت أتجمَّـل لنفـسي. أذهـب إلى التسـوُّق، أشـترى ثيابًـا بلـون الفـرح والحيـاة، أختـار أجمـل الأحذيـة الجلديـة، خاصـة أحذيـة باللـون البنـي الـذي كنـت أعشـقه. أحلـق لحيتـي مرتـين كل أسـبوع، وأرتـب شـعر رأسي مرتـين كل الشـهر. كنـت أنتظـر المسـاء لأرتـدي مـا أشـتهي، أذهـب إلى صالـة التزلُّـج، أنظـر إلى الصبايـا يتراقصـن مـع الجليـد وأحيانًـا للجليـد. أمـرُّ عابـرًا بمقهى وأنـا في طريقـي إلى البيـت لأتنـاول كوبًـا مـن القهـوة. أصبحت أرتـاد صالـة الرياضـة بشـكل مُتكـرِّر. أسـتمتع برؤيـة جسـدي الـذي كان يكـبر يومًـا بعـد يـوم، وعندمـا تقـترب إجـازة نهايـة الأسـبوع، تغمـرني السـعادة لأنهـا تعـد فرصـة للاحتفـاء بوحـدتي، للتجـول في أزقـة المدينـة وحيـدًا، والرقـص مـع فتـاة أتـت إلى نـادي الرقـص وحيـدة مثـلي. فالوحـدة تجمعنـا، فيتوحَّـد الوجـدان. مـا أمكـر النسـاء، فقـط نظـرة واحدة

فقـط كافيـة لتكتشـف أكنـت وحيـدًا أو تخبـئ فتـاة في قلبـك.

عنـد الثانيـة ظهـرًا كنـت في الموعـد بالقـرب مـن كافيـه الجامعـة، أنتظـر ميرانـدا. جـاءت وقررنـا أن نحتـسي كوبًـا مـن القهـوة ونتحـدث قليـلًا. منعنـي الحـرس الـذي كان يقـف عنـد المدخـل مـن الدخـول قائـلًا:

- امشي خلي الكوت حقك في حجرة الملابس الخارجية.

لم أسـتجب لكلامـه مـبررًا بـأن الـذي أرتديـه ليـس كوتًـا بـل فنيلـة بـرد عاديـة. كل منـا ألـحَّ عـلى موقفـه، عندهـا اسـتعان الحـرس بميرانـدا قائـلًا:

- أنـت جميلـة وظريفـة كـدا، مـا تكلمـي صاحبـك دا يكـون لطيـف ويـترك الكـوت.

حينهـا أخذتنـي ميرانـدا إلى حجـرة الملابـس الخارجيـة. عدنـا إلى الكافيـه وكانـت ابتسـامة ترتسـم في وجـه الحـرس قائـلًا في نفسـه:

- أنتو الأولاد ديل ما بعرفوا ليكم إلَّا البنات.

وأنا أجيب في نفسي أيضا:

- أنت برضك يوم من الأيام كنت زينا يا كلب.

جلســنا بالقــرب مــن النافــذة. أخــذت ميرانــدا رشــفة مــن القهــوة بالحليــب ثــم قالــت:

- عـارف يـا عـلي، لقيـت في سريـره شـعرة لامـرأة شـقراء، أظنـه يـأتي بنسـاء إلى البيـت لمـن أطلـع أنـا الجامعـة، وأمـه تمـشي بالولـد المستشـفى للمتا بعة .

نظرت إليها:

- أنا كنت حاسس أنه زوجك دا عنده حبيبة واحدة على الأقل، لأنه إذا سنتين ما حصل بيناتكم...

قاطعتني بالسؤال:

- ليه كدا لكن؟

أجبت:

- والله أنا ما عارف، لكن الزول دا شكله قنعان..

- كيف يعني؟ هو لسه ما اكتشف ميرندا، يعني بالسهولة دي يتخلى عني؟

- من الآخر كدا يا ميراندا، الزول دا ما بفكر زيِّك، عشان كدا خليكِ واقعية في الموضوع دا.

- طيب الحل شنو؟

لم أكن أملك إجابة عن هذا السؤال، على الأقل في تلك اللحظة لذلك لم أقل لها شيئًا، ظللت أنظر في تسريحة شعرها الجميل وعنقها الموشح بالقلادة التي تلامس صدرها الشاهق. قالت:

- المهم هسه أنا بفكر في ولدي والامتحانات بعداك نشوف اليحصل شنو.. أتمنى أنه ولدي يتبدأ يتكلم لغاية كمان. أما بخصوص الرجال ما عندي مشكلة، لأنه لو عايزة أرتبط ممكن الليلة أعمل الحاجة لأنه المعجبين كتار، بما في ذلك الشاب القاعد معاي دا.

فاجأتني بقبلة على خدي الأيمن ثم غادرت. فكرت في ابنها، في مستقبلها والقبلة.. كنت أتمناها أن تكون على شفتيَّ المتعطشتين.. اختفت ميراندا من مرمى النظر، لكن سيظل أثر القبلة العمر كله.

لم تختفِ ملامح حبيبتي عن وجهي على الرغْم من طول الغياب. فكلما تنظر إليَّ أنثى عابرة، تشعر بأن هذا الجمال الذي يطغى على ابتسامتي وملامح وجهي، كانت من ورائه حسناء ما. لا أستطيع أن أخبئ عالمي الداخلي، كله مكشوف، عيناي وابتسامتي هما مصدرا الفضيحة؛ كلما أحاول أن أتعلم سبل المكر، أجد الخذلان تارةً من عينيَّ وأخرى من ابتسامتي. لم أعد أخفي هذا على أحد، لأنني لا أستطيع أن أفعل. ولأن عالم المدينة يهتم بشكل كبير بالمظهر الخارجي للإنسان. كنت أقابل مصادفة فتيات يبدين رغبة في التحدث إليَّ بسبب أناقتي، لكنني لم أكن أعير ذلك اهتمامًا. لأن الخوف من الدخول في تجربة عاطفية جديدة كان يتملَّكني، جروح الحب – وإن طال الزمن - لن تلتئم أبدًا. إضافةً إلى أنني لم أكن أرغب في التخلي عن حرية الوحدة بهذه السهولة.

للحب ألغاز كثيرة. يصعب سبر أغوار الحب، فكلما اطمأننت إلى أن العلاقة أصبحت من قصص الماضي، ينتابني الأنين من جديد ولو بشكل طفيف. أدركت أن للألم مراحل، مثل مراحل البكاء: أولًا، الإحساس بالحزن، ثم امتلاء العيون بالدموع وأخيرًا انهمار جداول من دموع الأسى. ألم الحب أيضًا، يبدأ أولًا بأنين خافت، ثم يعلو شيئًا فشيئًا حتى يخرج عن السيطرة. أنين كان يتجسَّد في إعادة قراءة رسائل الحب القديمة، مشاهدة ألبوم الصور الذي كان في دولابي تارة، وصور على هاتفي الجوال تارةً أخرى. ثم المحاولة ببعث رسالة جديدة إلى الحبيبة لإعادة المياه إلى مجاريها مجددًا.

في أمسـية ربيعيـة موحشـة، كتبت رسـالة: «حبيبتـي، مـضى وقـت طويل ولم أسـمع صـدى أغنياتـك، حتى انعكاسـك عـلى كامـيرا هاتفي، أمنيات كثيرة لم نحققهـا حتـى الآن، طاقـة تضاهـي الجبال تملأني، أريـد أن أعانـق أغصانـك المُتدلِّيـة. إذ لم أعـد أزور الحديقـة لأنهـا تذكـرني بملامحـك.. ظننـتُ أننـي نسـيتك لكننـي أخطـأت ولأول مـرة. يـئنُ القلـب ولا يسـمح لأحـد بزيارته.. عندمـا تـراودني أنثـى مـا عـن نفسـها، لم تعـد ذاكـرتي اللغويـة تسـعفني لحكايـات جديدة. إن القلـب والـروح لك، قـد سـامحني الـرب عـلى قطـف الفراولـة، فلنعـد إلى جنَّتنـا القديمـة». أعـدت قـراءة هـذه الرسـالة خمـس مـرات لنفـسي، شـعرت أنهـا صادقـة لكـن تـرددَّتُ في إرسـالها، تذكَّـرت وقاحـة زينـة «أنـا لسـت في علاقـة عاطفيـة». فخفـت أنـين قلبـي مؤقتًـا. لم أرسـل الرسـالة، بـل مسحتها ليتـلاشى الأمـل عـن قلبـي ويختفـي الأنـين. عاصفـة الخصـام تهـب عـلى جميـع العلاقـات العاطفيـة وتجربتـي ليسـت اسـتثناءً. كنـت دائمًـا أقـوم بإيجـاد الحلـول، أو هكـذا كان يبـدو لي. أجـد عـذرًا لحبيبتـي. أخطـأتْ لأن مزاجهـا كان عكِـرًا. هكـذا كنـت أبـرر حماقاتهـا، ولكـن في هذه المـرة قـررت أن أتبـع إسـتراتيجية مختلفـة. قـررت أن أصمـت وتركـت للزمـن أن يفعـل بقلبـي مـا يشـاء. بعد مـرور زمـن قصـير أدركـت أن الصمـت سـلاح قـوي في حـل المشـكلات، خاصة العاطفيـة.. أن تصمـت يعنـي أن تـترك للطرف الآخـر مسـاحة للتفكـير في جـدوى العلاقـة ومسـتقبلها، أن يقلِّـب دفـتر الذكريـات ويتأمل. هـل كان هـذا الشـعور حقيقيًّا، هـل تسـتحق هـذه العلاقـة التضحيـة، التضحيـة مـن وجهـة نظـر الحـب لا تعني المعانـاة، بل الاسـتعداد للتخلي عـن كل شيء يعرقـل اسـتمرارية العلاقة، القـدرة عـلى إعطـاء الآخـر دافـع في التمسـك بـك، أن تقـوي إيمـان الحبيـب في الاعتماد عليـك.

عندمـا رنَّ هاتفـي وسـمعت صـوت زينـة في ذلـك المسـاء الشـتوي، شـعرت بدرجـة حـرارة عاليـة، لم أعـد أحتمـل الغرفـة التـي ضاقـت

مساحتها، أصبحت مثل صندوق الموتى، لا يسع لشخص. يتكيف الميت بوجوده داخل الصندوق الضيق لأنه لا يحتاج إلى أكثر من ذلك، فهو ترك كل شيء له علاقة بهذا العالم وفضل الذهاب إلى الماوراء. أما أنا فكنت متمسكًا بهذا العالم لأن لديَّ قضايا كثيرة لم أنجزها بعد، أسئلة كثيرة لم أجد لها إجابة بعد، حسناوات كثيرات ينتظرن دعوات عشاء، أنثى جميلة اعترفتُ لها بالحب لكن لم نلتقِ بعد، وأيضًا كتب لم أقرأها وأخرى لم أكمل تأليفها.. كل هذه الأسباب مجتمعة وأخرى لم أذكرها، جعلتني متمسكًا بالحياة. فالذهاب إلى الماوراء هو أن تعتزل هذا العالم، أن تطلب من موظف الموارد البشرية دفتر المعاش وتعبر. ولما كانت الغرفة لم تعد تسعني، قررت الخروج منها دون أن أحدد وجهة بعينها. عندما خرجت إلى الشارع كان البياض يملأ الدنيا وما فيها، يصعب التمييز بين السماء والأرض، هل كانت السماء ترسل انعكاساتها إلى الأرض، أم أرضنا الطاهرة الكريمة ترسل خيراتها إلى الأعالي؟ لا أعرف بالضبط، لكن ما كان واضحًا هو شعوري وكأني أمشي على السحب. لم تكن حبيبتي تنتظرني كل هذه المدة على خط الهاتف، عندما حلت حرارة خط الاستواء على بدني النحيل شيئًا ما، طلبت من زينة العنيدة والعائدة إلى صوابها أن أعاود الاتصال بها خلال دقائق معدودة. بينما أتمشى على السحب الجليدية، أخرجت هاتفي، ثم نزعت القفّازة من على يدي اليمنى، أعدت الاتصال Hi, how are you[1]؟ بدأت حديثها معي بهذه الطريقة وكأن شيئًا لم يكن، وكأننا لم نكن على خصام مدة تفوق الستة أشهر أو تزيد، لم أستطع أن أجيب عن السؤال مباشرة، لأنني لم أكن متحقِّقًا من المدخل المناسب لهذا السؤال. قلت لنفسي: يا لها من محاولة منها لتجاوز الخلاف الذي صنعته بيديها ثم فتح صفحة جديدة تحمل

(1) مرحبا، كيف الحال؟ - الترجمة عن الإنجليزية

ملامح الماضي، الزمن الجميل.. فقلت لها إنني بخير، وأعدت إليها السؤال نفسه ولكن باللغة الروسية، مع أنني لم أكن مقتنعًا بالتجول على هامش الموضوع الأساسي الذي نحن بصدد مناقشته، عن آفاق وتحديات العلاقة، الخصام المفاجئ. أما التجول على هامش المشكلة أشبه بالحديث عن الطقس مع فتاة تكن لها إعجابًا يكاد يقتلك. كنت أنتظر أن تبدأ هي بالكلام عن تحديات «نكون أو لا نكون»، لأني كنت بريئًا من هذا الخصام مثل براءة الذئب من دم يوسف. لم تفعل، بل سألتني إن كنت أفتقدها وأشتاق إلى حكاياتنا القديمة والرغبة في عناقها؟

فقلت:

- أن القلب يحب التظاهر بالقسوة لكنه يشتاق دائمًا. جروح كثيرة مزحت بقلبي، ولم يعد أخضر كما كان.

قالت:

- حاولت أن أنساك وأبدأ حياة جديدة.

أجبت:

- إذا كان نسياني يجعلك سعيدة، فأنا أشجعك على ذلك.

فقالت:

- لم أستطع، وأدركت أن نسيانك ليس قرارًا نتخذه مثلما نفعل عند اختيار جامعة ما وعمل ما، القلب وحده من يملك مفتاح النسيان.

قلت مضيفًا:

- الحب مثل الفصول لذلك عندما يأتي فصل الشتاء ويختفي الاخضرار، علينا أن نتذكر قدرة الحب في البعث من جديد.. لست وحدك من حاول أن ينسى، أنا أيضًا حاولت مرات عدَّة مثل محاولتي ترك التدخين، ولكن لم أتكَّمن من ذلك.

قالت:

- True story[1].

ليس غريبًا أن أسمع من زمن إلى آخر عبارات بلغات أخرى دون التي نتحدث بها.. تسامرنا ساعة أو أكثر، كان الليل مضيئًا ببياض الجليد، والبرد لم يكشر عن أنيابه لأن الرياح رحلت بعيدًا ولم تداعبه. فالرياح تثير الجليد، وتجعل أغصان الأشجار تتراقص على إيقاعها وبغيابها تغيب الإثارة، يذهب الجليد إلى كهفه لينام.. لذلك كنت أتمشَّى على السحب الجليدية مدة طويلة ولم أشعر بقسوة البرد، لم تكن هناك قسوة، كان بردًا خفيفًا لطيفًا. كلانا لم يستطع النسيان الأبدي، لأن القلب لم يسمح بذلك. عاد الجليد يتساقط وعدنا نحن مجدَّدًا إلى حديقة الحب، نسينا أسباب الخلاف وبدأنا نتحدث عن الخطط المستقبلية والأمل بلقاءٍ قريب.

سألتها:

- ربما نلتقي في فصل الربيع الذي شارف على إعلان حضوره الزاهي؟

- لا أخفي رغبتي في رؤياك، لكن الربيع هناك قاسٍ، تتفتح الأزهار والدموع تنهمر من عينيَّ لجمالها، وأنت لا تحتمل دموعي، لذلك أفضل أن نلتقي في فصل الصيف الذي يشبهنا، يشبه إفريقيا بحرارتها،

(1) واقع معيش – ترجمة عن الإنجليزية

والعـين لا تبـكي عندمـا تنظـر إلى الأشـياء المألوفـة.

كانـت حبيبتـي تعـاني حساسـية الربيـع. فـلا تحتمـل أحاسيسـها مشـهد تويجـات الزهـور وهـي تتراقـص فرحًـا بميلادهـا. لهـذا السـبب لم ترغـب في أن يكـون لقاؤنـا الرومانـسي المرتقـب مصـدرًا لمعاناتنـا.

سألتها:

- هـذا يعنـي أن علينا الانتظار حتـى ينقـضي فصـل الربيـع وبعـد ذلـك سـنلتقي؟

أجابت بسؤال آخر:

- هل لديك خيارات أخرى؟

فقلت:

- سأفكر في هذا الموضوع وسأجد حلولًا.

كلـما يـزداد شـوقي إليهـا تعقَّـدت السُـبل. أكـثر شيء كنـت أتمنـى أن يتحقَّـق في ذلـك الوقـت هـو رؤيتها، النظـر إلى عينيها، أن أمـد لهـا كـوب القهـوة، وأن أسـمع عبـارة «شـكرًا عـلى لطفـك»، أن نخطِّـط لجولة سـياحية مشـتركة ونحـن نجلـس عـلى أحـد مقاعـد الحديقـة، أو نذهـب في رحلـة شـواء.. لكـم تبـدو هـذه الأمنيـة سـهلة، لكـن في ذلـك الوقـت كانـت الأمنية الأصعـب عـلى الإطـلاق بالنسـبة إليَّ. اقـتراب موعد الامتحانات السـنوية، إجـراءات السـفر إليهـا كانـت شـبه مسـتحيلة. مـن جانبهـا أيضًـا كانـت تواجـه بعـض التحديـات التـي تحـول دون السـفر بـكل سـهولة، فهـي فتـاة مسـتقلة، خاصة إذا كان الحديـث عن الاسـتقلال المالي، لا تأخـذ فلسًـا واحـدًا مـن أسرتهـا ولـن تقبـل أن أدفـع أنـا تكاليـف السـفر مـن أجـل

رؤيتـي، هـذا يُسـمى «كبريـاء أو عـزة نفـس». وعدتهـا بالـرد عـلى سـؤالها إن كانـت هنـاك خيـارات أخرى للقائنا. وهـي كعادتهـا لم تكـن متعجِّلـة في البـت بسرعـة في الأمـور، تعمـل كل شيء بهـدوء، تتخـذ قرارتهـا أيضًـا بتـأنٍّ، لذلـك قالـت إنهـا سـتنتظر، وليـس عـليَّ التعجـل في إيجاد إجابات لسـؤالها. كنـا نتحـدث وأنـا عائـد إلى غرفتـي، والسـاعة تقـترب مـن الثانيـة صباحًـا، الـبرد يـزداد قسـاوة وريـاح الشـمال بـدأت تكشـف عـن نفسـها. سـألتني إذا كنـت أشـعر بـشيءٍ مـن الـبرد. فقلـت إن الـبرد حـاضر لا يـبارح المدينـة، لكـن صوتك الدافئ يحمينـي. فقالـت إن صوتهـا ليـس دافئًـا بـل مشـتعلًا بسـبب حـرارة خط الاسـتواء.. فزينـة تجيـد المكـر اللطيـف.

قلت لها:

- علـى الرغْم مـن سـوء شـبكة الإنترنـت في إفريقيـا، دعينـا نتواصـل بـين الفينـة والأخـرى. وإذا مـا قـرَّرتِ المـرَّة القادمـة النسـيان، فأخبرينـي لكي أدرب قلبـي باكـرًا عـلى احتـمال الجـرح.

فأجابت:

- لن أفكر في النسيان مجددًا.

فقلت:

- لا أعـرف إن كنـت صادقـة في مـا تقولـين، لكننـي أرى لوحـة أمامـي تبـدو هكـذا، أراهـا جيـدًا: حبيبـان التقيـا بعـد غيـاب دام سـنوات، أكمـلا طقـوس الـزواج بالقـارة الأكـثر سـخونة مقارنة بالقارة الأخـرى، ثـم سـافرا إلى البحـر الأحمـر ليقضيـا شـهر العسـل عـلى شـواطئه، ليحـط بهـما المقـام في الطابـق العلـوي بفنـدق مطـلي باللـون البنفسـج. وفي كل صبـاح كانـا يرتشـفان القهـوة، وعنـد حلـول المسـاء، كانـا يتقاسـمان قهـوة الغسـق مـع

الباعـة الجائلـين، وعنـد الـشروق كانـا يجلسـان، وعندمـا يحـلّ الـشروق كانـا يجلســان في حضــن البحــر شــاكرين اللــه عــلى هــذه الهبــة العظيمــة. وفي ســاعات النهــار كانــا يأخــذان في التجــوال حول المدينــة، عامدين إلى اكتشــاف أسرار الجبــال والغابــات التــي تســتلقي عــلى راحــة المدينــة المتدلِّيــة إلى ضفــاف البحــر. أمــا الليــل فهــو منــذورٌ للحب وحــده، إذ اكتشــاف مواطــن الجــمال وغوامضــه، والتــلال التــي لا تكشف أسرارها ســوى لحبيبــين يعشــقان بعضهــما، وأشــجار البرتقال اليانعــة التــي تُثمــر في دواخلنــا ولا تــؤتي أكلهــا إلا في حضــور حبيبــين يعشــقان بعضهما، وتغريدة الــروح عنــد العنــاق المفوَّحــة بالعطــر الــذي يخــرج مــن بــين جدائــل الحبيبــة عندمــا تهمــس لهــا بكلمــة أحبــك، ودروس الحيــاة التــي تبــوح عــن نفســها عنــد ممارســة الحــب ولا تنــسى. ثــم هنــاك كان طفــلان عــلى خلفيــة اللوحــة يلعبــان ببالونــات مــن ورق. هذه هــي اللوحــة التي أراها ماثلــة أمامــي الآن.

- يــا إلهــي، كــم هــي جميلــة، كأنــك تُفــسِّر أحلامــي. لا أرى أجمــل مــن هــذه اللوحــة. ولأنــك مــن رســمها، فــإني لا أشــك في لمســها في المســتقبل القريــب بأيدينــا هــذه!! هكــذا قالــت زينــة واكتفت بالإشــارة إلى يديهــا.

في تلــك الأمســية كنــت بارعًــا في رســم مســتقبلي أو البــوح بأمنيــاتي. وقــد أعاننــي في هــذا المــزاج الجيــد والإطلالــة الســحرية لزينــة. كان الحــب يتدفــق مــن قلبــي كشــلال وجــد حريتــه للتــوِّ بعــد اختنــاق طويــل أو كنهــر فوجــئ بكــرم المنبــع فــراح يرســل مــاءه إلى كل الأحيــاء والمــدن المجــاورة حتــى قــال النــاس كفــى. عــلى الرغــم مــن أن زينــة مــن جمعتنــي بصديقتهــا ميرانــدا، فإنهــا في تلــك الأمســية لم تســألني عنهــا، كانــت تفكــر في فــرص لقائنــا فقــط كالأم التــي لم تــر ابنهــا طيلــة قــرون، أو كبحَّــار بــدأ يجــدِّف بكامــل قــواه شــوقًا إلى الحبيبــة التــي تنتظــره عــلى الضفــة الأخــرى. لكننــي

بخلاف زينة، كنت أفكر في مستقبلها، في طفلها والشعرة التي كانت في سرير زوجها.. قدمت لها دعوة لحضور فاعلية ثقافية كان ينظمها اتحاد الطلاب بالجامعة، فلم تستجب قائلة:

- كلمت راجلي بيك، قلت ليك لقيت صاحب، دايمًا معاي في وقت الفراغ، عمومًا مدحتك قدامه، من اللحظة ديك طلب مني جدول محاضرتي وقال: اسمع هنا، لا صاحب لا يحزنون، بعدما تكلمي المحاضرات طوالي ترجعي البيت، بعد ساعة من آخر محاضرة بشوفك في البيت.

كانت ميراندا قد شعرت بسرور من ردة فعله وبدأ الأمل يكبر بعودته كما كان في السابق. كانت تفسر سلوكه هذا بغيرة. وهذا يعني وجود الحب في داخله ولو حاول إخفاءه. لم أكن أخبئ نوايا أخرى سوى الدعوة، لذلك لم أحزن على عدم استجابتها، بل فرحت لها بظهور خيط من نور في النفق المظلم الذي كانت فيه. قلت لها:

- عمومًا، ما في مشكلة، المهم تكوني بخير وسعيدة، وأنا ما عايز أكون سبب في تعاستك، عشان كدا ما ضروري نتلاقى. وفي نهاية الموضوع، إذا عايزة تلاقيني، بتلقي طريقة للحاجة دي.

صمتت قليلًا، ثم قالت:

- بعد أسبوع عيد ميلاد راماريس، ممكن نتلاقى، بقول ليك الزمان والمكان بعدين.

أنهيت المكالمة الهاتفية القصيرة بعد أن تمنيت لها السعادة، لكنَّها لم تسألني عن زينة أيضًا.

8 مايو- عيد ميلاد الحب

في الثامن من مايو،

كان ميلاد الحب في صحاري إفريقيا...

كل عام،

تعود الطيور المهاجرة إلى أغصان قلبي،

تعزف شقشقاتها على مسرح الروح.

تتساقط عناقيد التفاح.....

وأغصان شجرة الحب تتراقص،

تجمِّل أمسية عيد الميلاد.

تختفي الحدود بين السعادة وحبيبتي،

أهي السعادة، أم السعادة حبيبتي؟

في مايو ترسى الغيوم،

تمطر علينا الحب رذاذًا..

الحب ومايو أختان،

لا بداية لهما ولا نهاية، لا عمق هناك أو سطح.

في الثامن من مايو، تنبت ثمان شجيرات على جدائل حبيبتي،

تسقط سبع نجيمات على شفتيها..

وخلقت السماوات السبع من جدائل حبيبتي!!

كلـما طال البعاد بينـي وبـين زينـة، يـأتي فصـل الربيـع حامـلًا معـه آمـال المحبـين البعديـن والقريبـين في آنٍ واحـد. لكـن في هـذا العـام أتى مايـو بسـفينة الخلـود، حملنـي إلى أنهـار الحبيبة، وأبحـر بي إلى قلبهـا. في شـهر مايـو مـن كل عـام، تعـودتُ أن أسـتقيظ باكـرًا في الصبـاح، وأحـرص عـلى أن أكـون أول المهنئين بعيـد الميـلاد. في ذلـك العـام لم يكـن بمقـدوري تقديـم هديـة، لأننـا كنـا بعيديـن، الجغرافيـا تفصـل بيننـا، فقـررت أن أهديها قصيـدة. كتبتهـا، ثـم وشـحتها بصـوتي عـلى خلفيـة موسـيقية خالـدة أيضًـا. كانـت زينـة تسـبح في بحـور الأحـلام، لذلـك لم تـرَ الهديـة إلا بعـد سـاعات من إرسـالها. فلـما سـمعت صـوتي وأنـا أردد كلـمات القصيـدة، شـعرت بغبطـة وسـعادة بالغـين. راسـلتني قائلـة إنهـا لا تسـتطيع أن تتصـور حياتهـا مـن دوني وقصائـدي. مـع مـرور الوقـت اكتشـفت أن هنـاك أيامًـا كثـيرة بـدأت تحمـل معـاني جديـدة في حيـاتي. إذا كان الثامـن مـن مايـو لم يكـن يعنـي لي شـيئًا قبـل لقـائي إياهـا. كان يومًـا مجهـولًا بالنسـبة إليَّ آنـذاك، فـالآن أصبـح بالنسـبة إليَّ بمنزلـة أول المطـر. أنتظـره بفـارق الصـبر، أتشـوَّق إليـه، أُفكِّـر في الهديـة التـي يجـب أن أقدمهـا، وأتمنـى - في هـذا اليـوم مـن كل عـام - أن نحتفـل معًـا. مـن سـوء حظـي أو ربمـا مـن حسـن حظـي، لم أتمكـن ولـو مـرة واحـدة مـن تحقيـق هـذه الأمنيـة. عندمـا كنـا في إمبراطوريـة الجليـد كانـت زينـة تقـول إنهـا لا تهتـم كثـيرًا بتنظيـم احتفـال بمناسـبة عيـد ميلادهـا، ولكـن تشـعر بسـعادة عندمـا تحتفـل بعيـد ميـلاد أصدقائهـا وأقاربهـا.. كنـت أتـألم عندمـا أسـمع هـذه العبـارات التـي تُقـال عـلى ذلـك النحـو المُـبرَّر والتـي لا تبـدو عقلانيـة. ولكـن مـاذا أفعـل؟ في ذكـرى ميلادهـا - قبـل لقائنـا الأول - كنـت ألعـب كـرة القـدم في أزقـة القريـة مـع أبنـاء جيـلي، إذ كنـا نصنـع الكـرة مـن الجـوارب القديمـة ونحشـوها بـأوراق وأشـياء أخـرى ثـم نلعـب حتـى غـروب الشـمس.. وأحيانـا كنت أمتطي حـمارًا وأذهـب إلى الحقـل لأهتـم بزرعنـا، أو أجلـب

مـاءً إلى البيـت لنشربـه.. في الثامـن مـن مايـو، كنـت أعـترك مـع رفيقـي الصغـير الـذي سرق بالونتـي.. وكنـت أمـضي إلى خـزان المـاء لأسـتحم عندمـا تشـتد حـرارة الشـمس، فيـأتي حـارس الخـزان الـذي يريـد أن يعاقبنـي عـلى فعلتـي، فأركـض نافـدًا بجلـدي.. وكنـت أبـكي، لأن ثعبانًـا حقـيرًا عـضَّ أمـي الجميلـة.. أو كنـت أضحـك بصـوت مرتفـع لأن أحـد الجالسـين في حلقـة لعبـة الورقـة حـكى نكتـة لم يفهمهـا أحـد سـواي.. في الثامـن مـن مايـو كنـت أجلـس وأقـرأ مـادة الجغرافيـا فرأيـت موطـن زينـة المسـتقبلية فلـم أنتبـه.. في هـذا اليـوم كنـت أتجـول في القريـة، فرأيـت صبيـة جميلـة، أرادت أن أغازلهـا فرفـض قلبـي بأخـذ الخطـوة الأولى، لأنـه كان يدخـر الحـب لزينـة.. في الثامـن مـن مايـو كنـت جالسًـا أتأمل غيمة أتـت مـن جهـة الشـمال، فالشـمال بـلاد الحبيبـة. ثـم هطـل مطـر غزير وانعكس وجههـا عـلى شريـط قـوس قـزح، فصـوَّر ملامحهـا.. كنـت أحتسي القهـوة مـع أمـي، عندمـا كانـت حبيبتـي تـأكل كعكـة عيـد الميـلاد التـي أهداهـا والدهـا، وأنـا كنـت جائعًـا، لأن أمـي التـي صنعـت وجبـة الفطـور، أخـذت مفتـاح المنـزل سـهوًا فظـل الأكل بداخـل المنـزل، بـدلًا مـن أن يكـون بداخـل بطنـي.. في الثامـن مـن مايـو، زارني حلـم، ورأيـت نفـسي جائـلًا في حديقـةٍ مـا بالبـلاد البـاردة، وأحمـل وردة حمـراء.

لم أكـن أعـرف أن وقـع «القصيـدة» سـيكون ذا أثـر كبـير عـلى قلبهـا، لكـن عندمـا أمطـر الحـب عـليَّ سـحبًا ورُطبًـا جنيًّـا، أدركـت أنهـا كانـت أجمـل هديـة يمكـن أن تقـدم لمـن نحـب. العـام القـادم أم يجـب أن أقنـص للإلهـام مبكـرًا، حتـى أصطـاده في أقرب لفـة؟ لأنه يمُكـر علينـا كثـيرًا. لـذا ينبغـي أن نمكُـر عليـه أيضًـا. ننتظـره عندمـا لا ينتظرنـا، نتذكـره حـين يظـن ألَّا أحـد يحتـاج إليـه الآن. يجـب أن نـزور سـواحله ليـس في فصـل الصيـف، إذ يعـج بالسـياح الحوريـات القادمـات مـن كل حـدبٍ وصـوبٍ، بـل في فصـل الشـتاء والنـاس نيـام في أسرَّتهـم الدافئـة. وإذا حالفنـي الحـظ في

العـام القـادم، سـتبحر زينـة إلى شـواطئي في سـفينة الربيـع وتضمنـي بـين نهديهـا احتفـاءً بعيـد الميـلاد.

لم أكـن أحتفـل بعيـد ميـلادي، لأننـي لم أعـرف يـوم ميـلادي الحقيقـي. إذ تكتـب - في بـلادي، عـلى المسـتندات تاريـخ 1/1 كتاريـخ ميـلاد لجميـع النـاس، لا يمكـن أن يكـون عيـد ميـلاد شـعب كامـل في مطلـع ينايـر، وكأن الأسـلاف اتفقوا على ممارسـة الحـب في ليلـة محـددة، وتكـون الأسر محظوظـة في الخصوبـة، حتـى تحبـل جميـع النسـاء ليولـد شـعب بأكملـه في تاريـخ واحـد. لم يولـد رامارِيـس في تاريـخ ميـلادي نفسـه، بـل في الثالـث مـن أغسـطس. عندمـا رأيتـه أول مـرة كان يرتـدي قميصًـا بنيًّـا بأكـمام قصـيرة وشـورتًا باللـون الأبيـض، كان ابـن ميرانـدا ذا شـعر مجعـد، لـون بشرتـه مزيـج مـن لـون أمـه البرازيليـة ووالـده مـن ضفـاف الجليـد. كان ذلـك في ملهـى للأطفـال ليـس بعيـدًا عـن المنـزل. أخـذت معـي كعـكًا ودميـة إلكترونيـة صغـيرة في هيئـة طفلـة تغنـي. جلسـت عـلى الأرض لتتسـاوى أكتافنـا ثـم قلـت:

- رامارِيـس، يـا شـاطر، كل سـنة وأنـت طيـب، عيـد ميـلاد سـعيد. أمـك ونحـن كلنـا بنحبـك.

ثـم قدمـت لـه الهدايـا. ابتهـج، ولكـن لم ينطـق بكلمـة، كان ينظـر إلى أمـه لتسـمح لـه بأخـذ الهدايـا.

- خد يا رامي، دي هدايا من عمو علي.

نهضـت بعـد أن أخذهـا، وعانقـت أمـه. كان ينظـر إلينـا ويبتسـم وكأنـه أول مـرة يـرى أمـه تعانـق رجـلًا غـيره. أخـذت ميرانـدا إلى حلبـة التزلـج البلاسـتيكية، وعندمـا بـدأ يلعـب والدميـة في يـده، عـادت إليَّ.

سألتها:

- هسى عمره عمل كم؟

قالت:

- سنتين، لكن لسه ما قاعد يتكلم.

- الطبيب قال شنو؟

- الأطبـاء قالـوا في أمـل، لكـن مـا معـروف بالضبـط متـين.. قالـت ذلـك ثـم نظـرت إليَّ ودمعـة صغـيرة سـقطت عـلى خدهـا.

- إن شـاء الله خير، المهم ما تفقدي الإيمان بأنه ولدك حيتكلم قريب.

- أنت شايف كدا؟

- طبعًـا، لأنـه حالـة راماريـس مـا أول حالـة، في أطفـال كتـار في الدنيـا بـدو يتكلمـوا متأخريـن.

- صحيـح كلامـك، الدكتـور قـال إنـه في السـبب ممكـن يكـون أنـه أنـا بتكلـم معـاه بالبرتغاليـة وحبوبتـه بتتكلـم معـاه بلغـة تانيـة.. لكـن هـسى بقيـت أتكلـم معاهـو بلغـة حبوبتـه.

سألتها:

- ليه، أبوه ما جاء معاكم للاحتفال بعيد ميلاد الولد؟

- قال مشغول.

لم أطـرح عليهـا مزيـدًا مـن الأسـئلة الحساسـة حتـى لا يخيـم الحـزن عـلى الطقـس الاحتفـالي. قطعـتُ الكعـك وخـرج البطـل مـن الحلبـة. تناولنـا

الكعك واحتسينا عصير الرمان. قالت إحدى الأمهات كانت هناك مع طفلها:

- الولد دا صغير على النبيذ، الكلام دا عيب.

فرفعت لها إبريق العصير؛ اعتذرت عن اهتمامها البالغ على صحة راماريس، ثم قالت: عيد ميلاد سعيد.

- قالت ميراندا أنا سعيدة إنك جيت لغاية هنا عشاني، والله وقفتك معاي دي ما بنساها خالص.

- لا لا، عادي والله، دا الواجب بعداك أنا كنت عايز أشوفكم كمان. ولدك ما شاء الله عليه.

- شكرًا ليك.. أنت أخبار زينة شنو؟ ما جاية تاني؟ مدة طويلة ما كتبت ليها ولا هي كتبت لي.

قصصت لها حكاياتي مع زينة. شكوت لها ألم البعاد. ثم آمالي بلقاء قريب. قالت إن المسافات ليست عائقًا كبيرًا في استمرار العلاقات، المهم هو الإحساس المتبادل بين المحبين. ثم طلبت مني أن أتأمل في علاقتها بزوجها لأعرف أن القرب لا يعني السعادة بأي حال من الأحوال. كنت أريد أن أخلق لغة تواصل مع صغيرها، لذلك بدأت أصوب الكرة نحو قدمه. لم يستجب من الوهلة الأولى، فأعدت التصويب ثانية ثم ثالثة، أعادها إليّ في المرة الرابعة. بدأت اللعبة تحلو، ظللنا نلعب دقائق خمس.. كانت ميراندا تجلس وحيدة في المنصة الرئيسة وتنظر إلى الفريق الذي يتكون من فلذة كبدها وصديقها المعجب بصلابتها وسحرها الفريد. انتهت المباراة الودية بفوز راماريس، لكن النتيجة كانت لصالحي. قالت أمه:

- أول مرة يلعب مع رجل.

خرجنا من الملهى. قالت ميراندا مودعة:

- بخصوص زوجي ومستقبلي، أنا عرفت أعمل شنو. ما تشيل همي.

اتجهت أنا نحو محطة المترو، واتجه البطل الصغير إلى البيت متقدمًا أمه بخطوة.

تمر العلاقات الإنسانية بمختلف أنواعها بمراحل أزمات وازدهار، لم تكن علاقتي بزينة استثناءً. نتشاجر ثم نبرم اتفاقيات سلام. عادت إلى موطنها وتركتني للجليد يفعل بي ما يشاء. تواعدنا بلقاءات كثيرة فلم يُكتَب لها أن تتحقَّق، لكنَّ بحر الحنين كان ينبع من قلبي وروحها. لم يحدث شيء عظيم حتى تقرر إصلاح ما أفسدته تقلبات النساء، بل الزمن وحده كان يعالج كل الأعطاب التي جفَّفت اخضرار القلب. عندما عاد فصل الربيع محمَّلًا بالورود، قلت مُحدثًا نفسي: هذا هو الوقت المناسب لقطف أكبر قدر من باقات الورد. أفصحت لها عن رغبتي في اتخاذ خطوات جادة في إكمال الزواج لأنه الوسيلة الوحيدة لترويض العصافير المتمردة. ولأن الزواج يأمن لي عناء المسافات، والتقاليد التي لا تسمح بالعيش معًا مع حبيبتي دون إجراء عقد زواج. عندما عدت إلى بلادي في إحدى الإجازات.. أجريتُ اتصالًا هاتفيًا، قلت لها غدًا سأقدمك لأهلي، حتى يتعرَّفوكِ.. سيكون هذا من دواعي سرورها.

في ذلك اليوم كان منزلنا يعج بالضيوف الذين أتوا من دون دعوة، انتظرتهم حتى عادوا من حيث أتوا.. كانت أمي تجلس على السرير بجانبها أختي التي جاءت زائرة من القرية وأخي الصغير. قلت: لديَّ خبر مهم، أود أن أطلعكم عليه. فصمت الجميع: غدًا عند الثامنة مساء

سـأقدم لكم خطيبتي عـبر الفيديـو. أصيـب الحضـور بالدهشـة عندمـا تناثـرت كلـماتي عـلى مسـامعهم.. واصلـت حديثـي: تُدعـى زينـة، أعرفهـا منـذ مـدة طويلـة. درسـنا معًـا. هـي ليسـت فيلانيـة.. فقالـت أمـي: كـبرت يـا بنـي، انتظـرت طويـلًا رؤيـة أحفـادي. أخـيرًا جئـت بالخـبر الجميـل. أمـا أخـوتي لم يُعلِّقـوا بـل طلبـوا صـورة خطيبتـي. فأخـذت هاتفـي وعرضتهـا أولًا عـلى أمـي. فقالـت هـذه أجمـل فتـاة رأيتهـا. أنـت ابنـي الوسـيم الـذكي زينة تناسـبك. ثـم عرضتهـا عـلى أخـوتي. فقالـت أختـي القرويـة إن الفتـاة بيضـاء وليسـت مـن بـلاد الفيـلان. كانـت خلـف هـذه الجملـة معـان كثـيرة. كان النـاس في القـرى يعتقـدون أن زواج الفتيـات مـن قبائـل أخـرى يعنـي خروج الولـد مـن الأسرة، أمـا فتـاة تكـون مـن دولـة ولـون بشرتهـا مختلفـة، هـذا يعنـي اغـتراب كامـل.. قلـت لأختـي مُعلِّقًـا: أنـا لسـتُ الـذي كان في القريـة منـذ عقـود. لذلـك مـن الطبيعـي تختلـف رؤيتـي للأشـياء عـن رؤيتـك. لكـن عليـكِ أن تعـرفي شـيئًا واحـدًا، سـأكون سـعيدًا مـع هـذه الفتـاة لأننـي أحبهـا.. أمـا أخـي الصغـير فهنـأني وعـبَّر عـن إعجابـه بجمالهـا. سـألتني أمـي: إذا أراد اللـه وتزوجتهـا، أيـن ستعيشـان؟ فأجبـت بأننـي لا أعـرف حتـى الآن، أو لم نحـدد المـكان بعـد، لأن الـزواج ربمـا سـيكون بعـد عـام مـن الآن. أتى دور أختـي فقالـت: منـذ الآن عليـك أن تخبرهـا بـأن منزلـك سـيكون هنـا في بلـدك، إذا قبلـت ذلـك فيمكـن أن تعتمـد عليهـا. أمـا إذا رفضـت العيـش هنـا، هـذا يعنـي أنـك لـن تكـون سـعيدًا معهـا، لأن الحيـاة دائمًـا تحمـل مفاجـآت. ربمـا سـتعيش موفـور المـال والبنـون وفي المـكان الـذي تحبـه، لكن المصائـب جـزء مـن حياتنـا، لذلـك يمكـن أن تضطـر إلى العـودة إلى بلـدك. أمـا زوجتـك إذا رفضت المجيء معـك فسـينهار البنـاء. قلـت لأختـي: هـذه حيـاتي، وأنـا مـن يتحمـل المسـؤولية كاملـة. طلبـت أن يتوقـف النقـاش، وقلت انتظروني غـدًا عنـد السـاعة الثامنـة مسـاء. ثـم عـدت إلى غرفتنـا. لم أكـن أهتـم كثـيرًا بـرأي أختي. وأمي المرأة الطيبـة لا تختار لنـا الزيجـات..

أردت أن تتعـرَّف أسرتي زينـة فقـط احترامًـا لبعـض التقاليـد، لكـن علـيَّ أن أحـدِّد ملامـح مسـتقبلي وحـدي، وأختـار زوجتـي وحـدي.. كنـت أسـمع عبر النافـذة – بعـد أن عـدت إلى غرفتـي – أختـي تقـول لأمـي: ومـاذا عـن فتيـات القريـة، إذا الشـباب بدأوا يتزوجون نسـاءً ليـس فقـط مـن قـرى أخـرى بـل مـن دول بعيـدة؟ لكـن أمـي لم تُعلِّـق. في مسـاء اليـوم التـالي، كان المنـادي يـؤذن داعيًـا النـاس إلى صـلاة المغـرب، ذهبـت أمـي كعادتهـا مُلبيـة نـداء الآذان - طلبـت منهـا أن تتمنَّـى لي الجنـة – فقالـت لي: هيـا إلى الصـلاة، وهنـاك أدعـو اللـه ليدخلـك الجنـة.. لم أذهـب إلى المسـجد، ظللـت مشـغولًا بترتيـب اللقـاء والتعـارف. بعـد أن تحققـت مـن جـودة شـبكة الإنترنـت وجاهزيـة بطاريـة هاتفـي. قـررتُ أن أسـتحم لأهيـئ نفـسي. أمـا أخـي الصغـير وأختـي كانـا بالمنـزل. كانـت أختـي تعـد لنـا وجبـة العشـاء بالطريقـة القرويـة «عصيـدة ومـلاح ويكـة»، قالـت:

- يا أخوي، حتى العصيدة ما تعرف تعملها، والله بقيت غريب خلاص.

اقتربت منها، وقلت:

- لصناعـة العصيـدة تضـع مـاءً في النـار حتـى يغـلي، ثـم تصـب عجينـة مـن الدقيـق. وبعـد قليـل تضيفـين عليـه دقيقًـا وتخلطينـه بالمـاء حتـى يسـتحيل المـاء إلى عجينـة صلبـة. أمـا مـلاح الويكة فيتـم إعـداده بهـذه الكيفيـة: تقطـع بصلـة صغـيرة تُسـخَّن في الزيـت حتـى تأخـذ لونًـا ذهبيًّـا، يضـاف إليهـا الشرمـوط ثـم بعـض مـن البهـار، حسـب رغبـة الطبـاخ. وبعـد ذلـك تُوضَـع الويكـة المدقوقـة. وبعـد مـرور عـشر دقائـق يكـون مـلاح الويكـة جاهـزة لـلأكل.

لم تكـن أختـي تتوقـع معرفتـي الجيـدة بمطبخنـا، لذلـك أرادت أن تختـبرني. عندمـا نجحـت في الاختبـار، ابتسـمت ثـم قالـت:

- والله لسه فيك فايدة.

ثم ضحكنا. أتيت إلى أمي بعد أن عادت من المسجد إليها، وكانت أختي قد أعدت لنا وجبة العشاء. اتصلت بزينة. قدمتها إلى أمي. بعد إلقاء التحية على أمي، خيَّم الصمت عليهما. في بادئ الأمر، لم أفهم السبب وراء ذلك.. سألتني أمي عما تقوله الفتاة البربرية ذات الشعر المجعَّد الكثيف. حينها أدركت أن لكل امرئ لغته، فأديت دور المترجم. كان اللقاء تعارفيًّا خالصًا. وبعد أن فهمت أمي ما قالته زينة، تحدثت إليها أختي وأخي الصغير. كانت زينة تنادي أمي بتهذيب واحترام خاصين. فبدلًا من ندائها باسمها، كانت تقول لها خالتي أولًا ثم تذكر اسمها.

كنت أنتظر من خطيبتي موعدًا لتقدمني إلى أسرتها وخاصة والدها. مرت أيام، أسابيع وشهور، لكن لم يحدث أي شيء من هذا القبيل، سوى أنها تحدثت إلى أمها عن رغبتها في الزواج وأنها التقت الشخص المناسب لتعيش معه تحت سقف واحد. لم تقل لها من هو هذا «العبد لله». لا أعرف السبب الرئيس وراء هذا الغموض والتردد، ربما كان هناك شك ما. مع مرور الأيام بدأ الإحباط يتسلَّل إلى دواخلي. وبدأت أسال نفسي أكنت متسرعًا في هذا القرار. لكن الطمأنينة حلَّت عليَّ عندما تذكرت المقولة التي تقول «أدِّ حصتك واترك الآخر يؤدي حصته».

كانت زينة ليبرالية الاعتقاد. كانت ترتدي الجينز- الشورت والتي شيرت ولا تغطي شعرها والجزء الأعلى من صدرها. هكذا كانت عندما كنا معًا نتجول في أزقة الإمبراطورية.. وبعد عودتها إلى بلادها. وأنا أنتظر موعد التعارف بأسرتها، اختفت. توقفت الأخبار والرسائل، زرتُ صفحتها على مواقع التواصل الاجتماعي فوجدتها خالية من الصور سوى الصورة الشخصية وتظهر فيها وجهها وغطاء يحجب

شـعرها، على الرغْـم من أنهـا في المـاضي كانــت تنــشر صــورًا مختلفــة تشـارك العـالم جمالهـا وشـعرها المجعـد. في ذلـك الوقـت كانـت الحـرب في الـشرق الأوسـط وتحديـدًا في سـوريا مشـتعلة. وأيضًـا كانـت الأخبـار تتـوارد عـن ظهـور «داعـش» وانضـمام عـدد كبـير مـن المقاتلـين مـن جميـع بقـاع العالم بمـا في ذلـك الفتيـات. فأصبـت برعـبٍ. ظننـت أنهـا قد انضمـت إلى هــذه المجموعــة التــي تســعى إلى إقامــة دولــة خلافة إســلامية بقوة السـلاح. وازداد رعبـي عندمـا تذكـرت أن ذات مـرة وبينـما كنّـا نجلـس في أحـد المقاهـي، حدثتنـي زينـة عـن رغبتهـا في ارتداء الحجـاب. فقلـت لهـا: إن نقــاء القلــب هــو الأهــم. علينــا أن نحمي عقولنا مــن التلــف وليــس تغطيـة الجسـد. لكـن هـذا الأمـر يعـود لـكِ. عندمـا عـادت إلى الوطـن، لم أكـن عـلى تواصـل مـع أقربائهـا أو صديقاتهـا، لذلـك كان يصعـب عـليَّ أن أتحـرَّى مـا يجـري معهـا. لم يكـن في وسـعي فعـل شيء سـوى الانتظار. كتبــت رســالة إليهــا أســال فيها عــن أحوالهــا، فــردَّت أنهــا بخــير لكــن في حالـة «بحـث عـن معنـى الحيـاة». فأدركـت أن البحـر الـذي كانـت تسـبح فيـه كان عميقًـا جـدًّا. لم يكـن هنـاك مجـال للحديـث عـن تعـارف، أو لقـاء ولا زواج. صـار الوقـت إذًا للحديـث عـن معنـى الحيـاة، عـن وجـود اللـه أو عدمـه. عـن الجنـة والنـار، عـن الدنيـا والآخرة، عـن السـيد المسـيح، وعـن النبــي محمـد.

لم تكــن زينة أول مــن يتعــرض لمثــل هــذه التحــولات. فكلنــا نمــر بحـالات شـك عـام. نشـك في كل شيء، نختـار قيمنـا وقناعتنـا ثـم نصـل إلى إيمـان مبنـي عـلى الشـك والتأكـد. الفـرق بينـي وبينهـا هـو أننـي قـد مـررت بهـذه الحالـة مـن قبـل سـنوات، فوصلـت إلى رؤيتـي الخاصـة. وإيمـاني باللـه والحيـاة جـاء بعـد معركـة شرسـة بـين قناعـاتي القديمـة وعقلي. أما معركـة حبيبتــي فقــد بــدأت للتــو. لم أكــن أعــرف متــى وكيــف ســتنتهي هــذه المعركة؟ وأنا العاشــق المنتظر بلهفة موعــد التعــارف.

أشـعر بسـعادة بالغـة تجـاه أولئـك الذيـن يشـكُّون في كل شيء، يتأملـون ثـم يصلـون إلى خلاصـات. كانـت زينـة تتبـع لهـذه المجموعـة مـن النـاس، كـما يقـول ديـكارت «أنـا أفكـر إذن أنـا موجـود»: أي معنـى وجـودي يتحقق عـبر إعادة التفكـير في كل شيء ثـم الوصـول إلى مرسى لأفكاري أصنعـه لوحـدي. لا يمكـن أن أتقبَّـل كل الأفـكار والقناعـات كـما وجـدت، بـل لي عقـل يـؤدي دور المصفـاة ويختـار الـذي يناسـبه. مـن هـذا المنطلـق، كانـت زينـة تعـرض كل القناعـات التـي اكتسـبتها عـبر التقاليـد والتربيـة للشـك. لم يكـن يصيبنـي القلـق تجـاه هـذه التحـولات التـي تمـر بهـا لـو لم أفكـر في هـذه النقطـة: إذا كانـت زينـة تعيـد النظـر في كل شيء، تشـك في كل القيـم القديمـة، فـما الضامـن في إعـادة النظـر حتـى في الحـب، والـزواج؟ بـكل تأكيـد القيـم المجـرَّدة هـي أكـثر مـا يحتـاج الإنسـان إلى إعـادة التفكـير فيهـا. وهنـا ربمـا سـأكون أنـا وتجربتنـا العاطفيـة في محـك حقيقـي. ربمـا سـيُكتب لهـا حيـاة جديـدة وستسـتمر. لكـن الآن ليسـت هنـاك ضمانـات. في هـذه الحالـة، ليـس بمقـدور المحـب فعـل شيء سـوى الانتظـار. لكـن إلى متـى؟ مـع أن البحـر الـذي كانـت تسـبح فيـه زينـة كان عميقًـا، فإنـه أهـون إلى نفـسي مـن أن تكـون قـد انضمـت إلى داعـش. الانضـمام إلى هـذه المجموعـات يعنـي فقـداني لهـا بشـكل كامـل. وربمـا سـتفقد هـي حياتهـا وهـذه سـتكون الصدمـة القاسـية «القشـة التـي قصمـت ظهـر البعـير». وكان يمكـن لأحـد قيـادات داعـش أن يفـضَّ بكارتهـا ويفسـد نقاءهـا كإنسـانة وستصبح بالنسـبة إليَّ تاريخًـا هـو الأمـرُ في حيـاتي الماضيـة واللاحقـة.

لم تذهـب زينـة إلى داعـش.. والحمـد للـه، ولكنهـا لم تـأتِ إليَّ أيضًـا. ظـل الحـال كـما هـو عليـه مـدة طويلـة، يقـارب العـام أو أكثر. مـن زمـن إلى آخر كانـت تراسـلني وأكتـب لهـا أيضًـا مـن المدينـة الجميلـة وعجلـة الحيـاة فيها تتسـارع، لا تتوقـف. كانـت العجلـة في كل شيء: المـشي في الطريـق، الذهـاب

إلى المترو، السيارات في الطرقات تمر بسرعة عالية، طائرات تحط رحالها في مطاراتها الثلاثة وأخرى تحمل المسافرين إلى المدن البعيدة، الفصول تتبدل بسرعة، يأتي الشتاء بجليده، يذهب الهواة إلى حلبات التزلج التي تنتشر في المدينة، وآخرون يذهبون إلى ضواحيها أو إلى المدن البعيدة للتزلج في الجبال الشاهقة، ثم يعقبه الربيع حينها تمتلئ الطرقات والحدائق بالورود ويتوقف الناس من لبس المعاطف الثقيلة، بعد ذلك يحلُّ فصل الصيف، إذ الحسناوات يملأن الحدائق العامة. ورحلات الشواء تعاود مرة ثانية. أما الخريف فيأتي مبكرًا دون إنذار. يكون كريمًا بأمطاره الغزيرة. أحيانًا تهطل الأمطار لثلاثة أيام دون توقف، بنفس واحد، وبإيقاع واحد لكن الحياة تدب. هناك من يقع في فخ قصة حب جديدة وآخر يخرج من تجربة يسميها فاشلة، تلتقي زوجة – عن طريق المصادفة – بامرأة في المتجر وتكتشف أنها عشيقة زوجها، فتطلب الطلاق.. عشاق المشروبات الروحية تجدهم يسهرون الليل، يشربون الخمر ويتحدثون عن خساراتهم في الحياة، علاقات الحب وفصلهم عن العمل أو الخدمة العسكرية، فينضم إليهم المشردون ويزداد سمرهم جمالًا وإثارةً.. والشاب ذو الثلاثين ربيعًا يقابل حب حياته في إحدى الحانات، يدعوها إلى الرقص، تشعر الفتاة بسعادة بالغة فتتحسس رجولته ويذهبا في آخر الليل إلى أقرب الفنادق ليتقاسما نصيبهما من العسل الخفيف.. عندما تكون مقيمًا في مدينة مثل هذه، يمكن أن تتوقع كل شي.. يمكن أن تتغير حياتك في لحظة واحدة، كل الاحتمالات قابلة للتحقُّق، المنافسة فيها شرسة على كل المستويات. إذا لم تكن جيدًا في مجالك سيجد رب العمل شخصًا أفضل منك ويطردك عن العمل قائلًا: أطلب منك أن تستريح قليلًا، ربما لشهر أو شهرين، تبدو متعبًا. وعندما يمر عليك عام كامل، وهاتفك لم يرن ولن يرن، عندها سيقتلك الانتظار. ينبغي لك البحث عن عمل يليق بمقدراتك.

أما إذا أردت عملًا أفضل، أولًا عليك تطوير مقدراتك. المنافسة موجودة أيضًا في العلاقات العاطفية، لأن الخيارات متوفرة من الجنسين - فتيات وشبان – عليك أن تكون مواكبًا لتطوُّر الأحداث ولكي تجد حلولًا لأي تحدٍّ قد يأتي، أو ستفقد حبك في أقرب منعطف.

كانت زينة في رحلة البحث عن معنى الحياة وأنا أعيش في مدينة لا تعرف المستحيل. في الصباح كنت أذهب إلى الدراسة وأعود بعد منتصف النهار. أطبخ وجباتي المفضلة وأشاهد بعض الأفلام الُمحفِّزة للحياة، وعندما يطلبني صديق ألبي الدعوة، هكذا كنت أعيش حتى جاء تاريخ التاسع من مايو ذلك العام.

في ذلك اليوم دعتني زميلتي في الدراسة فرنسية الجنسية إلى الذهاب للاحتفال بعيد النصر، كانت تدعى ليندا، متوسطة الطول، عيناها زرقاوان كالسماء، وقصة شعرها تشبه قصات الشبان، كانت ترتدي فستانًا أسود اللون منثورًا عليه حبيبات من النجوم، وفي معصم يدها أسورة من الذهب الأبيض، وخاتم ذهبي على سبابة يدها اليمنى، كانت قد ورثته من جدتها التي عملت سكرتيرة بمكتب شارل دوغول. كان حذاؤها ذا كعب متوسط، يفوح منها عطر بنكهة الزعفران، أهداها إياه رفيقها السابق ذو الأصول المغربية. كانت توشح عنقها قلادة رفيعة كأنها لا ترى. كان الاحتفال يعد الأكبر والذي غيَّر مجرى التاريخ، وجعل العالم ينام تحت سماء آمنة. التقيت زميلتي أمام مدخل السكن الجامعي عند الرابعة مساء واتجهنا مشيًا إلى محطة المترو. بينما كنا في الطريق، التقينا فتاتين لم أكن على معرفة بهما. كانتا من جمهورية التشيك. قدمتني ليندا لهما، فاستقبلتا هذه الخطوة بترحيب حار. عرفت أنهما يدرسان معنا بذات الكلية، لكنهما قُدِمَتا إلى هذه المدينة منذ مدة قصيرة. عندما قالت زميلتي إننا ذاهبتان إلى وسط المدينة بالتحديد إلى ساحة النصر لحضور

فاعليات الاحتفاء بذلك اليوم العظيم، أبدت الفتاتان الرغبة في مرافقتنا. فلم نرفض انضمامهما إلينا. أصبح فريقي يضم أربعة أفراد. فقلت محدثًا نفسي: دیانتي تجيز زواج أربع نساء، إذن ستسنح لي فرصة اغتنام امرأة رابعة. لم تكن محطة المترو بعيدة، لذلك وصلنا في غضون عشر دقائق، ومن ثَمَّ استقللنا القطار الذي كان يتأهب للانطلاق. ولأن صخب القطار لا يسمح لك بالتحدث مع الفتيات، أخرجت سماعات الإذن وقرَّرت مشاهدة بعض من مقطوعات الفيديو الممتعة. فطلبت ليندا أن تسمع أيضًا فتقاسمنا سماعة الأذن. مع أن المشهد كان يعج بالرومانسية، فإن الاستماع إلى الموسيقى بأذن واحد لم يكن مريحًا. كان لا بدَّ من إشباع رغبة الأنثى. عندما خرجنا من القطار كانت المحطة مليئة بالراغبين في الخروج إلى ساحة النصر، ولأن الناس في هناك يحترمون الصفوف، كان علينا أن ننتظر حتى يأتي دورنا. على الرغْم من كثرة الناس، فإن المكان كان ممتعًا. كان الناس يرددون - بصوت واحد - أغنيات النصر، وهناك من يرقص. كان الفضول يقتل إحدى الفتيات التشيكيات، كانت تريد أن تنظر إلى الأمام لترى الراقصين، لكن قِصَرَ قامتها منعها من ذلك. فحملتها على كتفي حتى أنقذها من فتنة الفضول. عندما كانت على كتفي كان نهداها يقدمان لي الشكر بلمسات خفيفة، فأتتني طاقة من حيث لا أحتسب، بقيت ثابتًا خمس دقائق وهي على كتفي، ثم طلبت أن تنزل لتخفف عني الحمل، فرفضت أن أتركها، طلبت منها أن تبقى، كنت أشعر بقوة، وأنا أستمتع بهمسات نهديها وأسمع ضربات قلبها. كانت صديقتها قد أصيبت بالغيرة وطلبت مني أن أحملها أيضًا. عندها، وضعت الفتاة الأولى على الأرض، شعرت بألمٍ حاد في كتفي، ولحماقتي لم أبح بذلك، ولا أحد يحس بالألم سواي، ليتوقف النبع عن إمدادات النهدين. ذكرتني صديقتها بأنها تنتظر حتى أحملها في كتفي، فقلت إن الناس توقفوا عن الغناء وليس

هنـاك شيء في الأمـام يسـتحق المشـاهدة. لكنهـا أصرَّت عـلى الركـوب في كتفـي، قلـت مُحدِّثًـا نفـسي: هـل تظـن هـذه البنـت أننـي حـمار أتى مـن إفريقيـا إلى هنـا ليحمـل كل الفتيات الأوربيـات عـلى ظهـره؟ لكـن لا أحـد يجيب عن تسـاؤلاتي. حملهـا الحـمار عـلى كتفيـه. لسـعتها بشـكل خفيـف عـلى مؤخرتهـا لكن الجينز وهزيـج النـاس لم يُتيحـا لها اكتشـاف فعلتي. كان مقيـاس نهديهـا صغيرًا، لذلـك لم أسـتقبل منهـما أي آيـات شـكر وتقديـر. فقلـت لنفـسي مـا هـذا المصير؟ سـألت الفتـاة أكانـت قـد رأت مـا أرادتـه؟ فطلبـت أن تبقـى عـلى كتفـي دقيقـة أخـرى، وهـي المـدة الكافية لإشـباع فضولها، هكـذا قالـت لي. كانـت زميلتـي الفرنسـية تنظـر إلى كل هـذا المـسرح، وتشـعر بفخـر، وتقـول لنفسـها هـذا هـو زميـلي، الرجـل الشـهم. لكنهـا لم تطلـب هـي بدورهـا أن آخذهـا عـلى كتفي عـلى الرغْم مـن جسـدها النحيـل. كانـت عزيـزة النفـس لا تحتـاج إلى مسـاعدة مـن أي شـخص، كانـت مسـتقلة. كانـت تنتظـر منـي أن أقـترح لهـا هـذه الخدمـة المجانيـة، لكـن الشـاب الإفريقـي المتعـب مـن حمل الأوربيـات لم يكن بمقـدوره أن يقـدم أي خدمـات مجانيـة إضافيـة، حتـى لنفسـه.

خرجنـا إلى الشـارع الـذي يواجـه سـاحة النـصر، لم نسـتطع أن نتقـدم كثـيرًا. كانـت السـاحة مليئـة، كأنهـا سـفينة نـوح تحمـل مـن كل زوجـين اثنـين ويسـتعد للإبحار للضفـة الأخـرى. كنـا نقـف عـلى تخومهـا، ننتظـر موعـد إطـلاق الألعـاب الناريـة، إذ إننـا أتينـا لهـذا الغـرض. الاحتفال هـو إحسـاس يعيشـه الإنسـان بـصرف النظـر عـن المـكان. لكـن القـدوم إلى هنـا كان بطلـب مـن ليـندا التـي تعشـق رؤيـة بالونـات النـصر المضيئـة ذات الأحجـام الكبـيرة. ولأننـي كنـت أعيـش وحيـدًا بسـبب مقاطعـة زينـة لي، كان عـليَّ أن أقبـل كل العـروض التـي تُقـدَّم إليَّ، خاصـةً عندمـا تـأتي مـن أنثـى، فوجـود الجنـس اللطيـف بجـاني كان يُخفِّـف عـليَّ عنـاء الغربـة وجفـاء الحبيبـة. بينـما كان عـلى حافـة السـاحة، طلبـت زميلتـي أن نتقـدم

إلى الوسط، فلم أفهم الكيفية التي تمكّننا من التقدم. قالت اتبعني، فمثّلت لطلبها. بعد شد وجذب اقتربنا من وسط الساحة. كانت الجموع كبيرة جدًّا. وأنا الإفريقي الوحيد هناك. ومعي ثلاث فتيات، تشيكيتان وأخرى فرنسية. أتينا لنحتفل بعيد النصر. كنا ندرك في اللاوعي أن هذا النصر لم يحرر الشعب الروسي فقط من الفاشية، وإنما العالم بأسره بما في ذلك الألمان. لذلك كان لا بدَّ من التعبير عن المساندة والإحساس بالفخر تجاه هذا الشعب العظيم، أحفاد الأبطال. بدأت البالونات النارية تخرج من أفواه الدبابات العشر التي كانت تقف على تلة صغيرة، ربما اصطناعية، فكلما خرجت بالونة وحلَّقت عاليًا، أخذت أصوات الحضور تعلو أيضًا. كانت هناك لوحات فنية رائعة تُرسم في سماء الساحة. وكنا نتذكر شهداء السلام، فتشتد فينا العزيمة بالحفاظ على هذه التضحيات: أُناس قدموا أرواحهم من أجل أن يعيش العالم بسلام، فدورنا - كأبناء لهذا العصر- أن نحافظ على القيم العليا ونمُرِّرها للأجيال القادمة.

بدأت رحلة العودة إلى أعشاشنا، عندما أغلقت الدبابات أفواهها، وتوقفت البالونات النارية عن التحليق. كل طائر بدأ يُنشِّط أجنحته استعدادًا للرحيل. تلفتُ يمنةً ويسارًا ولم أرَ سوى زميلتي الفرنسية وبعض الغرباء. فسألتها عن التشيكيتين، قالت إنها لا تعرف أين ذهبتا، فتحسَّرت على هذا الفقد الكبير. وكان كتفي لا يزال يؤلمني. اختفاء الفتاتين يعني ألا مساج اليوم حتى يتعافى كتفي من الألم بشكل تلقائي. كنت أظن أن الفتاة التي حملتها على كتفيَّ لن ترفض لي طلبًا، ستدلك ظهري عندما نعود إلى البيت. ولكن الآن لا أعرف مكانهما وكل منَّا سيعود إلى المنزل وَحْدَه والألم لن يدعني أنام بهدوء. أما ليندا زميلتي فكانت من النوع الذي يتخذ كل القرارات على مهل وبطء، لذلك حدسي كان يقول لي إنني سأخسرها إذا عرضتُ عليها فكرة المساج.

عندما اقتربنا مـن محطـة المـترو القريبـة مـن سـاحة الاحتفال، وجدناهـا مغلقـة لأن الجمـوع كانـت كبـيرة ولا يمكـن أن يدخـل كل هـذا الفـوج في آن واحـدٍ، عـبر بوابـة المحطـة الصغـيرة تلـك. فاضطررنـا إلى الذهـاب مشـيًا إلى المحطـة التاليـة. وفي الطريـق إلى هنـاك، طلبـت زميلتـي أن تتنـاول كوبًـا مـن القهـوة، وأخـذت أنـا علبـة سـجائر. جلسـنا في مقعـد كان وحيـدًا في حديقـة عـلى قارعـة الطريـق. اسـتمتعت هـي بقهوتهـا، واحتفلـت أنـا بسـيجارتي.. واصلنـا السـير إلى محطـة المـترو. مـن حسـن حظنـا، كان المـترو يعمـل في أيام الاحتفالات حتـى الثالثـة صباحًـا ولا يحتـاج الإنسـان إلى تذكـرة حتى يسـتغل القطار. عندما اقتربنا مـن المحطـة وجدنـا صَفًّـا طويـلا، وقفنـا أولًا، ثـم بدأنـا نتحـرك شـيئًا فشـيئًا كحجـاج المسـجد الحـرام، حتـى جـاء دورنـا فولجنـا إلى داخـل المحطـة وركبنـا أول قطـار أتى إلى المحطـة. بينـما كان القطـار يمـضي بنـا، كنـت أفكـر في الفتاة التشـيكية التي حملتهـا عـلى كتفـي. وكنـت أتمنـى أن ألتقيهـا داخـل القطـار، ولـو عـبر المصادفـة، لكـن «ليـس كل مـا يتمنـاه المـرء يدركـه». مثلـما كانـت السـاحة مليئـة بالنـاس، كان القطـار مليئًـا حتـى لم نجـد مقعـدًا نجلـس فيـه. وكنـا نعتـز بشـبابنا لذلـك لم ننزعـج، إضافـةً إلى ذلـك، كان النـاس يـرددون أغنيـات النـصر داخـل القطار، فأصبـح الطقـس احتفاليًّـا. ثـم شرعنـا بدورنـا في ترديـد الأغنيـات أيضًـا رغـم أننـي لم أكـن أحفظهـا. وصلنـا إلى محطتنـا دون أن نشـعر بعنـاء الرحلـة. أفسـحت المجـال لزميلتـي لـكي تخـرج أولًا، بعـد ذلـك تبعتهـا بالنـزول. كان ذلـك المسـاء كان دافئًـا، وهـو نهايـة فصـل الربيع، فاتجهنـا إلى السـكن الجامعـي مشـيًا عـلى الأقـدام. كانـت ليـندا تسـألني عـن انطباعـي عـن الاحتفـال والرحلة، وأنا كنـت لا أزال أفكّـر في كتفـيَّ والفتـاة التـي حملتهـا عليهـا، لذلـك لم أجب عن السـؤال. فكـرَّرت عـليَّ السـؤال، حينهـا قلـت إن الاحتفـال كان جميـلًا ووجودهـا أعطـى اليـوم نكهـة مختلفـة، وشـكرتها عـلى تقديمهـا لي الفتاتـان. فتعجَّبـت ثـم

قالـت إنهـا كانـت تظـن أننـي قـد نسـيت أمرهـما، فقلـت لم أنـسَ، لأن كتفـي كان يؤلمنـي. فضحكـت وأفـكار كثـيرة بـدأت تجـول في ذهنهـا.

كانـت زميلتـي الفرنسـية تسـكن وحدهـا في المبنـي الـذي يجـاورني. فعندمـا وصلنـا إلى هنـاك، قـررت مرافقتهـا حتـى مدخـل المبنـى. لكنهـا رفضـت، لأنهـا لم تـرَ فرقًـا بـين الرجـل والمـرأة في ذلـك. فهـي قويـة ومسـتقلة ومثـلي تمامًـا هكـذا كانـت تظـن. نشـأ أحفـاد العـم نابليـون وجـان بـول سـارتر عـلى المسـاواة بـين الرجـل والمـرأة عـلى كل مسـتويات الحيـاة. لم تكـن مظاهـرات طـلاب السـوربون في ثـورة مايـو 68 عبثًـا، فنتائجهـا أسَّسـت نمطًـا اجتماعيًّـا جديـدًا، وكان ذلـك ماثـلًا في سـلوك لينـدا. افترقنـا في منتصـف الطريـق، كلٌّ منـا ذهـب وحيـدًا إلى غرفتـه. لكنهـا عانقتنـي عنـاق الـوداع، فتمنيـت لهـا ليلـة سـعيدة. قالـت إنهـا اسـتمتعت بقضـاء وقتهـا معـي وتتمنـى أن تلتقـي بي في قـادم الأيـام. عندمـا اسـتلقيت عـلى سريـري في تلـك الغرفـة الكئيبـة، كنـت أبحـث عـن النـوم، ولكنـي لم أجـده. كان ذهنـي مشـغولًا ليسـت بزينـة - هـذه المـرة – وإنما بالفتـاة التشـيكية. بعـد مـرور سـاعة مـن الوقـت، أتى النـوم بعـد رحلـة التسـكع الطويلـة تلـك وأخـذني في أحضانـه الوثـيرة.

كان صبـاح اليـوم التـالي بهيًّـا أيضـا، والحيـاة تـدب في شريـاني بنشـاط وخفـة. كان قلبي مطمئنًـا ولا «يفكـر في القيامـة»، أمـا جهـازي الهضمـي كان يـئن، فذهبـت إلى المطبـخ حامـلًا خمـس بيضـات، حمَّرتهـا، ثـم مـلأت كـوبي بالقهـوة الإثيوبيـة التـي أرسـلها إليَّ أخـي مـن بـلاد الفيـلان وعـدت إلى غرفتـي. جلسـت وبـدأت ألبـي نـداء الغريـزة. همسـت لي معـدتي بأنهـا قـد امتـلأت، فتوقفـت عـن الأكل، لكـن كـوب القهـوة كان يغـازل راحـة يـدي اليمنـى. بـدأت أتفحَّـص جيبـي عـلى أمـل أن أجـد مذكـرة مـن إحـدى الفتاتـين. قلـت محدثًـا نفسـي: ربمـا وضعـت الفتـاة التـي حملتهـا في كتفـي وقـدم نهداهـا آيـات شـكر ورقـة عـلى جيبـي دون أن ألحـظ. كانـت جيـوبي

خالية مـن المذكـرات لكنهـا مليئـة بـالأوراق النقديـة التـي كانـت فقـدت قيمتهـا في تلـك اللحظـة، لكـن أمـلي خـاب. لأنهـا بـدت لي أرخـص مـن مذكـرة غراميـة كنـت أبحـث عنهـا. عـلى الرغـم مـن أننـي لم أتمكـن مـن مـد خيـوط التواصـل مـع فتيـات ليلـة الأمـس، فـإن القلـب بـدأ ينبـض دون نشـاز، وبـدأت أنـا البحـث عـن تجربـة عاطفيـة أخـرى، كانـت تلـوح في الأفـق. لم يكـن انتظـار زينـة أمـرًا مقنعًـا لقلبـي في ذلـك الوقـت. لأن القلـب تعـب مـن طـوال الانتظـار، والآن ربمـا سـتطول زينـة في رحلـة بحثهـا عـن معنـى الحيـاة. كان لا بـدَّ أن أهيـئ نفسي لنمـط حيـاة جديـد. مـن حسـن حظـي، كنـت أعيـش في مدينـة الأمنيـات والفرصـة المتعـددة، لذلـك كان مـن السـهل الانصهـار في عالمهـا. لم أكـن وحدي الذي يعـاني بُعـاد الحبيبـة، إذ ربمـا سـأجد مـن يقاسـمني الألم.. هكـذا كُنـت أطمـئن نفـسي. ظهـور البنـت الإفريقيـة ذات الشـعر المُجعَّـد في حيـاتي كان أجمـل شيء حـدث لي حتـى تلـك اللحظـة. لم تكـن أرض المهجـر قاسـية عـلى نفـسي. كُنت أسـتمتعُ بأحـداث المدينـة، أشـارك في صناعـة جـمال الحيـاة اليوميـة. كنـت أرتـدي أزهـى الملابـس. أتجـوَّل مـع حبيبتـي في أزقـة المدينـة. نتبـادل الابتسـامات مـع عابريـن. بفضـل زينـة كان العـام يمـر وكأنـه شـهر، وسـاعة الـدرس تعـبر وكأنهـا دقائـق. كنـت أشـعر بثقـة بنفـسي وأنـا أتحـدث اللغة الروسـية مـع بائـع الأحذيـة، وكان يفهـم لغتـي المصبوغـة باللكنـة الإفريقيـة. وعندمـا تحـل علينـا إجـازة العـام الـدراسي، لم أكـن أفكـر في العـودة إلى بلـدي. أصبحـت زينة بمنزلـة أسرتي. كان المسـتقبل المـشرق مرسـومًا في ملامحهـا. لم يكـن هنـاك مـا يدعـو للقلـق. ولكـن بعـد مغادرتهـا المدينـة، لم تعـد الأمـور كـما كانـت في المـاضي. بـدأت المدينـة تكـشِّر عـن أنيابها. تقتلني الوحـدة. فعندما يمازحنـا القدر مزحة سـاخرة، تحـدث الخلافـات وتتوقـف رسـائلها، تصـاب الرؤيـة بالعتمـة. أفقـد شـهيتي في الأكل. أتوقـف عـن ممارسـة الرياضـة وتقـلُّ جـولاتي حـول المدينـة. كل هـذه الأشـياء مجتمعـة

كانـت تنـذر بنهايـة حضـارة كاملـة. حديقـة قلبـي التـي غرسـتها بيـديَّ وكنـت أسـقيها بالمـاء مـن السـماء وأعتني بها مـن الغـزاة، تبقَّـى وقـت قصـير حتـى تـأتي أكلهـا، ولكـن قبـل أن تتفتَّـح تويجـات الزهـور، حـدث التغـير المناخـي، فـازداد الطقـس حـرارةً وأغلقـت السـماء أبوابهـا ولم تعـد تمطـر.. لذلـك مثلـما تبحـث زينـة عـن معنـى الحيـاة، كان علـيَّ البحـث عـن نبـع آخـر يرفـد حديقتـي بالحيـاة. اسـتجبت لدعـوة زميلتـي الفرنسـية بالخـروج معها للاحتفال بعيـد النـصر، ولكـن ذلك اليـوم كان بداية الاحتفال الكبـير لقلبـي. وفي تلـك اللحظـة بـدأ طريقـي يأخـذ منحـى مختلفًـا. لم تعـد بحـيرة روحـي تصـب في نهـر زينـة. تغـيَّر مجراهـا مـن إفريقيـا إلى أوروبـا. ومـن الصحـراء إلى بلـد الجليـد، بـدأ النبـع في البحـث عـن مسـار آمـن يقـوده إلى مسـتقبل أفضـل.

كانـت حالتـي هـذه تشـبه حالـة أم راماريـس البطـل الصغـير، فهـي أيضًـا حـددت هدفهـا، عرفـت كيـف تتعامـل مـع وضعهـا الأسري المعقـد، لكنهـا لم تخـبرني عـن الخطـوة التـي تنـوي اتخاذهـا. اتصلـت بهـا في ذلـك اليـوم بسـبب اهتمامـي بمصيرهـا مـن جانـب، ولفضـولي الغامـض مـن جانـب آخـر. قالـت إنهـا بالجامعـة وتسـتطيع أن تقابلنـي لعـشر دقائـق فقـط. ركضـت إليهـا لأشـبع فضـولي وليهـدأ بـالي. لم يكـن الحـزن يسـيطر عليهـا، كانـت سـعيدة، مليئـة بطاقـة إيجابيـة. عندمـا رأتنـي قالـت:

- بمـا إنـه الراجـل دا أهـداني طفـل جميـل، ومـا قاعـد يبخـل علينـا بالمصاريـف، معناتـه أنـا بقعد معـاه لآخر لحظة، بس بنـسى موضوع (الحب) دا خالـص، بهتـم بالولد والدراسـة بعداك لمن أخلص الجامعة أشـتغل.. الوقت داك الولـد بكـون كـبر وبـدا يتكلـم، حيكـون هـو الراجـل والولـد في البيـت.

كانـت رائحـة البطولـة تفـوح مـن هـذا الـكلام، لكـن لم أكـن واثقًـا مـن قدرتهـا عـلى تحقيقـه. قلـت لهـا:

- والله فكرة ممتازة بس صعبة شديد.. في كل الأحوال، أنا معاك وإذا احتجت حاجة بكون قريب دائمًا.

شكرتني على هذه المؤازرة ثم قالت:

- بس حبوبة الولد ماشة القرية، لو سافرت بضطر مرات بجي بيه الجامعة.. لو فاضي تقدر تقعد معاه لمن أدخل المحاضرة؟ أكيد، أكيد.. أجبت.

طلبت مني أن أقف، ففعلت.. عانقتني ثم قالت:

- حاسة بيك يا ولد.

إفريقيا تخلَّت عني، كالأب الذي يخرج من البيت – فجأةً – دون عودة مُخلِّفًا طفله وراءه. كنت أتابع صفحاتها على مواقع التواصل الاجتماعي، كالشيخ القروي الذي ينتظر كل يوميًّا نشرة الأخبار المسائية التي تُبث على التلفزيون ذي القناة الواحدة ولون الشاشة (أسود - أبيض). بدأت أسأل نفسي: هل ينبغي عليَّ انتظار الفتاة بشعرها المُجعَّد الجميل تحت كل الظروف؟ يجب أن يكون الحب مُخلِصًا وقادرًا على التضحية. ولكن هل تستوعب هي ذلك؟ التضحية من طرف واحد ربما مرادف للسذاجة؟ لم تكن هناك إجابات على هذه الأسئلة سوى صدى الوحدة الذي لا يكف عن التردُّد من حولي.

كان عيد النصر يومًا فاصلًا، وكان رمزيًّا يُمثِّل انتصارًا لقلبي. بعد أن عدت في تلك الليلة ورفضت الفرنسية أن أقودها حتى باب غرفتها، تمنيت لها ليلة هادئة وافترقنا. في الأيام التالية، كان في ذهني لوحة واحدة، مشهد الفتاة التشيكية، لكن لم أعرف طريقًا لمقابلتها. ولم يكن بإمكاني أن أوجِّه سؤالًا عن الفتاة التشيكية للينِدا التي كانت تكنُ

لي – في مستوى اللاوعـي – شـعورًا مـا بالحـب.. لـو شـئتُ يمكـن أن أكـون وقحًـا وفظًّـا، لكـن هــذه ليسـت سـمات المثقفـين قلـت لنفـسي وزادت قيمتـي بهـا. أحيانًـا يجـب تـرك الأشـياء تـسري كـما تشـاء. لا ينبغـي ليَّ وتـيرة الأحـداث أو تحريـف اتجاهاتهـا.. كنـت أذهـب إلى الجامعـة وأعـود، وكأني «روبـوت» يخـرج إلى السـوبرماركت يتبضـع ويعـود. عـلى الرغْـم مـن أننـي جسـديًّا كنـت أجلـس بقاعـة الـدرس، فإننـي ذهنيًّـا كنـت بعيـدًا، كان ذهنـي مشـغولًا باللوحـة، ربمـا في بـراغ حيـث قلعـة كافـكا.

إذا كان نيوتــن قــد اكتشــف قانــون الجاذبيــة بســبب رقــاده تحــت الشـجرة، فـإن سـبب إيمـاني بهـذا القانـون كان ذلـك اللقـاء المفاجـئ بالفتـاة التشـيكية عنـد مدخـل الكليـة. كان ذلـك في يونيـو، عنـد السـاعة الثانيـة ظهـرًا، بينـما كنـت ذاهبًـا إلى محاضرة «مشـكلات الفلسـفة المعـاصرة» عبرت نقطـة الكنـترول، لأجـد الفتـاة ومعهـا رفيقتهـا، في بـادئ الأمـر لم يتعرفـاني. ربمـا لأننـي لم أكـن أشـغل بالهـما، لكـن الوضـع بالنسـبة إليَّ كان مختلفًـا، ألقيـت عليهـما السـلام، فـردت الفتـاة التحية بأحسـن منهـا. عانقتنـي الأولى، ثـم فعلـت الأخـرى. هـل تذكرانني؟ سـألت، فكانـت الإجابـة: بـكل تأكيـد، التقينـاك في الاحتفـال بعيـد النـصر، وشـكرًا لحملـك لنـا عـلى كتفـك، ثـم ابتسـمتا. في تلـك اللحظـة شـعرت بـالألم في كتفـي قـد اسـتيقظ. تحدثنـا خمـس دقائـق، سـألتهما عـن الاختفـاء المفاجـئ في ذلـك المسـاء. فقالتـا إنني لم أكـن وحـدي منـذ الوهلـة الأولى للقـاء، ولم ترغبـا في سـوء فهـم. فأدركـت أن سـبب الاختفـاء هـو شـعورهما بأننـي وصديقتـي الفرنسـية في عَلاقـة عاطفيـة أو ننـوي عـلى ذلـك. ذهبـتُ إلى محـاضرة «مشـكلات الفلسـفة المعـاصرة» بعـد أن تبادلنـا أرقـام الهواتـف. اقتربـت مـن القاعـة، ثـم قلـت في نفـسي: عـليَّ أن أعتنـي بمشـكلاتي العاطفيـة المعـاصرة أولًا، وعـدتُ مُسرعًـا إلى الغرفـة. كنـت في حاجـة ماسـة إلى مـكان مغلـق وهـادئ لـكي أفكـر في مشـكلاتي، باحثًـا عـن حلـول لهـا. فأنـا الآن وحيـد أمـام ثـلاث فتيـات أو أربع

إذا أخذنـا في الاعتبـار الفتـاة ذات الشـعر المُجعَّـد مصـدر أملـي وسـعادتي. لم أكـن أعـرف شـيئًا عـن الفتيـات الثـلاث أو (الأخـوات الثـلاث) كـما يقـول تشـيخوف. فأنـا لا أريـد صداقـة معهـن، بـل أريـد عَلاقـة حـب. أنـا لسـتُ ضـد الصداقـة مـع الأنثـى. فقـط لم تسـنح اللحظـة المناسـبة لذلـك! إضافـةً إلى ذلـك كانـت لـديَّ صداقـة مـع فتيـات بـلادي. عندمـا وصلـت غرفتـي وجدتهـا مغلقـة؛ حاولـت فتحهـا ولكـن لم أسـتطع، فجـأة سـمعت صـدى الآهـات تـأتي مـن الداخـل؛ طرقـت البـاب، فـردَّ جـاري قائـلًا: لـو سـمحت، أنـا الآن في مهمـة خاصـة، هـلا عـدت بعـد نصـف سـاعة؟ فخرجـت إلى المقهـى القريـب. كان جـاري مـن وقـت إلى آخـر يواعـد فتيـات في غرفتنـا. لم أكـن أعـرف إن كانـت حبيبتـه واحـدة، أم كان يؤمـن بتعـدد الحبيبـات. فأنـا لم أرَ يومًـا وجـه فتـاة، فقـط كنـت أسـمع الآهـات تـأتي مـن داخـل غرفتنـا، ولكـن عنـد المدخـل كنـت أرى مـن زمـن إلى آخـر أحذيـة نسـائية جميلـة. حتـى فكـرت ذات مـرة أن أبتـاع لأختـي القرويـة واحـدة عـلى تلـك الشـاكلة. رغـم أن جـاري كان يخـبرني بموعـد مجـيء الفتـاة حتـى أتـرك لهـما الغرفـة، ولكـن يبـدو أنـه كان قـد نـسي في ذلـك اليـوم، وعندمـا أراد أن يكتـب لي رسـالة بهـذا الخصـوص، لم يجـد رَقَـم هاتفـي ضمـن قائمـة الأرقـام التـي كانـت في هاتفـه. جلسـت في المقهـى، أخرجـت ورقـة وقلـمًا، بـدأت أتسـاءل: الفرنسـية، أم التشـيكية؟ فـكان قلبـي يقـول الأخـيرة، ولكـن أيُّ واحـدة فيهـما؟ قـال قلبـي مـن حملتهـا عـلى كتفيـك في المـرة الثانيـة. أمـا بدايـة السـيناريو سـتكون عـبر المقابـلات الوديـة، وسـنترك الزمن يحـدد اللحظـة المناسـبة للانطلاقـة. عندمـا عـدت إلى الغرفـة بعـد نصـف سـاعة، سـألت جـاري عـن سـبب الآهـات والـصراخ. فقـال هـذا كان صـوت حبيبتـي، لكنهـا كانـت تتصنَّـع... ابتسـمت، ولم أعلـق عـلى كلامـه لأنـه لم يكـن يعنينـي كثـيرًا.

تنعكـس دلالـة الاسـم عـلى حاملـه، فـكان لا بـدَّ أن تحمـل الفتاتـين

التشيكيتين هذين الاسمين - كايت وإيفا. كانت الأولى ملامحها كالوردة بعد هطول المطر، أما إيفا فهي أم البشرية لا تشبه أحدًا سوى ذاتها. تعتريها رغبة دائمة في الاستقلالية والغواية. في مساء ذلك اليوم، بعد المفاجأة الجميلة عند مدخل الكلية، كتبت رسالة نصيَّة لإيفا: سأكون سعيدًا بتناول كوب قهوة معكما. لم يمضِ وقت طويل حتى جاءني الخبر اليقين، مفاده أنهما على استعداد للمقابلة غدًا الجمعة وعليَّ أن أحدد المكان المناسب للقائنا، ولأن من خلال تجربتي أدركت أن في الثقافة الأوروبية الانطباع الأول عن الإنسان له تأثير كبير في استمرارية العلاقة بمختلف أشكالها، زمالة، صداقة أو حتى علاقة الحب، فكان عليَّ أن أختار موقعًا مناسبًا يوفر أجواءً لطيفة يجعل الانطباع الأول ممتازًا. بالإضافة إلى أن حفيدات كافكا سيشعرن بأي تصنُّع قد يصدر مني، لذلك يجب أن أكون على مزاج جيد وبمبررات حقيقية. فكتبت رسالة حددت فيها مكان اللقاء «كافي أدِّيس» عند الخامسة مساءً. في صباح الجمعة، استيقظت من نومي العميق، تناولت وجبة الفطور، ولأن لا شيء يمدني بطاقة إيجابية وحيوية كما تفعل الرياضة. عند الواحدة ظهرًا ذهبت إلى النادي الرياضي، أديت تمارين «كمال الأجسام» ورياضة الركض.. عدت إلى المدينة الجامعية. أديت بعض الواجبات، وخرجت متجهًا إلى المقهى. كان «كافي أدِّيس» يملكه رجل أعمال إثيوبي، جاء إلى إمبراطورية الجليد قبل نصف قرن إبان الاتحاد السوفيتي، أكمل الجامعة والدراسات العليا، تزوج امرأة روسية ولديهما بنت جميلة تُسمَّى «أفروروسيا». كان الرجل هادئ الطبع، يسعد لرؤية أبناء قارته، يمد يد العون للطلاب المحتاجين. الابتسامة الصادقة لا تفارق وجهه. كان المقهى حكاية إفريقية قديمة. غابات القارة السمراء، حيواناتها الأليفة والمتوحشة، الموسيقى الإفريقية، وقائمة الطعام كذلك. كان حائط المقهى مزينًا باللوحات التي تعكس

الحيـاة اليوميـة في إفريقيـا، كـما كانـت هنـاك لوحـة لفتيـات عنـد البـئر يرتديـن الثـوب التقليـدي، وأخـرى كان صدرهـا عاريًـا يستنشـق الحريـة، في حـين أنـه في البعيـد راعـي بقـر ينظـر إليهـا بطـرف عينيـه. ولأن الأوروبيـات لديهـن نزعـة الولـع بـكل مـا هـو غريـب واكتشـاف غموضـه، ثـم إن وجـود كايـت وإيفـا بجانبـي سـيزيل كل الشـكوك بأنهـما الآن في رحلـة إلى دهاليـز إفريقيـا. وصلـت إلى المقهـى قبـل الموعـد المحـدد. اخـترت ركنًـا هادئًـا. جلسـتُ، أمـا الغزالتـان فجاءتـا بعـدي بقليـل. كان هنـاك شـاب إفريقيًّـا آخـر، أظنـه مـن دولـة تشـاد يجلـس في المقعـد المجـاور، فتشـابهت عليهـما الملامـح، فجلسـت إيفـا بجانبـه، وعندمـا أرادت كايـت أن تجلـس، ناديتهـا، فضحكتـا.. بعـد ذلـك انضمتـا إليَّ. قالـت كايـت: المقهـى جميـل جـدًّا، أشـعر براحـة داخليـة، وكأننـي لسـت بروسـيا. فقلـت في نفـسي: عـلى مـا يبـدو نجحـت الخطـة، فـأردت تأكيـدًا، لـذا سـألت إيفـا: مـا رأيـك في هـذا المـكان؟ قالـت: هـذا المـكان يشـبه الحكايـات الأسـطورية التـي قرأتهـا في طفولتـي، ثـم أضافـت: حلمـي منـذ وقـت طويـل أن أزور إفريقيـا، خاصـةً كينيـا، فـالآن لـديَّ صـورة شـبه مكتملـة عـن إفريقيـا. أشـكرك عـلى اختيـار هـذا المـكان. عندهـا قلـت مفتخـرًا بنفـسي: يـا معلـم، يـا معلـم.. جـاء النـادل وقـدم لنـا قائمـة الطعـام، طلبـت منـه أن يأتينـا بقهـوة بالطريقـة الإثيوبيـة، أي في أبريـق كبـير مـن الفخـار، مُزيَّـن بالألـوان الإفريقيـة المعروفـة، ومعهـا أكـواب صغـيرة. سـأل النـادل أكنـا نريـد شـيئًا آخـر، فقالـت كايـت: لـو سـمحت، كـوب مـاء. هـزَّ النـادل رأسـه في إشـارة عـلى الموافقـة ثـم غـادر. بـدأتُ أنـا الـكلام، تحـدث عـن نفـسي مـرةً أخـرى، وعـن بلـدي، ثـم تجربتي في روسـيا بشـكل مقتضـب. فأدركـت أنهـما لم تعرفـا شـابًّا مـن بـلاد الفيـلان قبـلي، بـل أكـثر مـن ذلـك لم تعرفـا دولـة بهـذا الاسـم «بـلاد الفيـلان». لذلـك كان ينبغـي لي أن أتحـدث قليـلًا عـن بلـدي، ذكـرت أشـياء جميلـة كثـيرة، مثـل المعـالم الرئيسـية، ولكـن لم أسـتطع أن أخبرهـما بـأن رئيـس البلـد

ضابط جيش عاقر، يحكم منذ خروج المستعمر. جاء النادل بالقهوة وأنقذني عن الكلام غير المُحبب إلى نفسي. عند رؤية أبريق القهوة، قالت إيفا وكايت في آن واحد: ما هذا الجمال؟ لا يصدق، هل هذه قهوة؟ وعيونهما ملأى بالدهشة، فلم أجِب عن هذا السؤال، تركت القهوة تدافع عن سحرها وحدها.

كان المساء لطيفًا خفيفًا والموسيقى الإفريقية لا تتوقف عن كرمها. كُنا نحتسي القهوة ونتحدث عن أوجه الشبه والاختلاف بين سكان براغ وكوش وموسكو. من حسن الحظ كانت بين هذه المدن قواسم مشتركة كثيرة. مثلًا الناس هنا وهناك يقعون في الحب، يأكلون ويشربون، يذهبون إلى الحمام للتغوط. توجد مدارس أساس وثانوي وجامعات، إضافة إلى أنهم يتشاركون في أكل البيتزا ويولدون من رحم الأمهات. أما أوجه الاختلاف، فتمثّلت في أن سكان الفيلان بشرتهم سوداء أو سمراء، أما في موسكو وبراغ فإن لون البشرة بيضاء. قالت إيفا: يذكرني لون بشرتك بالشكولاتة.. فقلت: نكهة جسدي أيضًا بطعم الشكولاتة، ضحكت ثم قالت: سنرى. كنت محظوظًا بلقاء هاتين الفتاتين والمسؤولية المُلقاة على عاتقي كانت كبيرة في الوقت نفسه، إذ إنني أول شاب من بلاد الفيلان يلتقيهما. وهذا يعني انطباعهما عني سيكون - ضمنيًّا – انطباعهما عن بلادي.. ولأن سفاراتنا لا تؤدي دورها، فعليَّ أن أصلح ما أفسدته وتفسده السفارات. مع ذلك، كان عليَّ أن أحافظ على قدر عالٍ من الصدق في كلامي، وفي نهاية الأمر إن كان لفولاني نصيب من هاتين الفتاتين فسأكون أن الفائز الأول والوحيد. قالت كايت: حتى الآن، لدينا ثلاثة أشهر منذ قدومنا إلى هنا. ورغم جمال المدينة وضجيجها، فإنني كنت أشعر بوحدة وملل، لذلك أشكرك على أنك أضفيت على مسائنا جمالًا. فشعرت باحمرار على خدودي من الخجل لأنني لا أحب الإطراء المباشر. كانت كايت صادقة في قولها، لأن

الأجـواء الجميلـة وحديثنـا كان بصراحـة عاليـة والحكايـات الإفريقيـة كلهـا منحـت تلـك الأمسـية نكهـة جميلـة وفريـدة. كان لا بـدَّ مـن الحفـاظ عـلى هـذا الإيقـاع، لذلـك بعـد سـاعة مـن الجلـوس في المقهـى، طلبـت منهـما الخـروج، قائـلًا: لـديَّ لقـاء آخـر مـع صديـق، لذلـك مضطـر إلى الذهـاب. دفعـت تكلفـة القهـوة ثـم تركنـا المقاعـد حزينـة وغادرنـا المـكان. قالـت كيـت: نتمنـى أن نـراك قريبًـا، وسـنكون سـعداء إن كان غـدًا. فقلـت إننـي أيضًـا سـأكون سـعيدًا برؤيتكـما مُجـدَّدًا، ولكـن لا أعـرف متـى بالضبـط. في كل الأحـوال سـنتواصل عـبر الهاتـف والفيسـبوك. عـدت إلى غرفتـي مباشرة، لأن، في واقـع الأمـر، لم يكـن لـديَّ لقـاء آخـر. بـدأت أتأمـل مـا يحـدث، تذكـرت حبيبتـي ورحلـة البحـث عـن معنـى الوجـود. فتمنيـت أن تكـون قـد وجـد إجابـات لأسـئلتها حتـى أعـرف موقعـي في عـالم مـا بعـد المعنـى. نظـرت إلى رسـائلنا، فـازددت حزنًـا. ثـم تحوَّلـت إلى صفحـات كايـت وإيفـا عـلى الفيسـبوك، فعـادت فرحتـي وسروري. وتتبعـت منشـوراتهما فوجـدت إشـارات كثـيرة تـدل عـلى إمكانيـة بنـاء علاقـة صداقـة متينـة مـع الفتاتـين.

في المسـاء، بينـما كنـت في غرفتـي الكئيبـة، بـدأت أفكـر فيـما سـأفعله، اتصلـت بي صديقتـي الفرنسـية، لم أجـب عـلى المكالمـة، سـألت نفسي عـن سـبب الاتصـال في هـذا اليـوم بالتحديـد. فلـم أسـمع سـوى حفيـف الأشـجار في الحديقـة المجـاورة وصـدى خطـوات أحـد الطـلاب كان يمـشي عـلى الممـر المـؤدي إلى المطبـخ. فحدثـت نفـسي قائـلًا: الطـلاب هنـا لا يكفُّـون عـن الأكل، كأننـا نخفـف عـلى وحدتنـا بـالأكل، وبعـد مـدة نصـاب بالسـمن ونـودع هـذه الجامعـة والحيـاة بأكملهـا. بعـد هنيهـة مـن الزمـن، أعـدت الاتصـال بلينـدا، اعتـذرت أولًا عـن عـدم الـرد وقلـت مخادعًـا: إننـي كنـت نائمًـا. قالـت: مـا خططـك لهـذا المسـاء؟ فأجبـت بأننـي كنـت أخطـط لمقابلة صديـق لي، لكـن ألغيـت مخططـي هـذا. لذلـك سـأبقى بالغرفـة.. اقترحـت عـليَّ صديقتـي التجـوُّل معًـا في الحديقـة المجـاورة للمدينـة الجامعيـة، وأنهـا

ستبتاع لنا عبوات بيرة. فسألتها عن الزمن المناسب للقاء. عندها فهمت هي بأن لا مانع لديَّ لقضاء المساء معًا، وأجابت: عند الثامنة أمام مدخل الحديقة.. قلت: سأراك هناك إذًا. كان الوقت يشير إلى السابعة، أخذت وذهبت إلى غرفة الغسيل، وضعت ثيابي، وشغَّلت الغسالة الكهربائية ثم عدت إلى الغرفة.. نظَّفت حذائي، ثم دخلت إلى الحمام وخرجت. لم يكن الوقت يسمح بنشر ثيابي التي كانت في الغسالة، فطلبت من جاري أن يعتني بذلك، وفي المقابل، سأترك له الغرفة عندما تأتي إحدى فتياته، فوافق. اتجهت صوب الحديقة.

إن مصدر معاناتي في كل هذه اللقاءات كان هو عدم مقدرتي على الالتزام بالوقت المتفق عليه، كنت أمشي مُسرعًا، وعندما اقتربت من الحديقة، رأيت ليندا تجلس في مقعد خشبي قديم، كانت قد وصلت قبل من الموعد بدقائق.. عندما رأتني وأنا أقترب منها، ابتسمت، فقامت وتعانقنا. سألتها عن الأحوال. فقالت بأن الأمور على ما يرام. ثم فاجأتني بهذا السؤال: كيف كان اللقاء وكيف هي نكهة القهوة الإثيوبية؟

لم يكن السؤال متوقعًا، إلَّا أنني استطعت أن أسيطر على نفسي وأجيب بهدوء. ذكرت لها القصة كاملة دون تحريف أو تغيير. من خلال تجربتي مع زينة ذات الشعر المُجعَّد، البنت الصحراوية ـ الإفريقية والأميرة. تعلَّمت أن الصدق هو دائمًا المخرج المناسب من مثل هذه المواقف. والأنثى بطبعها تملك إحساسًا فائقًا بالرجل. تتصنَّع الأنثى في حالات كثيرة الغباء وعدم الملاحظة، لكن في نهاية الأمر التصنُّع يظلُّ تصنُّعًا، وعندما تأتي اللحظة المناسبة، فإنها تُعرِّي الرجل من كل أكاذيبه وحِيَله الماكرة والخادعة. كالقط الذي ينتظر الفأر، لينقضَّ عليه في الدقيقة الحاسمة. كانت ليندا تتمتَّع بقدرٍ عالٍ من الثقافة واحترام الآخر. قالت وقد نهضت من المَقعد الخشبي القديم:

هـل سـتدعوني أنـا أيضًـا إلى المقهـى الإفريقـي؟ فأجبـت: بـكل تأكيـد. كان مصـدر سـؤالها يـأتي مـن طبيعـة الأنثـى في الاحتفـاء باهتـمام الرجـل بهـا. كانـت تريـد أن تشـعر بأننـي أهتـم بهـا كأنثـى. ثـم إن الغـيرة أيضًـا شـعور طبيعـي لـدى المـرأة. توغَّلنـا إلى داخـل الحديقـة. لم أسـألها عـن كيـف عرفـت بحكايـة المقهـى الإفريقـي. لم أكـن أرى لذلـك معنـى. فضَّلـت أن أوجـه اهتمامـي وتركيـزي للحظـة الراهنـة والفتـاة التـي يجلـس حضورهـا أمامـي. سـألتها إذا كانـت تناولـت قهـوة إفريقيـة مـن قبـل، قالـت إنهـا مـن عشَّـاق القهـوة بمختلـف أنواعهـا، لكـن لا تتذكـر أكانـت قـد تناولـت قهـوة إفريقيـة أم لا. كان المسـاء يمـضي بشـكل جميـل، تحدثنـا عـن المقهـى والقهـوة، ثـم انتقلنـا إلى موضوعـات أخـرى. قالـت إنهـا تُخطـط لقضـاء عطلـة رأس السـنة مـع أسرتهـا في تولـوز وسـتحكي لأسرتهـا عنـي، لأننـي – حسـب اعتقادهـا - صديـق جيـد، ويومًـا مـا ربمـا سـنذهب إلى فرنسـا معًـا إن أردت ذلـك، ثـم تحدثنـا عـن الجامعـة وحيـاة الطـلاب عمومًـا. قالـت إنهـا أول مـرة تسـكن في مدينـة جامعيـة، لأن فرنسـا لا تعـرف داخليـات للطـلاب، يسـتأجر الطالـب شُـقَّة، وإذا كان لا يملـك نقـودًا، تعطيـه الحكومـة قرضًـا، كانـت هـذه المعلومـات جديـدة ومثـيرة بالنسـبة إليَّ، لذلـك كنـت أصغـي لهـا باهتـمامٍ بالـغ. توقفـت عـن الـكلام ثـم سـألتني: مـا تصـورك عـن فرنسـا؟ قلـت لهـا إننـي لم أزرهـا حتـى الآن. أعـرف عنهـا الكثـير، خاصـةً في مجـال الفـن والأدب. مثـلًا أعـرف متحـف اللوفـر، نابليـون، شـارل دوغـول، جـان بـول سـارتر، ميشـيل فوكـو، وصاحـب نظريـة مـوت المؤلـف، نسـيت الاسـم، حينهـا ذكَّرتنـي قائلـة: «غـولان باغـت» عرفـت أن اللغـة الفرنسـية ليسـت صديقـة لصـوت أو حـرف الــ«ر»، فقلـت لنفـسي تقصـد «رولان بـارت»، تعجَّبـت عـلى معرفتـي هـذه، حينهـا سـألتها مـاذا تعـرف عـن بـلاد الفيـلان. فاكتشـفت أنهـا لا تعـرف شـيئًا سـوى أن هـذه الدولـة تقـع في القـارة السـوداء، طلبـت منـي أن أحدثهـا قليـلًا عـن بلـدي. فذكـرت

لهـا د. جـون قرنـق، والأسـتاذ محمـود محمـد طـه، محجـوب شريـف، والطيـب صالـح، عائشـة الفلاتيـة، وأبكـر آدم إسـماعيل، ثـم جـمال جبـل مـرة، وكسـلا حيـث جبـال التوتيـل، بعـد ذلـك عـدت بالتاريـخ إلى عـلي دينـار، مملكـة الفونـج ومملكـة كـوش... كانـت الفتـاة تسـمعني وأنـا أتحـدث نحـو ربـع سـاعة مـن الزمـن ولم تقاطعنـي، قلـت لهـا هـذا يكفـي، لأننـي لـن أسـتطيع أن أحدثـك عـن بلـد بحالهـا في أمسـية واحـدة. قالـت: خـلال حديثـك، فهمـت أن لديكـم حضـارة وتاريـخ عريقـين، لكـن لا أرى لهـما بصـمات في الحـاضر... ثـم أضافـت: إذا كنـت مخطئـة أرجـوك أن تصحِّحنـي. قلـت: الأمـر معقـد جـدًّا، لا أعـرف مـاذا أقـول بخصـوص هـذه الملاحظـة، لكـن أدعـوكِ لزيـارة بـلاد الفيـلان وحينهـا يمكـن تكويـن صـورة حقيقـة عـن المـاضي والحـاضر... قالـت: إذا قدمـت لي دعـوة، سـأزور بلـدكَ، لكـن بـشرط أن تكـون معـي. وافقتهـا عـلى هـذا الـشرط. ثـم اتجهنـا إلى السـكن الجامعـي. سـألتني مـاذا سـأفعل فيـما تبقـى مـن وقـت. قلـت لهـا سـأعد كـوب قهـوة، وبعـد ذلـك سـأقرأ قليـلًا ثـم أنـام. قالـت: إنهـا ترغـب في تنـاول القهـوة معـي، فدعوتهـا. عندمـا جهَّـزت القهـوة، خرجنـا إلى الشـارع والقهـوة تُزيِّـن يدينـا. جلسـنا عـلى الرصيـف، أشـعلت سـيجارتي وشربنـا المسـاء. عندمـا عـدت إلى غرفتـي بعـد أن افترقنـا، اكتشـفت أنـه بالإمـكان الاسـتمرار في العيـش عـلى الرغْـم مـن بُعـاد زينـة، ثـلاث فتيـات في يـوم واحـد، وجميعهـن سـعيدات بالتواصـل معـي. باعتبـاري أرضًـا جديـدة يُـردن اكتشـافها. كيـف لم أكـن أرى كل هـذه الأضـواء المُسـلطة نحـوي؟ هـل لأن قلبـي لا يـرى سـوى زينـة؟ هـل دلفـت إلى مرحلـة جديـدة في حيـاتي؟ بـدأت أسـأل نفـسي، وصوتهـا يقـول: لا فـكاك منـي، عندمـا تظـن أنـك قـد نسـيتني سـأظهر أمامـك مُجـدَّدًا ومجـددًا.

إذا كان صـوت زينـة يعيـش بداخـلي ولم يدعنـي أنـام هـادئ البـال، فـإن صـوت البصـيرة كان يسـيطر عـلى ميرانـدا أيضـا. لم نلتـقِ مجـددًا إلَّا

بعـد عامـين، عندمـا كنـت مقدمًـا لحفـل التخـرج الـذي نظمتـه الجامعـة. طـوال تلـك المـدة لم تتصـل بي، ولم يكـن رقـم هاتفهـا متاحًـا لذلـك لم أتمكـن مـن الوصـول إليهـا. بينـما كنـت أذيـع أسـماء الخريجـين، وقـع في نظـري اسـمها «ميرانـدا دي سـانتوس»، تأمَّلتـه، فوجدتـه مترعًـا بالنغـم. كان الاسـم يتوافـق معهـا، لم أجـد اسـمًا يليـق بهـا أكـثر مـن هـذا الاسـم، وكأنهـا ولـدت موشـومة بـه عـلى روحهـا، كانـت قـد أكلمـت الجامعـة وجـاءت لتسـلم شـهادة البكالوريـوس. كان فسـتانها أبيـض قصـير يزيـن جسـدها الجميـل، ووشـاح التخـرج يزيـن عنقهـا، وكان يتـدلى بالقـرب مـن نهدهـا الأيمـن دباجـة منقـوش عليهـا «جامعـة الصداقـة بـين الشـعوب». كانـت تجلـس في منتصـف القاعـة، ولكـن شـعاعها كان يـأتي مـن كل الاتجاهـات. التفـتُّ يمنـة ويـسرة لأرى البطـل الصغـير، لكنـه لم يقـع في مرمـى النظـر. كانـت الجمـوع الغفـيرة تزيـن المقاعـد، ابتسـامات عريضـة تغطـي وجـوه الأمهـات والآبـاء، مديـر الجامعـة وأعضـاء المجلـس الأعـلى للجامعـة يجلسـون عـلى المنصـة. بعـد كلمـة السـيد المديـر، بـدأ الطـلاب يتقدمـون لتسـلم شـهاداتهم عـلى إيقـاع الموسـيقى الاحتفاليـة. لم أذكـر عددهـم، ولا أسـماءهم، كان ذهنـي مشـغولًا بالاسـم المفعـم بلحـن الحيـاة. تقدمـت ميرانـدا إلى المنصـة كعروس في ليلـة زفافهـا، لم تكـن تحمـل وردًا، ولم يكـن معهـا رجـل يقـف بجانبهـا.. أعطيـت الميكروفـون لرفيقـي ثـم ركضـت صوبهـا، أخـذت باقـة ورد كانـت تزيـن منصـة المديـر، وأعطيـت العـروس.. بينـما كنـت عائـدًا لأبـاشر مهامي، ضجـت القاعـة بالتصفيـق والتصفـير. صافحـت ميرانـدا مديـر الجامعـة، كانـت الشـهادة في يدهـا اليمنـى، والـورود - المسروقـة بحـب - في يدهـا اليـسرى.. عندمـا وطـأت رجلهـا الـدرج الأخـيرة عائـدة إلى مقعدهـا، التفتـت نحـوي، ابتسـمت، ثـم اقتربـت منـي لتهدينـي قبلـة. لم تكـن هـذه القبلـة ضمـن برتوكـولات الحفـل، لكـن إطلالتهـا الباهيـة أنسـتني كل هـذه الأشـياء ولم أكـن أبـالي بالعواقـب. لعـل الحضـور يسـامحني عـلى هـذ الجـمال غـير

المحتمل والمتهور. عندما عادت إلى مقعدها، واصلت عملي إلى أن تسلَّم آخر طالب شهادته. نزلت من المنصة واتجهت مسرعًا إليها، لكنني لم أجدها، بحث عنها في كل مكان، حتى تحت المقاعد.. ثم ذهبت إلى دورات المياه الخاصة بالنساء، وقفت طويلًا ولكنها لم تخرج، فتحت الباب الخارجي لأبحث عنها في الداخل، لكن المرأة المنظفة لم تسمح لي بالدخول قائلة: «أنت جنِّيت؟ هناك حمامات الرجال». اعتذرت لها على حماقتي، ولم أستطع البوح لها بسبب مجيئي إلى هناك. عدت إلى القاعة، كان الحرس يحاول قفل الباب. «عايز شنو؟» سألني، «قاعد أفتش في صاحبتي». عندها قال: «لو البت القبيل ديك، ما تفتشا، لأنو ركبت عربية قبل شوية وفاتت». أردت أن أسأله عن لون السيارة والجهة، ومن كان بداخلها، لكن أدركت أن لا ناقة للحرس في هذا الأمر ولا جمل. أخذت كأس قهوة وجلست أتأمل فيما كان يجري: زينة سرقت قلبي ثم رحلت، وقبل ذلك جمعتني بصديقتها التي استحالت إلى سراب. إلى أين يقودني هذا المصير؟

مرَّت أيام وشهور والصمت يخيِّم على علاقتنا. لا جديد من زينة. أدركت أن أصعب إحساس قد يعتري الإنسان هو صمت الحبيبة، لأنه يفتح الباب أمام كل الاحتمالات، لا يدعك تتخذ قرارًا واحدًا وأنت واثق من جدواه. ستكون كل قراراتك العاطفية قابلة للشك، سوى قرار النسيان والخروج من العَلاقة نهائيًّا بلا عودة، لكن هذا يتطلب شجاعة كبيرة، لم أكن أملكها في ذلك الوقت. إن اتخاذ قرار بخوض حرب عالمية بدا لي أسهل من أن أنسى زينة، لأن القلبَ المُرهف هو ما يُحدِّد مصير العلاقات العاطفية. فهو كالطفل يمكن أن يئن ويبكي دون أسباب منطقية، كغصن الشجر يتمايل بسبب هبوبٍ خفيفة. لأن للقلب منطقه الخاص. وفي المقابل يُحدِّثني عقلي بضرورة اتخاذ قرارات حاسمة من طرف واحد، لأنني وحدي من يتحمَّل مسؤولية مصيري. لم

تكـن هنـاك ضحيـة سـواي في ظـل هـذا الـصراع بـين القلـب والعقـل.

ذات صبـاح صحـوت فاسـتيقظ صـوت التقليـد في داخـلي وسـألني: مـا هـي الغايـة التـي أتيـت مـن أجلهـا إلى هـذا البـلاد البعيـدة؟ مـا هـو سـبب وجـودك في هـذا الطقـس القـاسي، بـرد قـارس لا يتوقـف، غيـاب الأهـل والأصدقـاء ومـع ذلـك أنـت تعيـش هنـا، هـل نسـيت الغايـة مـن ذلـك؟ حاولـت أن أكبـح هـذا الصـوت، فهـو صـوت أمـي، أخـي، جـدي، أصدقـاء الدراسـة والعمـل، صـوت المؤسسـة، لكننـي لم أسـتطع. ثـم أجـاب بنفسـه عـن هـذا السـؤال قائـلًا: الغايـة مـن البقـاء في هـذه البـلاد هـي الدراسـة، لذلـك عليـك أن تنـسى كل شيء وتوجـه اهتماماتـك وتركيـزك لتحقيـق هـذه الغايـة. لم أتفـق مـع هـذا الصـوت الـذي كان يـتردَّد بداخـلي. فهـو يظـنُّ أننـي «روبـوت» عـلى مـا يبـدو، ونـسي بـأن مـن يكلمـه إنسـان ذو عقـل وقلـب، يـأكل ويمـشي في الأسـواق، ثـم إن تصـوره عـن الغايـة يختلـف بطبيعـة الحـال عـن تصـوري، فهـو يظـنُّ أن الطـلاب الأجانـب أمثـالي ينبغـي لهـم قضـاء يومهـم عـلى النحـو التـالي: الذهـاب إلى قاعـة الـدرس كل صبـاح، ومـن ثَـمَّ العـودة إلى الغرفـة بعـد نهايـة اليـوم الـدراسي، لإعـداد وجبـة الغـداء ثـم تنظيـف الغرفـة والخلـود إلى النـوم. أحيانًـا يمكـن إجـراء اتصالات مـع الأهـل. أمـا التواصـل مـع سـكان هـذا البلـد يجـب أن يكـون سـطحيًّا. وفقًـا للمثـل الفيـلاني القائـل «بلـد مـا بلـدك أمـشي عريـان». أمَّـا تصـوري فـكان مختلفًـا تمامًـا: يجـب أن أنـسى أننـي في الغربـة، عـليَّ أن أتأقلـم بشـكل كامـل وكأني في بلـدي، أن أحـترم القوانـين وعـادات وتقاليـد البلـد الـذي أنـا فيـه، كـما ينبغـي عـليَّ أن أتواصـل مـع العـالم الـذي يحيطنـي بقلـب وعقـل مفتوحـين، وأن أعيـش وكأني لـن أعـود إلى بـلادي مجـددًا، ثـم يجـب أن أتذكـر دائمًـا بـأن لا ضمانـات في هـذا العـالم، ومـن غـير المعقـول تأجيـل الحيـاة إلى مـا بعـد لـكي تُعـاش في زمـن آخـر أو في مرحلـة أخـرى. لأن الوطـن ليـس سـوى المحطـة الأولى مـن رحلـة الحيـاة الغامضـة. مـن

حسن حظي لم أسمع صوت التقليد الدائم الذي كان يتردُّد بداخلي، لذلك وقعت في الحب، عشت تجارب ومغامرات. قابلت زينة ذات الشعر المُجعَّد، وهو الحدث الأجمل بالنسبة إليَّ منذ صرختي الأولى من شدة جمال هذا الكون. تعجَّب صوت التقليد عندما سمع كلامي، وقال: أسرتك وبلدك أقل قيمة من حبيبتك؟ أجبته بأن الإنسان يمكن أن يهب حياته لقيمتين كما قال رسول حمزاتوف «الوطن أو امرأة جميلة» أما الوطن فلم أعرفه يومًا، ولكن الفتاة الجميلة وجدتها، قابلتها، وهي الآن في لب قلبي، حيث اتخذتُ من قلبها بيتًا وموطنًا لي أيضًا.

لا تخلو الحياة من الصراعات، تارةً صراع بين القلب والعقل، وتارةً أخرى بين التقليد وأناي، فمتى يأتي عصر الحوارات بدلًا من الوقوع في فخ الصراعات؟ على الرغْم من الأصوات المتعددة بداخلي ورغم هذا الصراع الطويل، لم أستطع اتخاذ قرار بخصوص زينة ومستقبلنا. تركت الأمر كما كان، حالة انتظار وترقب.. لم أكن أنتظر المستحيل. فتحت دفترًا صغيرًا. كنت أحتفظ بأرقام هواتف أصدقائي القدامى سوى رقم ميراندا، وأجريت بعض الاتصالات، ربما لم تكن مهمة، لكن أجريتها لأن صوت التقليد أوجع رأسي من شدة الثرثرة المستمرة. أما حبيبتي فكانت في رحلة البحث عن معنى للحياة التي لم ترهقها وحدها، وإنما أرهقتني أنا والعالم أيضًا. بدأتُ أهب حياتي للحبيبة، بأن أظل أحبها في كل الظروف، سواء كانت مُقيمة معي في أرض واحدة أم بعيدة عني، سواء كانت تحب رجلًا آخر أم لا. سواء كان هناك أمل بلقاءٍ آخر أم لا. سواء كانت تفكر فيَّ أم لا، سأظل أحبها وأهب لها حياتي، هكذا كنت أفكر والفتيات الثلاث ينتظرن لقائي مجدَّدًا. ولكل واحدة أسطورة خاصة عن هذا الشاب الإفريقي الوسيم.

لا يمكن فهم تناقضات الحياة إلَّا عبر الفن، في الوقت الذي كان

فيـه قلـب الشـاب الإفريقـي الوسـيم مولـع بحبيبتـه الأفـرو ـــ صحراويـة بشـعرها المُجعَّـد الممـوج. كانـت الفتيـات الثـلاث، التشـيكيتان والفرنسـية، يكتبن الحكايـات الأسـطورية عنـه، وينتظـرن اللحظـة المناسـبة للظفـر بـه، بهـذا الإلـه الإفريقـي المُعـذَّب. فأنـا بـدلًا مـن أن أتـورط في عَلاقـة حـبٍّ جديـدة بإحـدى الفتيـات الحسـناوات الثـلاث، كنـت أصـبر عـلى عـذابي وقسـوة حبيبتـي: فـأي عقـل يسـتطيع فهـم هـذا التناقـض؟ فقـط الفـن هـو الوسـيلة الوحيـدة لفهـم هـذا الجنـون. أسـميته جنونًـا، لأننـي كـدت أجـن. فكيـف لا وأنـا في أجمـل المـدن المعـاصرة، وحـولي أجمـل الفتيـات، مـع ذلـك يكـون قلبـي مُعلَّقًـا بإفريقيـا ونسـائها العنيـدات؟ إضافـةً إلى ذلـك، ووفقًـا للمعطيـات المنطقيـة والواقعيـة، لم تكـن هنـاك ضمانـات لتحقيـق مـا يريـده القلـب. وفي المقابـل كان مـن الصعـب نسـيان حبيبتـي وإفسـاح حيِّـز في قلبـي لأنثـى أوربيـة أخـرى. ربمـا كانـت حبيبتـي تسـكن في مـكان عميـق بقلبـي بحيـث أتنفـس اسـمها همسًّـا، أتحسـس جدائلهـا... أصبـح قلبـي حديقـة لهـا تمـرح وتـسرح كـما تشـاء، تتنـزه فيـه، تقيـم فيـه رحـلات الشـواء ومناسـبات عيـد الميـلاد، أو ربمـا اتخذتـه قـصرًا لجمهوريتهـا الوهميـة، تنظـم فيـه المراسـم الرسـمية، وتكتـب فيـه دسـتورًا للدولـة ونظـام الحكـم، وفي أسـوأ الاحتـمال قـد تكـون زينـة اتخـذت مـن قلبـي المرهـف غرفـة حمامًـا لـكي تتغـوط فيهـا.

لم تتوقـف الفتيـات الثـلاث عـن كتابـة القصـص والحكايـات الخرافيـة عنـي. إحداهـن كانـت تؤلـف صحفهـا ليـلًا، وأخـرى عند الأصيـل، أمـا الثالثة كانـت تصبـح وحكايتهـا تمـرحُ بـين نهديهـا. ذات يـوم، بينـما كنـت في غرفتي وحيـدًا وربمـا حزينًـا، جاءتنـي رسـالة مـن كايـت تدعـوني فيهـا إلى غرفتهـا لتنـاول وجبـة الغـداء، ومـن حسـن حظـي كنـت أشـعر بالجـوع. جـاءت الدعـوة في الوقـت والشـخص المناسـبين. دخلـت إلى الحـمام، أعـدت ترتيـب عالمـي الداخـلي والخارجـي ثـم هرولـت صـوب الوليمـة. كانـت كايـت عنـد

مدخل السكن، استقبلتني ثم صعدنا إلى الدور الثامن حيث كانت غرفتها. لم تكن كايت تسكن وحدها، بل كانت معها إيفا ونتاشا، هذه الأخيرة روسية الأصل. جلسنا في المطبخ. كانت كايت ترتدي قميصًا طويلًا حتى الفخذين أزرق اللون، وتخوم صدرها تتنفس نكهة الأكل التي تفوح من ناحية الموقد، أما الثوب الداخلي لم يكن واضحًا، لست واثقًا إن كان هناك ثوب داخلي من الأساس. كان المطبخ يضج بالمواد الغذائية بعضها طازجة والأخرى مطبوخة. اعتراني فضول لذا سألت: ماذا تطبخين؟ أخبرتني كايت بأنها تعد وجبة تشيكية شعبية، تُقدَّم للضيوف المقربين إلى القلب فقط، ثم قالت: لا تخف، إنها من لحم البقر ولذيذة جدًّا. فقلت محدثًا نفسي، مشروع البحث عن شخصي يمضي بشكل جيد، حتى استطاعت الفتاة أن تعرف أنني لا آكل لحم الخنزير. هناك مفاجآت أخرى كثيرة تنتظرني. كان لا بدَّ أن أكون لطيفًا. وأظن أي إنسان آخر يجب أن يكون لطيفًا عندما تدعوه أنثى إلى غرفتي وتعد وجبة بيديها لتطعمه. علقت على كلامها قائلًا: لا شكَّ أن الوجبة ستكون لذيذة، لأن الطباخ هو أنت، ومن دواعي سروري تناول وجبة شعبية من بلدك، ولا أظن نفسي ضيفًا مقربًا إليك. ضحكنا جميعًا وفي ذلك نتاشا التي كانت صامتة منذ وصولي إلى الغرفة. كانت نتاشا نحيلة الجسد، طولية القامة كأنها بطلة الألعاب الأولمبية للتنس، عيناها خضراء، وجهها بيضاوي شاحب نوعًا ما بخدين ورديَّين، على أصابع يدها طلاء يتماشى مع موضة ذلك العصر، لم تكن ابتسامتها عريضة لكنها مترعة بالحيوية. انتظرنا ساعة كاملة حتى تجهز الأكلة الشعبية القادمة من بلاد العم كافكا. وبينما كان الأكل في الموقد، قدمت لنا كايت المشروبات بمختلف أنواعها، وجاءت بمجموعة من الصور للأسرة، عرفتني بوالدتها الجميلة وأختها وكلبها السمين. سألتها: كم عمر هذا الكلب البدين؟ فقالت إنه سيبلغ الخمس سنوات قريبًا.

كان حجمـه يقـل عـن حجمـي قليـلًا، أنـا ابـن السادسـة والعشريـن ربيعًـا، فلـم أسـتطع أن أعلـق سـوى بجملـة واحـدة: أتمنـى لكلبـك عمـرًا مديـدًا. كانـت لهـذه الجملـة وقـع خـاص عـلى قلبهـا، وهـو مـا لم أتوقعـه. طلبـت منـي أن أنهـض مـن المقعـد. فظننـتُ أنهـا تـود أن تطـردني، لكنهـا عانقتنـي بشـدة في إشـارة شـكر لهـذه الأمنيـة الطيبـة لكلبهـا الـذي يـكاد لا يقـل عنـي حجـمًا. كانـت تحمـل هـذا الألبـوم أينـما ذهبـت وأنهـا لا تحتفـظ بصـور الأسرة في صفحـات التواصـل الاجتماعـي بمـا في ذلـك صـور الكلـب السـمين. أصبـح الأكل جاهـزًا، فتهلَّلـت أسـاريري. جلسـنا جميعًـا حـول الطاولـة مـا عـدا الطبـاخ الماهـر. كانـت تـوزع لـكل منـا حصتـه، بعـد ذلـك جلسـت، شـكرنا اللـه عـلى هـذه النعمـة بالعبـارات التاليـة وكان الجميـع يـردِّد خلفـي: «اللهـم نشـكرك عـلى هـذه النعمـة ونسـأل المزيـد دائمًـا إنـك سـميع الدعـاء».

كان الأكل طيبًـا، لم أرَ وجبـةً ألـذ منهـا سـوى طعـام أمـي. يبـدو أن كايـت أعـدت لنـا الطعـام بحـب، لذلـك أكلنـا بشراهـة كالقطـط السـمان ولم نـترك منـه شـيئًا. تحدثنـا بعـد ذلـك عـن المطبـخ بشـكل عـام، أوجـه الشـبه والاختـلاف بـين المطبـخ التشـيكي والفيـلاني. عرفـت أن التشـيك تصنـع أجـود أنـوع البـيرة ولديهـا عَلامَـة مشـهورة جـدًّا عـلى مسـتوى العـالم تسـمى «كوزيـل» أي التيـس. وعندمـا سُـئلت عـن مطبخنـا، قلـت إن في قديـم الزمـان كانـت لدينـا عَلامَـة بـيرة فريـدة تسـمى «الجمـل» ولكـن تغـيَّر الزمـان والحكومـات، مـات الجمـل بمـا حمـل، اختفـى الجمـل، ولكـن توجـد لدينـا مشروبـات كحوليـة بمـاركات شـعبية مـن أهمهـا وأجودهـا: «المريسـة» بأنواعهـا المحتفلـة، وكذلـك «العرقـي»، مـع ذلـك هـذه المشروبـات الروحيـة تعرضـك للعقـاب في بـلاد الفيـلان. أمـا عـن المأكـولات فهنـاك قائمـة كبـيرة: العصيـدة، ومـلاح الكـول، الكـسرة، التقليـة، مـلاح الـروب، القراصـة، مـلاح الخُـدرة والباميـة و... قبـل أن أكمـل مـا تبقـى مـن أسـماء، سـألتني كايـت

إذا كنت أجيد الطبخ أم لا. فقلت إنني طباخ ماهر، لا أدخل المطبخ إلَّا من أجل الضيوف المقربين إلى القلب. فقالت إنها ستكون سعيدة بأكل إحدى الوجبات التي ذكرتها آنفًا، طبعًا إن لم يكن هنالك مانع لديَّ وإذا كنت أراهم ضيوفًا مقربين إلى القلب. أبديت استعدادي لتلبية الرغبة، ولكن بشرط أن تحدد هي نوعين من القائمة. فقالت: أحب أن تذوق طعم الكسرة لأنها تتذكر هذا الاسم من كتب التاريخ. فأشرت لها إلى أن لا عَلاقة بين الملك كسرى وهذه الوجبة. أما النوع الثاني فقالت: موليح الكولا، فطلبت منها أن تنطق التسمية بشكل صحيح احترامًا وتقديرًا لوجباتنا، فرددت من خلفي: الكول، الكول. كان اليوم جميلًا، والأجواء ودية. وبفضل كايت وإيفا والوجبة الشعبية، شعرت وكأنني أعرف هذه الكايت منذ مدة طويلة. ربما لأنها كانت صادقة وفي غاية البساطة، لا تتكلَّف في التعامل، كرم بلا نفاق، وضحكاتها كانت صافية لا تشوبها الكدر. عجلة الزمن تمضي بسرعة خيالية، كانت الساعة تشير إلى الثامنة مساءً، عندما خرجت من المطبخ التشيكي عائدًا إلى غرفتي. لقد كنت سعيدًا جدًّا لسببين، الأول هو أنني قد تذوقت طعامًا كان يأكله كافكا. لم تقل لي كايت هذه المعلومة، بل هو استنتاج شخصي. ولما كانت الوجبة شعبية، فإن هذا يعني جذورها الضاربة في التاريخ قد تصل إلى القرن الخامس عشر. وكافكا عاش في القرن التاسع عشر. أما السبب الثاني، فكان الجو الأسري، ضحكات كايت ورغبتها في تعرُّفي أكثر بواسطة هذه الدعوة. عندما وصلت إلى غرفتي أدركت بأنني لا أملك «كولًا» ولا أعرف كيف تُطبخ «الكسرة». وأن إجازة نهاية الأسبوع ستكون موعدنا مع «الكسرة» و»ملاح الكول». ما هذه الورطة التي أنا فيها، قلت محدثًا نفسي! هدأت عندما تذكرت بأن لديَّ ثلاثة أيام من الآن، يجب أن أجد حلًّا لهذه الورطة. اتصلت بصديق لي، شرحت له الوضع وسألته إن كان بمقدوره المساعدة. جاءني، في الحال بالمطلوب،

شكرته وقلت له: أنقذتني من فضيحة كبرى.

يقود كل حدث أو مشهد في هذه الحياة إلى حدثٍ آخر. فبعد أن أنقذني صديقي وعاد إلى غرفته. جلست أتأمل ما يحدث بيني وبين الفتيات الثلاث. وقبل أن أجد تفسيرًا واضحًا وكاملًا، وقعت عيني على رواية كافكا «القصر». أخذتها وبدأت في القراءة. وقبل أن أكمل الصفحة الأولى، تذكرت زينة ووجبة الغداء التي تناولناها معًا. شعرتُ بحزن لصمتها المريب، ذلك الصمت الذي يُقيِّدني ويمنع قلبي من الانطلاق. وضعت الرواية على الرف بين الكتب. اختفى الفرح الذي كان من قبل، وبدأ التفكير يرهق ذهني: ماذا أفعل؟ إذًا متى أضع حدًّا لهذا العذاب؟ سألت نفسي. جلست خلف جهاز الحاسوب دون أن أشعر، زرت الموقع الرسمي لسفارة جمهورية زينة الصحراوية. دخلت إلى نافذة «إجراءات الفيزا للسياح الأجانب»، فتعرفت المعلومات الأساسية والمستندات المطلوبة للحصول على تأشيرة سياحية، وخرجت مسرعًا إلى المكتبة التي تعمل على مدار الساعة، صوَّرت جواز السفر، الإقامة، الفيزا.. ثم عدت إلى غرفتي. وضعت جميع المستندات في ملف بلاستيكي شفاف، وقلت في نفسي: انتظريني يا ابنة الصحراء فإنني قادم من بلاد الجليد. تحسست هاتفي، أطفأت النور، واستلقيت على السرير، وقبل أن أغمض عيني، إذا برسالة تقطع نومي: كيفك؟ اشتقت إليك! وأخيرًا، وجدت زينة معنًى للحياة. قلت محدثًا نفسي، ثم أجبت عليها: مرحبًا، أنا بخير. وسألت: ما سبب هذا الغياب الطويل المفاجئ؟ أجابت قائلة: أسباب كثيرة. لا أستطيع ذكرها الآن. دعنا نتحدث عبر خدمة الفيديو في الصباح الباكر، تصبح على خير. إذا استطعت الانتظار شهورًا، فساعات الليل ستمضي دون أن أشعر بها. هكذا حدثت نفسي مطمئنًّا. وبدأت أرصد الاحتمالات قبل حلول الصباح؟ هل لا تزال زينة تذكر أيامنا الجميلة تلك: التجوال بالمدينة، شرب القهوة بمقهى ستار باكس؟

الاحتفـال بعيـد ميـلادي والمفاجـأة الجميلـة التـي غـيرت مسـار التاريـخ؟ أحلامنـا الجميلـة بغـدٍ أكـثر إشراقًـا؟ عناقيـد البلـح التـي أهدتنـي إياهـا قبل حلـول شـهر الصيـام بأيـام وهـي تقـول هـذه العناقيـد مـن بـلادي أخذتهـا لـك لتتـذوق طعـم أرضنـا الخصبـة، عبـق ترابنـا الطاهـر حتـى إذا أتيـت لتخطبنـي تتذكـر هـذه اللحظـات والعناقيـد؟

الحـب أعظـم شيء يمكـن أن يحـدث للإنسـان في هـذا العـالم. مـذ ولادتنا وأشـياء كثـيرة حدثـت ومـا تـزال تحـدث، حـروب، فقـر، كـوارث، أفـواج مـن مهاجريـن، خيبـات، احتفـالات، أعـراس، طـلاق أزواج، تدمـير دول. لكـن ذاكـرة الإنسـان لا تحتفـظ بهـذه الأشـياء كثـيرًا، أولًا تتكيـف معهـا، وبعـد زوالهـا تنسـاها أو تحولهـا إلى كتـب تاريـخ. مـا يبقـى في الذاكـرة دائمًـا هـو الحـب، الصداقـات النبيلـة، الوفـاء للحـب، اكتشـاف مناطـق جديـدة، رحلـة مـا قمنـا بهـا بمفردنـا ومـع مـن نحـب، نجاحاتنـا في الدراسـة ثـم العمـل، قدرتنـا في الحـب مجـدَّدًا بعـد فقـدان حبيـب أو الخـروج مـن عَلاقـة حـب لم تكتـب لهـا النجـاح. هـذه هـي الأشـياء التـي لا تنسـاها الذاكـرة. إذًا، حبيبتـي وإن أصبحـت لا تحبنـي، فهـي تتذكـر تفاصيلنـا الجميلـة وتحـن إليهـا، وتتمنـى أن تعـود بنـا الأيـام إلى المـاضي ونكتـب قصتنـا مـن جديـد. وإن عـاد بنـا الزمـن سـنكتب قصتنـا كـما هـي الآن دون أن نغـير فيهـا أي علامـة مـن علامـات الترقيـم. وسـتكون خاليـة مـن علامـة التنقيـط (.) كـما هـي الآن خاليـة مـن هـذه العلامـة التـي تعنـي نهايـة الجملـة أو القصـة، فقصتنـا بـلا نهايـة. جميـل جـدًّا أن تبقـى التفاصيـل الحميمـة في ذاكـرة مـن نحـب. لأن وجودهـا يعنـي وجـودك أنـت كمحـب. كل حـدث صغـير مربـوط بصورتـك أنـت. في المقابـل، مـاذا يـدور في مُخيَّلـة الحبيبـة الآن بعـد طـول غيـاب، والبحـث عـن معنـى الحيـاة؟ هـل تشـتاق إلى سـماع صـوتي أو قـراءة رسـالة مكتوبـة بأناملي هـذه أو أن تـرى صـورة مـن صـور أيامنـا الجميلـة تلـك؟ ربمـا تنظـر إلى هاتفهـا مـن زمـن إلى آخـر في انتظـار همسـة

مـن همسـاتي؟ أم تريـد أن تودعنـي بشـكل حضـاري، وأن رحلـة البحـث عـن معنـى أفضـت إلى إنهـاء علاقتهـا بي؟ كل الاحتـمالات واردة في الحـب عـن بعـد، أو حتـى عـن قـرب. وقفـت هنـا، وتركـت الاحتـمالات الأخـرى إلى الغـد.

بينـما كنـت نائمًـا، أسـبح في بحـر أحلامـي، رنَّ هاتفـي في الصبـاح الباكـر. كانـت السـاعة تشـير إلى السادسـة. فتعجبـت مـن هـذا الاتصـال الباكـر. أجبـت عـلى الهاتـف، فسـمعت صـوت زينـة. قالـت: بعـد رسـائلنا في الليلـة الأخـيرة، لم يأتِنـي النـوم، حتـى الآن. سـألتها عـن السـبب، حينهـا قالـت: كنـت أفكـر فيـك، في حبنـا الـذي يعيـش فينـا ومـن أجلنـا، فنحـن لم نـرَ بعضنـا بعضًـا منـذ أعـوام. لذلـك أفكـر في فـرص لقائنـا، هـل سـنوات الانتظـار هـذه كلهـا سـتضيع هـدرًا، أم سـيُقدر لنـا أن نلتقـي ونعانـق الحب مـن جديـد؟ وإذا قُـدِّرَ لنـا اللقـاء، فأيـن؟ في بلـدك، أم في صحرائنـا، أم في المـكان الـذي التقينـا فيهـا أول مـرة؟ وبعـد أن نلتقـي، سـنتزوج وسـننجب طفلـين جميلـين مثلنـا أم يظـل هـذا حلـمًا عابـرًا؟ وكيـف سـيكون طقـوس زواجنـا؟ سـألبس ثوبًـا أبيـض كـما يفعلـن كل النسـاء في يـوم العـرس؟ مـن ندعـوه لحضـور زواجنـا؟ سـوف نقيـم زواجنـا بتقاليـد بلـدك أم بلـدي؟ أيـن سـنقضي شـهر العسـل؟ هـل نذهـب إلى جزيـرة مـن جـزر إفريقيـا أم إلى أمريـكا اللاتينيـة، حيـث المحيطـات والشـلالات؟ ربمـا نذهـب إلى الجبـل الـذي يقـع في الجانـب الجنـوب الغـربي داخـل بلـدك، أم إلى شـواطئ البحـر الأحمـر حيـث الأسـماك اللذيـذة؟ عندمـا توقَّفـتْ عـن الـكلام، قلـت: هـل كل هـذه التسـاؤلات وليـدة ليلـة البارحـة فقـط، أم جـزء مـن تفكـير امتـد مـدة طويلـة؟ فأجابـت، بـأن هـذه الأسـئلة كانـت حـاضرة في ذهنهـا، لكـن بـدت جليـة بشـكل أكـبر في ليلـة البارحـة. لم أجـب عـن هـذه التسـاؤلات. لأننـي كنـت أؤمـن بـأن رحلـة البحـث عـن معنـى الحيـاة يجـب أن تتضمـن إجابـات لهـذه التسـاؤلات. فزينـة تتحمـل مسـؤولية مبـاشرة في

إيجـاد إجابـات. وعـلى الرغـم مـن شـعوري بالغضـب تجاههـا، فإننـي لم أظهُـر ذلـك... ذكـرت لهـا صديقـاتي - حفيـدات كافـكا وغوغـول - وكيـف الحيـاة تسـير بصـورة جميلـة، ثـم ختمـتُ كلامـي بالحديـث عـن السـفارة ومحـاولات الحصـول عـلى الفيـزا. بعـد أن أكملـت حديثـي، قالـت زينـة: إذًا، مـا زلـت تحبنـي؟ فوجئـت مـرة أخـرى مـن هـذا السـؤال، وقلـت محدثًـا نفسي: أنـا مـن قدمـتُ زينـة إلى أسرتي وأصدقـائي كخطيبـة، بـدأت أخطـط بشـكل جـدي للـزواج بهـا، وفي الوقـت الـذي كنـت أنتظرهـا حتـى تقدمنـي إلى أسرتهـا، اختفـت بشـكل مفاجـئ في رحلـة البحـث عـن معنـى الحيـاة. ثـم تـأتي بعـد غيـاب طويـل وتسـألني إن كنـت أحبهـا حتـى الآن أم لا؟ بـدا لي الحـب والعلاقـات العاطفيـة كأنهـا لعبـة؛ قلـت لهـا: عليـك أن تنصتـي لصوتـك الداخـلي، وتفكـري في أحـداث المـاضي لتجـدي إجابـة عـن سـؤالك هـذا. نظـرت إليَّ ثـم ابتسـمت، وضعـت هاتفهـا أمـام المـرآة ثـم أخـذت تمـازح ضفائرهـا المجعـدة كمـوج البحـر الأسـود، تتفحـص مكامـن جمالهـا، تأخـذ فتيـل العطـر الـذي يشـكو مـن طـول الانتظـار، لكنهـا لا تسـتخدمه، تعيـده إلى مكانـه، ثـم تضـع أحمـر شـفاه عـلى شـفتيها وتنظـر إلى كامـيرا الهاتـف وتسـألني: مـا زلـت هنـا؟ وأنـا أرى لكـن لا أتحـدث، كأننـي نسـيت الـكلام، اختفـت عـن الكامـيرا قليـلًا ثـم عـادت وهـي ترتـدي بيجامـة، لتقـول لي: ظـل هـذا الثـوب في دولابي مـدة عـام ولم ألبسـه يومًـا، فـأردت أن أعـرف رأيـك فيـه؟ لم أسـتطع أن أصمـت أكـثر، انطلـق لسـاني قائـلًا: هـذا الثـوب يليـق بـك - في واقـع الأمـر كنـت معجبًـا أكـثر بمـا هـو خلـف الثيـاب - لم تتوقـف زينـة عنـد هـذا الحـد، بـل بـدأت تحـدث نفسـها وكأننـي لسـت موجـودًا: هـل يعشـق حبيبـي عطـري الـذي يفـوح مـن روحـي، أم يحبنـي دون أن يكـترث للعطـر؟ متـى يلمـس هـذا الثـوب بيـده الخشـنة تلـك، أو ينزعهـا عنـي؟ كنـت أفهـم هـذه المسرحيـة، ولكـن لم أسـتطع السـيطرة عـلى نفسي، لذلـك أجبـت: أنـا أعشـق العطـر والمـوت في

مـدارك وتفاصيلـك وذكرياتنـا الحميمـة، احتسـاء كـوب مـن الشـاي معتـق بالنعنـاع. أحـب اللـون البنفسـج الـذي يتوشـحك، والحقيبـة التـي لا تريـد القفـز مـن عـلى كتفيـك. أعشـق صوتـك، وأنـت ترددیـن أغنيتنـا الوحيـدة تلـك. قالـت زينـة معلقـة عـلى كلـماتي والابتسـامة تزيـن وجههـا: إذًا، مـا زلـت تحبنـي. فصمـتُّ، لأسـمع المزيـد، وكنـت مهتـمًّا بخلاصـات رحلـة البحـث عـن معنـى الحيـاة وليـس بمكـر النسـاء والمسرحيـات المثـيرة. قالـت: طـوال مـدة الغيـاب هـذه، كنـت أفكـر في معنـى وجـودي، وكيـف ظهـر الإنسـان في هـذه الحيـاة، هـل الروايـة الدينيـة صحيحـة، أم نظريـة التطـور؟ خلصـت إلى الآتي: الروايـة الدينيـة هـي المقنعـة بالنسـبة إليَّ، وأن آدم هـو أبـو البشريـة، وكلنـا سـنموت ونبعـث يـوم القيامـة، نقـف أمـام اللـه لـيرى كل إنسـان عملـه. ثـم فكـرت في الحـلال والحـرام، الممنـوع والمسـموح؛ وجـدت أن التعاليـم الدينيـة أقـرب إلى نفـسي مـن النظريـات الأخـرى، ومـع ذلـك لم أرفـض التقاليـد الأخـرى، أكملـت دراسـة الماجسـتير والآن أعمـل بمختـبر طبـي. هـذا كل مـا لـديَّ.

عـلى الرغـم مـن أن هـذه الخلاصـات مهمـة بالنسـبة إليَّ، لكـن هنـاك نقطـة جوهريـة لم تتحـدث زينـة عنهـا: السـعادة، ومـن ثَـمَّ حتـى الآن لا تعـرف مـاذا تريـد، معرفـة بدايـة الإنسـان ومماتـه، التعاليـم الدينيـة وغيرهـا، هـذه الأشـياء تشـوبها التعميـم والضبابيـة. كنـت أريـد أن أفهـم مسـألة واحـدة وواضحـة: مـاذا تريـد زينـة؟ سـألتها هـذا السـؤال لأن أن تحـب امـرأة تعـرف مـا تريـد، ولا تعيـش في التيـه أفضـل مـن أنثـى افترسـها التيـه المُنهِـك والضـال، وربمـا سـتعاديك بضلالهـا هـذا في نهايـة المطـاف. قالـت: مـاذا أريـد؟ أريـد أن أراك، ونسـافر معًـا إلى كنـدا عـبر برنامـج الهجـرة، وهنـاك نؤسـس حياتنـا ومسـتقبلنا. فقلـت لهـا: هـذه الأمنيـة رائعـة، ولكنهـا ليسـت أمنيتـي، والآن هـدفي الأسـمى هـو مناقشـة رسـالة الدكتـوراة، وبعـد ذلـك سـأخطط للحيـاة الشـخصية. في نهايـة المكالمـة،

اتفقنا على التواصل من حين إلى آخر، وتركنا المصير يفعل بنا ما يشاء.

كنت أعيش في بلدي غريبًا مدة عشرين عامًا، وفي إمبراطورية الجليد روحيًّا لا أشعر بالغربة، ولكن المجتمع الذي أعيش فيه ينظر إليَّ كغريب. وبعد هذا كله، أسافر إلى كندا وأبدأ رحلة الغربة من جديد؟ لا أستطيع، لا أستطيع قلت مُحدِّثًا نفسي. ثم تذكَّرت المهاجرين في أوروبا وكندا وأمريكيا وغيرها، كيف يتعامل معهم المجتمع: كثيرٌ منهم يعانون العنصرية، على الرغم من أن كثيرًا من المهاجرين يحترمون قانون البلدان التي يعيشون فيها. يعملون ويدفعون الضرائب مثلهم مثل المواطنين تمامًا، ومع ذلك لا يجنون إلا نار العنصرية.. ولم أنسَ السلوك الهمجي لبعض المهاجرين الكسولين، يعيشون على عاتق المجتمعات، لا يعملون، يتقاضون علاوة شهرية من الحكومات، لا يحترمون ثقافات وقوانين البلدان التي احتضنتهم. ربما إذا سافرت مع زينة إلى كندا، سوف أحترم القوانين وأدفع الضرائب، لكن ما هو الضامن في التعامل باحترام؟ لأن المواطن في الشارع لا يميزني من شكلي، فقط يتذكر المهاجر الكسول وعلى هذا الأساس يتعاطى مع جميع المهاجرين. لا لا، لن أسافر إلى كندا. منذ ذلك اليوم، لم أبذل جُهدًا لأتقرب من زينة. أحسست أنني كُنتُ صادقًا وجادًّا تجاه علاقتنا أكثر مما يستحق. جاء الوقت لأكون وفيًّا لذاتي. ومثلما في العالم ملايين الرجال، فهناك أيضًا مليارات النساء. سأقع في الحب مُجدَّدًا وبشكل دائم.

عامٌ مضى، ثم عامين، فعشت تجارب مختلفة. أكملت درجة الدكتوراة. وسافرت إلى أجمل مدن العالم. التقيت حسناوات يعشقن الشكولاتة. في إحدى تلك المدن الجميلة، بعد قضاء أمسية رائعة في أحد المقاهي، دعتني فتاة إلى بيتها لأقاسمها جمال الليل وإيقاعه. أخذنا الشمبانيا وذهبنا لتلبية نداء الليل. بعد أن أشعلت الفتاة الشموع

وأخذتني إلى حضنها، غرقت في أعماقها، ظللت على هذه الحالة حتى الصباح الباكر. وعندما استيقظت، وجدت رسالة من زينة تقول فيها: حلمت بأنك مع فتاة أخرى: هل هذا حلم أم حقيقة؟ كنت في تلك اللحظة شجاعًا حد الجنون، لذلك أجبت مباشرة دون تردد: نعم، مع فتاة أخرى، من أخبرك بهذا؟ فأجابت: لا أحد، فقط، شعرت بذلك والحلم أكد ظنوني. بعد العودة إلى الغرفة، شعرت بأنه لم يحدث أن أحبتني فتاة من قبل كما أحبتني زينة.. فحزنت على نفسي وعليها.

الفصل الثاني

المغامر الرومانسي

بعد أن سافرت زينة إلى ضفة الشمس والصحراء وتركتني وحيدًا في ضفة الجليد، كنت أخرج إلى الشارع من غرفتي البائسة تلك أدخن سيجارتي الوحيدة، أتأمل في العابرين، أفكر في لقاء جديد بها. ذات مرة وبينما كنت أقف عند مدخل السكن الجامعي، رآني صديقي المغامر وأتى إليَّ ثم قال: في الماضي كنت أراك تتجوَّل برفقة فتاة جميلة والآن تبدو وحيدًا، ماذا حدث؟ قصصَّت له سفر زينة، وآمالي بلقاء قريب. حينها قال: لست وحدك من يشكو بعاد الحبيبة، هل تذكر الفتاة التي رأيتها بصحبتي في المقهى ذلك اليوم؟ فأجبته بأنني كنت مع زينة، لذلك لم أُولِ اهتمامًا. طلب مني أن نجلس عند الرصيف لنتسامر قليلًا. عندما جلسنا، أشعلت سيجارة أخرى، فبدأ يتحدث عن الفتاة، حيث قال:

الحياة بدت أجمل مما توقَّعت، لم أكن أدري أن الطريق سيجمعني بفتاة بهذا الجمال. قبل شهرين تقريبًا من الآن، بينما كنت وزملائي في الدراسة ننتظر أستاذ مادة الأدب، جاءت فتاة ومعها رفيقتها، ألقتا علينا التحية وسألت: هل محاضرة الأدب ستقام هنا؟ أجبت بنعم ثم أضفت: أول مرة أراكِ أنتِ ورفيقتكِ، هل تدرسان بهذه الجامعة؟ أجابت بأنني على حق، اليوم أول مرة أتين إلى هنا قادمتين من ضفة الجمال والنبيذ. ثم جلسا في المقاعد الخلفية. كانت المحاضرة شائقة كما هو الحال في كل مرة، فأستاذنا كان يجمع صفات الأديب، الأستاذ والفيلسوف. كان قد وُلِدَ في ضفة الجليد، متوسط القامة، رغم كبر سنة، فإن ملامح الشيخوخة لم تظهر في وجهة بعد، صوته هادئ وجهور، متخصص في أدب ما وراء الضفاف. كان يحب طلابه، يشرف

على طلاب الماجستير والدكتوراة، لا يترك أحدًا في منتصف الطريق، يشد من أزرهم حتى الوصول إلى الضفة الأخرى. كانت محاضرته مفيدة، ممتعة ومشوِّقة لذا لم نكن نشعر بعجلة الزمن. في تلك المحاضرة، تعرفنا أدب ما وراء الضفاف ورموزه مثل ميشيل الزين، رولان إسحاق، جاك أحمد وتحدث الأستاذ عن دور طلاب جامعة كمبو ودالبصير في تشكيل هذا التيار الفلسفي والأدبي. انتهت المحاضرة، خرجنا وكان معي زميلي. لدى كليتنا ممرات كثيرة. كانت الأبواب تفصل بين كل ممر. عند هبوطنا إلى الطابق الأسفل، رأيت فيكتوريا ومعها رفيقتها قادمتين خلفنا، فتحت الباب وتوقفت لتعبر هي ورفيقتها أولًا، احترامًا وتقديرًا للأنثى. ربما كان هناك هدف آخر خفي - جذب الانتباه. بالرغم من بساطة هذا الموقف، فإن وقعه كان كالسحر. أول مرة منذ قدومي إلى هنا يفتح رجل الباب من أجلنا. هذا لطيف جدًّا؛ هكذا كان رد فعلها. أما أنا فقلت - بصوت منخفض - ربما هذا أول شرك يُنصَب لكِ منذ قدومكِ. قالت: آسفة، لم أسمع ما تقول. حينها قلت لها بصوت مرتفع: شكرًا جزيلًا على الإطراء. عندما خرجنا إلى الطريق المؤدي إلى المواصلات العامة والسكن الجامعي في آنٍ واحد، بدأ كل منا يُعرِّف نفسه، يعطي مقدمات عامة عن نفسه. تحدثت عن وطني «ضفة الشمس» وعن المعالم الرئيسية هناك. وبالقدر نفسه تحدث كل واحد منَّا. اعترفت رفيقتها بحلاوة الحديث معنا، لذلك اقترحت علينا أن نذهب إلى أقرب مقهى لنواصل ما تبقي من حديث. عند احتسائنا القهوة، ذكرت لي فيكتوريا بأن لديَّ ذوق رفيع في اختيار الألوان، وأسلوبي في التعامل راقٍ. حينها قلت لنفسي: هذه الفتاة تريد اللعب بالنار، فلنلعب إذًا. شكرتها على هذا التعليق، طلبت رقم هاتفها وصفحتها على الفيس بوك. أعطتني دون تردد، وأضافت بأنها تتمنى أن نكون أصدقاء، وأن ضفة الجمال والنبيذ ليست تقع بعيدًا من ضفة الجليد ولكنها لا

تطل على البحار، أما عاصمتها فتدعى ضفة مراتسلافا. قلت لنفسي يكفي أنهارك التي أحاول أن أسبح فيها عميقًا.

- يا صديقي، عن أي أنهار تتحدث؟

أجاب قائلًا:

- أنت تفهم قصدي فلا داعي للعب دور البريء.

- طيب ممكن تكلمني أكتر عن فتاة مراتسلافا هذه؟

حينها، بدأ صاحب المغامرات الرومانسية قائلًا: سأحكي لك عن نهر واحد فقط اليوم: عندما افترقنا في ذلك اليوم وبعد أن أخذت رقم هاتفها أصبحت اتصل بها في كل مساء. حدثت ألفة بيننا، وشعرت بأمان كامل تجاهي، لذلك لم يكن مُفاجئًا بالنسبة إليَّ عندما تلقيت اتصالًا هاتفيًّا منها تدعوني فيها إلى غرفتها. لم أتردَّد في قبول الدعوة، لأن البنت جميلة، مثيرة وذكية. عندما أتيت إلى الغرفة وطرقت الباب، كانت المفاجأة: Happy birthday to you[1] سمعت أصواتًا تُردِّد هذه التهنئة. في البدء لم أفهم ما يدور، ولكن عندما عانقتني وردَّدت Happy birthday to you أفقت من شرودي، وبدأت السيمفونية تتناغم في داخلي دون نشاز. اليوم هو السابع عشر من نوفمبر الذي يوافق عيد ميلادي، حينها قلت thanks [2]dear, I appreciate that. لم يكن حضنها الوحيد الذي حظيت بدفئه، بل هنأتني رفيقتها التي لا تقل عنها جمالًا أيضًا. كانت الطاولة مغطاة بالكعك، البيتزا وكؤوس النبيذ المعتق كانت تُزيِّن اللقاء. لم أشعر بسعادة يومًا كما شعرت بها في ذلك المساء وأنا جالس بين حسناوات شاهقات الجمال. تسامرنا عن أشياء مختلفة. وعبَّرت عن شكري لها بهذه الهدية وعدت إلى غرفتي لأنام

(1) عيد ميلاد سعيد – ترجمة عن الإنجليزية

(2) شكرا عزيزتي، أقدّر ذلك. – ترجمة عن الإنجليزية

وحيـدًا، حاضنًـا أمـالي بأيـام أكـثر إشراقًـا. لكـن قبـل أن أغـرق في أحلامـي تذكَّـرت أن إجـازة نهايـة الأسـبوع عـلى بعـد خطـوات منـي. أخـذت هاتفـي وكتبـت رسـالة لا تـزال موجـودة في هاتفـي يمكننـي أن أطلعـك عليهـا: غـدًا لا بـدَّ أن نلتقـي. أودُّ أن أدعـوكِ لوجبـة عشـاء. أتـاني الـرد بالإيجـاب. فبدأت – دون أن أشـعر - أقفـز فـوق سريـر النـوم. لذلـك نبهنـي جـاري وطلـب منـي أن أحـترس حتـى لا أسـقط. عـاد إليَّ صـوابي فهـدأت. أخـذت غطـائي لا لـكي أقـي نفـسي مـن الـبرد، ولكـن لأحمـي أمنيـاني وأحلامـي مـن عيـون السـارقين. فالجـمال دائمًـا مـا يكـون هدفًـا لأصحـاب القلـوب السـاهرة.

في مسـاء يـوم الجمعـة، ذهبـت قبـل نصـف سـاعة مـن الموعـد المحـدد للقائنـا. كُنـت أنتظـر هـا في الاسـتقبال. لأول مـرة أفهـم أن تأخـير النسـاء عـن الموعـد الغرامـي لا يُعـدُّ تأخـيرًا. لأن الأنثـى تعيـش لقـاءات عشـقها المتخيَّـل بحبيبهـا المرسـوم بأجمـل مـا يكـون عـلى صفحـة نهـر دواخلهـا أولًا، وهـو يتـماوج بـين ضفـاف دواخلهـا ويعدهـا بالحنـان الرومانـسي الخالـد. بعـد ذلـك تـأتي إلى العاشـق الـذي يمـشي عـلى قدمـين. أحيانًـا لا تـأتي أبـدًا، وذلـك إذا مـا حـدث وإن اختـار الانعـكاس مدخـلًا غـير مناسـبًا للحـوار. لم أسـألها عـن الثلاثـين دقيقـة التـي سرقهـا منـي انعـكاسي المُتخيَّـل بداخلهـا. فقـط تعانقنـا ثـم ذهبنـا إلى المطعـم الـذي يقـع بالقـرب مـن سـكنها. كان لا بـدَّ أن أختـار مكانًـا ليـس بعيـدًا لتطمـئن وبعدهـا يحـدد المسـاء وحـده تطـور الأحـداث وفي أي نهـر سأسـبح.

ظللنـا ماكثـين سـاعتين في ذلـك المطعـم. أكل كل منـا مـا يشـتهي مـن الأطعمـة، متناولـين شـيئًا مـن نبيـذ العنـب المُعتـق. بعـد ذلـك أبـدت رغبـة في الرقـص، فدعوتهـا. نظـرت إلى عينيهـا بثقـة، شـفتيها المزمومتـين، وعندمـا اقتربـت الأغنيـة مـن الانتهـاء وجـدت نفـسي غارقًـا في نهـر القبـلات.

قاطعته قائلا:

- أشعر وكأنك قد ولدت من جديد يا صديقي؟

لم يُجِبْ عن سؤالي، بل كان يأخذ نفسًا طويلًا بعد أن لفظ عبارة «نهر القبلات». تغيَّرت ملامحه وقد ظهرت لمعة فرح في وجهه، لأن ما عاشه في ذلك المساء مع فيكتوريا تحوَّل من ذكريات إلى حاضر يراه ماثلًا أمامه. كان يحس كل كلمة يقولها وكأنه يعيشها الآن. عندما طال صمته، قلت له:

- أنا مضطر أمشي، لأنه بكره عندي محاضرة الصباح.

حينها عبَّر صديقي عن شكره لي، وطلب أن نلتقي من زمنٍ إلى آخر، ليحدثني عن مغامراته الأخرى أو ربما عن خساراته الجميلة. هكذا عالم الحب لا يقبل النصر فحسب. بل لا بدَّ من خسارات، لأن عالم الحب لا يتشكَّل ويتنوَّع من الانتصارات، ولكن من الخسارات والحسرات والندامات الدائمة.

توَّجهنا معًا إلى السكن. وفي المدخل، التقينا بالحرس – امرأة، جميلة، نظرت إليَّ وكان الوقت يقترب من الرابعة صباحًا بتوقيت المدينة. كُنا على معرفة جيدة بها، خاصةً لأنني كنت أكن لها احترامًا ومودة للطفها البالغ معي. كانت جدائلها تتدلَّى كأغصان الأشجار الكثيفة، تدخن كما تحتفي بالنبيذ من زمنٍ إلى آخر، خاصة في الأعياد. سألتني أكان بحوزتي سيجارة، فقدمت لها لفافة. طلبت مني أن أرافقها إلى الطريق لتأخذ قسطها من الليل. خرجنا، أشعلت لها السيجارة، بدأت تنظر إلى سماء المدينة، حيث كانت النجوم البعيدة ترسل لنا التحايا، وكان القمر يجلس في عرشه مراقبًا الليل. تحدثت مع تلك المرأة عن تفاصيل اليوم، وإن كانت هناك أشياء ممتعة قد حدثت. قلت لها أنا وصديقي، الذي ذهب لتوِّه، تحدثنا عن مغامرة من مغامراته

العاطفيـة، وكيـف انتهـت هـذه المغامـرة إلى نهـر مـن أنهـار الجنـة، «نهـر القبـلات»، فضحكـت بصـوت ليـس بالمنخفـض مُعربـةً عـن إعجابهـا بهـذا الوصـف. كانـت المـرأة تُناهـز الأربعـين مـن العمـر، لكـن ملامحهـا تشـير إلى أقـل مـن ذلـك بكثـير، كانـت لديهـا قَصَّـةَ شـعر قصـيرة، ونهديـن شـامخين عـلى صدرهـا، وأسـورة ذهبيـة تزيـن عنقهـا الطويـل. فـإذا رأيتهـا في مـكان آخـرٍ، وهـي لا ترتـدي ينيفـورم العمـل، ربمـا تظـن أنهـا ملكـة جـمال المدينة. بعـد أن احتفـت بآخـر شرارة في سـيجارتها، طلبـت منـي المزيـد، حينهـا قلت لهـا: ربمـا عطشـك هـذا لا ينطفـئ بلفافـات الدخـان، ربمـا أتـاك الحنـين إلى نهـر مـن أنهـار الجنـة؟ سـمعتْ هـذه العبـارة بصمـت وقـد كانـتْ تنظـر إليَّ.. قدمـت لهـا لفافـة ثانيـة، لكنهـا رفضـت التدخـين وطلبـت منـي أن نعـود إلى الداخـل. عندمـا اقتربنـا مـن البـاب أمسـكتني وطلبـت أن أعانقهـا مـن الخلـف. عندمـا تحسسـت تلـك القمـم، رأيـت القمـر وقـد تـرك عرشـه لنـا، ضممتهـا بشـدة، وسـألتها إن كانـت هنـاك كامـيرا هنـا أم لا - كنـت أخـاف عـلى نفسـي وعليهـا لأنهـا في مـكان العمـل، حدثتنـي بـأن الكامـيرات لا تغطـي هـذه النقطـة التـي نقـف فيهـا، هـذا المـدار خـارج نطـاق دائـرة التجسـس. أبـدت رغبـة بـأن أحـكي قصصـا عاطفيـة لتلالهـا الأماميـة، حـين تحولـت مـن الجبهـة الخلفيـة إلى الجبهـة الأماميـة، حتـى إذا جـاء المـوت سـيجدني في المقدمـة، في الصـف الأمامـي. سـألتني: هـل يمكنـك أن تجعلنـي أغـرق في نهـر قبـلات؟ ففعلـت، لأن النسـاء اللـواتي لهـن خـبرات كبـيرة لا يؤمنـن بالوعـود، بـل بالأفعـال التـي هـي الضامـن الوحيـد. طلبـت منهـا أن تكـون عـلى شـاطئ النهـر فقـط، لأن الوقـت للعمـل. عندمـا خرجنـا مـن النهـر، عـادت إلى الداخـل أولًا، ثـم تبعتهـا بعـد دقائـق حتـى نخـدع الكامـيرات. تمنَّـت لي ليلـة سـعيدة بقـدر السـعادة التـي عشـناها معًـا في هـذه الدقائـق القليلـة. أمـا صديقـي صاحـب المغامـرات الرومانسـية، كان نائمًـا وغارقًـا في أحلامـه. عـدت إلى غرفتـي. وجـاري بالغرفـة كان يمـلأ الغرفـة

بالشخير. لذلك قررت أن أصدر صوتًا عاليًا. أخذت إناءً حادًّا وضربت به سريره. حينها هدأت الغرفة. أطفأت النور، تأكدت أكانت النوافذ مغلقة. ثم خلدت إلى النوم.

والصرخة تبدو كالموسيقى،

حين تنبع من أنين الحب!

تصرخ الوردة، وتولد بلورات من رذاذ..

ولفافات التأمل، تنجب غيمةً.

وصرخات الحبيبة، تنثر على صفحات الغرام،

دموع شوق!

كل شيء يصرخ، الكلب والقلب، ورب البيت يصرخ..

وحين يصرخ طفل، يختفي نشاز الصدى.

أما أنا سأبقى صامتًا، لأن في الصمت صراخ.

سمعت صديقي صاحب المغامر يردِّد هذه الكلمات في ذلك المساء الصيفي عندما كنا ندخن. قلت له مندهشًا بجمال العبارات التي سمعتها للتو: لم أكن أعرف بأنك شاعر. أضفت مستفسرًا: طبعًا، إن كنت أنت صاحب النص.

حينها أجاب:

- نعم، أنا من كتب وردد هذه الكلمات، لا أحد غيري. لكن حتى تصدقني لابدَّ لي أن أحدثك عن الدوافع، ومصدر إلهامي. ولأنني أعرف أنك لا تمانع أن تسمعني، لذلك سأحكي لك.

طلبت منه أن يكون خفيفًا على هذا المساء الجميل، وألَّا يسهب

في الـكلام وشرحـت لـه أننـي في عجلـة مـن أمـري. حينهـا طلـب منـي أن أخصـص لـه ثـلاث سـاعات مـن هـذه الأمسـية لأنـه يريـد أن يُقاسـمني مـا عاشـه مـن مغامـرة. عـرض عـليَّ أن نذهـب إلى المتجـر الـذي لا يبعـد كثـيرًا عـن مدينتنـا الجامعيـة لنأخـذ عبـوات مـن البـيرة حتـى يحلـو الـكلام، فقبلـت العـرض.

جلسـنا في الحديقـة واثنتـا عـشرة علبـة بـيرة تحجـب رؤيتنـا الأماميـة. كانـت الحديقـة في ذلـك المسـاء تزيـن نفسـها بالـورود، ترتـدي فسـتانًا مـن أشـجار اليولـكا[1]، ومتبرجـة بـرذاذ المطـر. أخـرج صديقـي سـيجارة وأشـعلها لي، ثـم أخـرج أخـرى لنفسـه. أمـا أنـا في تلـك اللحظـة، فكنـت أحتفـل بالرشـفة الثانيـة مـن البـيرة ومُمسـكًا بيـدي الأخـرى علبـة السـجائر لصديقـي الـذي كان مشـغولًا بترتيـب الشـعور المتدفـق الـذي كان يتعَّـرض طريـق دخـان السـجائر مـن الانسـياب بهـدوء. قلـت لـه: يبـدو أن لقـائي المنتظـر سـيُلغى اليـوم بأمـر مـن هـذه التـلال الاثنتـي عـشرة، لذلـك كـن هادئـًا في الـكلام. احـكِ كل التفاصيـل التـي تريـد قولهـا. مـا أجمـل الـكلام عـن الحسـناوات، وخاصـةً عندمـا يريـد صديـق مشـاركة مغامرتـه. حينهـا، ابتهجـت أسـاريره، أخـذ رشـفة مـن البـيرة ثـم أردفهـا بأخـرى ثـم بـدأ: الآن وبعـد مـرور خمسـة أشـهر مـن لقـائي الأول بفيكتوريـا، أصبحنـا couple[2]. عـادت للتـو إلى مدينتنـا الفاتنـة هـذه بعـد أن ذهبـت إلى بلدهـا لـكي تحتفـل مـع أسرتهـا بمناسـبةٍ خاصـة. لكـن عودتهـا هـذه المـرة ليسـت للدراسـة، إذ إن الجامعـة - كـما تعلـم - قـد أغلقـت أبوابهـا ولـن تُفتـح حتـى بدايـة سـبتمبر القـادم.

كان صديقـي ينتظـرني أن أسـال عـن سـبب مجيئهـا، لكننـي التزمـت الصمـت لأني كنـت أسـتمتع بطريقـة حديثـه، إذ كانـت كل كلمـة تخـرج

(1) شجرة الصنوبر - الترجمة عن الروسية

(2) عشيقين - ترجمة عن الإنجليزية

صادقـة، دافئـة ومُتدفقـة مـن القلـب مبـاشرة. عندما طـال صمتي، اسـتأنف المغامـر المحـب الـكلام بهـذه العبـارة: أتـت مـن أجـلي أنـا، بعـد أن اشـترت تذاكـر سـفر ذهـاب وإيـاب لتـزورني في كهفـي هـذا، المدينـة الجامعيـة التي تشـبه معسـكرات الجيـش. عندمـا أرسـلت إليَّ نسـخة مـن تذاكـر السـفر قبـل يومـين مـن قدومهـا، أول شيء خطـر ببـالي هـو الرحيـل مـن غرفتـي إلى غرفـة أخـرى، لأن جـاري كان موجـودًا حينهـا، وحبيبتـي سـتبقى معـي عـشرة أيـام. ولا أريـد أن يشـاركني أحـد أنفـاس حبيبتـي. لذلـك، ذهبـت إلى مـشرف السـكن حامـلًا معـي هديـة زجاجـة فـودكا. شرحـت لـه الأمـر، وأننـي أرغـب في تهيئـة جـو خـاص لحبيبتـي الآتيـة مـن البعيـد، مُحمَّلـة بالأشـواق التـي تعـد بالنسـبة إليَّ مسـألة حيـاة أو مـوت. شـكرني عـلى الهديـة أولًا، وقـال إنـه كان يسـتعد إلى الذهـاب لـشراء شيء مـن الكحـول للاحتفـاء بعيـد ميـلاد أحـد معارفـه الـذي قـدم لـه الدعـوة منـذ شـهر. بعـد أن اطمـئن عـلى وجـود زجاجـة الفـودكا في مـكان آمـن، طلـب منـي أن آتي غـدًا عنـد العـاشرة صباحًـا لـكي يُسـلِّمني مفاتيـح الغرفـة. تمنيـت لـه ليلـة سـعيدة وخرجـت إلى الشـارع لأدخـن والسـعادة تغمـرني. وبعـد أن فرغـت مـن لفافـة الدخـان، عُـدت إلى غرفتـي ووجـدت جـاري يرتـب في حقيبتـه، سـألته أكان مسـافرًا أم شـيئًا مـن هـذا القبيـل. فأكـد لي أنـه يسـتعد للسـفر إلى أسرتـه، لأنـه تلقَّـى خـبرًا مفـاده أن أخـاه يريـد أن يخطـب في عطلـة نهايـة الأسـبوع. حينهـا زادت فرحتـي، عـبَّرت لجـاري بخطبـة سـعيدة لأخيـه وأن يصـل بالسـلامة. الآن أنـا لسـت في حاجـة لمسـاعدة مـشرف السـكن. عـليَّ أن أسـتعيد زجاجـة الفـودكا، فكـرت. المـشرف يريـد الاحتفـال بعيـد ميـلادٍ مـا، أمـا أنـا فأسـتعد بـدوري للاحتفـاء بقـدوم حبيبتـي، فمـن أولى بهـذه الزجاجـة اللعينـة؟ بالتأكيـد أنـا قلـت لنفسـي، كـم السـاعة الآن؟ تسـاءلت ونظـرت إلى هاتفـي، كان الوقـت يقـترب مـن الواحـدة ليـلًا، حينهـا عدلـت عـن فكـرة الذهـاب إلى المـشرف واسـترداد هديتـي الغاليـة. ليس لأن

الوقـت كان متأخـرًا، بـل لأننـي كنـت أجلـس في الحـمام وأقـضي حاجتـي، حيـث الأفـكار الصائبـة تأتينـي في أغلـب الأحـوال عندمـا أكـون في ذلـك المـكان. في السـكن الجامعـي تقـوم العلاقـة بـين الطـلاب والمشرفـين عـلى المصالـح، وحفـظ الأسرار والإيفـاء بالوعـود. هنـا كل شيء ممكـن، لكـن إذا لم تحـترم قوانـين اللعبـة لـن تسـتطيع البقـاء هنـا طويـلًا. قلـتُ، إذًا، فلأتـرك المـشرف يحتفـل بعيـد الميـلاد ويسـكر حـد الثمالـة، وأنـا سأسـكر بـدوري عـلى شـواطئ حبيبتـي حتـى الثمالـة أيضًـا. وبهـذا قـد أكـون أديـت عمـلًا نبيـلًا، وسـيحترمني المـشرف عـلى هـذا الـشيء. توافقنـي الـرأي بـأن الفكـرة كانـت صائبـة أليـس كذلـك؟

- هههههه.

ضحكـت عاليًـا، وعـبَّرت عـن موافقتـي لـه، وقلـت لصديـق المغامـرات، هـل تؤمـن بـأن الأفـكار الجنونيـة هـذه تأتيـك عندمـا تزيـد مـن ثقـل الكـرة الأرضيـة بمخلفاتـك المُتعفِّنـة تلـك؟ عندمـا سـمع تعليقـي هـذا قاطعنـي قائـلًا:

- ليـس بوسـعي أن أشرح لـك. لكـن هـذا مـا يحـدث معـي دائمـا. مثـلًا عندمـا تسـتعصي عـليَّ مسـألة رياضيـة، أو أجـد صعوبـة في حـل مشـكلة مـا، أركـض إلى الحـمام، وقبـل أن تسـقط قطعـة الغائـط الأخـيرة مـن مؤخـرتي أجـد حلـولًا لمشـكلاتي. قـال هـذا وارتشـف مـن علبـة البـيرة التـي في يـده ثـم نظـر إليَّ باسـمًا.

قلت له متعجبًا:

- أول مـرة ألتقـي إنسـانًا يسـتشرفُ الإلهـام وهو جالـسٌ في الحمام!

ثـم طلبـت منـه أن يسـتأنف الحديـث. قـال: خرجـت مـن الحـمام وذهبـت إلى المـشرف في مكتبـه في الطابـق الأسـفل. عندمـا فتـح البـاب

ووجـدني، اندهـش وقـال: طلبـت منـك أن تـأتي صبـاح الغـد.. عندهـا قاطعتـه: أتيـت لأعـترف بأننـي قـد خدعتـك. لا أريـد غرفـة، أعيـش الآن وحيـدًا لأن جـاري سـافر بالأمـس، فقـط، أردت أن أهديـك زجاجـة فـودكا لأعـبر عـن تقديـري لـك. نظـر إليَّ مُبتسـمًا. عـبَّر عـن شـكره لهـذا العمـل «النبيـل» وتمنـى لي ليلـة هادئـة وأحلامًـا سـعيدة. تمنيـت لـه كذلـك ليلـة سـعيدة أيضًـا وعُـدت إلى غرفتـي. لم أبـقَ سـوى دقائـق معـدودة حتـى أسـمع أحـدًا يطـرق بـابي. كان جـاري في ذلـك الوقـت يجلـس في الحـمام مُتأمِّـلًا، عندمـا فتحـت البـاب، وجـدت المـشرف واقفًـا. لم يسـألني، بـل دخـل إلى الغرفـة مبـاشرةً وخـرج منهـا دون أن يقـول أي شيء، وعندمـا وصـل إلى الممـر الخارجـي، سـمعته يقـول: أحـلام سـعيد مـرة أخـرى - شـكرًا عـلى الهديـة. بعـد أن فكَّـرت قليـلًا فيـما حـدث للتـو، أدركـت أنـه أراد أن يتأكـد أكنـت قـد كذبـت عليـه أم لا.

- يـا صديقـي هـذا الشـخص يعـرف مـن المكـر مـا يكفـي أجيـالًا مـن السـابقين واللاحقـين، فقـط حالفـك الحـظ بـأن جـارك ذهـب إلى الحـمام بأمـر مـن جهـازه الهضمـي، لـولا ذلـك، لأفسـد كل شيء. سـألته: مـاذا حـدث بعـد خـروج المـشرف؟

- عندمـا خـرج المـشرف، بـدأتُ أُفكِّـر في ترتيـب الأمـور، كتنظيـف الغرفـة ومـلء الثلاجـة بالمـواد الغذائيـة والمشروبـات الكحوليـة، إذ إننـي أتأهـب للدخـول إلى معسـكر رومانـسي مغلـق. كـما فكَّـرت أيضًـا في الذهـاب إلى المطـار مبكـرًا، لأن حبيبتـي مثـل بقيـة حسـناوات أوروبـا لا تحـب الانتظـار. ولـكي ننغمـر في أنشـطتنا التـي سـنقوم بهـا والأماكـن التـي قـد نتمكَّـن مـن زيارتهـا في حـال انتهـاء الأيـام السـبعة. وهـي مـدة المُعسـكر المُحـدَّد، وذلـك بعـد أن قالـت حبيبتـي أنهـا لا تسـتطع أن تبقـى عـشرة أيـام في هـذا المعسـكر الثنـائي. ثـم فكـرت في شراء ملابـس داخليـة بعـدد أيـام المعسـكر، إضافـةً إلى أننـي كتبـت كل هـذه الأشـياء في مذكـرتي

حتـى لا أنـسى. فأنـا أود أن أحافـظ عـلى قوانـين اللعبـة وأن أعكـس مـا تعلمتـه مـن الغربـة ومـا غيرتـه حبيبتـي مـن أشـياء كثـيرة سـلبية في حيـاتي رغـم قـصر المـدة التـي عرفتهـا فيهـا. كانـت تذهـب معـي إلى التسـوُّق لأشـتري مـا أريـد مـن ملابـس وأحذيـة، لكـن اختيـار الألـوان المناسـبة كان مهمتهـا. باختصـار هـذه الفتـاة علَّمتنـي كيـف ألبـس، كيـف آكل، كيـف أمـارس الجنـس، كيـف أشرب النبيـذ، حتـى علمتنـي المـشي عـلى الطريـق!

عندمـا توقـف عـن الـكلام وبـدأ ينظـر إلى أعـلى، سـألته: لمـاذا تنظـر إلى الأعـلى؟ قـال إنـه ينظـر إلى انعـكاس حبيبتـه، والعلـو هـو المـكان الطبيعـي عندمـا يمـارس الجنـس، أي صعـودًا ونـزولًا إلى الأعـلى. قلـت لـه بلغـة دارجـة: واصـل يـا معلـم، أنـا مزاجـي الليلـة رايـق، وهسـمع لخرافاتـك للآخـر! كـما أن الفانتازيـا أحيانًـا تخـون، فليـس هنـاك سـوى انعـكاس لرشـفات البـيرة التـي تناولهـا.. علمـت كل شيء؟ هـذا اعـتراف فريـد مـن نوعـه، هـل سـجلت هـذا أيضًـا في مذكرتـك تلـك، سـألت؟

- بالطبـع لم أُسجِّله، لأننـي أعيـش هـذه الأشـياء كسـلوك في حيـاتي اليوميـة. لا تسـتطيع أن تفهمنـي، لأنـك خـالٍ مـن التجـارب هههههـه.. عمومًـا دعنـي أكمـل.. بعـد أن رتَّبـت أفـكاري، خلـدت إلى النـوم. كانـت تلـك الليلـة بـلا أحـلام، وعندمـا اسـتيقظت لم أجـد جـاري بالغرفـة، لكننـي وجـدت ورقـة عـلى الطاولـة مكتوبًـا فيهـا مـا يـلي: «يـا جـاري العزيـز، بالأمـس رأيـت رسـالة في تلفونـك وعرفـت أن your girlfriend[1] سـتأتي خـلال هـذه الأيـام، لذلـك قـرَّرت أن أتـرك لـك الغرفـة وأذهـب إلى صديقـي بالمدينـة لأقـضي معـه بعـض الوقـت. اسـتمتع، وعليـك أن تفخـر برفـع علـم بلـدك عاليـا ليفتخـر بـك الوطـن.. إلى اللقـاء». أخـذت هاتفـي وكتبـت رسـالة قصـيرة لـه: «ابـن الكلـب، تركـت لي الغرفـة، أشـكرك عـلى هـذه الخدعـة الجميلـة. فأنـا بالأمـس أهديـت المـشرف هديـة بـلا مقابـل، لأجـد

(1) عشيقتك - ترجمة عن الإنجليزية

في الصباح هدية دون أن أقدم شيئًا». إنها عدالة السماء قلت. عند التاسعة صباحًا، كنت واقفًا أمام السوبرماركت الذي يقع قريبًا بعض الشيء من السكن الجامعي. لكن الأبواب كانت مغلقة لأن داوم العمل لم يبدأ بعد. رغم أنني أعلم ذلك جيدًا. لكن في ذلك اليوم ذهبت مُبكِّرًا دون قصد. ألم أقل لك إن الحب يفعل كل شيء؟! انتظرت ساعة كاملة، أخذت ما أريد وعدت إلى غرفتي. نظَّفت الغرفة وأعدَّدت وجبتي، ومن ثَمَّ ذهبت إلى صالون الحلاقة وبعد عودتي، اجتثثت أشجار غابتي الداخلية، المُتدليِّة فروعها والمعشوَّشبة لأضمن نجاح المعسكر الرومانسي.

ستأتي حبيبتي بالمطار الأقرب إلى الجامعة، لذلك اتجهت إلى المطار عند الرابعة، دخلت إلى بَهْو الاستقبال، فوجدت لوحة الإعلانات تشير إلى أن الطائرة التي تقل حبيبتي سوف تهبط في موعدها. ذهبت إلى بائع الورد، طلبت منه باقة ورد تتكون من ثلاث روزات حمراء، لون الشغف. لم يكن بمقدوري شراء باقة ورد كبيرة. لكن طمأنت نفسي بأن الهدية تكمن قيمتها في الفعل نفسه وليس في حجمها. أردت أن آخذ كوبًا من القهوة لكن عدلت عن هذه الرغبة. وقلت لنفسي سأشرب قهوة من صنع حبيبتي. عُدتُ مُجدَّدًا إلى لوحة الإعلانات، فوجدت أن الرحلة القادمة من مراتيسلافا قد هبطت في المطار بسلام، إذ يجري الآن توزيع الحقائب. بدأت أشعر بقلق خفيف. اقتربت من مخرج الصالة، حيث يخرج عبره المسافرون. كان هناك – كما هي العادة – عدد كبير من المستقبلين، تختلف أعمارهم وأعدادهم. لكن ما يُميِّزني عن المستقبلين الآخرين أنني كنت أحمل ورودًا حمراء، وبالطبع، لون بشرتي السمراء. رغم أنني قمت بجولة سريعة على وجوه المستقبلين لأجد شيئًا مشتركًا واحدًا بيني وبينهم، فوجدت أننا جميعًا بشر. بدأ المسافرون بالخروج. لم تكن حبيبتي من أوائل القادمين من الداخل،

فانتظـرت. أصبحـت وحيـدًا في بَهْـو الاسـتقبال. غـير أننـي رأيـت رجـلًا في السـبعينيات مـن العمـر انضـم إليَّ وكان يحمـل بـدوره ورودًا حمـراء أيضًـا، فاقـترب منـي وسـألني:

- هل خرج جميع القادمون من ضفة مراتيسلافا؟

- نعم.. لقد خرج الجميع باستثناء حبيبتي.

- وأنا أيضًا جئت لاستقبال زوجتي- حبيبتي.

- ممتاز، قلت، لامحًا نصف ابتسامة ترتسم على وجهه.

عندمـا توقَّفنـا عـن الحديـث، كنـت أرى فيكتوريـا وقـد اقتربـت مـن المخـرج، تحمـل حقيبتـين. لم أنتظرهـا حتـى تعـبر نقطـة الجـمارك، فركضـت إليهـا، عانقتهـا بشـدة، وأخـذت الحقيبـة الثقيلـة. نهـض مسـؤول الجـمارك مـن مكانـه وتوجَّـه ناحيتنـا. ولكـن حـين رأى السـعادة تغمـر وجهـي، عـاد إلى أدراجـه. حينهـا أدركـت بـأني قـد خرقـت القانـون ولم أتبـع قواعـد الاسـتقبال بدخـولي إلى المنطقـة الممنوعـة. حبيبتـي كانـت تعلـم ذلـك لكنهـا لم تُعلِّـق بحكـم معرفتهـا لي ولجنـوني ولتمـردي أحيانًـا عـلى النظـم والقوانـين والأعـراف الرسـمية السـائدة.

قدمـت لهـا الباقـة ذات الـورود الثـلاث، وقلـت: سـعدت برؤيتـك مجـددًا، أتمنـى أن الرحلـة كانـت ممتعـة؟

قالت:

- سعيدة أنا الأخرى برؤياك.

ثم تنشَّقت عبق الورد.

- الرحلـة كانـت ممتعـة، وذلـك لأني لم أصـل إلى هنـا عـبر الطائـرة، لكـن حملنـي طائـر الحُـب المُجنَّـح وأوصلنـي إليـك.

لأبتسـم أنـا بـدوري، ناظـرًا إلى العطـش الـذي انقشـع ظـمأه عـلى ملامحهـا.

خرجنـا إلى الطريـق، أشـعلت سـيجارة لأسـيطر عـلى القلـق الخفيـف ذلـك، وريثـما يـأتي التاكسي ليقلَّنـا إلى معسـكرنا الرومانـسي. كانـت تنظـر إليَّ، وعيناهـا تقـولان، أريـد أن أعاقبـكَ بشـدة، أريـد أن أشـعر بالشـمس وهـي تشـتعل في داخـلي، أرغـب في المـوت الجميـل. تيبيـت تيبيبـت، نظـرت إلى هاتفـي وفهمـت أن هـذه الصفـارات تـدلُّ عـلى وصـول التاكـسي. فتحـت البـاب الخلفـي للسـيارة، لتأخـذ حبيبتـي المقعـد المناسـب. وضـع السـائق الحقيبـة الكبـيرة في المـكان المخصـص لهـا، وانطلقنـا. لم نتحـدث في الطريـق كثـيرًا، سـوى عـن ألم الغيـاب، وفتنـة الانتظـار، وعـن الطقـس، عـن مصـير المحبـين، وعـن الثقافـات المختلفـة ودورهـا في بنـاء أو تدمـير العلاقـات العاطفيـة، طلبـت منـي كذلـك أن أتـرك التدخـين لأنهـا لا تريـد مـوتي المبكـر.

- أنـت محظـوظ جـدًّا أن تجـد فتـاة بهـذه المواصفـات في هـذا الزمـن، لأن أغلبيـة الفتيـات يملـنَّ إلى العلاقـات المؤقتـة قلـت لـه معلقًا على كلامـه الأخـير: لكـن مـا يهِّمنـي الآن أن أعـرف أكـثر عـن افتتاحيـة المعسـكر الرومانـسي كيـف كانـت؟ أنتـما الآن شـخصان داخـل الغرفـة؟ مـاذا حـدث؟

- دخلنـا إلى الغرفـة والسـاعة كانـت قـد اقتربت من السـابعة مسـاءً. وبعـد ترتيـب أغراضهـا في الـدولاب، سـألتها إن كانـت تـوَّدُ أن تسـتخدم الحـمام، فـردَّت بالإيجـاب. بعـد أن عـادت، كانـت تنظـر إليَّ والعطـش الغرامـي يطفـو عـلى ملامحهـا. أي نـوع مـن الـشراب تُفضِّلـين؟

- لديَّ الآن مزاج في النبيذ.

- ربمـا أُفضِّـل أن نتنـاول وجبـة العشـاء ونتجـرع كؤوسًـا مـن النبيـذ في الوقـت نفسـه.

قالت:

- لا أمانع، لكن علينا أن نُعدَّ وجبة العشاء أولًا.. أليس كذلك؟

جهَّزت كل شيء. ففي هذا اليوم لا ينبغي لنا سوى طهو حُبنا الشهي الفوَّاح. عندما قُلت ذلك عانقتني تعبيرًا على تقديرها. كان العشاء كثيرًا من دجاج مع قليل من البطاطا، خضراوات. ربما لم يكن هذا أفضل عشاء يتناوله الإنسان، لكن هذا ما أجيد إعداده: عشاء بنكهة الحب. أكلنا بنهم، لم يتبقَّ لنا شيء منه سوى ما هو في بطوننا. قالت فيكتوريا إنني أطبخ بشكل ممتاز، لكنها لم تأكل من قبل وجبة طيبة هكذا. ففرحت جدًّا على هذا الإطراء، لاحقًا سأدرك أنها لم تتذوق طعم الأكل، بل كانت تتذوَّق طعم الحب الذي يملأ الأكل. عندما فرغنا من العشاء كانت زجاجة النبيذ فارغة هي الأخرى. لمست راحة يديها، فوجدتها دافئة، هادئة، نظرت إلى عينيها، كان الشغف يسيطر، قمت وأخذتها من يديها. نزعت قميصها، رأيت رمَّانتين فارهتين تجلسان على صدرها، تحسستهما، بدأتْ تتحس هي بدروها عوالمي الخارجية والداخلية. أهديتها قبلة فبادلتني مزيدًا من القبلات. غرقنا في بحر القبلات، حرَّرت صدرها من كل القيود لأرى حلماتها الوردية، ثم انتزعت الجينز الكحلي الذي كانت ترتديه. وكان يغطي مؤخرتها القاتلة تلك. أما هي فكانت تُسكرني بأنَفَاسِها وقُبلاتها. يديها تدلِّكان صغيري المخبأ خلف ملابسي الداخلية الذي كان ينتفض رافعًا رأسه المُدبَّب بعد كل لمسة. استلقينا على التخت. غرقًا في بحر القبلات أولًا. ثم ذهبنا إلى العمق شيئًا فشيئًا. لتتحوَّل أنفاسها الدافئة تلك إلى آهاتٍ وآهاتٍ. اشتعل قضيبي الكبير في داخلها، مخترقًا أحشاءها المُتأججة كلما شممتُ عبق رائحة جسدها الفوَّاحة. ثم أخذ قضيبي يشد من عزمه الحارق. قبَّلت حواف أذنها الأيمن، ماسحًا ومتحولًا بشفاهي إلى أذنها الأيسر، مع ازدياد وتعالي صوت آهاتها

كأحلى نشيد أهبه من ضفاف النبيذ والجليد الباردة إلى غابات ضفة الشمس وأدغالها الوعرة، ثم شيئًا فشيئًا تحوَّلت الآهات إلى صرخات، وأنا أمضي في توغلي النشوان عميقًا عميقًا.. أحبكِ، أحبكِ، أموت في حبكِ، عاقبني، اقتلني يا حبيبي.. استمررنا في تحلقينا هذا ساعات. حينها قالت يكفي هذا. لا أستطيع أكثر من ذلك. طلبت منكَ أن تقتُلني حُبًّا، وليس أن ترسلني إلى العالم الآخر. فالموت في الحب مجازًا، هو حياة ما بعدها حياة.

قاطعته قائلًا:

- ليتني أملك حبيبة، لأعيش هذه اللحظات أيضًا يا صديقي..

لكن صاحب المغامرات لم يرغب في التوقف عن الكلام، رغم أن البيرة قد نفدت وسجائرنا كذلك.

قال:

- رجاءً، لم يتبقَّ إلا القليل. دعني أكمل لك القصة.. لأني أتخيَّل كل ذلك وكأنه يحدث الآن. عندما قالت حبيبتي كفى، رأيت دموعي تنهمر، ليس لطردي من الفردوس، بل من شدة جمال التحليق في أعالي الفردوس السماوي الذي كنت فيه لتوِّي. رأت فيكتوريا دموعي، لم تستطع السيطرة فذرفت هي الأخرى الدموع دون أن تسألني عن سبب تساقط حبَّات الدمع من عينيَّ. عانقتها، فقبَّلتني. أطفأت النور. وعدت إليها وضممتها إلى حضني، وأخذت أروي لها قصصًا وحكايات، منها حكاية الولد المشاغب والبنت الحديقة. وبعد هنيهة، رأيت النوم قد سرق حبيبتي. صمتُّ قليلًا، تأمَّلت انتصارنا هذا، وفكَّرت في بطولاتي القادمة.. لم أغص طويلًا في تأمُّلاتي، حتى أخذني النوم إلى حبيبتي دون أن أشعر. أعرف أنك لن تسألني عن الحلم في تلك الليلة. إذ إن الحلم كان مُستلقيًا في حضني. هكذا وبشكل يومي قضينا أيامنا في المعسكر الرومانسي.

في مثـل هـذه الظـروف، وفي ظـلِّ هـذا الراهـن الفـيروسي، فـإن أفضـل وسـيلة للمقاومـة هـي النظـر بعيـدًا إلى المسـتقبل والتفكـير في أي إشـكالات مُحتملـة، لأن كثـيرًا مـن النـاس، وربمـا العـالم أجمـع يـدرك أن المسـتقبل لـن يكـون كحاضرنـا الآن. وبطبيعـة الحـال سـيكون مختلفًـا عـن المـاضي. لذلـك أريـد أن أعـود بذاكـرتي إلى المـاضي، وأسـتحضر جلسـاتنا المسـائية في تلـك الحديقـة بمدينـة الحسـناوات.

بعـد أن خـرج صديقـي مـن المعسـكر الرومانـسي المغلـق، وقـضى لياليـه الحمـراء تلـك، ذهبنـا إلى السـكن، بعـد أن اتفقنـا عـلى أن نلتقـي غـدًا في المـكان والزمـان أنفسـهما. مسـاء اليـوم التـالي كان بهيًّـا، كـما كان لا يـزال رذاذ المطـر وحُبيباتـه الصغـيرة تتسـاقط في زهـوٍ وخفَّـة، احتفـاءً بجـمال الحيـاة. أتيـت إلى الحديقـة قبـل صديقـي وانتظـرت. ظهـر صاحـب المغامـرات محُمَّـلا بالبـيرة والفـول المحمـص. عندمـا رآني جالسًـا في مقعـد الأمـس ابتسـم، وكأنـه رأى لوحـة الأمـس أمامـه، وعندمـا اقـترب وأراد أن يجلـس - بعـد أن ألقـى عـليَّ التحيـة - سـألته إن كان قـد اشـترى لنـا لُفافات سـجائر.

فقال:

- أحـضرت اليـوم كل شيء: البـيرة، الفـول المحمـص، السـجائر وحتـى رسـائل حبيبتـي.

- ليـس لي حاجـة إلى رسـائل حبيبتـك.. أريـدك فقـط أن تكـون في مـزاجٍ جيـد.

- أنـا سـعيد جـدًّا، وأشـعر كأن ولادتي الثانيـة حدثـت عندمـا التقيـت فيكتوريـا التـي لا تشـبع مـن ممارسـة الحـب، ولا تكـف عـن مـلأ الحـب. أشـعر بخفـة الـروح يـا صديـق.. كـما أشـعر أن قضيبـي قـد ازداد حجـمًا نتيجـة النشـاط اليومـي طـوال أيـام المعسـكر الرومانـسي.. هههههه.

- لماذا تحدثني عن حجم قضيبك؟ فأنا لست فتاة حتى تقول لي هذا الكلام. جيد أن تشعر بالحرية في الكلام معي، لكنَّ للصداقة حدودًا يا كلب هههههه - قلت مازحًا، ثم أضفت: عمومًا، ماذا حدث بعد الخروج من المعسكر؟

- قمنا بجولة حول المدينة. زرنا المعالم الرئيسية وقضينا أمسية جميلة بالمطعم الذي غرقت فيه في بحر القبلات أول مرة. تذكَّر أنني حدثتك عن العشاء مع حبيبتي هناك. لم أطلب الذهاب إلى ذلك المطعم، بل هي من رغب في ذلك. لذلك لبَّيت رغبتها دون تردد. لأنني عاهدتُ نفسي بأن أجعل أيامها - أي ما بعد المعسكر - كالحلم، كما جعلت هي أيامي فردوسًا أرضيًّا.

نظر إليَّ فوجدني أنظر إلى البعيد، فقال: اشرب، ما رأيك في هذا النوع من البيرة، فهي عَلامَة تصنع في ضفة الربيع.. أنا من علَّمك الشراب الراقي يا كلب، فلا تنسَ.. لا تحاول أن تعطيني درسًا في أنواع البيرة وعلاماتها التجارية.. ههههههههههههههههههههه.. عندما سمع إجابتي ضحك بصوت عالٍ وقال: أنت ربما علَّمتني شيئًا قليلًا.. لكن مشرفي في هذا المجال هو حبيبتي.. أنت بروفيسور في التنظير، وما على الأصدقاء إلا أن ينصتوا، أما هي فبروفيسورة في الحب والإتيكيت.. عمومًا، لم نبقَ طويلًا في ذلك المطعم. فبعد العشاء عدنا إلى الغرفة مباشرةً. كانت حبيبتي ترغب في الرقص، لذلك عدنا من هناك مبكرًا لنذهب إلى مكان آخر مشهور بالرقص، أشهرها السالكا والباناتا[1]. وكان الغرض من العودة إلى الغرفة هو أن نستريح قليلًا ونتجه إلى النادي الليلي، حيث أغاني السحرة «المكسيكانو، كولمبيانو، بورتوريكيانو»، وهي بلاد تقع في القارَّة الراقصة. استلقينا مدة عشر دقائق، كانت تحدثني عن

(1) يقصد «السالسا» و«الباشاتا»من أشهر الرقصات في أمريكا اللاتينية - خاصة كوبا والدومينيكان

سعادتها بوجودي معها، وأنا كنت أسمعها وأقبّلها بين الفينة والأخرى، وأتحسس حضنها الدافئ. فجأة قالت، أنها تشعر بألم، أين مكان الألم؟ سألتها، فقالت هناك ثم أشارت إلى ما بين أردافها المشتعلة.. لم أكن أدري طريقة التعامل الصحيحة في هذه الحالة. لكنني قلت في نفسي، حبيبتي تريد أن تستمتع بممارسة الحب ولا ترغب في الرقص، ولأن القضيب وحده قادر للعلاج لمثل هذه الآلام.

- هههههههههه، ضحكت حتى الدموع كادت تنهمر من عينيَّ. فضحك صديقي أيضًا. كم أنت غبي - قلت لصديقي.. – فقال: دعني أكمل حتى تعرف مدى غبائي هههههه.. طلبت منه أن يكمل وأنا غارق في ضحكٍ متواصل.

- بدأت أقبل شفتيها وأحرك يدي على جسدها.. انتزعت ثوبها.. شعرت بقضيبي يستيقظ، حينها قالت: حبيبي يبدو أنك لم تفهمني، أشعر بألم حاد هناك، لم أقل لك إنني أرغب في الجنس.. أيام المعسكر الرومانسي انتهت.. هذا الألم سببه قضيبك.. أول مرة في حياتي أمارس الجنس خمس وعشرين مرة في غضون خمس أيام.. لقد قتلتني.. لم تعد الماكينة تعمل.. أنهكتها.. لم تترك فيها ثمرة وإلا قطفتها. هل تفهمني الآن؟ عندها فقط فهمت مدى غبائي.. لكن ما العمل: سألتها وأنا أشعر بحزن مما حدث.

قلت له:

- وقعت في الحب يا صديقي.

وأنا أراه يخرج منديلًا ليمسح ربما دمعة نزلت من عينيه، أو أراد خداعي فلا أدري! لأن المكان كان مظلمًا شيئًا ما ويصعب لي التأكد من صدقه. لكن صوته كان حزينًا.. طيب، كيف تعاملت مع هذه المشكلة وهذا الألم الذي سببه ماردك الصغير؟

فـردَّ قائـلًا: سـألتها عـما ينبغـي فعلـه في هـذه الحالـة، كيـف لـلألم أن يـزول؟ فقالـت: إنهـا أيضًـا لا تعـرف، لأنهـا لم تتعـرَّض لمثـل هـذا الألم المشـتعل بـين الفخذيـن مـن قبـل. فـازداد توتـري. بـدأت أتمـشَّى بالغرفـة جيئـةً وذهابًـا، مـا رأيـك أن نتصفـح عمنـا قوقـول؟ سـألتها، فقالـت: أنـت الرجـل، ومـاردك الصغـير هـو السـبب في هـذه الحـرب الغريبـة. لذلـك فكـر في الحـل وحـدك! فكتبـت بـدوري باحثًـا في الإنترنـت: الإسـعافات الأوليـة لـلألم في المؤخـرة، ثـم ضغطـت أمـر البحـث. وبينـما كان البحـث جاريًـا، رأت حبيبتـي كلمـة «مؤخـرة» فقالـت يـا غبـي، مؤخـرتي بخـير، الألم في... صمـتُّ قليـلًا، فهمـت فمهـت! آسـف، فأعـدت البحـث: العـلاج المنـزلي لـلألم في عضـو النسـاء التناسـلي. ظهـرت خيـارات كثـيرة لطريقـة العـلاج. طلبـت حبيبتـي أن تلقـي نظـرة عـلى الخيـارات المطروحـة، قالـت: هـذا هـو المناسـب «يجـب وضـع صفـق الشـاي في المـاء المغـلي ثـم وضعـه الشـاي في مـكان الألم لمـدة 15-10 دقيقـة». هـذه الوصفـة التـي اختارتهـا جـاءت بالنتيجـة الإيجابيـة. بصراحـة، فكـرة النـادي الليـلي لم ترقنـي مـن البدايـة، لذلـك فرحـت بعـدم رغبتهـا في المـشي بعـد الآن. اقتربـت منهـا، أخذتهـا في حضنـي، وبـدأت أحـكي لهـا حكايـة «الصقـر والأمـيرة»: كان في قديـم الزمـان صقـر يسـكن في الغابـة، وفي كل مسـاء، كان الصقـر يُحلِّـق عاليًـا لينظـر إلى الفتيـات الجميـلات. ذات يـوم بينـما كان يلحـق في الغابـة رأى ثـلاث بنـات، الأولى كانـت تمـسي جميلـة، والثانيـة نضـيرة والثالثـة أمـيرة. كانـت الغابـة كثيفـة، أشـجارها متنوعـة: برتقـال، مانجـو، صنوبـر، لكنهـا كانـت وعـرة ومظلمـة ومخيفـة. كانـت أمـيرة تمـشي في المقدمـة حتـى تحمـي أخواتهـا جميلـة ونضـيرة مـن أي خطـر محتمـل. أُعجِـب الصقـر بشـجاعة هـذه الأمـيرة، لذلـك قطـف برتقالـة وأهداهـا لهـا، ففرحـت بهـا وشـكرته، فقـال الصقـر: «لـن أنـام الليـل، سـأظل أحرُسِـكِ، لأنـكِ جميلـة وشـجاعة وأنـا أحـب الشـجعان يـا أمـيرتي..». لم أكمـل الحكايـة، حتـى سـمعتُ شـخير

فيكتوريـا.. فقلـت فلنشـخر يـا أمـيرتي، فـإن في الشـخير فوائـده كثـيرة.. ثـم خلـدت إلى النـوم بعيـدًا عـن حضنهـا.

كان الصبـاح صافيًـا جميـلًا. شقشـقات العصافـير تأتينا عـبر النافذة لتلقي علينـا تحيـة الصبـاح. «أيهـا المحبـون، صبـاح الخير». اسـتيقظت عنـد الثامنة. تحسَّسـت جانبـي فلـم أجـد حبيبتـي. نهضـت. وعندمـا هممـت بدخـول الحـمام، التقيتهـا وهـي عائـدة مـن المطبـخ تحمـل فطورنـا وكأسي قهـوة.

- صباح الخير يا جميلتي.. هل زال الألم؟

- صباح الخير، نَظِّف أسنانك بسرعة وعُد لتناول وجبة الفطور.

- أوكي.

نظَّفـت أسـناني، وبدأنـا في تنـاول بيـض مشـوي عـلى الزيـت، تفاحتـين، قطعـة خبـز وقهـوة مجهـزة بالحـب. تحدثنـا عـن ليلـة البارحـة. قالـت إنهـا في مـزاج جيـد ومليئـة بطاقـة إيجابيـة وبالحيـاة. فرحـت جـدًّا. بـدأت أنظـر إليهـا وأقـول لنفـسي: السـاعة السادسـة مسـاءً موعـد رحلتهـا إلى الوطـن. لدينـا سـت سـاعات لنبقـى روحيًّـا وجسـديًّا معًـا. فبعـد مغادرتهـا، سـأعود وألـوذ بعـالم وحـدتي الروحيـة، لكـن هـذ الجسـد الجميـل، وهاتـين الشـفتين بنكهـة الحـب، وهـذا الصـدر الشـاهق بتلالـه البريئـة والمؤخـرة الحنونـة، سـوف تغيـب كلهـا عنـي مـدة ربمـا سـتكون طويلـة وقاسـية. شـعرت حبيبتـي بمـا يـدور في ذهنـي لذلـك مسَّـدت رأسي وقبَّلتنـي عـلى جبينـي. أكملنـا تنـاول وجبـة الفطـور، ورتَّبنـا الغرفـة. ثـم طلبـت منـي أن أقـرأ لهـا نشـيد اليـوم الختامـي حتـى لقـاءٍ قـادم. فاحـترت، لأني وعـدت نفـسي بتلبيـة كل أمنياتهـا، لكـن لم أتوقَّـع أن تكـون مـن ضمـن الأمنيـات قصيـدة، فقلـت لهـا بـكل تأكيـد سـأقرأ لـكِ. في ذلـك الوقـت لم أكـن أدري طبيعـة النـص الـذي أسـتعد لقراءاتـه. فاحـترت بـين أن أرتجـل لهـا قصيـدة الآن وبـين أن أقـرأ نصًّـا لشـاعر مـا؟ في الأخـير رسـيت عـلى هـذا النـص:

رفرف قلبي عاليًا..

تهمس حبيبتي في أذني،

اعشقني كثيرًا، ولا تخف إلَّا قليلًا..

رغبة في أن يعزف الكون سيمفونية تشبهنا،

مزج بين لفافين الحب والخيبات!

عندما ارتجلت هذه الأبيات، قابلتني بالدهشة، مُعبِّرة عن إعجابها الشديد بهذا الميكرونص. ثم سألتني أكنت أكتب الشعر منذ مدة طويلة. فقلت لها ربما هذا النص هو الأول. لكن يقيني أن في داخل أي إنسان يوجد شاعر، يخرج إما برغبته وإما في نداءات الانكسار واليأس. والخيار الثالث هو أن يكون الحب دافعًا. ربما كلامي هذا وتفسيري لمفهوم الشعر كان مُقنعًا لها، لأنها أبدت موافقتها على نظريتي. طلبت فيكتوريا أن تزور صديقتها لتقضي معها بعض الوقت قبل أن تأتي وترتب أغراضها بعد ذلك نمضي إلى المطار. وافقت على هذا المقترح وطلبت أن تحتفظ ببعض أسرارنا، بمعنى ألا تهدي صديقتها كل ذكرياتنا الجميلة، خاصة ليالي المعسكر الرومانسي، لأني أغار على الذكريات. ابتسمت ثم ذهبت. أما أنا، فذهبت إلى صالة الرياضة لأدرب نفسي على الوحدة التي قد تستمر طويلًا. عندما عدت، وجدتها قد عادت أيضًا وجمعت أغراضها. أخذنا الحقائب وخرجنا إلى الشارع حيث تقف السيارة في انتظارنا. وفي طريقنا إلى المطار، حكت لي أن صديقتها تُقرِئني السلام وتتمنى أن ألتقي بها في أي وقت، فأبواب غرفتها مشرعة دائمًا لاستقبالي، خاصةً عندما تكون حبيبتي بعيدة لتُخفِّف عني ألم الوحدة وبعاد المحبين. سألت حبيبتي إن كانت ستغار لمقابلتي صديقتها؟ أجابت أنها لا تمانع في المقابلة وأنها تثق بشخصي كما تثق بصديقتها، وأن علاقات الحب -دون ثقة متبادلة - لا تستمر طويلًا. أخرجت من

جيبـي هديـة صغـيرة وقدمتهـا لهـا، وهـي سـاعة ذهبيـة، كنـت قـد اقتنيتهـا مـن sky shop[1] عندمـا كنـت عـلى مـتن الطائرة وأنـا عائدة إلى ضفـة الرذاذ بعـد أن سـافرت إلى وطنـي ضفـة الشـمس مـدة أسـبوعين، لأتنفـس تـراب الوطـن وأشـتمَّ عبـق أمـي. أخـذت الهديـة الجميلـة والبسـيطة تلـك، ثـم عـبَّرت عـن شـكرها لي. وتحدَّثـت عـن رغبتهـا في شراء سـاعة مثـل هـذه منـذ مـدة طويلـة. فرحـت لهـذا الـشيء وقلـت لهـا إننـي أحـس برغباتهـا وأرى أمنياتهـا دون أن تفصـح لي بذلـك. ضحكـت لكلامـي الأخـير هـذا. ربمـا ظنَّت أننـي أبالـغ قليـلًا. أمـا الضحكـة، فكانـت بسـبب مقابلتهـا شـخصًا مثـلي يـرى الأمنيـات، ثـم يحقِّقهـا دون سـؤال. مـن لا يتمنـى حبيبًـا مثـلي، حتـى إن كنـت أنثـى سـأتمنى أن أقـع في حـب شـخص يشـعر بي، يعـرف أحلامـي ويـرى أمنيـاتي ثـم يحققهـا لي الواحـدة تلـو الأخـرى، خاصـةً عندمـا أكـون في ربيـع العمـر. وصلنـا إلى المطـار وعبرنـا نقـاط التفتيـش. ثـم وقفنـا في الصـف لتحصـل حبيبتـي عـلى البرودينـج تيكـت. ولمـا كنـا لم نكمـل حديثنـا في التاكسي، قـرَّرت أن أقـترح لهـا تنـاول كـوب مـن القهـوة لنواصـل مـا تبقـى مـن حديـث. ذهبنـا إلى الطابـق العلـوي. إذ إن المطـار كان مجمعًـا كبـيرًا يتألـف مـن أربعـة طوابـق. جلسـنا عـلى هامـش المقهـى، بجانـب النوافـذ الزجاجيـة، نـرى كيـف تمـضي الحيـاة في الخـارج، فهنـاك مـن يدخـن، وآخـر يقبـل حبيبتـه، ورجـل شرطـة يوقـف سـائق عربـة الـذي لم يلتـزم بلوائـح المـرور.. كانـت حبيبتـي تعشـق الكابوشـينا، أمـا أنـا فأفضـل القهـوة كـما أُكتشِـفت أول مـرة في هضـاب إثيوبيـا عاريـة، سـوداء وبنكهتهـا الطبيعـة، مثـل ممارسـة الحـب عنـد الصبـاح. أتى النـادل، أعلنـا لـه طلباتنـا: قهـوة عاديـة وكابوشـينا. سـجَّل في ذاكرتـه وذهـب. بـدأت حبيبتـي بالاعترافـات: لم يحـدث لي أن عشـت تجربـة مثـل هـذه. أنـتَ اكتشـفتَ جسـدي وروحي. لم تكـن الفاتـح الأول، لكنـكَ الأكـثر عمقًـا. أحـس وكأني أُحلِّـق في السـماء. أنـتَ

(1) التسوق أثناء السفر عبر الطيران – ترجمة عن الإنجليزية

عنيف في المضجع ولطيف في الروتين اليومي، يشدني هذا كثيرًا. أحب أن أموت في حضنك، لا تطردني من جنانك، دعني أعيش في جحيمك الآن، وعند موتي خذني إلى نعيمك. عطر جسدكَ يثيرني. أتمنى أن تكون كل المشروبات والمأكولات بنكهتكَ. تعتريني رغبة في أن تكون لي فقط، لا أريد أن يدخل إلى جحيمك حسناوات أخريات. وهبتك قلبي وجسدي، وعمري الذي مضى والمستقبل أيضًا.. أتى النادل يحمل كوبين. صمتنا. سألنا إن كنا نريد دفع الحساب الآن. قالت حبيبتي: دعه يلتقط لنا صورًا.. عندما عاد النادل حاملًا فاتورة القهوة، طلبت منه أن يأخذ هاتفي ويصورنا.. «النادل مهذب دائمًا». لم يتردَّد لحظة في تلبية رغبتنا. كانت الصور غاية في الجمال، جمعت اللحظة والنعيم، القهوة والحب، ضفة الجمال والنبيذ وضفة الشمس، الماضي وآفاق المستقبل كلها حاضرة في صورة واحدة. لم تدعني فيكتوريا أسدد الفاتورة، لأنها كانت تريد أن تُرد لي الجميل بكل السبل. لكنني حتى الآن لم أفهم ماذا فعلت لها حتى تحاول أن ترده لي! على كل حال شكرتها، وطلبت منها أن تذهب وتكمل ما تبقى من إجراءات السفر. عند مدخل الوحدة، عانقتها، وهي أهدتني قبلات، وقالت لا تكن «Bad boy»[1] لأني أنتظر لقاءنا القريب. أحبك. ثم غادرت. وقفت أنظر إليها حتى اختفت. تمنَّيت لها رحلة سعيدة وعدتُ إلى غرفتي. وبعد وصولها إلى مطار مراتسلافا، أرسلت إليَّ رسالة نصية: «وصلنا الآن، كل شيء على ما يرام، سأتصل بكَ عندما أكون في المنزل، أحبكَ».

كان الغمام يملأ سماء العاصمة ضفة الرذاذ. عندما عدت إلى غرفتي عبر المواصلات العامة، رفضت ركوب التاكسي لأنني فضلت أن أكون في وسط الزحام حتى أدرب نفسي على الانصهار والذوبان مع العامة. لا خصوصية بعد عودة الحبيبة. المدينة التي كانت مثل لوحة فنية رائعة

(1) فتى مشاغب - ترجمة عن الإنجليزية

بوجودهـا، اسـتحالت إلى مـكان بائـس، خـالٍ مـن الأسـاطير. بـدأت أشـعر بصخـب يـأتي مـن كل الاتجاهـات. اختفـت شقشـقات العصافـير، الريـاح التـي تطـرق نافـذتي قادمـة مـن الشـمال، انتظرهـا لكنهـا لم تـأتِ. قـررت أن أعيـش بقـوت الذكريـات. اسـتقبلت رسـالة عـبر الواتسـاب، كانـت صـورة لمؤخرتهـا وعليهـا بصـمات يـداي، ونـص مقتـصر «ألم أقـل لـك أنـك عنيـف في الحـب؟»، للوهلـة الأولى لم أكـن أدري مـاذا أفعـل: أضحـك أم أبـكي، أفتخـر أم أشـعر بالعـار؟ كانـت ردة فعـلي غامضـة، ولكـن بعـد لحظـات سـمعت صـدى قهقهـاتي تـتردَّد عـلى جـدران الغرفـة، قلـت لنفـسي يـا لـك مـن عنيـف، وشـعرت بالفخـر وأنـا أرى ختمـي عـلى تـلال مراتسـلافا. أنـا الفاتـح الأول لهـا. إضافـةً إلى ذلـك، تعلَّمـت درسًـا عـن الجنـس مفـاده أن ممارسـة الحـب هـي أن تلتقـي روحـك بـروح الحبيبـة، كأن تُحلِّقـا معًـا إلى كل الجهـات. الجسـد يـؤدي دور الأجنحـة التـي تسـاعد في التحليـق. رددتُ عـلى الرسـالة: هـل ترغبـين في الـكلام مُجـدَّدًا؟ لأفهـم كيـف حدث هـذا، لأني لا أعـرف بالضبـط متـى وضعـت ختـمًا يدويًّـا هنـاك. فـرنَّ هاتفـي في الحال.

- آلو، سعيد بوصولك إلى وطنك، أتمنى أن الرحلة كانت سعيدة؟

- مرحبًـا، أنـا أيضًـا سـعيدة بقضـاء وقـت اسـتثنائي معـك، هههـه، هـل رأيــت الصـورة؟

- هههههه، نعم رأيت كل شيء، متى اكتشفت هذا؟

- قبـل قليـل. عندمـا كنـت أسـتحم، رأيـت انعـكاس أختامـك عـلى المـرآة.. لم أفهـم شـيئًا في بـادئ الأمـر، لكـن عندمـا ألقيـت نظـرة أكـثر مـن مـرة، تيقَّنـت بـأن هاتـين اليديـن همـا يـداك، سـألتني: هـل تحـب مؤخـرتي أكـثر مـن الأعضـاء الأخـرى؟

- هههههـ، أنـا أحـب التـلال، والجبـال، أعشـق شـفتيك، أحـب مـا بـين فخذيـك. أحبـك، لأننـي أحـب فيـك «الإنسـانة، الأنثـى». فقـط أردت

أن أضـع هـذا الوشـم في مـكان سري وبعيـد عـن عيـون الحاقديـن، لذلـك اخـترت التـلال.

- هنيئًـا لـكَ بذلـك.. أشـعر بتعـب السـفر. لذلـك اسـمح لي أن ننهـي المكالمـة. أتمنـى لـكَ ليلـة هادئة وأحلامًا سـعيدة. ثم أرسـلت قبلة عـبر الهواء.

- أتمنى لك ليلة سعيدة أيضًا.. لك عناقي وقبلاتي.

هـدوء تـام يغطِّـي غرفتـي وروحـي. بـدأت أتأمـل التجربـة. أدركـت أن هـذه اللحظـات التـي أعيشـها سـتبذر بـذرة جديـدة لإنسـان جديـد بـدأ يتشـكل في داخـلي، أو بـدأت – ربمـا أتعـرَّف نفـسي مـن جديـد، مثـل أن يكـون لديـك مواهـب، وقـدرات لا تكتشـفها فقـط إلا عندمـا تتواصـل مـع شـخص آخـر، صديـق، حبيـب، ثقافـة أخـرى، مـكان جغـرافي مختلـف... إلـخ، إذًا مـا هـي ملامـح هـذه الشـخصية التـي بـدأت تظهـر لـديَّ؟ القـدرة عـلى وضـع الأوشـام في مؤخـرات الحبيبـات؟ ربمـا هـذه واحـدة منهـا لكنهـا الأكـثر تواضعًـا. مـن شـدة الحـوار السـاخن بينـي وبـين نفـسي، اعترتنـي رغبـة في الخـروج إلى الشـارع وتدخـين بعـض مـن لفافـات السـجائر. توقَّـف المصعـد في الطابـق الأسـفل، فانضمـت إليَّ أنثـى كانـت تسـكن هنـاك، أو ربما عائـدة مـن لقـاء رومانـسي مـع حبيبهـا الـذي يسـكن معنـا، سـألتني: لديـكَ سـجائر؟ أجبـت: بـكل تأكيـد لـديَّ، خاصـة عندمـا تطلـب حسـناء مثلـك. شـكرًا عـلى لطفـكَ. خرجنـا إلى الشـارع، بـدأت أدخـن والفتـاة كانـت تقـف بجانبـي وتدخـن دون أن تتفـوه بـأي كلمـة. كانـت لـديَّ رغبـة في التحـدث إليهـا، وهـي أيضًـا - كلانـا كان يشـعر بذلـك - لكنـي فرغـت مـن التدخـين وعـدت إلى غرفتـي.

سـاعة ونصـف السـاعة وصديقـي يحدثنـي عـن مغامراتـه العاطفيـة، وأنـا أسـتمع إليـه، أشـعل لـه سـيجارة، أقدمـه لـه نخـب الصداقـة، الربيـع والخسـارات الحميمـة. وكلـما تمـر دقائـق، كان يسـألني إن كنـت أنصـت

لـه جيـدًا. فكنـت أجيـب بأننـي لا أنصـت جيـدًا فحسـب، وإنمـا كل أذاني ومســامعي تصغــي لحكاياتــه هــذه. حينهــا كان يشــعر بفــرح وســعادة كبيريـن. وكأنـه كان يبحـث عـن شـخص مثـلي «مسـتمع جيـد» ليتقاسـم معـه مغامراتـه ويرجـع بالذاكـرة إلى الأيـام الجميلـة تلـك. ثـم يسـألني إن كانـت السـجائر والنبيـذ متوفـرة، حتـى نسـتطيع أن نتسـامر المسـاء كلـه دون أن نحتـاج إلى شراء مزيـد مـن الكحـول ولفافـات التدخـين، فأقـول لـه لا تخـف، سـأعتني بهـذه الأمـور، سـتكون الأجـواء ملائمـة لفضفضـات الـروح.

- قلـت لـه: عـن مـاذا كنـت تريـد الحديـث مـع الفتـاة التـي كانـت تدخــن بجانبك؟

- لا أدري بالضبـط، لكـن ربمـا أردت أن أعرفهـا عـن قـرب، أتصفح دفاتر حياتهـا مثـل الاسـم، الاهتمامـات وبعـد ذلـك سـأترك الليـل يقـرر مـا يريـد.

- ممتـاز، وكيـف شـعرت أن الفتـاة أيضًـا كانـت ترغـب في التحـدث إليـك؟

فأجاب:

- يــا صديقــي، أهــم الأشــياء لا يمكــن رؤيتهــا بالعيــون، القلــب هــو مفتـاح الحكايـات العظيمـة.. عندمـا كنـا في المصعـد، رأيـت في عيـون الحسـناء رغبـة في الـكلام، ربمـا أرادت أن تكمـل حديثًـا مـا قـد بدأتـه مـع حبيبهـا ولم تسـتطع أن تكلمـه لسـبب مـا. ربمـا التقـت بي ورأت شـيئًا مـا في نفـسي عظيـمًا، لذلـك رغبـت في أن تتحـدث. أيضًـا عندمـا كنـا في المـكان المخصـص للتدخـين، كانـت تنظـر إليَّ بطـرف عينيهـا.

- لمـاذا إذًا لم تبـادر بالـكلام معهـا والفرصـة كانـت مواتيـة لذلـك؟ سـألته مجـددًا والسـاعة تقـرب مـن الحاديـة عـشرة مسـاء، والطقـس يـزداد بـردًا شـيئًا فشـيئًا.

- لم تكـن لـديَّ ضمانـات بالكيفيـة التـي ينتهـي بهـا حديثنـا. ربمـا سـيمضي بنـا الحديـث بعيـدًا، مثـل أن تعجـب الحسـناء بي، أنـا الـذي كنـت أضيء مـن نـور الحـب، متوهجًـا بلهيـب المعسـكر الرومانـسي الـذي انتهـى لتـوه، وحبيبتـي عـادت إلى وطنهـا قبـل سـاعات. كل هـذه التفاصيـل كانــت تنعكــس في ملامحــي. هــذا يعنــي أننــي كنــت جذَّابًــا بشــكل اسـتثنائي، والحسـناوات يجـدن رؤيـة البريـق. فـإذا أعجبـت بي، فهـذا سـلاح ذو حديــن: سأســتمتع بالفتــاة، ســأشرب مــن عصيرهــا الطــازج، وسأشــبع عطشـها للشـمس الحارقـة، لكـن في المقابـل سـتتألم حبيبتـي هنـاك، ستشـعر بـأي خيانـة تحـدث مـن جانبـي. فهـي تحـس بـكل شيء يتعلـق بتواصـلي مـع النسـاء. ذات مـرة، اتصلـت بي عنـد الثانيـة صباحًـا وسـألتني: مـع مـن تتحـدث؟ ماهـي اسـمها؟ فاحـترت، لأني في حقيقـة الأمـر كنـت أتحـدث عـبر الإسـكايب مـع زميلتـي بالدراسـة بخصـوص الإعـداد للامتحانـات، فقلـت لهـا الحقيقـة. تمنَّـت لي ليلـة سـعيدة وأنهـت المكالمـة.

- هــذا مدهــش، منــذ متــى أصبحــت مخلصًــا؟ أظـن أن طاقتـك السـفلى كلهـا قـد نفـدت، لذلـك كنـت تخـشى الفضيحـة في حـال طلبـت الفتـاة أن تذهـب معـك في تلـك الليلـة وتقاسـمك المضجـع.. هههههههـه.

- هههههههه، ربما، لا أدري، كل الخيارات أمامك.

سـيطر علينـا الـبرد. الظـلام النصفـي كان حـاضرًا في الحديقـة والمدينـة. ولفافـات السـجائر وعبـوات البـيرة كادت تنفـذ، وأذني قـد أخـذت تتعب من الإنصـات. في حـين بـدأ لسـان صاحـب المغامـرات يتثاقـل، فالكلـمات كانـت تخـرج ببـطء. قلـت لـه: دعنـا نذهـب، ونـم مطمئنًـا حتـى لقـاء قريـب.

إذا كانـت ضفـة الشـمس لم تشـهد ظاهـرة سـقوط الجليـد منـذ قديـم الزمـان، فـإن إمبراطوريـة الجليـد لم تعـرف ضـوء الشـمس قبـل أن يأتي شـاب مـن ضفـة الشـمس يحمـل، خفيـة، عـلى حقيبتـه أشـعة شـمس. حينهـا،

بـدأ النـاس يرتـدون النـاس ملابـس صيفيـة، لكـن هـذا الحـال كان يسـتمر لشـهري يونيـو ويوليـو، لأن الشـاب لم يتمكـن مـن جلـب كميـة كبـيرة تكفي للعـام الواحـد. كانـت السـلطات في ضفـة الشـمس لا تسـمح بتصديـر أشـعة الشـمس، ولكـنَّ ذلـك الشـاب، كان يعشـق ضفـة الجليـد وفتياتهـا، لذلـك كان يخبـئ أشـعة في حقيبتـه السـحرية تلـك ويـأتي بهـا إلى هنـا. ذات مـرة ضُبِـطَ في المطـار، وصـودرت جميـع الأشـعة، لذلـك رفـض الجليـد الذوبـان، لذلـك بقـي أهـل ضفـة الجليـد في ملابـس الـبرد الثقيلـة تلـك طـول العـام. لـذا، ينتظـر النـاس عودتـه بلهفـة وشـغف مثـل انتظـار السـجين يـوم إطـلاق سراحـه. وكان صديقـي المغامـر ينتظـر هذيـن الشـهرين أيضًـا ليعيـد تجاربـه وخسـاراته العاطفيـة التـي عاشـها، لكـن ليـس عـلى الواقـع، بـل عـلى مسـتوى الخيـال الـذي تتخلَّلـه جلسـاتنا في الحديقـة. ذات يـوم صيفي، كنـت قـد تلقيـت دعـوة لحضـور عيـد ميـلاد إحـدى زميـلات الدراسـة، وكان بضواحـي ضفـة الـرذاذ. ذهبـت إلى هنـاك حامـلًا معـي هديـة صغـيرة، زجاجـة نبيـذ. فوجـدت زميلتـي ترتـدي فسـتانًا ورديًّـا. وكانـت بصحبـة أفـراد الأسرة وعـدد مـن الأصدقـاء. بعـد أن عرَّفتنـي أسرتهـا وأصدقائهـا، سـألتني إن كنـت أريـد شرابًـا؟ قلـت لهـا: كـوب مـاء. وبينـما المـاء يتدفـق في حلقـي باحثًـا في طريقـه إلى المعـدة، رنَّ هاتفـي. كان صديقـي اللعـين صاحـب المغامـرات يتصـل. لم أجـب المكالمـة لأن اهتمامـي كان موجَّهـا إلى الجـو الجميـل الـذي أنـا فيـه، جالسًـا بـين زميلتـي وغيرهـا مـن الحسـناوات اللـواتي شـكلن حضـورًا بهيًّـا. أعـاد صديقـي الاتصـال بي مـرةً ثانيـة وثالثـة ورابعـة، فلـم أجبـه. سـألتْ زميلتـي عـن المتصـل، فقلـت لهـا إن هـذا صديقـي فطلبـتْ منـي أن أردَّ عـلى الهاتـف. وقالـت ربمـا يريـدك لأمـر غايـة في الأهميـة أو ربمـا يحتـاج إلى مسـاعدتك، فنهضـت وذهبـت إلى الخـارج.

- ألـو، يـا صديقـي ليـس لـديَّ وقـت اليـوم، فأنـا أخـوض مغامـراتي أيضًـا وأجلـس بـين الحسـناوات.

- يـا معلـم، لازم نتلاقـى ضروري، أنـا الآن ذاهـب إلى الحديقـة، سـأكون في الانتظـار مـع السـلامة.

عـدت إلى الداخـل، كان الجميـع في انتظـاري، حـان وقـت «التوسـت»، بـدأ والـد زميلتـي بالحديـث، وتحـدَّث عـن حبـه لابنتـه وكيـف هـو فخـور بهـذه الهديـة الربانيـة.. وإلـخ. وبعـد ذلـك بـدأ أحـد الأصدقـاء بالحديـث، ثـم المتحـدث الثالـث والرابـع. كنـت شـارد الذهـن أفكـر في صديقـي صاحـب المغامـرات، لذلـك لم أسـمع مـا قالـه الحضـور حتـى أتى دوري. رفعـت زجاجتـي ثـم قلـت: سـعدت بمعرفتـك جـدًّا. ثـلاث سـنوات مضـت منـذ لقائنـا الأول، كنـت دائمًـا طـوال هـذه المـدة الزميلـة الذكيـة الجميلـة، أتوقـع لـكِ مسـتقبلًا مشرقًـا، وسـتبقى العلاقـة بيننـا ممتـدة وقويـة وسـأكون قريبًـا في أي لحظـة تحتاجـين فيهـا إلى مسـاندتي. لـكِ كل الـود، نخـب عيـد الميـلاد. شربـت مـا تبقـى مـن عصير في كأسي وأنـا أرى ابتسـامة عريضـة عـلى شـفاه فتـاة تجلـس عـلى هامـش الطاولـة. كان فيهـا بريـق وصفـاء. قلـت ربمـا صاحبـة الابتسـامة هـذه تـود أن تـزور ضفـة الشـمس عـبر التقـرب إليَّ. لم تمـضِ دقيقـة حتـى رأيـت رسـالة عـلى هاتفـي: «لسـت وحـدي، أنتظـرك أنـا وفتـاة جميلـة، تعرفهـا جيـدًا، أتـت إلى هنـا مـن أجلـك». المرسـل صاحـب المغامـرات. بعـد هـذه الرسـالة، نسـيت الابتسـامة الجميلـة والفتـاة. انشـغل ذهنـي بالتسـاؤلات، مـن تكـون هـذه الفتـاة التي أتـت مـن أجـلي وتنتظـرني؟ لمـاذا في هـذا اليـوم بالتحديـد وأنـا أسـتعد للبقـاء هنـا وبـين زميـلاتي؟ هـل صديقـي يمـزح معـي ويريـد مجيئـي بـكل السـبل؟ لكنـه لم يخدعنـي يومًـا، هـل تعلَّـم تقنيـات جديـدة في تحقيـق أهدافـه؟ أسـئلة ليسـت للإجابـة. كانـت زميلتـي تنظـر إليَّ، لكنِّـي لم ألحـظ ذلـك إلَّا عندمـا جـاءت وجلسـت بالقرب منـي، وسـألتني إن كنت مسـتمتعًا بوجـودي هنـا. فأجبـت بنعـم. لكنهـا لم تقـف عـلى ذلـك وفاجأتنـي بأنهـا أتـت لتخـبرني بـأن هنـاك فتـاة تريـد التعـرف إليَّ، أصابتنـي الدهشـة لهـذا

الخبر. فسألت عن هويتها، فكانت صاحبة الابتسامة البرَّاقة. طلبت منها أن توصل إليها اعتذاري عن عدم إمكانية التعارف، فاكتفيت بأخذ رقم هاتفها ثم غادرت متجها إلى الحديقة.

حركة السيارات عند المساء خفيفة أحيانًا في ضفة الرذاذ وضواحيها، خاصةً عندما تكون محظوظًا مثلي. لذلك وصلت إلى الحديقة في زمن وجيز. على الرغم من وجود مصابيح هنا وهناك، إلَّا أن المكان كان مُظلمًا بشكل نصفي مثل أنثى نصف عارية. في البعيد رأيت شخصين يجلسان على بينش. عندما اقتربت وجدت شابًّا وشابة لم أفهم عن ماذا كانا يتحدثان، لكن أدركت أن الشاب لم يكن صديقي صاحب المغامرات. بادرت بالتحية لأطمئنهما. في تلك اللحظة سمعت صوتًا يناديني، فتلفَّتُّ في كل الاتجاهات لكي أتعرَّف المنادي. كان المغامر يجلس وحده في مؤخرة الحديقة، سرت نحوه. اعترتني رغبة في تسديد لكمة بيدي اليمنى، لكنني فضلت أن أنتظر قليلًا. قبل تبادل التحية، سألته، أين هي الفتاة التي أتت من أجلي وتركتُ عيد ميلاد زميلتي والطقس الرائع هناك إضافةً إلى الابتسامة البراقة وجئت إلى هنا من أجلها؟ أين هي؟ كرَّرت السؤال. طلب صديقي أن أجلس أولًا ثم يجيب عن سؤالي المهم جدًا.

قلت له:

- لن أجلس حتى تجيب.

- انظر يا صديقي، سأكون صادقًا، لم تكن هناك فتاة من الأساس، فقط أردت أن أجلس في هذا المساء الجميل معك وأحدثك عن قصتي مع حبيبتي، فعرفت أنك لن تأتي لهذا السبب، لذلك ابتدعت حكاية الفتاة، وهي حكاية ستجعلك تُغيِّر رأيك.. آسف على كل حال، والآن أجلس لو سمحت، هل تريد عبوة بيرة؟

لم أصدقـه في بـادئ الأمـر، كان يتحـدث وأنـا أنظـر إليـه بدهشـة غـير طبيعيـة، تسـاءلت، كيـف اسـتطاع أن يخدعنـي؟ احترمـت ذكاءه وسـخرت مـن سـذاجتي، فاكتشـف أن الصديـق اللعـين هـو نقطـة ضعفـي، مـع أننـي لم أكـن أعـرف نقطـة الضعـف هـذه قبـل ذلـك المسـاء. لم أضربـه، لأنـه علمنـي درسًـا، هـو أن اكتشـف نقطـة ضعفـي، لذلـك كان يسـتحق الاحترام.

- نعم أريد أن أشرب اليوم، لا لأنصت لمغامراتك، بل لأحتفل بمدى غبائي.

سألني:

- عن أي غباء تتحدث؟

قلت:

- لم يحـدث أن خدعنـي إنسـان طـوال سـنوات عمـري بعـد الطفولة، لكـن اليـوم أنـت نجحـت في ذلـك، هذا يعني بـأن النـاس بإمكانهـم خداعي.

- يـا صديقـي، بصراحـة، أنـت مـن أذكى الأشـخاص الذيـن التقيتهم في حيـاتي. فقـط لـكل إنسـان نقطـة ضعـف، والأصدقـاء ينجحـون في اكتشـاف نقـاط الضعـف أكـثر حتـى من الأمهـات.. ثم أضـاف، ما رأيك في طعـم البيرة؟

- جميلـة، جميلـة. أجبـت، مضيفـا، قديمًـا قالـوا: «عصفـور في اليـد خـيرٌ مـن ألـف طائـر»، كـم كان أسـلافنا حكـماء!

فسألني:

- لماذا قلت هذه العبارة الآن؟

أردت أن أحدثـه عـن أجـواء عيـد الميـلاد والفتـاة التـي أرادت أن تـزور ضفـة الشـمس مـن خـلال اكتشـافها فحولتـي وعوالمـي الأخـرى، لكـن فقـدت الفرصـة بسـبب رغبتـي في معرفـة الفتـاة التـي كان يفـترض أن تنتظـرني في الحديقـة، لكـن غـيرت رأيـي وقلـت:

- تذكَّرت هـذه العبـارة لأني فكـرت في إنهـاء صداقتـي معـك، لكـن أنـت الآن هنـا ومعـي. لـن أتـركك لأبحـث عـن صداقـات جديـدة.

فقال:

- لا أسـتطيع أن أتخيـل نهايـة لصداقتنـا. هـذا مصيرنـا علينـا أن نقابلـه بشـجاعة.

قلت:

- هـل مصـيري أن أكـون صديقًـا لـك، وأسـمع في كل مسـاء، كيـف وقعـت في حـب تلـك الفتـاة، وكيـف كان المعسـكر الرومانـسي ومـا بعـده؟ لا، ليـس هـذا مصـيري، مـع ذلـك، طعـم البـيرة لذيـذ.

عندمـا سـمع صديقـي الجملـة الأخـيرة، وكيـف مدحـت طعـم البـيرة، فهـم أننـي لم أكـن جـادًّا في مسـألة إنهـاء الصداقـة، لذلـك نظـر إليَّ وابتسـم، ثـم أشـعل سـيجارة واقـترح لي أخـرى، أشـعلت أنـا الأخـرى. كان المسـاء مـن أجمـل أمسـيات يونيـو، درجـة الحـرارة لم تتجـاوز الــ 24 درجـة مئويـة. والحديقـة لم تكـن تعـج بالنـاس سـوى عاشـقين يجلسـان في الجهـة الأخـرى مـن الحديقـة. وشـاب وحيـد يتجـوَّل حـول الحديقـة مُتأمِّـلًا ربمـا عـن فـرص النجـاح في الصيـد، لا أدري هـل حالفـه الحـظ في تلـك الأمسـية أم لا، لكـن بنطالـه كان ناصـلًا بعـض الـشيء، وزجاجـة البـيرة كادت تفـرغ. كان الوقـت يقـترب مـن العـاشرة مسـاءً والمدينـة تتأهـب للولـوج إلى حياتهـا الليليـة.

سألته:

- ماذا لديك اليوم لتحدثني عنه؟

قال:

- حدث ذلك في يوم السبت قبل عام من الآن أو يزيد قليلًا.

قاطعته:

- هذا يعني أنك جاهز لسرد مغامرتك.

- ستكون المغامرة ممتعة بالنسبة إليك. لذلك أرجو منك أن تسمعني دون مقاطعة، فقط قاطعني عندما تحتاج إلى مزيد من البيرة أو التدخين، اتفقنا؟

فقلت:

- سمعًا وطاعةً أيها اللعين.

فبدأ يحكي مُكررًا جملته الأولي: «حدث ذلك في يوم السبت قبل عام من الآن أو يزيد قليلًا. وذلك، عندما ذهبنا أنا وفيكتوريا وصديقتها إلى المطعم لتناول العشاء. كان المطعم متواضعًا، لكنه يقدم وجبات شهية وبأسعار مناسبة. تناولنا العشاء وشربنا القليل من النبيذ ثم خرجنا لنذهب إلى السكن. طلبت رفيقة حبيبتي أن نتسامر قليلًا لأنها لا ترغب في النوم الآن، لم تعجبني فكرة البقاء في الشارع، أنا الرجل في كل الأحوال، يجب أن أهيِّئ جوًّا مناسبًا يليق بمزاج الأنثى وهي تناولت العشاء توًّا مع حبيبها، فاقترحت أن نذهب إلى مقهى آخر، لقيت الفكرة ترحيبًا منهما. عندما وصلنا، وجدنا المكان ممتلئًا، خرجنا لنبحث عن مكان آخر يأوينا من التشرد الجميل. أشعلت سيجارتي وأسأل نفسي أين يمكن أن نمشي؟ في هذه اللحظة خرج حارس المطعم وبدأ يؤشر تجاهي، اقتربت منه لأفهم ماذا يريد، قال خرج بعض الضيوف للتوِّ، بإمكاننا العودة.

قاطعته:

- ربما أعجب الحارس بحبيبتك، لذلك أراد لكم أن تعودوا؟

فقال:

- ربما أعجب، ليست لديَّ مشكلة في ذلك، لكن إن حاول ملاطفتها، كنت قد قطعت لسانه.

- هههههه. ضحكت وأضفت: كم أنت غيور!

رد قائلًا:

- حبيبتي، أنا مستعد في إشعال حرب عالمية ثالثة من أجلها إذا تطلب الأمر.

أدركت أن الكحول كان يتحدث نيابة عنه، لأن الحروب العالمية يشعلها الوحيدون، لكن المحبون يؤمنون بالسلام، وطلبت منه أن يواصل ما انقطع من حديث.

فقال:

- كانت المقاعد ثلاثة مثلنا تمامًا...

فقاطعته مجددًا:

- ليست هناك ضرورة لمعرفة هذه المعلومة، أقصد عدد المقاعد، لأنها لا تفيدني بشيء، ماذا إن كانت أربعة، هل تترك المكان؟

- بالتأكيد، لن أترك المقهى، فقد أتت هذه المعلومة إلى ذهني الآن، لذلك نقلتها إليك.

- أنا لا أستقبل كل المعلومات، أريد أن أدخر صفاء ذهني لمغامراتي المستقبلية، لذلك...

- أوكي، فهمتك. عندما جلسنا في المقاعد الثلاثة، جاء النادل وقدم لنا قائمة المشروبات والمأكولات فأعدت إليه القائمة الأخيرة، لأننا لم نكن

في حاجـة إلى مزيـد مـن الأكل. طلبـت بـيرة لنفـسي وكـوبي نبيـذ للحبيبـة ورفيقتهـا. كان المـكان يعـجُّ بعشـاق الحيـاة الليلـة، وكـما هـو معـروف أن الرأسـمالية جعلـت النـاس يعملـون سـاعات طويلـة حتـى يتمكنـوا مـن توفـير لقمـة العيـش وتكاليـف إيجـار الشـقة، إذ إن نصـف سـكان المـدن لا يملكـون شـقـقًا. أتى النـادل حامـلًا مـا طلبنـاه، قرعنـا الزجاجـات وتمنينـا لبعضنـا بعضًـا قضـاء وقـت ممتـع. الموسـيقى كانـت خافتـة مثـل خفـوت الضـوء تمامًـا، ولم نكـن نتحـدث بأصـوات مرتفعـة حتـى لا نفسـد أدبيـات المـكان والمدينـة. قالـت رفيقـة حبيبتـي إنهـا سـعيدة مـن أجلنـا وتتمنـى لنـا علاقـة طويلـة الأمـد وسـعيدة. وبـين كل جملـة وأخـرى مـن حديثهـا كانـت تأخـذ رشـفة مـن النبيـذ ونتبعهـا نحـن أيضًـا برشـفات، وعندمـا تصبـح الـكأس فارغـة نطلـب أخـرى ونسـتمر في الـكلام، ثـم تحدثـت عـن طفولتهـا قليـلًا وأنهـا لم تحلـم يومًـا بالقـدوم إلى ضفـة الـرذاذ، لكـن القـدر قـد أتى بهـا إلى هنـا وهـي سـعيدة بذلـك، فقـط تشـعر مـن زمـن إلى آخـر بوحشـة، وأحيانًـا يعصـف بهـا الحنـين إلى بلدهـا، أسرتهـا وأصدقاؤهـا هنـاك، لكنهـا بـدأت بالتأقلـم شـيئًا فشـيئًا. رأيـت حزنًـا بريئًـا يترَقـرق في عينيهـا عندمـا كانـت تتحـدث. لكننـي لم أفهـم السـبب. ثـم رأيـت كأسًـا فارغـة في يدهـا. فطلبـت مـن النـادل أن يـأتي بالمزيـد ثـم خرجـت إلى الشـارع لأدخـن، تـاركًا حبيبتـي ورفيقتهـا. وبينـما كنـتُ أدخـن، شـعرت بالكحـول يمـور في ذهنـي. ربمـا كان يسـخر منـي. لا أدري أي المفاجـآت يريـد أن يهديهـا لي في هـذا المسـاء الثـلاثي. لم أبـقَ طويـلًا حتـى أرى فيكتوريـا تلحـق بي وتتبعهـا ليـزا. اقتربـت منـي حبيبتـي وطلبـت سـيجارة. قدمتهـا لهـا لكنهـا رفضـت وطلبـت سـيجارتي التـي كنـت أدخنهـا. ارتشـفت نَفَسًـا ثـم أتبعتـه بآخـر. كنـت أرى كل ذلـك ولم أفهـم مـا يـدور، لأن حبيبتـي لم تُدخِّـن منـذ أن عرفتهـا، لكـن النَفَـس الثالـث مـرَّ مبـاشرة إلى فمـي ثـم قبلتنـي. القُبلـة كانـت طويلـة. أعجبتنـي الفكـرة، لذلـك أشـعلت سـيجارة أخـرى أخـذت

نَفَسًا ومرَّرت الثاني إلى شفاه حبيبتي ثم قبَّلتها. كانت ليزا تنظر إلى الفيلم الرومانسي هذا وتستمتع.

قالت ليزا:

- أعطني نَفَسًا.

قالت فيكتوريا:

- بكل سرور. ثم أخذت نفسًا من السيجارة ومررته إلى شفاه ليزا.

أعجبني المشهد، فقلت لنفسي هذه اللعبة جميلة، لأنها أشبه بتسلية من نوع مختلف، وأنا أتحدث إلى نفسي مررت حبيبتي السيجارة وطلبت مني أن أكمل التدخين بهدوء. أخذت السيجارة، كانت ليزا تقف على يميني فأعطيتها نَفَسًا في شفتيها، لم ترفضه، استقبلته بِكُلِ نهمٍ، لم أتوقف عند حدود الشفاه. بل بدأت أقبلها بشراهة وهي تبادلني الشعور نفسه.. كانت حبيبتي تقف أمامنا وتنظر باندهاش وخيبة أمل، لم تستطع متابعة المشهد بالكامل فركضت إلى الداخل. حينها أدركت بأن الكحول استطاع أن ينال مني وأني قد أفسدت الليلة. فتوقفت عن تقبيل رفيقتها ليزا التي سألتني: لماذا فعلت هذا؟ وكأنها لم تكن الطرف الآخر من المشهد كله. لم أجب عن هذا السؤال الغبي أو الماكر، فركضتُ خلف حبيبتي. عندما عدتُ إلى الداخل، وجدت الدموع تنهمر من عينيها. اقتربت منها وعندما أردت لمسها كانت ردة فعلها: خذ يديك بعيدًا عني، لا أريد التحدث إليك وواصلت في البكاء.. شعرت ببشاعة فعلتي، لكن لم أكن أدري كيف لي أن أصلح الزجاجة التي هشمتها بيدي. جاءت ليزا الماكرة إلى الداخل، وقفت بجانبنا.

سألتها فيكتوريا:

- لماذا هكذا؟

فأجابت:

- لم أكن أنا الفاعل بل هو – في إشارة إلى شخصي.

- أنا لم أفعل ذلك راغبًا أو قاصدًا، لكن الكحول قد نال مني، لذلك أقدم اعتذاري. قلت ذلك لكي أدافع عن نفسي. لأن رفيقتها التي استمتعت بشفتي، الآن تنكر أي استجابة من طرفها. حاولت السيطرة على الوضع.. ولأني لم أرغب في خصام بينهما، بمبدأ أن الحب يجب أن يقوِّي الصداقات لا أن يُضعفها أو يهدِّمها.

قالت فيكتوريا:

- اخرج إلى الشارع ودعنا نتحدث حديث امرأة لامرأة.

انتظرت بالخارج وقتًا طويلًا، ثم عدت إلى الداخل. وجدت ليزا تجلس وحدها، فسألتها عن حبيبتي. قالت إنها ذهبت إلى الحمام لتعيد ترتيب المكياج بعد أن أفسدته لفافات السيجارة وأفسدت ليلتنا كلها. ثم أضافت: أقترح عليك أن تترك التدخين. فقلت لها سنعود إلى البيت حالما تأتي حبيبتي. أتت، فخرجنا إلى الطريق والصمت يخيِّم على الكل. كان الوقت يقترب من الرابعة صباحًا. وكان أمام باب النادي الليلي عشرات العشاق. كانوا يتحدثون عن انطباعاتهم عن الليلة، الموسيقى، الرقص وآخر يدعو رفيقته للذهاب معه وهي تجيب بالرفض رغم الرغبة الأكيدة بفعل ذلك. اتجهنا إلى النزل مشيًا على الأقدام، وفي الطريق كرَّرت اعتذاري عما حدث، ولم أتلقَّ استجابة، فصمتُّ. ذهبت فيكتوريا إلى غرفتها دون أن تهديني عناق الوداع، فتبعتها رفيقتها؛ كانتا تسكنان في المبنى نفسه، وأسكن أنا في المبنى الذي تعرفه.. عدت إلى غرفتي حزينًا، وجدت جاري بالغرفة مستيقظًا،

ربما كان يتصفح على الإنترنت أو يراسل فتاة عبر شبكة التواصل الاجتماعي لا أعرف بالضبط، سألني:

- كيف قضيت الليلة؟

- كسم - قلت له، ثم أضفت: قبَّلت رفيقة حبيبتي أمامها وعليك أن تتخيل ماذا حدث.

- اعذرني، لكن لم أرَ في حياتي أغبى منك!

- سبّني آلاف المرات، لن أغضب، لكن بدلًا من ذلك قدم لي حلولًا.

- إذا كانت تحبك، الحل أسهل مما تتخيَّل. وإذا كانت لا تحبك، فعليك أن تستعد لحرب لا نهاية لها.

لم أكن أعلم من قبل بهذا الجانب من شخصية جاري، كانت لديه خبرة وحنكة في الحديث عن الفتيات. فقلت له إنها تحبني، ولا أحد يستطيع أن يشك في ذلك. ما هو المخرج من هذه المصيبة؟ فقال، عليَّ أن أذهب إلى بائعة الورود وأطلب منها باقة ورد ثم أقدمها لها، ثم أعود مباشرةً دون أن أضيف كلمة أخرى. أعجبني اقتراحه، سألته، هل يوجد محل ورود يعمل الآن؟ فقال حتى إذا كانت هناك محال تعمل، لا يمكن أن تذهب الآن، لأن الفتاة لن تكون مستعدة لمقابلتك! دعها تنام وتخفف من خيبتها! وفي الصباح يمكن أن تفاجئها. فقبلت وصيته. أطفأ جاري الضوء، وتمنَّى لي أحلام سعيدة ثم خلد إلى النوم. لم أستطع النوم. كنت أفكر وأفكر، أخرج إلى الشرفة أدخن وأعود ثم أفكر مجددًا حتى الصباح. ركضت إلى بائعة الورد دون أن أتناول فطوري أو قهوة الصباح كان الهم أكبر من ذلك بكثير. قلت لها: أريد باقة رائعة لأعتذر لحبيبتي لأني لم أكن أول المهنئين بعيد ميلادها، فاختارت لي

باقـة ورد حمـراء مـن نـوع «الـروز». وصلـت وطرقـت البـاب. لا أحـد يفتـح البـاب. فطرقـت مـرة أخـرى. بعـد ثـوانٍ معـدودة فتحـت فيكتوريـا البـاب، لـترى باقـة ورد بـدلًا عـن وجهـي: هـذه لـكِ، أريـد أن أعتـذر مجـدَّدًا، أحبـك جـدًّا. تناولـت حبيبتـي باقـة الـورد بعـد أن تـردَّدت في بـادئ الأمـر، أمـا أنـا فعـدت راكضًـا إلى غرفتـي متذكـرًا الوصيـة. عندمـا وصلـت إلى بـاب غرفتـي، تسـلَّمت رسـالة منهـا تقـول فيهـا: «أحـب هـذا النـوع مـن الـورد..».

الانتصار

استطاعت زينة أن ترسل شحنتين من أشعة الشمس إلى ضفة الجليد تكفيان ثلاثة أشهر من الزمن، عبر النفق الأرضي الذي يعمل يومًا واحدًا في العام، لذلك كان الصيف كريمًا في ذلك العام، لأنه لم يودعنا بنهاية شهر يوليو، وهو ما كان يحدث في الأعوام السابقة. أتى أغسطس، ولكن دون غيوم. فالسماء كانت صافية إلَّا من بعض سحب الدخان التي تخلفها المصانع المختلفة والطائرات التي لا تكف عن التحليق. كنت في ذلك المساء أقف على شرفة المبنى وأدخن سيجارتي في خرق واضح لقوانين السكن هناك. إذ إن إدارة الجامعة كانت تمنع التدخين داخل محيط الجامعة والمدينة الجامعية بمختلف أنواعه. ولأنني كنت أسكن في الطابق العلوي، كان من السهل عليَّ رؤية الطائرات التي تحاول أن تحط رحالها في المطار الذي لا يبعد كثيرًا عن المدينة الجامعية حيث كنت أسكن. لم تُعكِّر صفاء ذلك المساء سوى طائرة واحدة كانت قادمة من الناحية الشرقية، فبدأت أُخمِّن هوية المسافرين. كانت هناك حسناء على متن الطائرة، قادمة من إحدى العواصم البعيدة لتلتحق بجامعتنا. وستقطن في البناية نفسها التي أسكن فيها، وسنلتقي يومًا ما داخل المصعد الكهربائي ونكون على عجالة من أمرنا لأن كُلًّا منا لا يريد التأخر عن المحاضرة الصباحية. لكن المصعد سيتوقف فجأة معلنًا عطلًا ما أصابه. عندها سترتعب الفتاة، وسأؤدي دور البطل المنقذ، سوف أهدئها من روعها أولًا، ثم أضغط زر الإلغاء، ثم أعطي المصعد أمرًا بمواصلة الرحلة، فينطلق. وسوف نصل إلى الجامعة من دون تأخير، وفي نهاية اليوم الدراسي، سأكون عائدًا إلى السكن، وفي طريق سألتقي مُجدَّدًا بالفتاة التي على

متن هذه الطائرة. ستسألني عن اسمي وبلدي. سأجيبها بدوري، ومن ثم سنتبادل أرقام الهواتف. وفي المساء سأدعوها إلى مشاركتي لفافة دخان واحدة، وفي هذه الشرفة نفسها سنقف ونتأمل معًا طائرة أخرى. حاولت كبح جماح خيالي من الذهاب أكثر من ذلك، وكانت سيجارتي قد نفدت، تأملت آخر سحابة دخان تخرج من فمي وتذهب في اتجاه الطائرة، ثم اتجهت صوب غرفتي. وجدت الباب الخارجي مشرعًا، بالرغم من أنني أغلقته قبل أن أخرج. فتساءلت إن كان جاري قد عاد من سفره؟ عندما دخلت، وجدت صديقي ينظر إلى الغابة الجميلة عبر نافذة غرفتي. لم يلتفت رغم أنه شعر بدخولي.

- ماذا هناك، هل ترى شيئا مثيرًا للاهتمام يحدث عبر النافذة؟

- هناك مناظر جميلة، ولديك إطلالة رائعة، من هنا يمكن رؤية الأشياء بصورة أفضل.

سألته:

- متى أتيت؟

- قبل نصف ساعة من الآن.

لم أصدقه في بادئ الأمر، ولكن عندما رأيت الزمن على الهاتف، أدركت أنه كان صادقًا.. لا نشعر بالزمن عندما نفعل أشياء نحبها.

سألته:

- ماذا لديك؟

- لديَّ الكثير لأقوله، ثم أضاف: أتمنى أن تكون في مزاج جيد؟

قصصت له حكاية البنت على متن الطائرة، وقلت له حبيبتك أيضًا أتت هكذا يومًا ما. وهأنت الآن تحمل دفترًا عاطفيًّا كبيرًا لا

نهاية له. فضحك، ثم قال: فهمت الإجابة. أنت في مزاج رائع. إذن، يمكن لنا قضاء أمسية في حديقتنا الجميلة تلك. امتدحت هذه الفكرة، ولكن اقترحت عليه أن نبقى في ذلك اليوم هناك بالغرفة ونتذكَّر أجمل اللحظات التي عاشها كل منَّا في غرفته. ثم أضفت: سأحكي لك أولًا عن ذكرياتي في هذه الغرفة. ثم نذهب إلى غرفتك لتتذكر أجمل لحظاتك. فقال مبالغًا: كم أنت عبقري. فلنبقى إذًا بغرفنا. فقط قبل ذلك، علينا أن نذهب إلى المتجر لشراء عبوات بيرة ومزيد من السجائر حتى نشرك خيالنا في حكايات المساء أيضًا. فتحت ثلاجتي لأعرف أكان هناك كحول، فلم أجد شيئًا. قلت له، لا أحبذ تناول الكحول في الغرفة، حتى لا نقع في فخ التفتيش، لأن ملصقات «هنا يمنع شراب الكحول» كانت تملأ السكن، دعنا نسمي هذا المساء «ذكريات بلا كحول».

لم يستوعب فكرة الجلوس ساعات طويلة دون كحول، وخاصة عندما يريد أن يحدثني عن حبِّه الذي غيَّره، جعله إنسانًا آخر، «ولدت من جديد» بسبب هذه الفتاة كان يكرِّر هذه الجملة كلما يتذكرها. وحتى لا يلحَّ على تزويد نفسه بجرعات الكحول، أعددت زلابية وشايًا بالحليب لنجمِّل جلستنا وينسى صديقي جرعات الكحول. وعندما رأى هذه الخيرات ماثلة أمامه، ابتهج.. سألته: هل تريد أن تحدثني عن مغامرة جديدة، أم أحدثك أنا عن مغامرة أنوي فعلها؟

- دعني أحدثك عن مغامرة أخرى، لأن عندما تنفد أشعة الشمس ويحل الجليد، لن تجد وقت فراغ حتى تسمعني.

- أوكي، لا مانع لديَّ، لكن أقولها لك صراحة: إذا بدت لي قصتك مملة أو غبية، عندها لن أسمح لك بالاستمرار..

- لا أعرف، أقصد لا أدري إذا كانت ستعجبك أم ستبدو لك مملة، لكن بالنسبة إليَّ ليست مملة، بل هي جزء من حياتي، هل تفهمني؟

أحدثك عن جزء من حياتي، أهدرت فيه مجهودًا، تعلمت من خلاله أشياء جديدة، باختصار، هذه تجربتي، حياتي.

- اهدأ، اهدأ، فهمتك، وسأسمعك حتى النهاية، وإن تطلَّب الأمر البقاء هنا حتى شروق الشمس. قلت له هذه العبارات، عندما أدركت خطأي في التعاطي مع قصصه وكأنه مزحة من وحي الخيال.

- لا يمكن أن أسرد لكَ حياتي كلها في أمسية واحدة، فهي ليست مجرد مباراة كرة قدم، لذلك لا تقلق؛ لن نبقى هنا حتى الشروق.. بالمناسبة، الشاي بالحليب وقطعات الزلابية روعة، شكرًا.

- صحة وهنا.. متى ستلتقي حبيبتك مجدَّدًا؟

سألته حتى يبدأ في الكلام عن المغامرة، إذ إن كلها كانت تخص علاقاته الرومانسية.

- تحدث معها اليوم وقالت إنها تنتظر إعلان نتائج المنحة الدراسية. قالت ستأتي لمواصلة الدراسة هنا إذا تم اختيارها. أما إذا كانت النتيجة سلبية، فستفكر في حلول أخرى للقاء.. ثم أضاف: هل تعرف أن فيكتوريا كانت في علاقة حب قبل أن تأتي إلى ضفة الرذاذ، وحتى بوجودها هنا كانت على تواصل مع حبيبها، وبعد شهور من لقائنا كشفت حبيبتي الستار عنه، لكنها قرَّرت أن تتخلَّى عنه نهائيًّا وتبقى معي.

- كيف، كيف حدث ذلك؟ أو لماذا تركته واختارتك أنت؟

طرحت هذين السؤالين والفضول بمعرفة أدق التفاصيل كان يقتلني.

- حدث ذلك بعد عودتها من المعسكر الرومانسي.

- انتصرت على خصمك بفضل حجم قضيبك؟

سـألته بصراحـة، لأن المعسـكر الرومانـسي كان مخصصًّـا لليـالي والأيـام الحمـراء فقـط، كـما حدثنـي هـو بنفسـه.

- هههههه.

ضحك بصوت عالي وشعر بفخر. ثم قال:

- ليـس بسـبب العمـل الـدؤوب الـذي أديتـه في أثنـاء مـدة المعسـكر، لكـن فيكتوريـا اختارتنـي لأنهـا تحبنـي.

فقلت له:

- إذا اختارتـك بسـبب الحـب فهـذا يدعـو للفـرح، حتـى إذا كانـت القـوة الجنسـية أدَّت دورًا في ترجيـح الكفـة لمصلحتـك، عليـك أن تكـون سـعيدًا لذلـك، لكنهـا وحدهـا لـن تكفـي، لأن هـذه القـوة الجنسـية لـن تبقـى مسـتقرة دائمًـا هكـذا، سـتكون هنـاك مراحـل صعـود وهبـوط مثـل أسـعار العمـلات، وفي أيـام الأزمـات ربمـا سـتتخلَّى عنـك أيضًـا.

- الزمن سيخبرنا عن كل شيء.

- لا أعـرف، لكـن أشـعر وكأنـك تـتردَّد في أن تبـوح لي بـشيء مـا.. في جلسـاتنا الماضيـة لم تكـن تتوقـف عـن الـكلام حتـى أطلـب منـك ذلـك، لكـن اليـوم، تبـدو مختلفًـا، مـا الأمـر يـا صديقـي؟

صمت ثواني ثم قال:

- بالرغـم مـن أن علاقتنـا العاطفيـة تمـضي بشـكل جيـد وتمدنـا بطاقـة إيجابيـة، فـإن شـيئًا مـا يسـبب لي القلـق مـن وقـت إلى آخـر، المسـتقبل. إلى أي مـدى تسـتمر هـذه العلاقـة؟ أفكـر في سـيناريوهات المسـتقبل. وسـبب هـذا القلـق هـو أنـه ذات مـرة حدثتنـي ليـزا بأنهـا اختارتنـي بـدلًا عـن حبيبهـا القديـم، لأنهـا لم تشـعر مـن قبـل بلـذة وحـلاوة

الجنس كما تشعرها الآن معك، وطلبت أن يكون هذا سرًّا بيني وبينها. لا أعرف إن كانت صادقة فيما قالته، ولكن ما أعرفه جيدًا هو أنني فعلت كل شيء من أجل سعادة فيكتوريا.. هل هذا سبب كافٍ يجعل الفتاة تتخلى عن حبيبها؟

- لا أعرف، لكن في كل الأحوال، عليك أن تفرح بهذا الخبر.

ثم أضفت ساخرًا:

- أنت صاحب الفتوحات العابرة للقارات.

- هههههه.

ضحك بصوت عالي، ثم قال:

- هل تريد أن تعرف القصة بِرُمَّتها؟ وماذا فعلت بفتاة ضفة النبيذ والجمال؟

- بكل تأكيد، أريد أن أستفيد من تجاربك.

- عندما أتيت إلى هذه المدينة الجميلة والتحقت بالجامعة، في ربيعي العشرين، لم تكن لديَّ تجربة عاطفية في بلدي، ولا أذكر إن كانت لديَّ تجربة جنسية على الإطلاق. تخيل كل هذه السنوات دون تجربة جنسية! فكنت شابًّا بكامل طاقتي. بعد عام من قدومي إلى ضفة الجليد هذه تعرَّفت حبيبتي، وأول مرة مارست الحب كان بعد ستة أشهر من لقائنا الأول...

قاطعته مُعلِّقًا:

- ستة أشهر؟ مدة طويلة من الانتظار.. بكل تأكيد حبيبتك لم تكن تريد أن تكتشف عالمها الداخلي بهذه بسهولة أليس كذلك؟

- صحيح، حبيبتي لم تقبل. قالت كل شيء في الوقت المناسب فلا داعي للاستعجال. إن كان الأمر بيدي لاكتشفت كل المعالم الرومانسية

في أقل من أسبوع. كلما كنت أطلب منها أن نحُلِّق عاليًا في سماوات الحب، تطلب مني أن أدرِّب أجنحتي أولًا. أقول لها أجنحتي مستعدة للتحليق منذ سنوات طويلة. عشرون عامًا مضت وأنا أنتظر موعد التحليق، فتقول دعنا ننتظر حتى يأتي الفصل المناسب. هناك فصول للمشي على الأرض وهناك فصول للتحليق. فكنت أجيب عن تعليقاتها بأنها إذا حلَّقت معي مرة واحدة، فلن تفكِّر في تكرار هذا الشيء مع أحد آخر، والزمن سيكشف لها أنني كنت على حق. كانت الساعة التاسعة صباحًا عندما تلقيت رسالة منها، تقول فيها إنها تريد أن تقضي هذه الليلة معي، وأن نكون على انفراد. استأجرت غرفة في الفندق الذي يقع بالقرب من هنا، أنت تعرفه. مارست رياضة الركض تجهيزًا للمنافسة الكبرى. في المساء عندما وصلنا إلى الفندق، طلب مني موظف الاستقبال بطاقة هويتي. بحثت في جيبي فلم أجدها. قلت له إنني قد نسيتها، لكن لدي هدية صغيرة، قدمت له مبلغًا زهيدًا من المال، أخذه ثم سمح لنا بالذهاب إلى غرفتنا التي كانت تنتظرنا بشوق ولهفة. اقتربنا من المصعد وكانت حبيبتي تمسك بيدي وكنا ننتظر. لم يكن بداخل المصعد سوى حسناء واحدة. نظرت إلينا، ابتسمت وانصرفت لحالها غير عابئة بنا.. سألتني فيكتوريا عن تلك الابتسامة، فقلت لها لا أعرف هذه الفتاة ولم أرها من قبل، لذلك لا داعي للغيرة.. عبر نافذة الغرفة كانت أوراق الأشجار تتساقط، الأرض مغطاة باللون الأصفر. وكانت الأشجار تُردِّد أغنية البجعة حزنًا على وداع أبنائها الصفق الأصفر «جمال الموت». ومثلما ودَّعت الأشجار عصافيرها الصفراء، فعلت أنا بثياب حبيبتي، انتزعتها، وعندما أردت نزع ثيابي أيضًا، طلبت مني أن أذهب إلى الحمام لأطرد غبار النهار عن جسدي. نهضت عنها متجهًا إلى الحمام، فأمسكت بيدي وقالت إنها تمزح معي، لأن رائحة جسدي تثيرها. فهي لا تريد أن يقاسمها

أحد هذه الرائحة حتى الماء.. قالت وهي تجلس على الأريكة: تعالى إليَّ. بدأت أتحرك بخطوات بطيئة كأنني أصور مشاهد بطيئة لفيلم رومانسي، فدفعتني بعنف إلى التخت، سقطت. طلبت مني السكون والهدوء. انتزعت قميصي الأبيض، وغطت به عينيَّ، فأصحبت لا أرى شيئًا. ثم أخذت حزامًا كنت أحمي به بنطالي من السقوط ربطت به باب غرفة مغلقة والليل يغطي الكون بثوب الظلام. تنفست بهدوء لكي تسترخي قالت، كنت أنفذ الأوامر - فنحن الرجال لا نعصي عندما نكون في حضن أنثى - فشعرت باسترخاء كامل سوى أن شيئًا ما بين فخذي استيقظ من نومه، بدأت حبيبتي تدلكه تارة بيديها وتارة بنهديها، فزاد نشاطه، لذلك لم أستطع أن أبقى على ذلك الهدوء. الحسناوات يجيدنَّ تطويع كل شيء.. بدأت ليلتنا الحمراء بالاشتعال، كنت في تلك الليلة ملكًا لها، فعلت بي كل شيء. لم أتوقف ولم أشعر بالتعب من حركتها المستمرة. كل مرة كانت تقول لي، أريد المزيد، أريد المزيد، هيا اقتلني.. يا إلهي ما هذا، أنت أفضل من قابلته في حياتي. لم تتفوَّه بكلمة أخرى مدة طويلة، فبدأ الخوف يتخلَّلني، ربما ماتت؟ تحسست قلبها، فكانت الحياة تسري. هل أنت بخير؟ سألتها، فقالت: أنا سعيدة، أول مرة أشعر بموت الحب، أنت إلهي الذي أحب! فقلت لنفسي، لم أكن أعرف هذه المعلومة، ونسيت أننا أحفاد الآلهة من بلاد الشمس، سيتم اكتشافنا مجدَّدًا من قبل حسناوات أوروبا وسنحكم العالم من جديد. سألتها: هل حدث وأن قضيت ليلة بلا نوم؟ فقالت: لم يحدث ذلك من قبل، فقلت: إن الليلة ستكون استثنائية ولن تعرفي النوم على الإطلاق. عندما سمعت هذه الجملة قفزت وبدأت ترقص وتردِّد: أنا في معبدك، لا أرغب في النوم، ولا مجال للنوم هنا، الوقت للتعبُّد.. فقلت لها: متى ستحررين إلهك من الأسر؟ فاقتربت مني، وواصلت في الرقص، فشاركتها الرقص قليلًا. ثم ذهبتُ إلى الحمام استعدادًا للجولة

الثانيـة مـن المنافسـة الكبرى. وعـدتُ فوجـدتُ حبيبتـي تقـف بالقـرب مـن النافـذة مشـعلة سـيجارة. طلبـت منـي أن أقـترب منهـا، ففعلـت. قاسـمتني الدخـان، كنـت أرتشـف نَفَسًـا ثـم أمررهـا، وهـي ترتشـف نفسـين وتعيدهـا إليَّ. فقلـت لهـا لمـاذا مرتـين؟ فقالـت أنـا عائـدة إلى الحيـاة بعـد المـوت. لذلـك أخـذت نَفَسًـا لحيـاتي الأولى وثانيـة لهـذه الحيـاة.. بـدأت الجولـة الثانيـة، كانـت أكـثر اشـتعالًا مـن الأولى والمنتـصر مجـددًا كان الحـب، ثـم الجولـة الثالثـة وهكـذا حتـى نـزع الظـلام ثوبـه عـن الكـون.

الحسناء الوحيدة

في زمن الجائحة كانت الأفكار والأخبار والذكريات تتدفق من كل الاتجاهات وكأن ثمة شلالًا كان قد ضل طريقه إليَّ، فأصحبت كالغريق الذي يحاول التمسك بقشة الحنين، فتجدني أتحدث عن حبيبتي وعيد ميلادها تارة، وبقشة الأخبار تارةً أخرى. لذلك تجدني أتحدث عن التحولات التي تحدث أمام أعين العالم ولا أحد يستطيع أن يغير مجراها. إنها حال الغريق الذي يريد النجاة بأي ثمن، وبأسلوب الغاية التي تبرر الوسيلة، لكنني لم أنسَ صديقي صاحب المغامرات الرومانسية، ضفة الجليد، الحياة الليلية فيها أجمل من النهار، تتزين المدينة بحسناواتها، وتجد الشبان يجلسون على الطرقات – خاصة في فصل الصيف – يشربون النبيذ، تعود الذكريات بهم إلى الطفولة وأيام الدراسة في مدرسة الحي الأساسية، أو في المدرسة الثانوية. هنالك من يتحدث عن الحب الأول، ويقاطعه رفيقه قائلًا بأن الحب الأول هو حب الأم، ثم يضيف: أول امرأة أقع في حبها بشكل حقيقي هي أمي. لم أستطع أن أسمع الرد على هذا الكلام، لكنه جعلني أفكر فيه بعمق عندما كنت ذاهبًا إلى صديقي صاحب المغامرات، وهو ينتظرني بفارق الصبر. وصلت إلى الحديقة ولكن لم أصل إلى إجابة شافية إن كانت الأم هي أول امرأة نقع في حبها أم لا. كان مساءُ الخميس لطيفًا، لم تكن الحديقة خالية من الناس. كانت هناك مجموعات كبيرة من الشباب يتسامرون، منهم من كان جالسًا وممسكًا قنينة النبيذ بيده، وآخر يجلس وسُحب الدخان تتعالى من فمه. أما صديقي، فكان يتبول مختبئًا خلف شجرة اليولكا الجميلة.. لقد استطعت أن أميِّزه دون غيره لأنه كان يرتدي معطفه الذهبي اللون. أردت أن أقترب منه، لكن اكتفيت

بفتح كاميرا هاتفي وتصويره. بحثت عن مقعد فارغ لأجلس عليه. لم يكن بمقدوري الوقوف لأن حديثنا – كالعادة – كان عن الحسناوات، مثيرًا وطويلًا، فأخشى أن ينتصب قضيبي، فتُغيِّر أنثى - قادمة إلينا لطلب سيجارة - مسارها خوفًا من الثور الهائج. كنت أمضي يُمنةً ويسارًا، فشعرت بي فتاة كانت تجلس وحدها، سألتني: هل تبحث عن مقعد تجلس عليه؟ فأجبت: لا أبحث عن مقعد، بل عن فتاة تجلس وحدها. فضحكت على مكري ودعتني للجلوس. كان صديقي وقد فَرَغ من تجفيف مسالكه البولية، بدأ يتصل بي. لم أجب الهاتف، لأن المساء كان قد بدأ يحلو مع الفتاة. سألتني: لماذا لا ترد على هاتف؟ فقلت: الوقت للمسامرات المباشرة، وجهًا لوجه وليس للتواصل الافتراضي. لم تعلِّق على إجاباتي، ففهمت أن الصمت يعني الموافقة. كنت قد بدأت الحديث معها عن مسقط رأسها، ثم الدراسة، والاهتمامات الأخرى. فقالت إنها وُلِدَت في إحدى مدن «الحلقة الذهبية» التي هي مدن تاريخية صغيرة تقع على امتداد ضفة الجليد وتتركز أغلبها في وسطها. كانت المدينة تُسمَّى «شوردل»، أما الدراسة كانت في مجال العلاقات الدولية، قراءة الشعر والرقص من أبرز اهتماماتها الشخصية. بعد أن أعطتني لوحة صغيرة تحكي عن حياتها، طلبت في المقابل الخطوط العريضة عن شخصي. فقلت إنني ولدت في قرية صغيرة تستلقي على ضواحي ضفة الشمس، وأتيت إلى ضفة الجليد مشيًا على وقع إيقاع قلبي وخفقانه، لكي أدرس في مجال الآداب، ثم إنني شغوف بقراءة الشعر والرقص أيضًا. في واقع الأمر لم أكن من عشَّاق قراءة الشعر رغم اهتمامي به المتواضع، وحتى الرقص، ولكن لكي أستدرج الفتاة إلى فخاخي المنصوبة. فقالت: عظيم، عظيم. جميل أن يقابل المرء شخصًا ما يشاركه الاهتمامات، لكنني لم أتوقَّع أن يشاركني شاب بلاد الشمس هواياتي المفضلة. ثم أضافت: هل قرأت أعمال بوشكين؟ أجبت: بكل

تأكيـد. عـاود صديقـي الاتصـال بي للمـرة الخامسـة بعـد أن أرهقـه التجـوال حـول المجهـول، فبـدأت أنظـر إلى هاتفـي. قالـت الفتـاة: وددتُ لـو ألقيـت عـلى مسـامعي نصًّـا شـعريًّا لبوشـكين أو أقـرأ لـك بـدوري نصًّـا لـه، لكننـي أُفضِّـل أن تجيـب الهاتـف أولًا حتـى لا يشـوش عليـك، فاسـتأذنت وابتعـدت قليـلًا لـكي أرد.. قلـت: آلـو، مرحبًـا؟ فسـألني صديقـي عـن مـكاني، فأخبرتـه أننـي قريـب أجيـب دعوتـه خـلال خمـس دقائـق إذا دعوتنـي لـكي أوافيـك، فقـال لي أنـا في انتظـارك. أنهيـت المكالمـة وعـدت إلى الفتـاة.

اسـتدركت قائلـة: كنُـت قـد سـألتك قـراءة نـص لبوشـكين. عندمـا أحسسـت مـدى إلحاحهـا عـلى ذلـك، أدركـت فضولهـا، لأن لغة ضفـة الجليد غنيـة وليسـت سـهلة التعلـم. فتـى يـأتي مـن ضفـة الشـمس ويتحـدث هـذه اللغـة بطلاقـة، ثـم يقـرأ شـعرًا لـلأب الروحـي للشـعر والأدب؟ بـكل تأكيـد خطـرت مثـل هـذه الاسـتفهامات في بـال الفتـاة، فـأردت أن أُشـبع فضولهـا وشـغفها بصـوتي الفحـولي أو لشـعر بوشـكين.

قلت:

- كنت أحبك.

فأجابت:

- ولا يزال الحب باقيًا في روحي.
- ولم تنطفئ جذوته بعد!

رائـع، رائـع، كـرَّرت هـذه المفـردة، عندمـا سـمعت الشـطر الثـاني مـن القصيـدة «كنـت أحبـك». ثـم واصلنـا قـراءة النـص حتـى «أتمنـى أن يهبـك اللـه حبيبًـا آخـر». قابلتنـي الفتـاة بتصفيـقٍ حـار.. فـازدادت ثقتـي بمقـدراتي في قـراءة الشـعر. قلـت لهـا: أتمنـى أن تتواصـل لقاءاتنـا مـن زمـن إلى آخـر. فقالـت: سـيكون ذلـك مـن دواعـي سرورهـا. كانـت الدقائـق الخمـس قـد

نفـدت. كان صديقـي يدخـن عنـد مدخـل الحديقـة، وفتـاة أخـرى - لا يعرفهـا ولا أعرفهـا – تقـف بجانبـه وتُدخِّـن أيضًـا. وصلـتُ، ثـم تأسـفت عـلى تأخـيري، فقـدم لي سـيجارة دون أن يعلـق عـلى اعتـذاري. وبينـما كنـا ندخـن حدثتـه عـن الفتـاة التـي كانـت تنتظرنـا، فقـال إنـه لا يمانـع في الانضـمام إلينـا، بـشرط ألَّا نبقـى هنـاك طويـلًا، نمكـثُ نصـف سـاعة معهـا، ثـم نجلـس بعيـدًا عنهـا لأن هنـاك قصـة جميلـة يريـد أن يرويهـا لي، فقلـت: دع المسـاء يُحـدِّد كـم مـن الوقـت سـنقضيه معهـا، ربمـا سـتعجبك. كانـت يـداه فارغتـين إلا مـن سـيجارة. فسـألته إن كان يرغـب في عبـوات كحـول، فقـال سـيذهب إلى شرائهـا عندمـا يوغـل الليـل في الظـلام. عدنـا إلى الفتـاة، قدمتـه وقلـت لهـا هـذا صديقـي. «أنـا عاشـق النسـاء، أغامـر مـن أجلهـن، أسـتمتع بسـماع صـوت الأنثـى الموشَّـح بالقلـق والحنـين، أنـا أتـرك بصـماتي عـلى كل أنثـى أقابلهـا، وفي حضـوري لا تشـعر الأنثـى بملـل، فسرعـان مـا تسـتحيل كآبتهـا إلى مـرح، وحينـما أسـافر بعيـدًا عنهـا، تظـلُّ تتذكـرني حتـى أعـود – وربمـا لـن أعـود». بهـذا الـكلام الرنـان، بـدأ يقـدم نفسـه، فكنَّـا – أنـا والفتـاة – في ذهـولٍ تـام. إذ كان مصـدر ذهـولي أننـي كنـت أول مـرة أرى صديقـي يتحـدث بصـورة منمَّقـة، وبثقـة كبـيرة، أمـا الفتـاة، فكانـت أكـثر ذهـولًا، لأنهـا لا تعـرف هـذا الـذي يقـف أمامهـا ويتحـدث عـن النسـاء بهـذا الشـكل المثـير الغامـض. عندمـا أكمـل صديقـي المقدمـة الرائعـة عـن نفسـه، سـألها عـن اسـمها. فقالـت: إنهـا تُدعـى أناسـتاسـيا. قـال صديقـي: إنـه يعمـل أسـتاذًا للرقـص، فأصابنـي الذهـول مجـدَّدًا مـن هـذه الكذبـة. قالـت أناسـتاسـيا: لكـم أنـا سـعيدة! ففـي أمسـية واحـدة أقابـل شـابًّا مولعًـا بالشـعر ويقـرأ قصائـد بلغتنـا، ثـم أكتشـف أن صديقـه أسـتاذ للرقـص مـن ضفـة الشـمس. فنهضـت متوهِّجـة ثـم ضمتنـا بـين ذراعيهـا تـكادُ تُحلِّـق مـن الفـرح. وبينـما كانـت تُحرِّرنـا مـن حضنهـا الدافـئ، همسـتُ لصديقـي: منـذ متـى وأنـت تحـترف الرقـص؟ قـال: اصمـت.. إننـا مجبولـين عـلى

الرقص بالفطرة. فليس هناك شعبٌ يماثلنا في ذلك سوى أحفاد رقصات السالسا والمارينجي.

حسناوات ضفة الرذاذ يحسنَّ الظن بالغرباء، لكن هناك قول مأثور في تلك الضفة يقول: «ثق، لكن اختبر».. صديقي وكأنه لم يسمع بهذا. طلبت أناستاسيا منه أن يعطيها درسًا عابرًا في الرقص، وهو ذات النهج الذي اتبعته معي عندما طلبت مني أن أقرأ نصًّا شعريًّا لها. كنت قد اجتزت الاختبار بشكل كامل في السابق، لأني كنت صادقًا في قولي هذا. فقال صديقي: هل تريدين أن تتعلمين الرقص الآن؟ بدأ يتوتَّر، لكنه قبل التحدي. نهض من المقعد وطلب منها أن تقوم أيضًا. فنهضت هي الأخرى. أما أنا لم أبرح مكاني، بل ظللت ماكثًا أتأمَّل سُحب الدخان التي ينفُثُها فمي في شكل خيوط رقيقة تصعد رويدًا رويدًا أعلى، مترقِّبًا كيف سينتهي هذا العرض المسرحي القصير. قال: سأفتحُ الموسيقى من هاتفي الجوال ومن ثم أبدأ بالرقص. عليكِ في البدء أن تنظري لي وأنا أرقص مليًّا، ثم عليكِ تكرار ما أفعله بالضبط. فوافقت أناستاسيا. عندها شرع صديقي في القيام ببعض الحركات. لم تكن أكثر من أساسيات الرقص عمومًا. أدركت بأن صديقي ليس مُحترفًا في الرقص، لكنها لم تُفصِح هذا السر الذي اكتشفته توًّا. إذ لم تكن ترغب في أن يفقد المساء رونقه المُشِع بسبب أي طاقات سلبية يمكن أن تتخلل الأجواء وتشحنها. وحتى لا تصطك الأجواء، سألتُ الفتاة عن تجربة السفر. فقالت: رأيتُ مدنًا جميلة كثيرة، مثل باريس، روما، تل أبيب، لشبونة، أوسلو، تاج محل، ونيروبي وأديس أبابا، كما أخطط أيضًا لزيارة نيويورك، وهافانا في العام القادم. فما كان من صديقي إلَّا أن يقول: هذه مدن.. والسؤال كان عن الدول! فضحكت عاشقة الرقص والشعر ثم أردفت قائلة: إنَّ المدن التي ذكرتها هي عواصم لدول، وهذا ما يعني ضمنيًّا أنني قد زُرت تلك الدول.. ففهم صديقي.

الحسناوات أنواع، هناك من تستمتع بالأسلوب المجازي في الكلام، وأخريات يردن الكلام أن يكون مباشرًا، لكن أناستاسيا بحكم عشقها للشعر، كانت تحب المجازات والاستعارات، لكن صديقي لم ينتبه. مثلًا، بدلًا من أن تقول أعشق صوتك، يُفضَّل أن تقول أعشق شقشقاتك يا عصفورة الجليد. وبدلًا من القول، لديك صدر كبير، يكون أجمل لو قلت صَدركِ شاهقٌ والبرتقالة في عنفوان نضجها.. وأيضًا، بدلًا من القول أريد أن أحدثك في أذنك، يستحسن أن تسألها إن كانت تعشق الهمس، أو بدلًا من تطلب قُبلةً، يُفضَّل أن يكون مدخلك لإرواء الرغبة هكذا: أتعطَّش لأرتشف عسل شفتيك. لقد كانت أناستاسيا من ذلك النوع الذي يحب الكلام المشبع بالرمزية. سألتني عن الدول التي زرتها، فقلت إنني لم أزر أي دولة، من وطني إلى هنا مباشرة، ولكن أخطط أن أزور كل المدن الجميلة حول العالم، فتعجبت بأن فتى ذا ست وعشرين ربيعًا لم يسافر أبدًا، حتى قدومه إلى هنا كان بسبب الدراسة. فقلت: السفر شيء عظيم، ولكن لم نكن نعرف إن كانت هناك دول أخرى في العالم، كنا نظن أن العالم ينتهي بنهاية حدود ضفتنا، ثم إن مقدراتنا المالية كانت تجبرنا على تصديق تلك الخرافة. أما صديقي فقال مازحًا إنه قد سافر إلى قرية «طردونا» و«كسرونا» و«أبكرونا» وزار إسطنبول عندما كان قادمًا إلى ضفة الرذاذ.. فقالت أناستاسيا أنها لم تسمع بهذه القرى، لذلك سألت: في أي ضفاف تقع هذه القرى؟ - فقال صديقي: إنها تقع في ضفاف الفيلان.. فضحكنا ثلاثتنا بصوت مرتفع حتى صمتت مجموعة كانت تقف ليس بعيدًا عنا، فتأسفنا للإزعاج الذي سببناه لهم.

كان المساء يزداد جمالًا وإثارة. فقلت لصديقي، ربما علينا أن نتناول بعضًا من النبيذ، فدعم فكرتي. سألت عاشقة الشعر والرقص إن كان لديها رغبة في تناول النبيذ الأحمر، فوافقت لأنها شعرت بأمان

بوجودها معنا. كنت أخطط في الانفراد مع الفتاة، لذلك اقترحت على صديقي أن يذهب إلى المتجر بمفرده. فرفض، قائلًا: لا بدَّ أن نذهب ثلاثتنا معًا. رجوته مجدَّدًا، لكن أصر على موقفه، فقالت أناستاسيا أنها لا تمانع في الذهاب معنا، فحدَّقتُ إلى صديقي بغضب ثم نهضت واتجهنا إلى المتجر اللعين. وصلنا إلى هناك دون أن نشعر، كنت صامتًا طوال الدقائق العشر، لأن الغضب كان يمتزج بشعوري، أما صديقي فكان يتحدث مع أناستاسيا ويقول لها إنه يتمنى أن تستمر هذه الأمسية إلى الأبد حتى يستطيع أن يعرف عنها المزيد والمزيد. عندما وقفنا أمام بوابة المتجر أدركنا أن هذه المواقيت غير مسموح فيها بيع الكحول. طلب صديقي أن نقف في الخارج، ودخل إلى المتجر وَحْدَهُ، وبعد مرور خمس دقائق أتى محُمَّلا بالنبيذ وعبوات البيرة، فكانت الدهشة.. قالت له أناستاسيا: ظننتك خبيرًا في الرقص، لكنك يبدو أنك أيضًا خبيرًا في فعل المستحيل. فضحك صديقي وكان يشعر بالفخر جراء ما سمعه من كلمات مدح. ثم قال: «ذهبت إلى مدير المتجر، وشرحت له الموقف، قائلًا إن اليوم يوافق عيد ميلادي، وأن لديَّ عددًا كبيرًا من الضيوف أتوا دون دعوة، لأنهم تلقوا دعوة لعيد ميلادي عبر أصدقائهم وأنت تعرف حياة الطلاب، لذلك ينقصنا الكحول، أرجو أن تتفهم الأمر، ثم قدمت له الدعوة لحضور الاحتفال، فما كان منه إلَّا أن يسألني عن الكمية التي أحتاج إليها، فأخبرته. طلب مني أن أنتظر بعيدًا عن الكاميرا، فامتثلت لأمره. ذهب وأتى بالكمية هذه، ثم قدم لي تهاني عيد الميلاد». كانت هذه القصة كلها مفتعلة، ولم يكن هناك عيد ميلاد لأحد منا، لكن خيال صديقي كان خصبًا.. عانقته أناستاسيا دون أن تُعلِّق، أما أنا فكان الضحك يسيطر عليَّ، ونسيت أنني كنت غاضبًا، فضممت صوتي إلى جوقة العناق.. أخذنا خمرنا وعدنا من حيث أتينا. لم يكن المقعد ينتظرنا كما تركناه خاليًا ووحيدًا، كان هناك جلساء

آخـرون يتقاسـمون المقعـد حكاياتهـم، فبحثنـا عـن مـكان آخـر نقاسـمه حكاياتنـا، فلـم نجـد مقعـدًا فارغًـا.. لكـن أرض اللـه واسـعة، فلـم نفكـر كثـيرًا. جلسـنا عـلى الأرض الخـضراء، وشـجرة اليولـكا كانـت تقـف خلفنـا تنـشر ظِلها عـلى وجـه أناستاسـيا، فأُصِبنـا بالغـيرة نحـن معـشر الذكـور (أنـا وصديقـي). عندمـا بـدأ الليـل يتوغَّـل في ظلماتـه، حررنـا النبيـذ مـن أسره، بدأنـا بنخـب اللقـاء.. تحدثـت أنـا أولًا فقلـت إن الحيـاة كريمـة جـدًا، لذلـك أهدتنـي أمسـية جميلـة دون أن أخطـط لهـا، أتيـت إلى هنـا مُلبيًـا دعـوة المـشرد، فـكان جـزائي أن ألتقـي بـك، ونقـرأ الشـعر معًـا ونتسـامر عـن المـاضي والحـاضر والمسـتقبل ونضحـك كثـيرًا.. بعـد ذلـك أخـذ كل منَّـا رشـفته، وبـدأ صديقـي يتحـدث: مـن وقـت إلى آخـر آتي إلى هنـا لأقـضي الوقـت مـع صديقـي. أحدثـه عـن مغامـراتي وحسـناواتي. وهـو لا يحدثنـي سـوى عـن القيـم العليـا، لأنـه وحيـد. واليـوم أيضًـا أتيـت إلى هنـا للهـدف نفسـه. لم أتوقـع أن أظـل معكـما وقتًـا طويـلًا، لكـن الحديـث إليـك ذو نكهـة خاصـة.. إضافـة إلى ذلـك، أريـد أن أعـترف بأننـي قـد كذبـت عليـكِ، عندمـا قلـت إننـي أسـتاذ للرقـص. أطلـب منـك السـماح، هيـا نـشرب نخـب اللقـاء. كان صديقـي يتوجـه بالـكلام إلى أناستاسـيا، وكان صادقًـا فيـما قالـه. لذلـك أُعجبـتُ بكلمتـه. أمـا الفتـاة قالـت معلقـة عـلى كلمـة صديقـي، بأنهـا كانـت تعـرف أنـه قـد كـذب عليهـا. لكـن لم تكـن كذبـة ذات ضرر كبـير لذلـك نسـيت الأمـر وسـامحته عـلى ذلـك. ثـم طلبنـا منهـا أن تقـول كلمتهـا عـن لقائنـا، فبـدأت: بـكل صـدق أقـول، أول مـرة ألتقـي شـبابًا مـن ضفـة الشـمس، وكان لـديَّ تصـور مختلـف عـن القـارة المشمسـة وأبنائهـا، لكـن بعـد هـذا اللقـاء والموضوعـات التـي تحدثنـا عنهـا، أدركـت أن شـباب تلـك الضفـاف ليسـوا فقـط يجيـدون الرقـص وأقويـاء في ممارسـة الجنـس - كـما يُقـال دائمًـا، ولكـن أنتـم شـباب مُثقَّـف ولديـه معرفـة جيـدة عـن العـالم، إضافـة إلى احـترام المـرأة الـذي أحسسـته. لذلـك أقـول أنـا سـعيدة

جـدًّا بلقـائي بكـم، وأتمنـى أن يكـون هـذا اللقـاء، بدايـة للقـاءات أخـرى كثـيرة قادمـة، نخـب اللقـاء. ثـم ضمتنـي وصديقـي بـين ذراعيهـا، مـلأ المغامـر كـوب الفتـاة الـذي كان شـبه فـارغ. أشـعل سـيجارته ثـم قـدم لي أخـرى. أشـعلتها بـدوري وقدمـت سـحبها هديـة للمسـاء الجميـل.

عندمـا يقـدم لـك المسـاء عصفـورة جميلـة لتسـمع تغريداتهـا ويـأتي صديقـك ليقاسـمك هـذا الجـمال، عليـك أن تـترك القلـب وحـده يضـع اللمسـات النهائيـة للأمسـية. سـألت أناستاسـيا: الثقافـات تختلـف باختـلاف الجغرافيـات والأماكـن، هنـاك أوجـه شـبه واختـلاف، أريـد أن أعـرف الملامـح الرئيسـية لثقافتكـم، لـو أمكـن ذلـك؟

فقلت:

- بلادنـا تقـع في القـارة المشمسـة، شـعب واحـد بأصـول مختلفـة، نتحـدث اللغـة البدويـة كلغـة تواصـل، لكـن هنـاك مئـات اللغـات المحليـة الأخـرى، يـتراوح أعضـاء الأسرة بـين ثلاثـة أفـراد إلى عشريـن شـخص.

قاطعتني قائلة:

- هـل تمـزح؟ عـشرون شـخصًا في أسرة واحـدة! فأكـدت لهـا صحـة كلامـي، ثـم تابعـتُ: النشـاط الرئيـسي في ضفتنـا الزراعـة وبعـض الصناعـات البسـيطة، يحكمنـا شـخص واحـد أكـثر مـن ربـع قـرن. يذهـب الرجـال إلى العمـل في الصبـاح الباكـر ويعـودون في المسـاء محملـين بالطماطـم، الخبـز والجرجـير.

- سمعتُ أن في بلدكم يُسمح بتعدد الزوجات، هل هذا صحيح؟

فردَّ صديقي:

- نعـم هـذا صحيـح، لكـن الأمـر لا يختلـف كثـيرًا هنـا وهنـاك، لأن تعـدد الزوجـات لدينـا قانـوني، أمـا لديكـم أيضًـا مسـموح فقـط ليـس قانونيًّا.

فطلبت أناستاسيا من صديقي أن يوضح لها أكثر، لأنها لم تستوعب هذه النقطة، فقال صديقي:

- مثلًا لدى كثير من الرجال في ضفة الجليد – بجانب الزوجة – عشيقات خفيَّات، وأيضًا للنساء – بجانب الزوج - عشَّاق خفيُّون. أليس هذا صحيحًا؟ سأل صديقي، فأجابت الفتاة بأن صديقي على صواب.

قلت لها:

- هل تودين أن أتابع حديثي حول تشابه واختلاف الثقافات؟

- سيكون هذا من دواعي سروري.

- إذا كان الناس هنا لا يهتمون كثيرًا بالقبيلة، فإن الأمر مختلف تمامًا في ضفتنا. القبيلة تُعبِّر أساسًا عن احترام الناس لك. كما تؤدي دورًا حاسمًا في التوظيف والحصول على العمل، وأحيانًا تحدد شريك حياتك. والقبيلة يمكن أن تكون سببًا للتباهي، للحروب الطاحنة. لذلك الإنسان كفرد لا وجود له. الجماعة هي الأساس في كل شيء.

إضافةً إلى ذلك يتعارك الناس في ضفتنا بسبب أشياء تبدو تافهة جدًّا. مثلًا منذ مدة قُتِلَ خمسون شخصًا بسبب ماعز.

قالت متعجبة:

- مستحيل، لا يمكن أن أصدق هذا.

- فقلت: «كان هناك راعٍ يرعى بأغنامه، ودون قصد انضمت ماعز تتبع قطيعًا لشخص آخر إلى القطيع، لكن الراعي لم يلحظ ذلك.. بينما كان صاحبها يبحث، وجد الماعز بين القطيع، فظن أن الراعي سرقها، فما كان منه إلا أن قام طعنه. وعندما سمع أهل الراعي بما حدث، أتوا ليأخذوا الثأر. اجتمع الفريقان. فبدأت المعركة، استمر

العـراك بالأسـلحة البيضـاء، وكأننـا نعيـش في القـرون الوسـطى. وعندمـا انتهـت المعركـة وأتى رجـال الشرطـة – كالعـادة الشرطـة تـأتي بعـد سـقوط ضحايـا - كان عـدد الضحايـا خمسـين روحًـا بشريـة. فقـط في بلادنـا تسـاوي الماعـز الواحـدة خمسـين روحًـا.

عندمـا أكملـت القصـة، كانـت الدمـوع تنهمـر مـن عينيهـا. لم تعـرف الفتـاة مـاذا تقـول. أصبـح الحـزن يخيـم عـلى أمسـيتنا. طلبـت أن تشـعل سـيجارة. فأعطاهـا صديقـي واحـدة. قالـت: لم أكـن أصـدق في البدايـة، لكـن نـبرة صوتـك جعلتنـي أصـدق. لمـاذا يسـتعجل النـاس في ضفتكـم المـوت؟ ولمـاذا الأرواح رخيصـة بهـذا الشـكل؟

- لا أملـك إجابـة لهـذه الأسـئلة، لكـن أسـتطيع أن أقـول شـيئًا واحـدًا هـو أن كثـير مـن النـاس لا يعرفـون قيمـة الحيـاة، وأن هـذه القصـة جعلتنـي أدرك لمـاذا تأخـر شـعبي عـن العـالم.

فقال صديقي:

- ليسـت هـذه القصـة الأولى ولـن تكـون الأخـيرة، لدينـا عمـل ضخـم يجـب أن نفعلـه.

- دعونا نغير موضوع النقاش. اقترحت.

قالت أناستاسيا:

- أظن هذه فكرة ممتازة.

كان الليـل يتوغَّـل في جمالـه وهدوئـه، كان لا بـدَّ أن ننسى تلـك المرارات. ولم يكـن بمقـدوري أنـا وصديقـي تغيـير حـال ضفتنـا ونحـن نجلـس في الحديقـة، لكـن مـن محاسـن ذلـك النقـاش، بدأنـا – لاحقًـا - نفكِّـر بشـكل جـدِّي عـن إمكانيـة إيجـاد حلـول لمشـكلاتنا التـي لا تشـبه العـصر الحـالي، وكأننـا نعيـش في كهوفنـا وكأن مؤسسـاتنا التعليميـة تدرسـنا التخلـف

والاقتتـال. كان مـزاج أناستاسـيا قـد تغـير إلى الأفضـل، عندمـا سـألتها عـن النشـاط اليومـي الـذي تؤديـه. فقالـت: أصحـو مـن النـوم عنـد السـابعة صباحًـا، أعـد وجبـة الفطـور، أقـرأ قليـلًا مـن الشـعر، ثـم أذهـب إلى التسـوق، أعـود لأؤدي بعـض الأعـمال المنزليـة، مثـل نظافـة البيـت وترتيبـه ومـا شـابه ذلـك، كـما أجـول جولـة حـول المدينـة بعـد تنـاول وجبـة الغـداء، حيـث ألتقـي أحيانًـا صديقـاتي وأصدقـائي. وأضافـت أنهـا تمـارس رياضـة التخسـيس عنـد المسـاء، وقـد تشـاهد فيلـمًا مـا. ثـم تتصفـح الإنترنـت قليـلًا وتخلـد إلى النـوم. كان الوقـت يقـترب مـن الثانيـة صباحًـا، وكأن قنينـة النبيـذ قـد شـارفت عـلى الانتهـاء وتنـذر بنضـوب النبـع، أمـا عبواتنـا فلـم يتبـقَّ منهـا إلا القليـل، فقالـت الفتـاة: إنهـا سـعيدة بالمسـامرة معنـا، ولكنهـا ترغـب في النـوم. فبـدأ صديقـي يترجَّاهـا لـكي تبقـى قليـلًا. لكنهـا أصرَّت عـلى الذهـاب. رافقناهـا حتـى مدخـل السـكن، تمنينـا لهـا أحلامًـا سـعيدة وعدنـا إلى أرض اللـه الواسـعة. ريثـما جلسـنا، سـألني صديقـي إذا تبادلنـا أرقـام الهواتـف مـع أناستاسـيا، فنفيـت، لذلـك غضـب وقـال: كنـت أتمنـى أن تتكـرَّر لقاءاتنـا. والآن فـرص اللقـاء مجـددًا باتـت ضئيلـة جـدًّا. فقلـت: إن كان الأمـر مهـمًّا بالنسـبة إليـك لهـذه الدرجـة، كان عليـك أن تأخـذ رقـم هاتفهـا. نظـر إليَّ غاضبًـا ولم ينطـق بكلمـة. عندمـا رأيـت الحـزن بـدأ يمـلأ عينيـه، قلـت إنهـا سـتتكرَّر، لأن الفتـاة سـتأتي مجـددًا بحثًـا عنـا.

سـألته عـن السـبب الأسـاسي لطلـب المقابلـة اليـوم، فقـال: كنـت أريـد أن أُحدِّثـك عـن حبيبتـي: ذات مسـاء جميـل، ذهبنـا إلى أحـد المقاهـي الـذي يقـع في وسـط المدينـة، كانـت حبيبتـي في مـزاج عـالٍ، ولديهـا رغبـة في الاسـتمتاع بالأمسـية. لكـن قبـل أن أُشـبِع رغبتهـا في ذلـك، قرَّرنـا أن نـشرب بعضًـا مـن الكحـول. كان المقهـى يتميَّـز عـن غـيره في احتـواء أنـواع مختلفـة مـن الكحـول تقـارب المائـة نـوع مـن البـيرة. فبدأنـا نطلـب كأسًـا بعـد كأس، شـاربين نحـو عـشر كـؤوس.. إذا سـألت أردت أن تعـرف المزيـد عـن المقهـى،

سأقول لك إنك لم تزره من قبل، يقع بالقرب من محطة مترو عريق في وسط المدينة تدعى «الحياة قصيرة لشرب كأس واحدة»، وحوله حانات أخرى كثيرة، إضافة إلى مطعم للوجبات السريعة. كان اليوم يوافق السبت، وهو إجازة نهاية الأسبوع، لذلك كان المقهى يعج بالزوار، أغلبهم من فئة الشباب. كنت أنا وحدي من ضفة الشمس، لذلك كان بين هنيهة وأخرى يرسل بعض الحضور نظراته نحوي، ولكنني لم أكترث لذلك. كنت أفكر في حبيبتي، في نهديها، وشفتيها، وتلالها، وعن الليلة الحمراء التي تنتظرني. همست حبيبتي في أذني طالبة مني أن أنظر إلى ركن المقهى، لأن شيئًا مثيرًا كان يحدث، فوجهت نظراتي إلى هناك لأرى شابين كانا يتبادلان القُبل، رغم أن ضفة الرذاذ لا تعرف المثليين، لكن يمكن أن تقابل حالات مماثلة من وقت إلى آخر، أعدت نظراتي إليّ وتركت المثليين وشأنهما. اقترحت عليها الذهاب إلى المنزل، فقالت إن غرفتها خالية اليوم. دفعت تكاليف الأمسية ثم خرجنا من المقهى والعسل يتدفق من شفتيها.. عندما وصلنا إلى الشارع الرئيس، اقترب منا سائق تاكسي كان ينظر يمنة ويسر ليعرض سلعته، سألته عن تكلفة الرحلة إلى عنوان حبيبتي «شارع ميكلوخا ماكلايا، منزل رقم 21». فقال ألف روبل. فقلبت، لأن العسل المُتدفِّق كان لا بدَّ من ارتشافه. ركبنا التاكسي واتجهنا إلى موتنا المشتهى. كان السائق قصير القامة، يرتدي قميصًا أسود اللون وبنطالًا رماديًّا، لحيته لم تكن مزينة وشاربه مثل شوارب القطط. عندما قبلت عرضه، ابتهجت أساريره، لأنه قد وعد زوجته بأن يأخذها غدًا إلى العشاء في أحد المطاعم الفخمة بمناسبة عيد ميلادها وأن يبتاع لها قلادة من الذهب الأصفر. كان الوقت قد تأخر، وقد أنهكه النعاس، لكن مبلغ الهدية والعشاء كان ناقصًا. أتيت أنا كالملاك وأكملت له الفرحة. كانت حبيبتي تنظر إلى أسفل «في بادئ الأمر لم أفهم الأمر»، ولكن بعد ثوانٍ أدركت

أنهـا تنظـر إلى موطـن إقامـة صغـيري، فأخـذت يدهـا ووضعتهـا هنـاك. بـدأت تتحسَّـس، عندهـا طلبـت منهـا أن تسـحب يديهـا وتنتظـر حتـى نصل.. عندما نظرت إلى السـائق، وجدتـه ينظـر إلينا عـبر مرآتـه الأماميـة، فطلبـت منـه أن يكـف عـن الفضـول المجـاني. فقـال: إنـه ظـن ربمـا نحـن في حاجـة إلى مسـاعدة، فقلـت: لـه نعـم نحـن في حاجـة إلى مسـاعدة ويمكـن أن يقـدم لنـا إياهـا بزيـادة سرعـة السـيارة والتركيـز في الأمـام حتـى لا نقـع في حـادث مـرور، ففهـم الأمـر وغـض الطـرف عـن رؤيـة حبيبتـي. كنـت أرى البرتقـال يانعًـا في صدرهـا، فقطفـت الأولى وبـدأت بتقبيلهـا بنهـم مصـدرًا صوتًـا عاليًـا. فقـال سـائق التاكـسي بـأن سـيارته ليسـت فندقًـا، فتوقفـت عـن تنـاول البرتقـال. وصلنـا أخـيرًا إلى محطتنـا قبـل الأخـيرة، دفعـت لسـائق التاكـسي الفضـولي والسـعيد بزوجتـه تكاليـف الرحلـة وترجلنـا إلى الغرفـة. كانـت حبيبتـي تترنـح كأغصـان الشـجر المتراقصـة، أمـا أنـا فكنـت ثابـت الخطـى، بالرغـم مـن أن الكحـول كان يترنَّـح بداخـل جمجمتـي الصغـيرة. وعندمـا وصلنـا إلى مدخـل السـكن وأردنـا الدخـول إلى الغرفـة منعتنـي حارسـة المبنـى، فأخرجـت خمسـمائة روبـل قدمتهـا كهديـة وقلـت إن صديقتـي تريـد أن أبقـى معهـا حتـى الصبـاح لأنهـا تحتفـل بعيـد ميلادهـا، فقالـت بلطـف: اذهبـوا واحتفلـوا لأن الحيـاة قصـيرة. كانـت الغرفـة خاليـة مـن النـاس، لكنهـا مليئـة بالثيـاب واللوحـات عـلى الحائـط، وكـرسي متوسـط الحجـم يقـف في منتصـف الغرفـة، أخذتهـا ووضعتهـا قريـب مـن المضجـع. كانـت حبيبتـي تنتظـرني لأحررهـا مـن الثيـاب، كانـت تريـد أن تقـع في أسر أحضـاني. فأتيتهـا مـن الخلـف، لمسـت مؤخرتهـا فاسـترخت.. كانـت ترتـدي فسـتانًا أسـود اللـون. فقلـت لهـا الأسـود يليـق بـكِ، فـردت قائلـة: لـون الشـكولاتة الـذي يرتديـك يليـق بي أكـثر. فنزعـت قميـصي حتـى تسـتمتع بالشـكولاتة ريثـما أحررهـا مـن الفسـتان، بـدأت تقبـل صـدري، فطلبـت منهـا أن تتمهَّـل قليـلًا حتـى أنـزع الفسـتان. قالـت: لمـاذا أنـت بطـيء بهـذا

الشـكل؟ فحـررت نفسـها، لم يكـن هنـاك غطـاء بـين فخذيهـا، كان نهداهـا الورديـان يقفـان بفخـر صـارخ وإعـزاز، فلمسـتهما لأروض حبيبتـي الهائجـة، وهـي انتزعـت بدورهـا الجينـز الـذي يحمينـا مـن الـبرد.. غرقنـا في بحـار القبـلات، ولجـتُ عميقًـا لأجـد كنـوزًا بـين فخذيهـا، ووجـدت هـي درر بـين فخـذيَّ. كان كل منا يقطـف مـا اسـتطاع إليه سـبيلًا، اسـتمر موسـم حصادنا ثـلاث سـاعات. قالـت حبيبتـي: إن هـذه الكنـوز تكفيهـا حتـى موسـم الربيع القـادم، وطلبـت أن نعـود مـن العمـق إلى السـطح. فطلبـت منهـا أن أجنـي درة واحـدة وبرتقالتـين. فقالـت لا مانـع لديهـا، ففعلت بأنفـاسي الأخيرة، لأن الحيـاة قصـيرة - كـما قالـت الحارسـة - لذلـك عـليَّ أن أنتهـز الفرصـة كأنهـا الأخـيرة. بعـد ذلـك خلدنـا إلى النـوم دون أن نشـعر. عندمـا اسـتيقظت في الصبـاح كانـت أشـعة الشـمس تُقرئنـا السـلام عـبر النافـذة وتهنـئ حبيبتـي بعيـد ميلادهـا المتخيـل، أمـا الطقـس فـكان يرسـل هبوبًـا دافئًـا. كنـت أشـعر برغبـة في الأكل، لكـن حبيبتـي لم تكـن قـد اسـتيقظت بعـد. بـدأت أنظـر يمنـة ويسـارًا. رأيـت صـورة كانـت مثـيرة للفضـول، اقتربـت وأخذتهـا في يـدي. نظـرت، ثـم أعـدت النظـرة. كانـت صـورة لحبيبتـي وشـاب آخـر لا أعرفـه. بـدأت الأفـكار السـيئة تـأتي مـن كل الاتجاهـات. فقـررت أن أوقظهـا. وعندمـا أفاقـت مـن نومهـا العميـق، سـألتها: مـا هـذه الصـورة؟ مـن هـذا الشـاب، فقالـت: هـذا حبيبـي الـذي حدثتـك عنـه. صمـتُّ قليـلًا، وقلـت: دعينـا نتحـدث، لأني لم أفهـم شـيئًا، أنـت الآن حبيبتـي أم حبيبتـه؟ فقالـت: انظـر أنـت حبيبـي، لكـن هـو سـيكون زوجـي في المسـتقبل، أنـت تناسـبني كحبيـب مؤقـت، فقلـت مندهشًـا، لمـاذا؟ لمـاذا؟ أنـا أحبـك! إذًا لمـاذا لا نخطـط لبنـاء أسرة في المسـتقبل؟ فأجابـت: انظـر، نحـن مـن عالمـين مختلفـين، ثقافـة مختلفـة، نعيـش الآن هنـا وهـذه الضفـة ليسـت مدينتـك ولا هـي مدينتـي، كيـف يمكـن أن نخطِّـط معًـا لبنـاء أسرة وأنـت طالـب وأنا طالبـة أيضًـا. الحـب أجمـل شيء في الوجـود، ليـس هنـاك خـلاف في هـذا

الأمـر، لكنـي غـير مسـتعدة للعيـش في القـارة المشمسـة، وليسـت هنـاك ضمانـات لقدرتـك عـلى العيـش معـي في ضفـة الجـمال والنبيـذ، دعنـا نحـب ونعيـش هنـا، بالحـب نخفـف عنـاء الغربـة وعجلـة الأيـام تمـضي بسرعـة لا متناهيـة، أتمنـى أن تكـون قـد فهمتنـي. وقـع هـذا الـكلام عـليَّ كالسـيف، لم أسـتطع أن أقـول شـيئًا. ارتديـت ثيـابي وخرجـت عائـدًا إلى غرفتـي وأنـا لا أرى شـيئًا مـن شـدة الحـزن.

في ضيافة بوشكين[1]

يسمونها المدينة العائمة، وأسميها المدينة الشبقة، كما لو أنها أنثى في حالة شبقٍ دائم. هكذا بدأ صديقي المغامر حديثه في ذلك النهار الصيفي الدافئ عندما خرجنا في ذلك اليوم نتجوَّل بضفة الرذاذ. كانت زينة قد زارت زيارة سرية قصيرة إلى ضفة الجليد، تركت شمسًا صغيراً ثم عادت. كانت شمس يوليو رحيمة رائقة وحنونة، وتبدو كما لو أنها قريبة من الأرض. كان ذلك الشهر هو وقت الانعتاق من المعطف الثقيل والخروج إلى التنزه. كانت الشوارع والأزقة تغلي بالجمال، والحسناوات كأنهن نُجيمات تهبط من السماء وأخرى تصعد. لستُ تعيسًا حتى أبقى في مثل هذه الأجواء بغرفة مغلقة وأشتمُّ رائحة الطعام المُتعفِّن التي تأتي تارة من الثلاجة ومن المطبخ المشترك تارةً أخرى. اشتقت إلى حكاياته، فاتصلت به. كان قابعًا في كهف الذكريات، مستلقيًا في سريره القديم يُفكِّر في خوض مغامراتٍ جديدة. ذكرت له رغبتي، ففرح وطلب مني أن نلتقي بعد نصف ساعة من الزمن عند مدخل السكن الجامعي. كان في أبهى صوره، إذ يغطي البريق وجهه وكأنه آتٍ من ذكرى الحبيبة ومن شغف انتظارها. سألني: إلى أين سنذهب؟ فأجبت بأن القلب هو دليلنا اليوم. ومثلما نتركه يختار من نحب، فإننا سنتركه يختار الاتجاهات. انطلقنا نمتطي أرجلنا، نتلفَّت يمنة ويسرةً كأننا نريد أن نقطف فاكهة الجمال من كل الأرصفة. قال صديقي: أتذكر حكاياتي مع الحبيبة وقولها بأن لا مستقبل لعلاقتنا، وبعدها خرجت غضبانًا أسفًا؟ فقلت له: أجل. فقال: مرَّت أيام وليالي ثم شهور وأنا لا أحدثُها حتى أتى شهر يونيو، فوجدتُ تذكرة سفر

(1) ألكساندر بوشكين يعد الأب الروحي للشعر الروسي، سنوات حياته 1799-1837م

عنـد مدخـل غرفتـي عندمـا كنـت عائـدًا مـن الجامعـة، فرفعتهـا وقـرأت «تذكـرة سـفر: ضفـة الـرذاذ – ضفـة الفـن، التاريـخ 20 يونيـو 20..» وعـلى جانبهـا الآخـر: «سـنلتقي عنـد محطـة القطـار. أحبـك». لم أكـن أصـدق ولا أتوقـع تلـك المفاجـأة. كانـت حبيبتـي مـن أهدتنـي ذلـك الجـمال.. جمعـت أمتعتـي وانتظـرت حتـى أتى التاريـخ المحـدَّد. فخرجـت متجهًـا إلى محطـة القطـار. ولأن ضفـة الـرذاذ مـن أكـثر المـدن تطـورًا في مجـال المواصـلات العامـة، كانـت تتوفَّـر فيهـا كل أنـواع وسـائل النقـل والمواصـلات، ابتـداءً مـن التاكـسي، الحافـلات الكبـيرة والصغـيرة، المـترو. كان السـواد الأعظـم مـن سـكان المدينـة يسـتخدم المـترو في التنقـل بمـا في ذلـك شـخصي. في الأيـام الخاليـة مـن الدهشـة والمفاجـآت، كنـت أشـعر وكأن قطـارات المـترو تمـضي بسرعـة الضـوء، ولكـن في ذلـك اليـوم وأنـا أمتطـي صهوتهـا بغـرض الوصـول إلى حبيبتــي، كان القطــار وكأنــه يمــضي بسرعــة الحــمار أو أسرع قليــلًا.. كانـت الرحلـة إلى محطـة القطـار تسـتغرق خمسًـا وثلاثـين دقيقـة. وبعـد مـرور عـشر دقائـق وأنـا داخـل عربـة القطـار، كنـت أشـعر وكأني أجلـس هنـا سـاعة بأكملهـا. ولكـن لم يكـن هنـاك عطـب أو خلـل في القطـار. كان العطـب في قلبـي. وصلـت إلى المحطـة ولكـن حبيبتـي لم تكـن هنـاك.. فأصابنــي الفضــول.. ظللــت أنتظرهــا عنــد مخــرج المــترو حتــى أشــارت السـاعة إلى 1:40 صبـاح. وكانـت رحلتنـا عنـد الثانيـة صباحًـا. فبـدأ القلـق يمـور بجمجمتـي. بعـد قليـل أطلـت حبيبتـي والابتسـامة تمـلأ وجههـا. تعانقنـا ثـم ركضنـا إلى داخـل المحطـة. كان القطـار قـد بـدأ يتحـرَّك، جميـع المسـافرون كانـوا داخـل القطـار مـا عـدا حبيبتـي وأنـا. عندمـا رأتنـا موظفـة القطـار، طلبـت أن تنظـر إلى تذاكـر السـفر التـي بحوزتنـا. مـا زلنـا خـارج القطـار، وهـو يتحـرك بشـكل أسرع ومقاعدنـا تشـتاق إلينـا. أخـيرًا سـمحت لنـا الموظفـة بالدخـول، فركبنـا واعتذرنـا لمقاعدنـا عـلى التأخـير ثـم انطلقنـا إلى المدينـة العائمـة - ضفـة الفـن.

كان السـفر عـبر القطـارات يُعـدُّ مـن أمتـع الأمـور وأجملهـا، خاصـةً في ضفـة الجليـد. فهـي تشـبه سـفينة نـوح، كبـيرة، مزركشـة، ألوانهـا زرقـاء كالسـماء وأخـرى مطليـة بلـون الفراولـة، تحمـل مـن كل زوجـين اثنـين، تلـف بقـاع الضفـة مـن أقـصى الشـمال إلى الجنـوب ومـن الغـرب إلى الـشرق. كان المسـافرون يجمعهـم قطـار واحـد، لكـن تفرقهـم العربـات والأسرَّة والغـرف المغلقـة داخلـه. وفي أثنـاء الرحلـة كانـوا يقدمـون الشـاي والقهـوة إذا طلـب أحدهـم، أمـا التدخـين والكحـول فلـم يكـن مسـموحًا بهـما. بإمكانـك أن تنـام طـول الرحلـة إذا كنـت مـن عشـاق النـوم والخمول، أو إذا كنـت مجهـدًا بسـبب العمـل في أيـام مـا قبـل السـفر. أمـا مـن يسـافر أول مـرة فإنـه لا يقـوى عـلى النـوم، لأن جـمال الطريـق يسـتفزهم: الغابـات الشـاهقة، أشـجار الصفصـاف الطويلـة والصنوبـر التـي تُزيِّـن الأرصفـة.

اسـتأنف المغامـر حديثـه قائـلًا: بينـما كنـت أشـاهد عـبر النافـذة هـذا الجـمال، أخـرج الرجـل الـذي كان يجاورنـا قنينـة كحـول من حقيبتـه، التفت إلى الخلـف ليتأكـد أكانـت المُضيفـة قـد رأتـه أم لا. ثـم أخـرج ثـلاث كـؤوس، صـبَّ فيهـا النبيـذ ثـم اقـترح علينـا أن نـشرب. رفضـتُ العـرض قائـلًا إننـا لا نعرفـك كـما أن تعاطـي الكحـول داخـل القطـار ممنـوع، فـرد: اسـمي إيفـان محمـد صالـح، فلنـشرب نخـب التعـارف. نظـرت إلى حبيبتـي، فهـزت رأسـها في إشـارة لتقبـل الدعـوة. شربنـا النخـب وفـرح إيفـان وقـد أَمِـن جانبنـا، ثـم سـألني: هـل أنـت مـن الضفـة الشـموس؟ فقلـت لـه هـي ضفـاف وليسـت ضفـة واحـدة، أنـا مـن ضفـة الفيـلان. فعلَّـق قائـلًا: بالنسـبة إليَّ هـي ضفـة واحـدة، لأن ملامـح الشـعوب هنـاك متشـابهة، بالإضافـة إلى الثقافـة وحـب الرقـص والمؤخـرات الكبـيرة، فضحكنـا. كان الرجـل في السـبعينيات مـن العمـر. نشـأ إبـان ازدهـار ضفـاف الجليـد. لم يسـافر إلى ضفـاف أخـرى سـوى مـرة واحـدة عندمـا كان يعمـل في الخدمـة العسـكرية بضفـة رومانـدا التـي كانـت تقـع بضفـاف الشـموس. كان الوقـت يقـترب مـن الرابعـة

صباحًـا، اسـتأذنتْ فيكتوريـا وخلـدتْ إلى النـوم. أمـا أنـا وإيفـان محمـد صالـح كنـا نتحـدى النـوم، كل منـا يرغـب في اكتشـاف الآخـر. بـدأ الحديـث يحلـو بيننـا. سـألني أكنـت أدخـن، فـرددت بالإيجـاب. حينهـا قـال: إذًا هيـا إلى التدخـين. فقلـت: لكـن التدخـين ممنـوع هنـا.. نهـض وطلـب منـي أن أتبعـه. فتبعتـه حتـى نهايـة العربـة، تحـدث السـيد إيفـان إلى امـرأة كانـت تجلـس في المقعـد في نهايـة العربـة.. كانـت ملامـح الشـيخوخة بـدت تظهـر في شـعرها الأشـيب، لكـن وجههـا كان مـا يـزال ينبـض بالحيـاة والشـباب، عيناهـا بنيتـان كبيرتـان، عنقهـا متوسـط الطـول، كان شـعرها يغطـي أذنهـا اليـسرى لذلـك لم أرى حجمهـا، أمـا اليمنـى فكانـت كبـيرة، كانـت ترتـدي بلـوزة رماديـة وقميصًـا أبيـض وربطـة عنـق رفيعـة ذهبيـة اللـون، ربمـا العمـر ألقـى بظلالـه عـلى نهديهـا، لذلـك لم يكـن الصـدر شـاهقًا. لم أسـمع مـا جـرى بينهـما، لكـن عبرنـا بـاب العربـة ووجـدت نفـسي في بهـو صغـير خـاص بالموظفـين بـين عربـات القطـار وبـه نافـذة تطـل عـلى المطلق. أشـعل إيفـان سـيجارته ثـم طلـب منـي أن أفعـل. كنـت قلقًـا بعـض الـشيء. لكـن أشـعلت أنـا الآخـر سـيجارتي، بدأنـا نُدخـن ويحدثنـي عـن مغامراتـه في ضفة رومانـدا، وكنـت أنظـر إلى المشـاهد الخلابـة.. بـلاد الليـالي البيضـاء. عدنـا مـن التدخـين ولم يحـدث لنـا أي مكـروه، ولم نتلـقَّ عقابًـا كـما ظننـت. عـبَّرت لـه عـن شـكري وأخبرتـه بأننـي سـأنام قليـلًا لأن يـوم غـدًا لـديَّ صـولات وجـولات، فقـال: دعنـا نـشرب كأسًـا واحـدًا نسـميه نخـب «ضفـة الجليـد والشـمس». فـما كان بمقـدوري أن أرفـض، أمـا حبيبتـي فكانـت نائمـة تحلـق في سـماوات الأحـلام. عندمـا شربنـا النخـب أراد السـيد إيفـان محمـد صالـح أن ينـام فقدمـت لـه عرضًـا بنخـب آخـر، فسـألني: نخـب مـن؟ فقلـت: نخـب الطريـق والمؤخـرات الكبـيرة.. كبـح صوتـه واضعًـا يـده في فمـه وقـال: الوقـت ليـس مناسـبًا لمثـل هـذه العبـارات المضحكـة، لأن النـاس نيـام ولا أسـتطيع أن أضحـك بصـوت عـالٍ، كـما يقتلنـي إحسـاس

القمع وعدم قدرتي على الضحك. اعتذرت إليه. كان لإيفان قدرة عالية على التحكُّم والسيطرة على العواطف. يتحدث إليَّ وكأنه بلا إحساس. ولكن عندما يبتسم أو أنظر إلى عينيه أجده أكثر حيوية مني. عند العاشرة صباحًا بلغنا مقصدنا. أما حبيبتي استيقظت عند التاسعة، واستطاعت أن تشاهد بعض المناظر الخلابة.. «محطة السكة الحديد ضفة الرذاذ» هكذا كانت تسمى، بدأنا نخرج من العربة واحدًا تلو الآخر - شعب تلك الضفاف من أكثر الشعوب احترامًا للصفوف – رأتني موظفة القطار وابتسمت، حينها تذكرت سيجارتي.

كان صديق المغامرات يحدثني عن هذه الرحلة ونسي أننا نخرج في رحلة صيد بأزقة وحدائق العاصمة، وأنا أسمع حكاياته وأتأمل جمال المدينة وحسناواتها. عندما بلغنا مركز المدينة، طلبت منه أن يتوقَّف قليلًا عن سرد حكايته – وعدته بأنني سأسمعها حتى النهاية – ومررنا على مقهى قريب من محطة المترو يسمى «شاشينا»، عند المدخل استقبلتنا فتاة جميلة وقادتنا إلى مقعدين كانا في ركن المقهى ويطلان على نافذه الحياة. جلسنا وطلبنا كوب قهوة بالحليب وكوب شاي، ابتسمت النادلة ثم غادرت. حينها سألت صديقي مذكرًا: أنتما الآن بمحطة القطارات بضفة الفن، ماذا حدث بعد ذلك؟ قال: ابتسمت موظفة القطار في وجهي، حينها تذكرت كيف دخنَّا أنا والسيد إيفان بعد أن سمحت لنا هي. خرجنا من المحطة وتمنى لنا إقامة طيبة، تبادلنا أرقام الهواتف ثم افترقنا. توجهنا وحبيبتي إلى الفندق. بينما كنا في الطريق إلى هناك، كنت أنظر في كل الاتجاهات، إلى المباني، المقاهي، العابرين ولم يوقف فضولي سوى صوت سائق التاكسي، عندما سأل: هل هذه الزيارة هي الأولى؟ فقلت، هي الأولى، لكن تعرَّفت هذه المدينة قبل سنوات عبر مؤلفات الشعراء والأدباء، فقال إذا كان الحديث عن روايات دوستويفسكي وقصائد ألكساندر بلوك، فإن تلك

المدينـة صـارت مـن أطـلال المـاضي الغابـر والآن حلَّـت في حُلـة عصريـة جديـدة. أدهشـنا سـائق التاكسي بالمعرفـة والثقافـة التـي كان يتمتـع بهـما، رغـم أننـي اتفقـت مـع جـزء كبـير مـما قالـه، فإنـه نـسي أن المدينـة لم تظهـر فجـأة وإنمـا لديهـا تاريـخ لا يمكـن أن يختفـي أثـره بضربـة لازب وإن لبسـت ثوبًـا عصريًّـا جديـدًا. لم ترغـب حبيبتـي في تطويـر هـذا الاتجـاه مـن الـكلام مـع السـائق، لذلـك طرحـت عليـه سـؤالًا: لـو سـمحت، قـل لي، هـل تشـهد المدينـة حركـة سـياحة كبـيرة؟ أقصـد هـل يـأتي سـيَّاح مـن دول أخـرى في أفـواجٍ كبـيرة؟ فقـال السـائق إن المدينـة تُعتـبر الوجهـة الأولى للسـياح خاصـة في فصـل الصيـف. حينهـا أضافـت فيكتوريـا سـؤالًا آخـر: هـل الأكل طيـب المـذاق ولذيـذ هنـا؟ فالتفـت السـائق إلى حبيبتـي وابتسـم، ثـم قـال: بالتأكيـد. ضحكنـا جميعًـا، فانـصرف السـائق إلى قيـادة السـيارة بعـد أن ظهـر اللـون الأخـضر في إشـارة المـرور. بلغنـا الفنـدق، دفعـت للسـائق تكلفـة الأجـرة، تمنـى لنـا إقامـة طيبـة، ثـم أضـاف: وبالتأكيـد شـهية طيبـة. ثـم نظـر إلى حبيبتـي. عندمـا غـادر السـائق، تدفـق صـوت حبيبتـي مـن شـدة الضحـك. سـألتني: هـل يظـن أننـا أتينـا هنـا لمـلء البطـون؟ فقلـت لهـا، هـذا جـزء مـن خططنـا. ثـم ضحكنـا وصعدنـا إلى الفنـدق. كان صديقـي يحـكي والشـعور بالفخـر والسـعادة يمـلآن وجهـه، أمـا كأس قهـوتي فـكادت تفـرغ، فقلـت لـه مقاطعًـا: نحـن الآن بالمقهـى، هـل تريـد طلبـات إضافيـة قبـل أن ندفـع الحسـاب؟ فقـال إنـه يـشرب كـؤوس الذكريـات ولا يريـد سـوى آذان صاغيـة، حينهـاناديـت النادلـة وأردت أن أدفـع التكاليـف، لكـن صديقـي أمسـك بيـدي وأخـرج محفظتـه ودفـع حسـابنا. اتجهنـا إلى «حديقـة مكسـيم نـور» التـي تسـتلقي عـلى نهـر ضفـة الـرذاذ عـلى بعـد خمسـمائة مـتر مـن المقهـى. فقلـت لـه: كلي آذانٌ صاغيـة، حينهـا اسـتأنف صديـق المغامـرات الرومانسـية حديثـه: كانـت موظفـة الاسـتقبال بالفنـدق في انتظارنـا. أنهينـا إجـراءات التسـجيل، أخذنـا المفاتيـح ثم ذهبنـا إلى غرفتنا.

كان النُزل يقع على شارع «علي دينار» بالقرب من متحف الأرميتاج. الوجه خارجي للفندق كان مطليًّا باللون اللبني، وهو جزء من مبنى عتيق، من تلك التحف المعمارية التي شُيِّدت في حقبة الإمبراطور العظيم. أما غرفتنا فكان بابها من الخشب البني، مطلية من الداخل باللون الوردي، تتوسَّطها أريكة كبير وفخم، وفي الركن كرسي ومنضدة صُنِعَا في القرون الغابرة أو هكذا بدا لي. اتجهت إلى الدولاب لأرتب أمتعتي، أما حبيبتي فرمت نفسها في السرير الفخيم دون أن تنزع حذاءها، ولم تكترث لحقيبتها التي لم تجد مكانها في الغرفة بعد، حينها رميت أمتعتي على الأرض وانضممت إليها، عانقتها بشدة، وسألتها: في آخر لقاء لنا قلت إن لا مستقبل لعلاقتنا.. وضعت حبيبتي يدها على فمي ولم تسمح لي أن أُكمل، نظرت إليَّ ثواني ثم قبَّلتني وعادت تنظر إليَّ، ثم أهدتني قبلةً ثانية، عندها شعرت برعشة في جسدي، غرقنا في نهر من القبلات، ولم ننتبه إلى أن الباب كان مشرعًا على مصراعيه.

كنا بالقرب من حديقة «مكسيم نور»، طلبت من صديقي أن يكلمني عن رحلته بعد حين. إن كانت ضفاف الجليد كلها حديقة كبيرة وجميلة، فإن «مكسيم نور» كانت الأجمل والأكثر أناقة عن غيرها من الحدائق العامة. تتوشَّح الحديقة بالنهر. عندما تأتي فتاة من ضفاف الشموس حاملة معها شعاعًا، تستحيل الحديقة إلى الوجهة الأولى للتنزه لسكان المدينة وزوَّارها. كانت تنبت فيها أنواع مختلفة من الورود، ولكن الزينة الرئيسية والأكثر ازدهارًا لم تكن حسناواتها، بل النصب التذكاري للأديب التي تحمل الحديقة اسمه. توجد بها نافورة راقصة ضخمة مبرمجة على الموسيقى الكلاسيكية. على أطرافها تستلقي مقاهي ومطاعم، وإن كنت صيادًا حاذقًا فيمكن أن تدعو الفتاة التي ستقابلها إلى أحد المقاهي وفي الليل تصعد بها إلى النجوم. كان النصب التذكاري يقف شاهقًا بالقرب من المدخل. تتوفر مقاعد في كل أزقتها

لكنهـا مشـغولة دائمًـا بالعشـاق. تـأتي الفـرق الموسـيقية لتقيـم حفـلات خيريـة. إذا كنـت مـن شـغوفي الإيقـاع اليومـي الراقـص للحيـاة، فعليـك أن تعيـش هنـاك حيـث توجـد شـعوب ضفـاف السـامبا. يُعـدُّ شـاطئ النيـل بالقـرب مـن الجـسر أجمـل مـكان، يسـتغله شـباب مـن ضفـاف الرقـص ينظمـون فيـه عـروض رقـص مفتـوح لجميـع الهـواة، كرقصـات «السالسـا» و«الباجاتـا» وغيرهـا مـن الرقصـات عـلى إيقـاع الموسـيقى اللاتينيـة.. تبـدأ العـروض، فيضـج المـكان كلـه بالهـواة، وبالحسـناوات الجميـلات ومحبـي الرقـص، السـياح الذيـن زاروا ضفـاف السـامبا، إذ يتماهـى الرقـص مـع مـوج النهـر وبريـق عيـون الحسـناوات مـع ضيـاء شـمس الأصيـل ذات الشـفافية الغاربـة. قلـت لصديقـي ونحـن عنـد المدخـل: مـا هـي وجهتنـا الأولى، النافـورة أم الشـاطئ؟ فاختـار النافـورة، وذكـرَّني بأنـه لم ينـهِ الحديـث عـن رحلتـه إلى المدينـة العائمـة. واصـل صديقـي الـكلام: عندمـا غرقنـا في نهـر القبـلات ونسـينا إغـلاق البـاب، مـرت علينـا موظفـة الفنـدق لتعطينـا إيصـال الدفـع، فوجدتنـا غارقـين في العنـاق والقبـل. أوصـدت البـاب بهـدوء وعـادت مـن حيـث أتـت. إذا دخـل المـرء النهـر فـلا منـاص مـن أن يبتـلَّ بالمـاء مـن أعـلى الـرأس حتـى أخمـص القدمـين. بعـد أن أخـذ الجسـد نصيبـه، ورتبنـا بيـت الـروح، رتبـت حبيبتـي أمتعتنـا. غيَّرنـا ملبسـنا ووضعنـا خطتنـا بخصـوص المسـاء. كانـت حبيبتـي قـد حـدَّدت المعـالم الرئيسـية التي يجـب أن نزورهـا خـلال هـذه الأيـام الثلاثـة. كانـت السـاعة تقـترب مـن السادسـة مسـاءً عندمـا خرجنـا نتجـول بشـارع «عـلي دينـار»، وهـو أحـد أهـم وأكـبر شـوارع المدينـة التـي تحتضـن أغلـب المعـالم السـياحية عـلى جانبـي أرصفتهـا، عـلى الرغـم مـن اكتظـاظ الشـارع بالسيَّاح، فإنـك تشـعر وكأن لا أحـد هنـاك سـوى حبيبتـك، حيـث يكـون إيقـاع الحيـاة هادئـًا وخفيفـًا وموزونـًا، والمبـاني مرصوصـة بهيئـة وألـوان متناسـقة، والبحـيرات الصغـيرة متراميـة عـلى كل الاتجاهـات وكذلـك النصـب التذكاريـة. كنـت

أقـول في نفـسي: هـل هـذا حقيقـة أم حلـم، أنـا الآن أمـشي بـذات الشـارع الـذي مـشى عليـه ألكسـاندر بوشـكين الأب الروحـي للشـعر، ورمـوز الحقبـة الفضيـة، وآنـا أخماتوفـا؟ أمـا حبيبتـي فكانـت مهتمـة بالتقـاط بعـض الصور التذكاريـة، والنظـر إلى بعـض مـاركات الموضـة والمكيـاج. كُنـا نحتـاج إلى يـوم كامـل حتـى نسـتطيع عبـور الشـارع مـن بدايتـه حتـى النهايـة، ولكـن الأهـم مـن ذلـك لم أكـن أعـرف البدايـة الفعليـة لظهـور هـذا الشـارع، كأنـه يحمـل ملامـح الأبديـة. بينـما كنـا نتمـشَّى، رأت حبيبتـي مطعـمًا كان يسـمى «لينـين العظيـم»، فقالـت: يـدل هـذا الاسـم عـلى عراقـة المطعـم، مـا رأيـك أن نتنـاول وجبـة العشـاء هنـا؟ عندمـا اقتربنـا مـن البـاب، اُسـتقبِلنا بحفاوة. عندمـا جلسـت، شـعرت برائحـة العـمال الكادحـين وتذكـرت لقـاءات لينـين ومكسـيم نـور، وكأننـي عـدت إلى بدايـة القـرن العشريـن.

جـاءت إلينـا نادلـة جميلـة ترتـدي الـزِّي القديـم وكأنهـا لوحـة. طلبـت حسـاء «بـورش» وشرائـح لحـم، أمـا فيكتوريـا اختـارت حسـاء دجـاج وشرائـح لحـم وسـلطة «آليفيهـه». قالـت النادلـة: مـا هـو نـوع الـشراب المفضـل لديكـما؟ فقلـت، كأس بـيرة، وطلبـت حبيبتـي كأس نبيـذ أحمـر. كان يتناهـى إلى مسـامعنا مـن البعيـد موسـيقى قديمـة تُسـمَّى «مـاروز»، وكان يجلـس في الطاولـة التـي تلينـا رجـل كبـير يُكلِّـل الـثراء ملامحـه وبمعيته بنـت في الثلاثينيـات مـن العمـر لم أسـتطع أن أُميِّـز إن كانـت معشـوقته أم ابنتـه. لم يقطـع فضـولي وطلعـاتي الاسـتطلاعية تلـك، سـوى صـوت فيكتوريـا عندمـا قالـت: برنامـج اليـوم هـو أن نتنـاول وجبـة العشـاء، ثـم نتجـوَّل قليلًا بعـد ذلـك سـنعود إلى الفنـدق، لأن يـوم غـد سـتكون لدينـا رحـلات كثـيرة. فقلـت: سـمعًا وطاعـة. كنـت ومـا زلـت أثـق بذوقهـا وخياراتهـا، فهـي تقـرأ عـن المعـالم السـياحية قبـل زيارتهـا، دقيقـة جـدًّا في مثـل هـذه المسـائل. بدأنـا نـأكل بعـد أن قلـت «بسـم اللـه»، علَّقـت حبيبتـي عـلى هـذه العبارة، فشرحـت لهـا بـأن هـذا يـوازي الصـلاة قبـل الأكل في التقاليـد المسـيحية.

حينها طلبت أن أكرر ما قلت، ففعلت وهي تُردِّد من خلفي، مع ذلك لم تسألني عن المعنى. سألتها عن برنامج الغد، فقالت: سنزور متحف «الأرميتاج» و«كاتدرائية جميلة»، بعد ذلك سنذهب إلى شاطئ نهر النيفا، وسنختم يومنا بزيارة «الفارس الفضي» نصب تذكاري للإمبراطور بطرس الأول وهو يمتطي صهوة حصانه. تشوَّقت جدًّا لرؤية هذه المعالم وأردت أن يحل علينا الغد في الحال، لكن الساعة كانت تشير إلى الثامنة مساءً. دفعنا الحساب ثم هممنا بالخروج، حينها سألتني الحبيبة إن كُنت أعطيت النادلة إكرامية «بقشيش»، فقلت تركت لها ثلاثمائة روبل، فابتسمت حبيبتي في إشارة على الرضا، ثم خرجنا. اقترحت أن نطلب سيارة أجرة لتقلَّنا إلى الفندق، فرفضت فيكتوريا قائلة: أريد أن أحس بالمدينة في خطوات رجلي، وعليك أن تنسى وسائل النقل. في الطريق، كنا نتحدث عن الفرق بين ضفة الرذاذ وضفة الفن، قالت حبيبتي إن هنا أجمل، أما أنا فقلت لا أستطيع أن أحكم الآن، سأقول رأيي عندما نكون في القطار المتجه إلى ضفة الرذاذ. ثم أضافت: السكان هنا أكثر طيبةً ورقيًّا، يقدمون النصائح ويدلونك على الطريق إذا ما ضللت عنه. فاتفقت معها على هذه النقطة. عند وصولنا لم نكن ندري أين نتجه لنأخذ كوب قهوة، فاقترب منا شاب كان يرى الحقائب الثقيلة، فسألنا إن كنا نريد المساعدة، أجابت حبيبتي بأننا نبحث عن أقرب مقهى للمشروبات السريعة، فحمل الشاب حقيبة حبيبتي الثقيلة وطلب أن نتبعه، كنا خلفه حتى وجدنا مطلبنا. قلت لحبيبتي بأن الانطباع الأول عن هذه المدينة يبدو ممتازًا لكن بعد ثلاثة أيام سيكون الانطباع الأخير والحقيقي، فقالت: الانطباع الأول هو الأهم. لم أستطع أن أخالفها الرأي في هذه المرة أيضًا لأنها كانت مُحقَّة. قرَّرت أن أغيِّر موضوع النقاش لذلك قلت: ماذا سنفعل بعد أن نصل الغرفة، ثم دقَّقت قصدي أكثر: بعد العودة إلى الفندق، كيف تفضلين

قضـاء الوقـت؟ فأجابـت: أقـترح عليـك أن نأخـذ بوبكـورن وشرابًـا غازيًّـا أو كحـولًا ونطلـق للعنـان حفـل سـينما منزليـة، إن كنـتَ لا تمانـع بالطبـع. إن السـينما المنزليـة تخلـق حـالات جماليـة تتحـول في وجـود الحبيبـة إلى أثـير شـفاف، بحيـث تشـعر كـما لـو أنـك تُحلِّـق إلى الأعـالي، لتجـد مـا وراء هـذا التحليـق موتـك الأخـضر وهـو ينتظـرك في حضـن الحبيبـة. وهـذا مـا جعلنـي أقـول لهـا ذلـك. فأنـا أيضًـا كُنـتُ أُفكِّـر في هـذا الـشيء! مـا هـذا التناغـم الروحـي! في حقيقـة الأمـر لم أكـن صادقًـا في قـولي هـذا، لكننـي شـعرت بـأني لم أرتكـب خطيئـة حيـال هـذه الكذبـة البيضـاء. تسـارعت خطانـا إلى الهوتيـل، في حـين أن المدينـة العائمـة تكشـفُ رويـدًا رويـدًا عـن مواطـن جمالهـا، فبحيراتهـا المتراميـة أصبحـت مضيئـة والحسـناوات امتـلأت بهـن الشـارع، وصـوت الموسـيقى يـأتي مـن هنـا ومـن هنـاك. وصائـدو الجـمال كانـوا حاضريـن أيضًـا في مثـل هـذه الأجـواء الرائعـة. وكانـت ابتسـامة حبيبتـي أجمـل مـن كل هـذا. وصلنـا إلى الغرفـة، اختـارت فيكتوريـا فيلـمًا يسـمى «منتصـف الليـل في ضفـة الفـن». اسـتلقينا عـلى السريـر، بـدأ الفيلـم وقـد اكتـسى المـكان بحُلـة الحـب الزاهيـة. ولا أعـرف مـا حـدث بعـد ذلـك، لأن الليـل كان دليلنـا ومرشـدنا وليـس أحـدًا آخـر.

كنـا نجلـس قبالـة النافـورة الراقصـة بحديقـة «مكسـيم نـور» عندمـا حدَّثنـي صديقـي عـن ليلتـه الأولى بضفـة الفـن. اقتربـت السـاعة مـن العـاشرة مسـاءً، وبـدأ النـاس يعـودون إلى بيوتهـم رويـدًا رويـدًا. شـعرت بـألم في مؤخـرتي مـن طـول الجلـوس، فطلبـت منـه أن ينهـض ونخـوض جولـة أخـيرة حـول الحديقـة قبـل أن نعـود إلى المدينـة الجامعيـة. وافقنـي الـرأي، وقـال: دعنـا نذهـب إلى شـاطئ النهـر لـنرى مشـهدًا راقصًـا آخـر. بـدأت خطواتنـا الأولى صـوب الشـاطئ، وكان العُشَّـاق يتبادلـون القُبـلات في أزقـة وأركان الحديقـة، وهنـاك مـن يعـترف بالحـب أول مـرة، وثالـث أخـذ الضـوء الأخـضر مـن فتـاة بالذهـاب معًـا إلى شـقته للبقـاء معًـا حتـى

الساعات الأولى من الصباح أو كتابة رواية عن الحب تُورَّث للأجيال القادمة. هكذا هي الحياة العصرية، كل شيء فيها متاح وسهل وفي الوقت نفسه مُعقَّد وأشبه بالمستحيل. بينما كنا ذاهبين إلى الشاطئ، عبرنا بحيرة صغيرة تسبح فيها البجع وطيور الوز، فقرَّرنا أن نجلس ونصغي السمع للحكايات، ونكون شركاء في حفل الطيور المسائي هذا. من الظواهر التي كانت تدعو إلى الدهشة هو أنه في هذه المدينة العريقة وبنمط حياة ضارب في العصرية، حيث تجد الطيور بمختلف أنواعها تعيش حياتها وتقوم بنشاطها بصورة طبيعية، وكأن المدينة خالية من السكان، لا أحد يشوش على طيور المدينة أو يصطادها. لذلك تجدها سعيدة وجميلة، تقيم حفلاتها في البحيرات المترامية في الحدائق العامة، تُربي صغارها وتعيش من الخبز والمواد الغذائية الأخرى التي يتساقط فتاتها من أيدي أهل المدينة المعطائين. إذا كان مستوى وعي الناس يقاس بالبيئة التي تعيش فيها الطيور، فإن أهل ضفة الرذاذ هم أكثر الشعوب وعيًا على مستوى العالم. جلسنا أنا وصديقي المغامر في أول مقعد على البحيرة، حينها نفش طائر البجع جناحيه مرحبًا بنا وفرحًا بزيادة عدد الحضور للحفل. كانت الطيور تتحرك جيئةً وذهابًا في رحاب البحيرة، ترفعُ من تغريداتها وتخفضها في تناغمٍ ساحر، وتتبادل القبلات، ويتمرغ طائر صغير في عنق أمه. أما رقصات الطيور بدت لنا أكثر جمالًا من رقصات «السالسا» و«الباشاتا». إن جمال المشهد جعلنا نلغي نزهتنا على الشاطئ. فقلت لصديقي: دعنا نكون أوفياء للبجع مثلما هي وفية لهذا المساء. لم يعترض على هذا العرض. ثم سألني: هل تريد أن تسمع ما تبقى من حكايات عن رحلة المدينة العائمة؟ فأجبت لكن هذه المرة بسؤال آخر: هل تتفق مع هذه التسمية «المدينة العائمة»؟ فقال: أحب أن أسميها «المدينة الشبقة». ثم واصل صديقي الكلام: عندما استيقظت في ذلك الصباح بعد ليلة السينما

المنزليـة، وجـدت ثيـابي الداخليـة والخارجيـة عـلى الأرض وأنـا عريـان، ولكـن أعضـائي الأكـثر حساسـية كانـت مغطـاة بوشـاح خفيـف، أمـا حبيبتـي لم تكـن بالغرفـة، فظننـت أنهـا ذهبـت إلى الحـمام. ظللـت في السريـر وبـدأت أتذكـر مـا حـدث في الليـل، عندهـا عـادت حبيبتـي وهـي تحمـل معهـا كوبـين قهـوة ومـاء. نظـرت إليَّ وبـدأت تضحـك بصـوت عـالٍ. ثـم أضافـت: لم يكـن الليـل مرشـدًا جيـدًا عـلى مـا يبـدو. ضحكنـا عـلى أنفسـنا، ثـم ركضـت إلى الحـمام وحبيبتـي تقـول لا تتأخـر وإلا سـتشرب قهـوة بـاردة. أخـذت حمامًـا بالمـاء البـارد، حتـى أرجـع إلى صـوابي وأسـتعيد حيويَّتـي ونشـاطي. عـدت إلى غرفتـي. كانـت فيكتوريـا تجلـس عـلى الكـرسي وتتأمـل عـبر الشـباك في بنايـات المدينـة والعـرش الفريـد للمبنـى المجـاور. جلسـت بالقـرب منهـا. بـدأت أشرب قهـوتي، حينهـا قالـت: علينـا أن نخـرج مـن هنـا بعـد عشريـن دقيقـة. سـنتناول أولًا وجبـة الفطـور في المطعـم المجـاور، ثـم نذهـب إلى متحـف الإرميتـاج. سـنبقى سـاعة واحـدة بالمطعـم. ثـم نذهـب إلى المتحـف، سـتكون هنـاك رحلـة تعريفيـة سـتبدأ عنـد العـاشرة برفقـة مرشـد سـياحي وستسـتغرق سـاعتين. ومـاذا بعـد؟ سـألت، قالـت حبيبتـي: بعـد ذلـك سأشـتهيك وسـنعود إلى الغرفـة.. هههههـه.

لا يتوقـف صديقـي عـن سرد قصصـه المثـيرة والمملـة أحيانًـا، وأنـا أصغـي لـه تـارةً وأوجـه انتباهـي إلى رقصـات البجـع تـارةً أخـرى. كان الطقـس أصبـح بـاردًا نوعًـا مـا، والحديقـة تـودع زوارهـا، ويلـحُّ صديقـي عـليَّ أن أسـمعه حتـى النهايـة، وأنـا رافـلٌ في حدائـق لا تُعـدُّ أو تُحـصى مـن الجـمال، لا أعـرف مـاذا أختـار: هـل أبقـى مخلصًـا لحكايـات صديقـي، أم للطيـور؟ ثمـة خيـار ثالـث هـو أن أتـرك صديقـي والطيـور وشـأنهم ثـم أقـوم برحلـة صيـد سريعـة، ربمـا أجـد فتـاة تشـاجرت مـع حبيبهـا وتخطِّـط أن تنتقـم منـه بمواعـدة عابـرة، فأكـون أنـا البطـل الخـرافي الـذي يحقـق لهـا تلـك الحماقـة، أو أن أزور النصـب التـذكاري لمكسـيم نـور وأحـاوره عـن

الميتافيزيقا، لكن حدسي أملى عليَّ أن أبقى مع صديقي بهذا المكان قليلًا ثم نذهب إلى بيوتنا، فأصغيت لحدسي الخفي. شعرت بشيء غريب على رأسي. تحسَّست فوجدت طائرًا ما ترك فضلاته، أدركت أن هذه إشارة بأن حفل الطيور قد انتهى وتريد البجع أن تبقى الـ"over night"[1] وحدها. قمنا أنا وصديقي من المقعد واتجهنا نحو المخرج قاصدين محطة المترو. قال صديق المغامرات الرومانسية: خرجت من الغرفة ومعي حبيبتي، كنا مثل أمير وأميرة، نرتدي ملابس متناسقة الألوان، كان بنطالي رمادي اللون والقميص أبيض ناصعًا تتخلله بعض الزهور السوداء على حافة الأكمام، والأزرار كانت ذهبية، كان الحزام والحذاء بنيَّان اللون أيضًا وشعري مجعَّد، وضعت حبيبتي عليه دهانًا خفيفًا فأصبح مثل غابة إفريقية كثيفة وضوء الشمس من فوقه. أما عن أزياء حبيبتي فلن أقول كلمة واحدة، لأنها من علَّمتني كيف أختار الملابس. إضافةً إلى أن جمال حبيبتي يتجلَّى في أبهى ما يكون عندما تكون خالية من الملابس.

بالرغم من أن حديث صديقي قد يبدو ساخرًا، لكنها الحقيقة كما تبدو في عُريها الكامل، لذلك ضحكت، لكن ليس سخرية، بل على هذا الكشف الفريد. طلبت منه أن يكمل، فاستأنف قائلًا: كان العابرون يهدوننا نظرات احترام وتقدير على ذوقنا الرفيع في الهندام، فكانت قيمتي بذاتي تكبر وتكبر. لم يكن المتحف بعيدًا عن الفندق، لذلك لم نحتج إلى كثير من الوقت حتى نصل. عندما وقفنا أمام باب الأرميتاج كانت الساعة تشير إلى التاسعة والنصف صباحًا. اقترحت على حبيبتي أن نأخذ قهوة من الباعة الموجودين في فناء المتحف، ثم أضافت: ويمكن أن تدخن أيضًا لأن الرحلة ستستغرق مدة طويلة، فشكرتها على التذكير. أخذنا قهوتنا، وأشعلت سيجارتي، وبدأت أتأمَّل وأتساءل

(1) الساعات الأخيرة من الليل. ترجمة عن الإنجليزية

بيني وبين نفسي: أين أنا وماذا يحدث في حقيقة الأمر؟ بعد أن فرغت من التدخين، دخلنا إلى الاستقبال، أخذنا تذاكر الرحلة، ثم نهضنا إلى الطابق الأول حيث ينتظرنا سيَّاح آخرون ومعهم المرشد السياحي. بعد الترحيب بنا، بدأ المرشد يتحدث: في البداية، سعيد جدًّا بوجودكم هنا. سأكون مرشدكم السياحي في الساعتين التاليتين، سنمر على الأجنحة الأساسية للمتحف، وسأكون سعيدًا للإجابة عن جميع أسئلتكم. أتمنى أن تقضوا وقتًا ممتعًا ومفيدًا. عندها، صفق الحضور بما في ذلك أنا. كان عددنا نحو عشرين شخصًا، أتينا من ضفاف مختلفة. لكن لم يكن أحد في المجموعة من ضفاف الشمس سواي. كنا نتجوَّل والمرشد السياحي يحدثنا عن التحف الأثرية واللوحات الفنية الجميلة. لفت انتباهي «إله نوبي» كان موجودًا ضمن التحف الأثرية، فقلت لنفسي: إذًا، لستُ الوحيد من القارة المشمسة هنا وابتسمت! وابتسم المرشد السياحي أيضًا ولكلينا كانت دوافع مختلفة. انتهت الساعتان، عبَّرنا عن شكرنا للمرشد السياحي بتصفيق حار، ثم خرجنا. كان المتحف يقع على ضفاف نهر «النيفا» ومن الجهة الأخرى ساحة «ألكساندر» المطلي باللون الأخضر الغامق والأبيض، وعدد طوابق المبنى عشرة أو يزيد قليلًا. كل التراث الإنساني كان موجودًا بداخل ذلك المتحف.

وصلنا إلى محطة المترو، كان صديقي مضطرًا إلى التوقف عن الكلام لأن ضجيج القطارات لا يسمح بسماع مثل هذه القصص، ابتاع تذكرة واحدة لنفسه أما أنا فكان لديَّ بطاقة مواصلات تعمل بالنظام الشهري، ركبنا القطار وانطلق بنا في رحلة الحياة. لم تسمح لي الظروف بالسفر إلى ضفاف كثيرة حول العالم، مع ذلك أستطيع أن أقول شبكة مترو أنفاق ضفة الرذاذ قد تكون الأجمل والأعرق، عالم كامل تحت الأرض، تحف هندسية فريدة، صالات انتظار أجمل من صالات الانتظار التي بالمطارات العالمية. تتدلَّى منها النجف وكأنها نجوم، وتفوح منها

رائحـة العراقـة. نصـب تذكاريـة لشـعراء وأدبـاء وأبطـال قوميـين، علـماء وروَّاد فضـاء. هنـاك موسـيقى دون موسـيقيين كأنهـا تخـرج مـن أسـفل الأرض، كأنهـا صـوت «أمنـا الطبيعـة». خـط السـكة حديـد نظيـف وكأنـه تجـري عليـه وروداً وليسـت قطـارات. الـركاب يفوقـون شـبكة المـترو جـمالاً، رغـم أن القطـار الواحـد كان يحمـل آلاف النـاس لكنـك بداخلـه تشـعر وكأنـك وحيـد، لا صـوتَ يعلـو سـوى صـوت القطـار. لا أحـد يتحـدث، تجـد مـن يقـرأ كتابـاً، وآخـر يسـتمع للموسـيقى عـبر سـماعات الأذن، وثالـث يعانـق حبيبتـه. حسـناوات تلـك الضفـة لا يجلسـن. المقاعـد مخصصـة للمعاقـين، كبـار السـن، الـركاب الذيـن برفقـة أطفـال والنسـاء الحوامـل. كنـا أنـا وصديقـي نقـف، لا أحـد يتحـدث، كُلٌّ منـا يضـع سـماعات الأذن، نسـمع موسـيقى ونشـاهد بعـض مقطوعـات فيديـو متنوعـة، وذلـك بفضـل توفـر شـبكة لاسـلكية «الـواي فـاي» فائقـة السرعـة. راسـلني صديقـي عـبر تطبيـق واتسـاب، كانـت الرسـالة مفادهـا أنـه يرغـب في إكـمال قصـة ضفـة الفـن اليـوم بـأي ثمـنٍ كان. لأن لا ضمانـات في الحيـاة، قـد نلتقـي غـداً أو بعـد عـام أو قـد لا نلتقـي أبـداً. لا أعـرف حتـى الآن، لمـاذا مشـاركة القصـص معـي كانـت بالنسـبة إليـه كانـت مسـألة حيـاة أو مـوت! أجبـت رسـالته: الآن الوقـت قـد تأخـر، دعنـا نلتقـي غـداً، ويوليـو مـا يـزال يافعـاً. فرصعنـي برسـالة أخـرى يقـول فيهـا: أول مـرة ألـح عليـك في تلبيـة طلـب، فـلا تخذلنـي. كان صديقـي ماكـراً. وأحيانـاً يتظاهـر بأنـه أذكى مـن الـكل. فهـو كان قـد خدعنـي عندمـا كنـت بعيـد ميـلاد زميلتـي. ومـرات أخـرى كثـيرة. كتبـت رسـالة مشـيراً فيهـا عـلى موافقتـي في مواصلـة الحديـث بعـد أن نخـرج مـن القطـار. توقـف القطـار في أحـد المحطـات وخـرج عـدد مـن الـركاب. أصبحـت المقاعـد التـي بجوارنـا خاليـة، فجلسـنا، قـال صديقـي: رجـاءً، بعـد الخـروج مـن القطـار، دعنـا نأخـذ نصيبنـا مـن خـيرات السـماوات والأرض ونذهـب إلى حديقتنـا المفضلـة، نجلـس فيهـا سـاعة

بعدها يمكنني أن أنام وأنا في غاية السعادة. عندما وصلنا إلى محطتنا وكانت تسمى «ملايا»، كانت الساعة تشير إلى الواحدة صباحًا. في هذا الوقت تتوقف شبكة المترو عن استقبال ركاب جدد، فقط توصل القطارات الذين بداخلها. اتجهنا وصديقي صوب الحديقة، سألته عن زادنا (عبوات البيرة + السجائر والفول المحمص) فقال: لم أنسَ، هناك دكان واحد فقط يبيع الكحول في هذا الوقت كما تعلم. وصلنا إلى الدكان، أخذنا زادنا ثم استأنفنا طريقنا إلى الحديقة. عندما جلسنا في مقعدنا المفضل بالحديقة، قدم لي صديقي سيجارة، أشعلتها ثم شربنا نخبًا سماه «نخب اليوم الجميل». كنت أدري أن المغامر الرومانسي ينتظر إشارة مني ليستأنف الحديث عن رحلته إلى المدينة الشبقة. لكنني لم أفعل. فبدأ يكرر بصوت منخفض ضفة الفن، ضفة الفن، ضفة الفن.. سألت ماذا حدث بعد زيارة المتحف؟ أخذ نفسًا عميقًا - وكأن جبلًا قد أزيح من على كتفيه - ثم قال: بعد ذلك تناولنا وجبة الغداء بمطعم إيطالي، ومن ثَمَّ اتجهنا إلى الفندق لنأخذ قسطًا من الراحة. وصلنا إلى الغرفة وما إن مرَّت دقائق قليلة خلدت حبيبتي، التي وعدتني بأنها ستشتهيني، إلى النوم، أما أنا فلم يأتني النوم ولم أرغب في أن أوقظ جميلتي النائمة، رغم الرغبة العنيفة في ممارسة الحب. بدأت أفكِّر في أشياء مُترفة، بما في ذلك زيارة المتحف، وبعد لحظات أخذني النوم إلى حضن حبيبتي. استيقظنا بعد مرور ساعة أو أكثر بقليل، قالت: سنزور «كاتدرائية جميلة». احتسينا القهوة ثم خرجنا صوب الكاتدرائية. كانت ذات حضور مُهيب وكأن الله يتجلَّى فيها ليلًا ونهارًا، والمبنى يوحي بأنه خالد في هذا المكان منذ الأزل. وأن من بناه هي يد الله وليست أيادي بشرية. أما القبة التي كانت تشير إلى السماء، كانت تُمثِّل حلقة الوصل بين السماء والأرض، بين الله والإنسان. كنت أشعر داخل الكاتدرائية بأمان لا مثيل له، والعرش مُزيَّن

باللوحات المُقدَّسة مثل صورة السيد المسيح ومريم المجدلية والملائكة الصغائر من حولهما. ربما كان هذا المشهد هو الذي يُشعرنا بالسكينة والطمأنينة والأمان. بعد ذلك عدنا إلى الغرفة. دائمًا كانت فيكتوريا تستيقظ في الصباح الباكر. وبعد أن تعد القهوة، تهمس في أذني: حبيبي، انهض. هناك معالم أثرية وسياحية تنتظر زيارتنا. ثم تهديني قبلة على خدي الأيمن. استيقظت. تبادلنا الابتسامة. رأيت فنجان القهوة ينتظرني. فركضت إلى الحمام لأؤدي طقوس الصباح مثل تنظيف أسناني، والاستحمام. عدت إلى الغرفة وبدأت تناول القهوة، حينها قالت فتاتي الجميلة: اليوم، خططنا كالآتي: وجبة الفطور ستكون بالغرفة، خدمة التوصيل ستأتي بعد قليل، بعد ذلك سنذهب إلى متحف بوشكين، ثم منزل آنا آخماتوفا[1]، بعد ذلك سنتناول وجبة الغداء بمطعم حديث وسنختم جولتنا في «الحديقة الصيفية». ممتاز، قلت. ثم سألت: وماذا عن برنامج المساء؟ فأجابت: لديَّ رغبة في الرقص. غدًا عند الثامنة مساء سنعود إلى ضفة الرذاذ، لذلك أقترح عليكَ أن نسهر اليوم في نادٍ ليلي. وافقتها الرأي، سألتها: وماذا عن منزل نوباكوف؟ فقالت حبيبتي إنها لم تنس هذه الزيارة، بل سنذهب إلى هذا المتحف غدًا قبل أن نغادر. بدا البرنامج مثاليًّا بالنسبة إليَّ، وضعت كوب القهوة على الطاولة. نهضت ثم عانقتها وقبلتها شكرًا وامتنانًا. بقيت كذلك، حتى سمعنا أحدًا يطرق الباب. فقال حبيبتي، ربما جاء موظف خدمة التوصيل. فذهبت وفتحت الباب. كانت حبيبتي محقة، لأن شابًّا في العشرين ربيعًا كان يقف في الباب. وبعد تبادل التحية، قال: هاكم الفطور وإيصال الدفع. شكرته ثم أغلقت الباب. تناولنا الفطور، ثم اتجهنا إلى منزل بوشكين ونحن في أبهى صورنا. طاقة الحب كانت تجعلنا الأجمل في كل مكان قصدناه. لم يكن متحف بوشكين بعيدًا عن

(1) شاعرة روسية – من أهم شعراء الحقبة الرمزية في الشعر. سنوات حياتها 1889 – 1966م

الفنـدق. وصلنـا مشـيًا عـلى الأقـدام. أول شيء رأيتـه في فنـاء المتحـف هـو نصـب تـذكاري للشـاعر بوشـكين بشـعره المُجعَّـد وكان يرتـدي معطفـه. كان النصـب يقـف قُبالـة البـاب. كأن بوشـكين يسـتقبل زواره. بعـد أن التقطنـا صـورًا تذكاريـة، دلفنـا إلى البيـت تاركـين بوشـكين في الفنـاء ينتظـر الـزوار القادمـين. كان البيـت يتألـف مـن طابقـين، وإذا كان الـدور الأول مكانًـا للعيـش والنـوم، فـإن الطابـق الثـاني كان كلـه مكتبـة كبـيرة، نحـو خمسـة آلاف كتـاب أو يزيـد. حدثتنـا المرشـدة السـياحية عـن بوشـكين وحياتـه وقصـة موتـه في المبـارزة الشـهيرة مـع دانتـس، ثـم خرجنـا. قلـت لحبيبتـي: إذا لم نـزر منـزل بوشـكين، لقلنـا إننـا لم نـزر بطرسـبرج. المشـهد الوحيـد الـذي ظـلَّ عالقًـا بمخيلتـي حتـى الآن هـو هنـدام نتاليـا غونجيروفـا زوجـة الشـاعر. بـدا لي الهنـدام أكـثر جـمالًا وأناقـة مـن ثيـاب العـصر الحديـث. ففهمـت سـبب تضحيـة بوشـكين بروحـه. مـن هنـاك اتجهنـا إلى الشـاعرة المرهفـة آنـا أخماتوفـا. مـن سـوء حظنـا لم تسـتقبلنا بالمدخـل كـما فعـل بوشـكين. لم يكـن هنـاك نصـب تـذكاري، أو ربمـا كان في ركـن بعيـد ولم أره، لكـنَّ إحساسًـا غريبًـا كان يعترينـي عندمـا كنـت بفنـاء البيـت وهـو أشـبه بالحديقـة، فكلـما أرى زهـرة أو وردة كنـت أرى فيهـا صـورة آنـا أخماتوفـا، وفي لحـاء شـجر الصفصـاف كنـت أقـرأ أشـعارها، حتـى كـدت أُردِّد هـذه الأشـعار بصـوت عـالٍ. سـألت حبيبتـي أكانـت تـرى مـا أراه، فقالـت: توقـف عـن المـزاح! آنـا أخماتوفـا هـي مـن تحدثنـا ثـم أشـارت إلى المرشـدة السـياحية، فارتعبـت قليـلًا وقلـت لهـا: توقفـي أنـت عـن المـزاح، حتـى لا أجـن. ظللنـا هنـاك سـاعة مـن الوقـت، تذكـرت مأسـاتها وقسـاوة الحقبـة التـي عاشـت فيهـا الشـاعرة. ولكـن فخـري بهـا كان أكـبر، لأنهـا مـن اسـتطاعت أن تزيـل مصطلـح شـاعرة عـن القامـوس اللغـوي. في الوقـت الـذي كان النقـاد يفرقـون بـين الشـعر بنـاءً عـلى النـوع الأدبي، جـاءت آنـا أخماتوفـا وكتبـت شـعرًا يصعـب تصنيفـه ذلـك التصنيـف الضيـق المؤدلـج

الـذي يسـجنه في قالـب شـعر المـرأة. فهـو كان شـعرًا صافيًـا، كأنـه وحـي يتنـزَّل. عندمـا خرجنـا، كنـت أشـعر أننـي امتـلأت جـمالًا وفنًّـا بـكل مـا تحمـل الكلمـة مـن معنـى. فطلبـت مـن حبيبتـي أن نعـود إلى الغرفـة لأن طاقتـي شـارفت عـلى النفـاد. عندمـا عدنـا إلى الغرفـة واشـتهتني حبيبتـي، لم تجـد لـديَّ رغبـة مماثلـة في اشـتهائها جنسـيًّا مـن جانبـي، لأن زيـارة منـزليْ بوشـكين وآخماتوفـا كانـت تـوازي ممارسـة الجنـس تمامًـا. تمرَّغـت حبيبتـي عـلى جسـدي. ملأتنـي بالقبـلات لكـن بـلا فائـدة. حتـى ظنـت أننـي ربمـا أكـون قـد أُصِبـت بـبرود جنـسي. قلـت: دعينـا ننـام قليـلًا، ثـم نذهـب إلى الحديقـة الصيفيـة، وبعدهـا نتنـاول وجبـة العشـاء ثـم نختـم يومنـا بالرقـص.

كان الـبرد قـد بـدأ يشـتد، وصديقـي لا يكـف عـن الثرثـرة اللطيفـة، فقلـت: يـا صديقـي، انتهـى الوقـت المُحـدَّد للجلـوس هنـا، وفرغـت عبـوات البـيرة ولم يتبـقَّ شيء مـن لفافـات التدخـين. دعنـا نذهـب وننـام وأعـدك بأننـي سـألتقيك غـدًا لأعـرف كيـف انتهـت رحلتـك إلى المدينـة الشـبقة كـما تسـميها، فقـال: لم يتبـقَّ إلَّا الـشيء اليسـير، يمكـن أن أكمـل لـك القصـة ونحـن في طريقنـا إلى المدينـة الجامعيـة. نهضنـا واتجهنـا نحـو السـكن الجامعـي، واسـتأنف المغامـر الرومانـسي حكايتـه: عندمـا اشـتهتني حبيبتـي ولم ألـبِّ رغبتهـا، حزنـت. أخذتهـا في حضنـي ووقفنـا. اسـتيقظنا مـن نومنـا بعـد سـاعة وقـد اسـتعدت طاقتـي، أشـبعتُ رغبتهـا في الحـب، بـدأت ملامحهـا كالطفلـة مـن شـدة الفـرح. اسـتخدمنا الحـمام وتهندمنـا ثـم خرجنـا إلى الحديقـة الصيفيـة. كانـت حديقـة بمسـاحة شاسـعة، وكأنهـا مدينـة مُنفصلـة، خـضراء ومزيَّنـة بأشـجار الصنوبـر والصفصـاف، جـداول الميـاه تحيطهـا بـكل الاتجاهـات فضلًا عـن نهـر النيفـا الـذي يسـتلقي عـلى خدهـا الأيمـن، تحـف أثريـة منصوبـة في المدخـل ونواحـي الأركان، أغصـان الأشـجار متشـابكة في أزقتهـا كأنهـا عاشـقان يتعانقـان. مـع أنَّ السـياح

كانـوا يملـؤون الحديقـة، فإنهـا بـدت فارغـة مـن البـشر، وكأنهـا لا تقـف عـلى الأرض، بـل عـلى الهـواء. تجولنـا أنـا وحبيبتـي، التقطنـا صـورًا لنـا، ثـم غادرنـا الحديقـة. اتجهنـا إلى وسـط المدينـة، حيـث توجـد المطاعـم والبـارات التـي يرتادهـا السـياح الأجانـب. بينـما كنـا نمـشي عـلى رصيـف شـارع «عـلي دينـار»، سـمعت موسـيقى لاتينيـة يخـرج صداهـا مـن أحـد البـارات، قالـت فيكتوريـا: أتريـد أن تجلـس هنـا قليـلًا؟ فقلـت بـكل تأكيـد، ولـو مـدة قصـيرة. دخلنـا إلى البـار، طلبنـا كأسـين مـن البـيرة، لأن حبيبتـي أرادت أن تتـذوَّق طعـم البـيرة وتشـاركني الأجـواء اللاتينيـة. كان النـادل كوبيًّـا، يتحـدث الروسـية بلكنـة إسـبانية، فـرح عندمـا قلـت لـه إننـي مـن ضفـاف الشـمس.. قـدم لنـا الـشراب، ثـم أطفـأ شـعلتين كانتـا بداخـل البـار قائـلًا: نـور حبيبتـك يسـاوي مئـات الشـموع. فأجابـت حبيبتـي معلقـة: شـكرًا لـك عـلى هـذا الإطـراء الجميـل. حدَّقـت إلى النـادل وقلـت لـه: لا تركـز مـع حبيبتـي، تعامـل وكأنهـا ليسـت موجـودة هنـا. لم أكـن أثـق بشـباب أمريـكا اللاتينيـة، خاصـة عندمـا يكـون الـكلام عـن الأنثـى. كان لا بـدَّ لي أن أكـون حازمًـا وحـذرًا. خرجنـا مـن البـار وعدنـا إلى الغرفـة بطلـب مـن حبيبتـي. لا أعـرف لمـاذا غـيرت رأيهـا. فهـي مـن أرادت أن ترقـص، فظننـت أنهـا ربمـا غضبـت مـن أي تـصرف كان قـد بَـدَر منـي. كان السـبب وراء العـودة، هـو أن حبيبتـي كانـت قـد شـعرت بوهـنٍ. في اليـوم التـالي ذهبنـا إلى متحـف نابوكـوف بعـد أن تناولنـا وجبـة الفطـور. كان المتحـف بسـتانًا للفراشـات، فلـم أفهـم إن كان فلاديمـير نوباكـوف[1] أديبًـا أم بسـتانيًّا! رغـم أننـي عـلى معرفـة بأعمالـه الأدبيـة وخاصـة روايـة «لوليتـا» فإنـه بـدا لي أن الأديـب الـروسي - الأمريـكي غريـب، لا يشـبه رفقـاء المهنـة، فـازدادت رغبتـي في قـراءة المزيـد مـن أعمالـه وسـيرته الذاتيـة. حبيبتـي وكأنهـا مصـورة محترفـة،

(1) فلاديمـير نوباكـوف: أديـب شـاعر ومترجـم روسي أمريـكي. سـنوات حياتـه 1899-1977م مـن أهـم رواياتـه «لوليتـا»

التقطت لنا عددًا من الصور ثم خرجنا من المتحف واتجهنا صوب محطة القطار. كان موعد رحلتنا إلى ضفة الرذاذ عند الثامنة مساءً. فقرَّرنا أن نذهب إلى المحطة مبكرًا، نبتاع لأنفسنا بعض الهدايا، نتناول وجبة الغداء ونستمتع بنكهة القهوة، ومن ثَمَّ نعود من حيث أتينا. فعلنا كل شي كما خطَّطنا له، وعند السابعة والنصف دلفنا إلى القطار وأخذنا مقاعدنا، كانت الرحلة ممتعة وسريعة، وصلنا إلى محطتنا الأخيرة عند السادسة صباحًا، وعندما خرجنا من القطار، سألتني فيكتوريا: هل تقبَّلت اعتذاري؟ فلم أفهم قصدها، أعادت السؤال مرة أخرى. حينها أدركت قصدها، عانقتها بشدة، وهمست في أذنها: أحبك جدًّا وأعترف بذلك. عندما أكمل صديقي قصته كانت الساعة تشير إلى الرابعة صباحًا، فقلت: اذهب أنت وحبيبتك إلى الجحيم ودعوني أنام.

الصعود إلى الجبال

ضفاف الجليد موطن العمل والإنجازات. ولأن البرد القارس يظل يؤنس ضفة الرذاذ لستة أشهر حتى تأتي شحنات أشعة الشمس من القارة المشمسة، يظل الناس ساعات طويلة داخل الأماكن المغلقة، مثل المكتبات وقاعات الدراسة، مَحَالِّ العمل، وفي المساء يعودون إلى منازلهم حيث الغرف الدافئة. في هذه الأماكن المغلقة تصنع التاريخ. يقرأ الطلاب ساعات طويلة، يؤدون بالواجبات المنزلية، أما طلاب الدراسات العليا تجدهم يرتادون المكتبات بغرض الانتهاء من كتابة البحث، أما في المساء، هناك من يشاهد الأفلام وغيرها من المواد الترفيهية. مع أنَّ جمال المدينة وتوفر جميع مرافق الترفيه، فإن أهل المدينة لا يرتادونها في أيام العمل، فقط إجازة نهاية الأسبوع مخصصة لهذه الأشياء. جاء صديقي المغامر في ذلك المساء إلى غرفتي، واقترح عليَّ أن نذهب إلى حلبة التزلج التي توجد بالجامعة. لم أكن أعرف التزلج بصورة جيدة وصديقي كذلك - كان هذا بديهيًّا - لأن الجليد لا يتساقط في ضفتنا. قلت في نفسي: لما كنا لا نعيش الآن على خط الاستواء، فإنه علينا تعلُّم الأنشطة الترفيهية الشتوية، لنكون جزءًا من سكان المدينة بالمعنى الثقافي للكلمة. لبس كل منا معطفًا أنيقًا، وأحذية وقفازات واقية ثم انطلقنا إلى حلبة التزلج. كان ذلك في يوم الأربعاء ويناير أشرف على الرحيل. لم نجد هناك أحدًا سوى الحارس. طلبنا منه أحذية التزلج، فقال: أروني بطاقة الهوية. أخرجنا له ما أراد، بعد أن تأكد من هوياتنا قال: لديكم ثلاث ساعات، العاشرة مساء موعد إغلاق الحلبة. أتمنى لكم وقتًا طيبًا. أخذنا أسلحتنا اللازمة، ودخلنا إلى الحلبة. كنت أسقط كل ثانية، وكان صديقي يفقد توازنه ويسقط على ظهري،

ثـم ننهـض ونواصـل الانزيـاح تزلُّجًـا، ثـم نسـقط مجـدَّدًا ويسـقط صديقـي بوزنـه الثقيـل عـلى ظهـري تـارةً، وعـلى رجـلي تـارةً أخـرى. أدركنـا بعـد السـقوط المُتكـرِّر، إن الثمـن الـذي يجـب أن ندفعـه كان غاليًـا جـدًّا. سـألته: علينـا أن نتوقَّـف ونعـود إلى غرفنـا سـالمين؟ فرفـض قائـلًا: هـذه ليسـت مغامـرة بـل ترفيهًـا. لذلـك سـنحاول التزلُّـج حتـى النفـس الأخـير. فقلـت: ومـا هـي المغامـرة؟ قـال: سـأحكي لـك عـن تجربتـي الأخـيرة مـع حبيبتـي قبـل الرحيـل. في مايـو مـن العـام المـاضي، سـافرت برفقـة حبيبتـي مـن ضفـة الـرذاذ حتـى «ضفـاف الجبـال» بسـيارة خاصـة، فقـط أنـا وحبيبتـي ولا ثالـث بيننـا سـوى اللـه. المسـافة التـي قطعناهـا ذهابًـا وإيابًـا تسـاوي الخمسـة ألـف كيلومـتر أي أكـثر بقليـل مـن المسـافة بـين ضفـة الـرذاذ وعاصمـة الفيـلان. بـدا حديـث صديقـي شـائقًا، لذلـك أضفـت سـؤالًا آخـرًا: ومـا هـو سـبب هـذه الرحلـة الطويلـة؟ ولمـاذا ضفـاف الجبـال بالتحديـد؟ فواصـل مسـتطردًا في قصتـه: كانـت فيكتوريـا تنـوي العـودة إلى بلادهـا بعـد أن نالـت درجـة الماجسـتير، لذلـك أردت أن أهديهـا رحلـة فريـدة مليئـة بالشـعور الجميـل عـلى أمـل أن تُغـيِّر رأيهـا في العـودة، ومـن ثَـمَّ سـأطلب مـن أهلهـا يدهـا وقلبهـا. واختيـار ذلـك المـكان بالتحديـد بسـبب الطبيعـة النـادرة، الجبـال الشـاهقة، والمطبـخ اللذيـذ، بالإضافـة إلى ذلـك، كان النـاس يتحدثـون عـن خطـورة تلـك الضفـاف، وأن المافيـا تُسـيطر عـلى زمـام الأمـور، وتُنهَـب السـيارات، وخطـف السـياح، فـأردت أن أجـرب كل هـذا، أن أعيشـه. فـإذا كان مـا يشـاع حقيقـة، فلـن نعـود مجـدَّدًا إلى هنـا. سـنرحل إلى عـالم الغيـب. وإذا كان ذلـك مـن وحـي الخيـال، سـيكون الحـظ في صفنـا ونسـتمتع بالجـمال والأكل الطيـب وربمـا نكتشـف أشـياء أخـرى. طلبـت مـن صديقـي أن نغـادر الحلبـة ونجلـس بالمقهـى القريـب ليكمـل القصـة كاملـة ونحـن نحتـسي الشـاي. خرجنـا مـن الحلبـة، وبعـد أن أعدنـا أحذيـة التزلـج، ركضنـا صـوب المقهـى. جلسـنا بجانـب النافـذة، جـاء النـادل

يحمل قائمة الطعام. قلت له: لن نحتاج إليه، نريد إبريق شاي وماءً. أما صديقي، فقال مقترحًا: دعنا ندخن شيشة حتى نشعر بدفء أكثر، ما رأيك؟ أجبت مازحًا: لا دفء هنا، إذا أردت دفئًا أكثر عليك أن تذهب إلى الحبيبة. ضحكنا، ثم طلبنا شيشة أيضًا. بدأت أردِّد عبارات سمعتها: رحلة من ضفة الرذاذ حتى بلاد الجبال، أنت وحبيبتك فقط على سيارة خاصة. قلت لصديقي: إذا كانت هذه الرحلة من وحي خيالك فلا أريد أن أسمع عنها. فأقسم المغامر بأنه قد سافر وعاد. لم يكن صوته يوحي بالكذب، كان يتحدث وينظر إليَّ بعيون صافية، وقلب ثابت. عند إذن، قلت: أسمعك.

أراد صديقي المغامر أن يبدأ الكلام لكن النادل منعه من فاكهة الذكريات عندما أتى بإبريق الشاي، وسأل: أي نوع من التبغ تريدون؟ فأجاب صديقي: لا يهم النوع، فقط نريد أن نتعاطى شيشة. هل لديك سؤال آخر؟ أدرك النادل أن وجوده غير مرغوب فيه، لذلك، أخبرنا بأن الشيشة ستكون حاضرة بعد دقائق قليلة، تمنى لنا أمسية سعيدة ثم غادر. أخذ صديقي نفسًا عميقًا ثم بدأ حديثه: في صباح الأول من مايو، غسلت السيارة، زودتها بالوقود، غيرت زيت الماكينة، تأكدت من جاهزية الإطارات، وأخذت المعدات اللازمة الأخرى، في منتصف الليل وبعد أن شحنت حقائبنا - أما حبيبتي فكانت في ذلك الوقت تجلس داخل السيارة - دخنت سيجارة الوداع ثم تحركنا من المدينة الجامعية متجهين إلى ضفاف الجبال، إلى المدن المستحيلة. كان الطقس دافئًا، والرؤية واضحة، والشوارع خالية من السيارات. وضعت فيكتوريا الموسيقى المحببة إلى نفسها، لا صوت وضجيج آخر، أنا وحبيبتي والموسيقى والمصير. بعد مرور ساعة ونحن في الطريق، طلبت حبيبتي أن نتوقف في أقرب محطة وقود بغرض أخذ كوب من القهوة والدخول إلى الحمام. محطات الوقود هي أكثر الخدمات المتوفرة في الضفاف

المضيئة، لذلك بعد عشر دقائق وجدنا محطة وقود. أخذت حبيبتي القهوة بالحليب، وأخذت أنا مشروب طاقة، ثم واصلنا رحلتنا. ليالي مايو تعدُّ ليالي قصيرة، تنتشر أشعة الشمس منذ الثانية صباحًا، بدأت الطبيعة تبوح بملامحها الجميلة، والحشائش قد تحرَّرت من الجليد واكتست بثوبها الأخضر اليانع – هدية الصيف، وأوراق الشجر الخضراء بدأت تعلن عن وجودها، وفي البعيد ضباب غامض ومجهول. كنا نمضي والطريق خالٍ، لا سيارات ولا عابرون، كأن شهر مايو يحتفل بنا. كانت نظرات حبيبتي إليَّ مُفعمة بالحب والرضا دون أن تتفوه بكلمة، لأن الطبيعة وحدها كانت تتحدث. وصلنا إلى الضواحي الجميلة للعاصمة، إلى أشجار الصفصاف والصنوبر الشاهقات كأنها ترسل قبلاتها للسماء، فتحت نافذة السيارة قليلًا لكي نرى الطيور ترسل لنا شقشقاتها وهبوبًا نقيًّا وباردًا يداعب خدودنا. شعرت بخفة في الروح، وكأني أحلِّق على ارتفاع متر من الأرض، أحمل حبيبتي بين أحضاني وأعلو صاعدًا إلى ملكوت العشق والجمال. وعلى امتداد مئات الكيلومترات، كانت القرى المترامية، بيوت من الخشب وأخرى من الطوب، وضيعات صغيرة وأخرى كبيرة موصدة الأبواب تنتظر زيارة صاحبها في عطلة نهاية الأسبوع. كان الوقت يشير نحو الرابعة صباحًا، عندما رأينا شيوخًا يجلسون على الرصيف. وعندما اقتربنا منهم، أشار أحدهم طالبًا منَّا أن نتوقف. لم أكن أعرف القرار السليم. لذلك سألت: نتوقف أم نواصل المسير؟ توقف، ربما يحتاج هذا الشيخ الكبير إلى مساعدة منا، أجابت حبيبتي. بعد أن ألقى التحية، سألته: ماذا تريد يا رجل؟ ضحك الشيخ الكبير عندما رأى لون بشرتي السوداء، ولم يستطع الإجابة مباشرة، بعد ثوانٍ أسعفته الذاكرة وقال: هل يوجد لديكم سيجارة؟ أعطيته ثلاث سيجارات، واحدة له والاثنتان للشيخين الجالسين على الرصيف. قال الشيخ: كل الاحترام، أيها البطل الإفريقي. ضحكنا على هذه العبارة،

ثـم اسـتأنفنا الرحلـة. سـألتني حبيبتـي: مـا هـو شـعورك؟ فأجبـت: إذا كنـتِ تعنـين ضحكـة الشـيخ عـلى لـون بـشرتي، فإننـي لم أمتعـض حيـال هـذا السـلوك، لأن الضحكـة فرضـت موقفًـا غـير متوقـع. لا أحـد يتوقـع أن يلتقـي عنـد الثالثـة صباحًـا وفي ضواحـي ضفـة الـرذاذ بطـلًا إفريقيًّـا ومعـه أمـيرة مثلـك ولا ثالـث بينهـما. أهدتنـي فيكتوريـا قبلـة عـلى هـذه الإجابـة، فتمنيـت مواقـف مماثلـة أخـرى حتـى تنهـال عـليَّ القبـلات بعـد كل حـين. ظـلَّ الطريـق خاليًـا كـما كان، لا سـيارات ولا عابـرون، كنـا نمـضي والطبيعـة تكشـف عـن مفاتـن عريهـا وجمالهـا الفاتـن، إذ لاح لنـا في الأعـلى جبـل وعـلى قمتـه شـجيرات وورود، وسـحابة صافيـة تحميهـا كالسـقف الـذي يقـي النـاس المطـر. بـدا الجبـل وكأنـه يقـع في منتصـف الطريـق. تسـاءلت ربمـا هـذا الجبـل هـو نهايـة الطريـق، حـدود ضفـاف الجليـد والصـين؟ فـلا مجيـب عـن سـؤالي. أمـا حبيبتـي كانـت تسـتمتع بهـذا المشـهد الفريـد، ولا يهمهـا وجـود الجبـل في منتصـف الطريـق. مـن حسـن حظـي، كان الجبـل يسـتلقي بعيـدًا عـن الطريـق، أدركـت هـذا بعـد مـرور سـاعة إضافيـة مـن الزمـن. كان مصـدر خـوفي، هـو أن الصعـود إلى الجبـل بالسـيارة يعـد تحديًـا بالنسـبة إلى سـائق مثـلي، يحـاول أول مـرة، قطـع مسـافات كبـيرة، ولم أكـن أرغـب في المـوت، ولم أحقـق أحلامـي بعـد، كـما لم آخـذ نصيبـي مـن الحـب. عبرنـا الجبـل، وهـدأ بـالي، ولكـن حبيبتـي شـعرت بحـزن خفيـف بسـبب اختفـاء اللوحـة الجماليـة الفريـدة، فعانقتهـا عـل مهـل.

جاءنـا النـادل يحمـل الشيشـة، وإبريـق الشـاي. بدأنـا ندخـن ونحتـسي الشـاي، حينهـا سـألت صديقـي: مـاذا كان يفعـل الشـيوخ الثلاثـة، وهـم مكتفـون بالجلـوس عـلى رصيـفٍ قديـمٍ ومهمـل؟ فأجـاب: عندمـا توقفنـا وطلـب أحدهـم سـيجارة، رأيـت أن الشـيخين الآخريـن يتسـامران وزجاجات البـيرة تتراقـص عـلى أياديهـم وعلبـة سـيجارة يتيمـة ملقـاة كانـت عـلى الأرض، ربمـا كانـت فارغـة. ثـم أضفـت سـؤالًا آخـر: مـاذا حـدث بعـد

اختفـاء الجبـل؟ ليواصـل صديقـي مسترسـلًا، قائـلًا: بـدأت تظهـر سـيارات عـلى الطريـق، ففـي ذلـك الوقـت تركنـا العاصمـة وضواحيهـا مـن خلفنـا، واقتربنـا مـن مدينـة تفـير، حيـث رأينـا رجـال المـرور يقفـون عـلى بعـد مائـة مـتر. سـألتني حبيبتـي: هـل رخصـة القيـادة ومسـتندات السـيارة معـك؟ بـكل تأكيـد، قلـت: قلَّلـت مـن السرعـة عندمـا اقتربنـا مـن رجـل المـرور. نظـر إليَّ ثـم طلـب منَّـا أن نواصـل رحلتنـا، ولكـن أوقـف السـائق الـذي كان خلفنـا، فقالـت فيكتوريـا: لم يسـألك رجـل المـرور عـن رخصـة القيـادة لأننـي بجانبـك. لم أفهـم مـا تعنيـه، لذلـك اسـتوضحتها. أجابـت قائلـة: أغلـب الرجـال يظهـرون التقديـر والاحـترام عندمـا يـرون أنثـى.

قلت لصديقي المغامر:

- هـل تؤمـن بهـذا الـرأي؟ عـلى المسـتوى الشـخصي، هـل تظهـر الاحـترام والتقديـر عندمـا تـرى أنثـى؟

- ربمـا حبيبتـي كانـت محقَّـة. عـلى المسـتوى الشـخصي أتـصرف بتهذيـب أكـثر عندمـا أكـون بـين الحسـناوات.

كان صديقـي المغامـر يتحـدث ويُدخِّـن أكـثر مـن عـشر دقائـق، ربمـا نـسي نصيبـي مـن الشيشـة، لـذا طلبـت منـه أن يقاسـمني. اعتـذر عـلى النسيان، أعطـاني خرطـوم الشيشـة الطويـل الـذي نمـرر مـن خلالـه الدخان. وواصـل: لم نتمكـن مـن الدخـول إلى مدينـة تفـيرون المعروفـة بصناعـة أباريـق الشـاي - السـمافار، وأسـلاف ضفـاف الجليـد كانـوا يقولـون: «لا تحمـل معـك إبريـق الشـاي إلى تفـيرون». توقفنـا عنـد محطـة الوقـود المجـاورة للطريـق الرئيـسي، وقـد اقـترب الوقـت مـن الخامسـة صباحًـا؟ تناولنـا بعـض الفطائـر، وشربنـا عصـير البرتقـال الطـازج، ذهبـت حبيبتـي إلى الحـمام ثـم عـادت واسـتأنفنا رحلتنـا.

سألت:

- أنت لم تدخل الحمام أبدًا؟ لأنك كل مرة كنت تحدثني عن ذهاب حبيبتك إلى الحمام؟

- لا أعرف لماذا كانت تذهب حبيبتي إلى الحمام بكثرة، لكن منذ خروجنا من ضفة الرذاذ حتى وصولنا إلى مدينة تفيرون لم أدخل الحمام ولا مرة واحدة. أظن فيكتوريا كانت تطلب الحمام بسبب القهوة. على كل حال، ليس هذا أمرًا ذا بال.

كان كوب الشاي قد فرغ، فملأتها مرةً أخرى، وسألت صديقي إن كان يريد المزيد، فأشار برأسه قائلًا: بالطبع. ثم واصل حديثه: كلما توغَّلنا في رحلتنا، تظهر أمامنا مشاهد طبيعية خلابة، أشجار أغصانها خضراء ولحائها بيضاء وأخرى بنية، جليد على الأرض، وفي أماكن أخرى، تلال مكسوة بالخضرة، قرى صغيرة بعد غابات كبيرة، ثم سهول خضراء. بعد أن قطعنا مئات الكيلومترات، شعرنا وكأننا في ضواحي ضفة الرذاذ، لأن الطبيعة هي نفسها، ولكن مرشد الطريق «النفيغيشن» كان يشير إلى أننا نقترب من مدينة «فرونشيون». وقد كان صائبًا في ذلك، فجأة ظهرت ملامح لجسر كبير، ثم نصب تذكارية، بعد قليل رأينا لوحة مكتوبًا عليها «مرحبًا بكم في مدينة فرونشيون». المدينة متوسطة الحجم، بها نهر لا أذكر اسمه، وجسر يربط أجزاء المدينة، فتيات جميلات وبيوت حديثة، سيارات ذات ماركات أجنبية وأخرى محلية، ترى الفتيات الشبان وكبار السن يؤدون التمارين الرياضية، ورجلًا كان عائدًا إلى البيت وفي يده باقة ورد، ربما يريد أن يعالج حماقةً ما قام بها في آخر الليل. بينما كنا في البحيرة المجاورة للقرية رأينا الصيادين وهم يرمون سناراتهم، ينتظرون السمك الماكر والمخادع الذي يأكل الطُّعم بحذرٍ ويعود من حيث أتى دون أن يصيبه أذى.

بعد أن تركنا «فرونشيون» خلفنا، ظهرت أمامنا سهول خضراء

والشــمس ترســل أشــعتها لتُلبــس الســهول ثوبًــا ذهبيًّــا. لم أحتمــل هــذا الجـمال، أوقفـت السـيارة جانبًـا، ثـم خرجـت وبسـطت يـدي إلى حبيبتـي. أمسـكت بي وتوغلنـا إلى وسـط السـهل، توقفنـا ونظـرت في عينـيْ حبيبتـي هُنيهـة ثـم عانقتهـا وأهدتنـي هـي قبلـة. رأيـت دمعـة الفـرح تسـقط عـلى خدهـا، شربـت قطـرة الحـب هـذه وسـمعتها تقـول: أحبـك، أيهـا البطـل الإفريقــي. أول مــرة أعــرف أننــي كنــت بطــلًا منســيًّا. وبفضــل حبيبتــي والشــيخ الكبــير، عــاد مجــدي واســتعدت بطولتــي المفقــودة. عدنــا إلى الســيارة وأردنــا اســتئناف الرحلــة، لكــن حبيبتــي طلبــت أن تلتقــط صــورًا تذكاريـة، فقلـت لهـا «عندمـا أمـزق صـورة حبيبتـي، فإننـي أُخلِّـد في داخـلي ألــف ألبــوم وألبــوم».

سألت صديقي المغامر:

- أتقرأ أعمال محسن خالد؟

- أكيـد، لأن هـذه الجملـة لم يقلهـا أحـد سـواه، إن لم تخنـي الذاكـرة، مُقتبسًــا إياهــا مــن روايــة «الحيــاة السريــة للأشــياء».

- ذاكرتــك وفيــة، هــذه الكلــمات مــن روايــة «الحيــاة السريــة للأشــياء»، ولكــن الآن أريــد أن أعــرف أكــثر عــن أسرار الرحلــة.

عندهــا، قــال: عندمــا كانــت حبيبتــي تلتقــط صــورًا تذكاريــة، ســمعنا صفــارات مــن بعــض الســائقين العابريــن بجوارنــا. عندهــا التفــت صــوب الطريـق، فرأيـت سـيارة تقـف بالقـرب منـا، كان بداخلهـا فتـاة وشـاب، ولمـا انتهــت فيكتوريــا مــن التصويــر وعدنــا إلى الســيارة، قــال الشــاب: المــكان جميــل لذلــك أردنــا أن نأخــذ بعــض الصــور أيضًــا، نتمنــى لكــم رحلــة ســعيدة. ردت عليــه حبيبتــي: لا تنــسَ أن تعانــق فتاتــك، فالعنــاق أجمــل من التقــاط الصــور، هــذا قــول مــن عــاش ذلــك بالتجربــة. قــال الشــاب: أشــكرك عــلى هــذه النصيحــة، ولكــن لــن أفعــل ذلــك. ركبنــا ســيارتنا ثــم انطلقنــا،

قالـت فتـاتي: انظـر، انظـر. وكانـت تشـير إلى السـهل، عندمـا التفـتُّ رأيـت الشـاب في حضـن حبيبتـه. تركناهــما هكـذا، وغادرنـا. حتـى تلـك اللحظـة كنـا في غايـة السـعادة، نكتشـف أشـياء جديـدة، نشـاهد ظواهـر طبيعيـة نـادرة، والطقـس كان دافئًـا. قطعنـا مسـافات طويلـة، واقتربنـا مـن الأقاليـم الجنوبيـة. أول مدينـة ظهـرت أمامنـا كانـت «راسـفيتا» وهـي إحـدى أكـبر مــدن الجنــوب، وفيهــا أفضــل الجامعــات الزراعيــة في ضفــاف الجليــد، وســكانها لا يختلفــون عــن ســكان العاصمــة والمـدن المجـاورة. توقَّفنـا في تلـك المدنيـة، لأن حبيبتـي كانـت ترغـب في سـاندويتش مـن الماكدونالـدز. أخذنـا عشـاءنا، وجلسـنا عـلى الطاولـة. وبينـما كنـا نـأكل، كنـت أرى نظرات فضـول مـن بعـض الـزوار، همسـت فيكتوريـا عـلى أذني: لا تهتـم كثـيرًا، أنـت بطـل الشـمس الوحيـد في هـذا المـكان. فصرفـت انتباهـي عـن الفضوليـين ومـلأت بطنـي بالبطاطـا وأجنحـة الدجـاج. اقترحـت عـلى حبيبتـي الذهـاب إلى أقـرب فنـدق لننـام في المدينـة، وفي الصبـاح نواصـل رحلتنـا، فقالـت: لا تقلـق، أخـذت رخصـة القيـادة معـي، سـأقود وأدعـك تسـتريح. ففوجئـت لأنهـا لم تخـبرني يومًـا بـأن لديهـا رخصـة قيـادة، سـألتها باندهـاش: متـى تعلَّمـتِ قيـادة السـيارات؟ فأجابـت بـأن أغلـب الشـباب في بلادهـا يعرفـون قيـادة السـيارات ولديهـم رخصـة قيـادة، هـذه مسـألة شـائعة.. ولم تعتقـد أن هــذا أمــرًا مهــمًّا بالنسـبة إليَّ، لذلـك لم تخـبرني. انتهيـت مـن الأكل ولم تتوقـف نظـرات الفضوليـين بعـد. ركبنـا سـيارتنا والسـائقة ضغطـت عـلى البنزيـن ثـم انطلقنـا. كانـت فيكتوريـا أكـثر مهـارة منـي في قيادة السـيارات، تعلَّمـت أنـا القيـادة قبـل عـام عندمـا عـدت إلى بـلادي في إجـازة صغـيرة، وهـي تعلَّمـت القيـادة قبـل سـبع سـنوات، عندمـا كانـت في السادسـة عـشر ربيعًـا. الفـرق بيننـا كبـير. لم نعـبر عـشرة كيلومـترات حتـى ظهـر رجـال المـرور مُجـدَّدًا، عندمــا اقتربنــا منهــم طلبــت مــن حبيبتــي أن تخفِّــف السرعـة، فلـم تفعـل. كـرَّرت الطلـب ولم تفعـل أيضًـا. عندهـا بـدأت أشـعر

بالقلـق، فقالـت: هـذه ليسـت نقطـة تفتيـش، لـن أقلِّـل السرعـة حتـى يطلـب رجـل المـرور. تجاوزنـا رجـال المـرور ولم يوقفنـا أحـد، نظـرت إليَّ حبيبتـي، ابتسـمت قائلـة: تذكَّـر، هـذا الـدرس رقـم واحـد.

كان صديقـي يحدثنـي عـن رحلتـه هـذه بـذات الشـغف الـذي كان حـاضرًا في اللقـاءات السـابقة. لا يتوقـف عـن الـكلام، كل مـرة كنـت أتمنـى أن تكـون مغامرتـه قصـيرة، ولكـن يخيـب أمـلي دائمًـا كـما تعـوَّدت. كان أبريـق الشـاي قـد فـرغ، اختفـى بـرد حلبـة التزلـج. شـعرنا بالـدفء، ومـن كـثرة شراب الشـاي تحـوَّل الـدفء إلى سـخونة. ليـس هـذا فحسـب، أصبـح تبـغ الشيشـة خاليًـا مـن أي نكهـة أو طعـم. وصديقـي يتحـدث ويتحـدث.. كنـت في عمـق روحـي أسـتمتع بحكاياتـه، رغـم شـكوكي في أجـزاء منهـا. اسـتأنف قائـلًا: بينـما كنـا نواصـل رحلتنـا، رأيـت تراكتـورًا يحـرث أرضًـا بـورًا، فتذكـرت أريافنـا وحقـول القطـن والقمـح، قلـت محدثًـا حبيبتـي: لدينـا مثـل هـذا التراكتـور بالضبـط، لا يختلـف في شيء، كل التفاصيـل متشـابهة: المحـراث، لونـه، إطارتـه الضخمـة حتـى ملامـح السـائق تتماهـى مـع ملامـح السـائقين في أريافنـا مـع اختـلاف في لـون البـشرة. ثـم ختمـت تمتـماتي بسـؤال: هـل نحـن المصنِّعـون أمـا هـذه البـلاد؟ فلـم تفهـم حبيبتـي مـا أقولـه، طلبـت منـي أن أعيـد كلامـي، فتحدَّثـت بصـوت مرتفـع: كنـت أتسـاءل عـن المصنـع الأول لهـذا التراكتـور، أجابـت حبيبتـي: هـذا التراكتـور معـروف حـول العـالم بالتراكتـور البيلاكـوسي. حينهـا تبـدَّدت شـعوري بالفخـر الـذي انتابنـي منـذ قليـل. كانـت حبيبتـي تقـود السـيارة بسرعـة وبثقـة عاليتـين وكأنهـا تشـارك في سـباقات الفورمـولا ون وأنـا أسـتمع إلى أغنيـة أبـو عـركي البخيـت «يـا قلـب أنـا كنـت قايـل لـك تبـت مـن تعـب السـفر». مـع أنَّ حبيبتـي لم تعـرف اللغـة العربيـة فـإن الأغنيـة جعلتهـا تهـز رأسـها طربًـا. سـألتني: مـا هـي الفكـرة العامـة لهـذه الأغنيـة؟ قلـت: هـذا المغنـي يقـول، متـى نحـط رحالنـا لنمـوت في أحضـان الحبيبـة. ضحكـت

حبيبتــي، وفهمــت أني قــد حرَّفـت الأغنيــة لحاجــة في نفــسي. قالــت: إذًا دعنـا نسـمع أغنيـة مـن ضفـاف الجليـد أو باللغـة الإنجليزيـة حتـى يكـون المعنـى واضحًـا لنـا معًـا. هكـذا كنـا نتسـامر والطبيعـة الجميلـة تحفُّنـا مـن كل الاتجاهـات. فـإذا كان الطـرق حـول موسـكو والمـدن الكبـيرة معبّـدة وممتـازة، فـإن الأمـر يختلـف بعـض الـشيء في الأريـاف والقـرى الصغـيرة. بينـما كنـا نمـضي، حـلَّ الظـلام مجـدَّدًا، ولم يكـن الطريـق مضيئًـا، كانـت الرؤيـة لا تتجـاوز المائـة مـتر، وكأنهـا المسـافة بيننـا وبـين المطلـق. قالـت حبيبتـي: لـديَّ تجربـة مـن قبـل للقيـادة في الظـلام. لا تقلـق، هـذه تجربـة مميـزة ولـن تُنـسى. لم أكـن خائفًـا ولكـن القلـق كان يُسـيطر عـلي. كانـت الغابـات مـن حولنـا، والظـلام يكـشر عـن أنيابـه. فـماذا لـو ظهـر أمامنـا دبٌّ بشـكل مفاجـئ فـماذا سـيحدث؟ كنـت أتسـاءل بيني وبـين نفسي. أمسـكت بيـد حبيبتـي اليمنـي، فوجدتهـا دافئـة هادئـة، فأدركـت أن السـائق الماهـر سـيقودنا إلى بـر الأمـان. بعـد مـرور عشريـن دقيقـة خرجنـا إلى طريـق مـضيء، ذي إنـارة مُعلَّقـة عـلى طـول الطريـق وكأنهـا نجـوم تتـلألأ وهـي ترقـص إلى أسـفل. ابتهجـت نفوسـنا حتـى أشـعلت سـيجارتي احتفـاءً بتجاوز اللحظـات الحرجـة بسـلام، وحبيبتـي طلبـت نَفَسًـا أيضًـا. لم نكـن نـدري بـأن داخـل ضفـاف الجليـد توجـد حـدود إلَّا عندمـا ظهـرت أمامنـا لوحـة ضخمـة مكتـوب عليهـا (مرحبـا بكـم في جمهوريـة «ضفـاف الشركـس»، نقطـة تفتيـش عـلى بعـد مائـة مـتر). كان هنـاك حاجـز كبـير وقـوات الأمـن والجيـش يقفـون عـلى جانبـي الطريـق والأسـلحة الخفيفـة في أيديهـم أمـا الثقيلـة فكانـت فـوق السـيارات. هـذا المشـهد لم يكـن سـهلًا علينـا لأنـه ظهـر فجـأة، ولم نكـن نتوقَّعـه أبـدًا. توقَّفنـا قليـلًا في نقطـة العبـور، ولم يـأتِ إلينـا أحـد، أشـار أحدهـم بيـده لـكي نتقـدم قليـلًا. وعـلى بعـد عـشرة أمتـار كان يقـف رجـال الأمـن فاقتربنـا منهـم. ولكـن لم يسـألنا أحـد. تقدمنـا شـيئًا فشـيئًا حتـى عبرنـا الحـدود دون أن يوقفنـا أحـد أو حتـى يسـألنا. عنـد

إذن ظهـرت عـلى الطريـق سـيارات بمـاركات محليـة أغلبهـا «لادا»، بيضـاء اللـون، والطـرق أسـوأ مـما كانـت عليـه في المـدن الأخـرى. قالـت حبيبتـي: لم يسـألنا أحـد، لأن لـون شـعري أسـود، وظـن رجـال الأمـن أننـي مـن هـذه المدينـة وأنـت ربمـا ضيفـي. ربمـا كانـت فيكتوريـا مُحقَّـة، فـإذا كان سـكان ضفـاف الجليـد ذوي الأصـول السـلافية لـون شـعرهم أشـقر، فـإن لـون شـعر الغالبيـة العظمـى مـن سـكان الجنـوب أسـود، لذلـك البعـض أحيانًـا يسـميهم بـ»السـود». ثـم أضافـت حبيبتـي: الـدرس الثـاني، تذكَّـر أن المظهـر الخارجـي للإنسـان مهـم ولكنـه خـدَّاع.

كنـت أظـن أن هـذه الرحلـة سُـتعرِّفني بالجنـوب، وثقافـة الشـعوب هنـاك، المطبـخ ومـا شـابه ذلـك، ومـا كان يحـدث أيضًـا. ولكـن لم أتوقَّـع اكتشـاف جوانـب خفيـة مـن شـخصية فيكتوريـا. فكلـما نمـر بحـدث، كانـت تُعطينـي دروسًـا قيِّمـة وخلاصـات وافيـة وشـفَّافة. كنـت أنتظـر الـدرس الثالـث عـلى أمشـاط قدمـي، ولكـن من شـدة عنـاء السـفر وجـمال الطبيعة شـعرت بالنعـاس. ولكنهـا لم تدعنـي أنـام، قائلـة: لم يتبـقَّ مـن الوصول سـوى سـاعتين، أريـد أنيسًـا، ولا أنيـس أفضـل مـن الحبيـب. أقنعتنـي بعبارتهـا الأخـيرة، تغلَّبـت عـلى النعـاس، وبـدأت أحدثهـا عـن القـارة المشمسـة وغاباتهـا وأوجـه الشـبه والاختـلاف بـين الجنـوب هنـا والجنـوب هنـاك، قلـت: لم أسـافر في كل ربـوع بـلادي، ولكـن قـرأت وسـمعت عنهـا الكثـير، والجنـوب مـن أجمـل المناطـق في بـلادي مـن حيـث الطبيعـة الجميلـة والمناظـر الخلابـة، والأمطـار تهطـل حتـى سـتة أشـهر في العـام، والمراعـي خـضراء والأرض خصبـة تجـري عليهـا أنهـار كثـيرة وأهلهـا طيبـون. ولكـن منـذ سـنوات قليلـة، أصبـح الجنـوب دولـة قائمـة بذاتهـا، لهـا رئيـس، وعلـم ونشـيد وطنـي وعملـة محليـة ولا أسـتطيع الآن الدخـول إليهـا إلَّا بتأشـيرة سـفر. سـألتني حبيبتـي عـن سـبب الانفصـال، فذكـرت لهـا الحقيقـة التـي أعرفهـا ومـا تمليـه فطـرتي، فقلـت: القـرن التاسـع عـشر والعشريـن هـما

عهـد الاسـتعمار، وبلـدي كان تحـت اسـتعمار الضفـة العثمانيـة، وبعـد ذلـك جـاءت الضفـة الإنجليزيـة وظلُّـوا فيهـا لأكـثر مـن نصـف قـرن، وبعـد خروجهـم مبـاشرة بـدأت الحـرب الأهليـة. أولًا مـع الجنـوب مـدة نصـف قـرن. والسـبب هـو أن القبائـل التـي تعيـش في الشـمال أصولهـا عربيـة وديانتهـا الإسـلام، أمـا سـكان الجنـوب فهـم أفارقـة ويعتنقـون المسـيحية. كان جـزء كبـير مـن أبنـاء القبائـل الشـمالية يعملـون في أجهـزة الدولـة مـع المسـتعمر، وبعـد خـروج المسـتعمر أصبحـوا هـم يتحكمـون في زمـام الأمـور. ولكـن القشـة التـي قصمـت ظهـر البعـير ظهـرت عندمـا بـدأت قيـادات ذات الأصـول العربيـة تنظـر عـلى المختلفـين عنهـم نظـرة اسـتعلاء وعنصريـة، وكأنهـم أقـل منهـم. لم يتحمـل قـادة منطقـة الجنـوب هـذه الإهانـة، فاختـاروا طريـق الكفـاح المسـلح، فخاضـوا معـارك هنـا وهنـاك. لقـد اسـتمرت الحـرب نصـف قـرن بعـد ذلـك أدرك حـكَّام المركـز وأهلهـم بـأن الحـرب لا تعالـج المشـكلات بـل تعقدهـا فقـط. فأُبرِمَـتْ اتفاقيـة السـلام، التـي مـن بـين بنودهـا الوحـدة مـع بـلاد الفيـلان أو حـق تقريـر المصـير في حـال تعـثَّر مجريـات الأمـور. في نهايـة الأمـر اختـارت الأغلبيـة مـن سـكان الجنـوب الانفصـال. وهـو انفصـال مـن أجـل كرامتهـم الإنسـانية التي نافحـوا عنهـا عقـودًا طويلـة مـن الظلـم والإقصـاء والاسـتعلاء والتهميـش. لم يكـن الوقـت كافيًـا لأتحـدث كثـيرًا، لذلـك أعطيتهـا ملامـح عامـة عـن بـلادي وأزمـة الانفصـال. سـألتني عـن القائـد الأول الـذي قـاد حركـة الكفـاح المُسـلَّح، فأجبـت بأنـه يدعـى دكتـور جـون قرنـق وهـو أعظـم قائـد في تاريـخ الحديـث.

وبينـما كانـت فيكتوريـا تقـود السـيارة وتسـمع لحديثـي في الوقـت نفسـه، رأيـت لوحـة مكتوبًـا عليهـا (مرحبا بكـم في العاصمـة «نالشـيكوف»). هـذه المدينـة هـي عاصمـة جمهوريـة «ضفـاف الشركـس» التـي غالبيتهـا العظمـى كانـوا يتحدثـون لغتهـم المحليـة. كانـت المدينـة نظيفـة أيَّمـا نظافـة.

هادئـة جـدًّا. وعـدد العابريـن فيهـا كان قليـلًا وكذلـك السـيارات، فلـم أفهـم السـبب، لذلـك سـألت بائـع الشـاورما الـذي توقفنـا عنـده لنبتـاع منـه واحـدة: أيـن ذهـب النـاس، لمـاذا الطريـق خـالٍ مـن العابريـن؟ أدرك البائـع أننـا قادمـون مـن مدينـة أخـرى، لذلـك أجـاب: الوقـت تأخـر، والنـاس هنـا ينامـون مبكـرًا، لذلـك الطرقـات خاليـة. أخذنـا الشـاورما وواصلنـا طريقنـا. حاولـت أذكّـر حبيبتـي بـشيء مهـم عرفتـه للتـو: هـل تصدقـين بأننـا نقـود حتـى الآن لمـدة 23 سـاعة، وعندمـا نصـل إلى الفنـدق سـأنام بحـذائي لأني سأسـقط ميتًـا عـلى الفـراش مـن شـدة التعـب والإنهـاك. كنـا نشـعر بأمـان لا مثيـل لـه، قطعنـا نحـو ألفـي كيلومـتر ولا أحـد مـن رجـال الشرطـة أوقفنـا، والسـيارة لم تخذلنـا في شيء، فقـط كلـما يقـترب الوقـود مـن الانتهـاء، نعبّئـه مـن جديـد ونواصـل رحلتنـا. عندمـا أشـار المرشـد بأننـا دخلنـا للتـو إلى منتجـع «مينيرالنـي عبـودي» صرخـت حبيبتـي مـن شـدة الفـرح، وصرخـت أنـا كذلـك. وصلنـا إلى الفنـدق، أخذنـا أمتعتنـا مـن السـيارة، ثـم صعدنـا إلى الغرفـة بعـد أن أكملنـا إجـراءات التسـجيل في غرفـة الاسـتقبال. بينـما كانـت حبيبتـي في الحـمام، رأيـت قائمـة الطعـام عـلى الطاولـة، طلبـت بيتـزا عـبر خدمـة التوصيـل وزجاجـة مـن النبيـذ المعتـق. خرجـت حبيبتـي ووجـدت كل المفاجـأة، أكلنـا وشربنـا ولم نـدرِ مـا حـدث بعـد ذلـك.

في الصبـاح اسـتيقظت وكانـت حبيبتـي لا تـزال نائمـة، عندمـا رأيـت عـبر النافـذة إلى الجبـال وعـلى قمتهـا شـجيرات، لا شيء آخـر. بـدا الأمـر غريبًـا، وكأننـا ضللنـا الطريـق إلى مـكان آخـر. لبسـت ثيـابي وذهبـت إلى غرفـة الاسـتقبال وسـألت الموظفـة عـن اسـم المدينـة فقالـت: مينيرالنـي عبـودي. اطـمأن قلبـي، لكـن خرجـت إلى الشـارع لأتأكـد. كانـت الجبـال تمـرح في علوهـا الراسـخ والمترامـي في كل الاتجاهـات، حيـث السـحب الصافيـة تحـوم مـن حولهـا في مشـهد رومانـسي فريـد. وكانـت الأشـجار تتمايـل عـلى أنغـام الريـاح الجنوبيـة، وعيـون المـاء السـاخنة تجـري مـن قمـم الجبـال. عـدت

إلى الغرفة واصطحبت معي حبيبتي لترى الجنة التي نحن فيها وليست ضفاف الجبال. كانت الدموع تتساقط من خديها وتسأل: هل هذا واقع أم خيال؟ وهو سؤال لا يحتاج إلى إجابة. أقل ما يمكن قوله عن المشهد هو أننا لم نر مثله من قبل. قالت: فقط الآن تأكدت من أننا اتخذنا قرارًا سليمًا عندما قطعنا هذه المسافة الكبيرة. عدنا إلى الغرفة وضعنا خططنا لبرنامج اليوم ثم ذهبنا إلى المطعم الذي كان يقع في الطابق الأرضي ومطل على تل صغير لتناول وجبة الفطور. عندما أتت النادلة بقائمة الطعام سألتها عن الوجبات المحلية، فأجابت: انظر إلى القائمة. شعرت بوقاحة ما في صوتها، ولكن حبيبتي طلبت مني أن أغض الطرف. لم نطلب وجبات محلية، بل أخذنا بيضًا مشويًّا على الزيت و»كاشا» باللبن، وعصير تفاح، وهي أصناف تُتناول كوجبة فطور في أغلب مدن ضفاف الجليد. كان هذا اقتراح فيكتوريا التي قالت: الدرس الثالث، إذا كان أهل البيت وقحين عليك ألَّا تقاسمهم خبزهم.

على بعد خمسمائة متر من الفندق، كان هناك مقهى، اشترينا قهوة الصباح منها، ثم واصلنا رحلتنا نقصد مدينة «ضفة القوقاز»، وهي عاصمة ضفة الفطائر اللذيذة آخر جمهوريات الجنوب التابعة لضفاف الجبال، تقع على بعد مائتي كيلو متر من مدينة مينيرالني عبودي أو أقل قليلًا، سكانها يتحدثون الروسية واللغة الأوسيتية. كنا نمضي ونستمتع بجمال الطبيعة، كل مشهد كان مختلفًا عن سابقه. رغم أن الملامح العامة كانت تتركَّز في الجبال والخضرة. وصلنا إلى الحدود الفاصلة بين جمهوريتي «ضفة الشركس» و»الفطائر اللذيذة»، عند نقطة التفتيش طلب منا رجل الأمن النزول من السيارة. خرجت أنا أولًا وتبعتني فتاتي الجميلة. قدمت إلى رجال الأمن جواز السفر، رخصة القيادة وأوراق السيارة، وأعطتهم فيكتوريا جواز سفرها أيضًا. كان علينا

الانتظار قليلًا حتى يجري التأكد من سلامة مستنداتنا، وبينما كنا ننتظر مراجعة الأوراق، نظر إليَّ رجل كان يقود سيارة ثم قال: هذه ليست أمريكا. لم أعلق على كلامه. عاد رجل الأمن وأعطانا هوياتنا بعد أن تأكد من سلامتها، ثم تمنى لنا رحلة سعيدة. عبرنا الحدود، وهذه كانت أول مرة يتم توقيفنا من قبل جهة نظامية. فقلت لحبيبتي: أظن أن لهذه الجمهورية خصوصيتها، ربما نسبة الجريمة فيها كبيرة. قالت: عندما قررنا القيام بهذه الرحلة، قرأت عن الجنوب وبما في ذلك عن هذه الجمهورية، فوجدت معلومة مهمة، وهي أن منذ سنوات قليلة مضت، قتلت جماعة إرهابية عددًا كبيرًا من أطفال مدرسة بلغوا نحو خمسين طفلًا. ومنذ تلك اللحظة، تعيش هذه الجمهورية وضعًا أشبه بحالة الطوارئ. لذلك كان هذا الإجراء متوقعًا بالنسبة إليَّ. الدرس الرابع: قبل السفر إلى بلد ما، عليك أن تقرأ عنها. ثم ابتسمت. وصلنا المدينة، وذهبنا مباشرة إلى سوبرماركت في وسط المدينة، أوقفنا سيارتنا، ثم صعدنا إلى مطاعم الفاست فود. جلسنا بعد أن أخذنا قهوتنا، وهناك حجزنا غرفة في أحد الفنادق القريبة. اتجهنا إلى الفندق. وضعنا أمتعتنا وخرجنا إلى الجبال، وفي طريقنا، أوقفنا رجل المرور وطلب مني أن أخرج، ففعلت، وعندما أرادت حبيبتي أن تخرج، طلب منها أن تبقى داخل الغرفة. قدمت له رخصة القيادة، وجواز السفر، لكنه أعاد المستندات دون أن يلقي عليها نظرة، أخرج هاتفه وأعطاه زميله الذي كان يقف جانبًا، ثم طلب منه أن يلتقط صورة تذكارية، بعد أن فعل زميله ذلك، قال الشرطي: أول مرة أتصور مع رجل من قارة الشموس، أشكرك على هذه الصورة وأتمنى لكما رحلة سعيدة. كانت حبيبتي تجلس داخل السيارة وتضحك، عندما عدت إليها، قالت: بجانب البطل الإفريقي، سأسميك نجم القارة المشمسة.

كلما ذهبنا في عمق الجبال، وجدنا مفاجآت أكثر. قلت لفيكتوريا:

يكفينـي أن أكـون بطـلًا لأنثـى مثلـك. فمسـدت شـعري المجعـد وقالـت: وأنـا يكفينـي هـذا البطـل الماثـل أمامـي. كانـت هـذه التعليقـات تجمِّـل رحلتنـا، ويكـبر الحـب في دواخلنـا شـيئًا فشـيئًا. عندمـا نظـرت إلى مـرآة السـيارة وجـدت الشرطـي وزميلـه يضحـكان فرحًـا، ولكـن حقائبنـا التـي كانـت في المقعـد الخلفـي وثيابهـا الداخليـة منشـورة شـدت انتباهـي أكـثر، فقلـت: انظـري إلى الخلـف. التفتـت حبيبتـي وقالـت: مـشردان بـين الجبـال. فأضفـتُ: مـشردان خارجـان لتوهـما مـن عـالم مـا بعـد الحداثـة. كان الطريـق خاليًـا مـن السـيارات، ولم نلتـقِ رجـال مـرور مجـددًا. كنـا نمـضي والجبـال تزيـد حجـمًا والسـحب تقـترب وكأنهـا تسـقط عـلى الأرض. بعـد ساعة مـن المسـير، كنـا تحـت الجبـل. ترجلنـا مـن السـيارة، ووقفنـا لـنرى عظمـة الطبيعـة وقـدرة اللـه عـلى الإبـداع. اختفـى الإحسـاس بالزمـن، كأننـا نعيـش في زمـن الأبديـة، وكأن العـالم كان دائمًـا هكـذا وسـيكون، ملامـح العصـور الحجريـة والوسـطى حـاضرة أمامنـا، ونحـن أبنـاء اليـوم نتحـاور مـع الإنسـان الأول، نسـأل آدم عـن طعـم التفاحـة التـي أخرجتـه مـن الجنة وأورثتنـا شـقاء الأرض، وحـواء تجيـب قبـل أن نسـألها: لسـت أنـا مـن أغـواه بـل خرجنـا لأن الرجـل لا يصغـي لصوتـه الداخـلي. بعـد قليـل انضـم إلينـا سـياح آخريـن فـزاد عـدد المشرديـن الباحثـين عـن أسرار الكـون. كان في قمـة الجبـل غرفـة بهـا نافـذة واحـدة صغـيرة وخاليـة مـن الأبـواب، فسـألت امـرأة كانـت تقـف بجانبنـا عـن سر هـذه الغرفـة، فقالـت: تحـكي الأسـطورة أن في قديـم الزمـان، وقعـت فتـاة جميلـة في حـب رجـل مـن قبيلـة أخـرى، فرفـض أهلهـا زواجهـا مـن الرجـل الغريـب، ولكـن ذات ليلـة بينـما كان النـاس نيـام هربـت مـن البيـت وذهبـت إلى حبيبهـا الـذي كان ينتظرهـا في أطـراف القريـة وقـد اتفقـا عـلى ذلـك مـن قبـل، ثـم اتخـذا مـن الغابـة بيتًـا لهـما. كان أهـل الفتـاة يبحثـون عنهـا ليـلًا ونهـارًا ولم يتمكنـوا مـن وجودهـا إلا بعـد ثلاثـة أعـوام، وقـد أنجبـت طفـلًا وكانـوا يقتاتـون مـن ثمار الأشـجار.

بنى والد الفتاة هذه الغرفة ووضعها هنا، أما الرجل قُتِلَ بعد معركة غير متكافئة، أما الطفل فجعلوه راعيًا للخيل. ظلت الفتاة هنا عشر سنوات ثم اختفت. أما النافذة الصغيرة فكانت لتقديم الطعام الذي كانوا يعطونها يومًا بعد يوم. لا يعرف أحد حتى الآن محل اختفائها، يقول البعض إنها قد ماتت، والبعض الآخر يظن أنها تمكنت من الهروب. ولكن بالنسبة إلينا تعتبر هذه المرأة رمزًا للتضحية من أجل الحب. كانت حبيبتي تذرف الدموع، وهي تقول: عبر التاريخ ضحايا المجتمعات أغلبهم من النساء.

أتى النادل يحمل فاتورة الشاي والشيشة، توقف صديقي عن الكلام، دفع ثمن طلباتنا ثم خرجنا من المقهى لأن جميع الزوار قد غادروا ولم يبقَ أحد سوانا. كنت أتأمل ما قالته حبيبة صديقي المغامر وأدركت أنها على حق. فإذا ألقينا نظرة على التاريخ البشري فسنجد الفئات المقهورة هم النساء، العلماء والأقليات. طلبت من صديقي أن نذهب إلى داخل الحرم الجامعي حيث توجد مقاعد بالقرب من النافورة ليُكمل حديثه. كانت المقاعد خالية، سوى مقعد واحد في الركن البعيد، يجلس فيه شاب ويحمل عشيقته بين يديه. جلسنا بهدوء تام حتى لا نزعج نغم الماء المتدفق من أعلى النافورة. استأنف المغامر الرومانسي سرد حكاياته الأثيرة: فهمنا أن تلك الأسطورة يجب أن تكون خاتمة رحلة. ركبنا السيارة وسلكنا طريق العودة. عندما تركنا الجبل خلفنا واتجهنا صوب العالم المتحضر، كانت الأسطورة لا تزال تسيطر علينا، وحبيبتي تنظر عبر النافذة إلى الغابات وتقول: في هذه الغابات كانت تربي طفلها وتسعد بوجود زوجها. رفعت صوت الموسيقى عاليًا حتى نخرج من هذا الحزن، لكن بلا فائدة. كانت حبيبتي تسرح بعيدًا، فأوقفت السيارة جانبًا، عانقتها وقلت: هذه مجرد أسطورة لا أحد يعرف حقيقتها، وحتى إن كانت حقيقة، فإننا لن نستطيع تغيير

شيء لأننا تأخرنا قليلًا في المجيء إلى هنا. صمتت الفتاة قليلًا، ثم هزَّت رأسها في إشارة إلى موافقة الرأي. ترك حديثي هذا أثرًا جيدًا. استطعت السيطرة على نرجسيتها ثم واصلنا المسير. عندما عدنا إلى الفندق كان الليل في طور شبابه، صعدنا إلى الغرفة وبدأت الغريزة تنادي، والجوع يتحكم علينا. خرجت إلى المدينة لأجلب طعامًا وتركت حبيبتي بالغرفة تغازل السرير الرخيم.

مدينة ضفة القوقاز من أنظف المدن التي رأيتها في الجنوب، لأن الأشجار تزيِّن طرقاتها والحدائق العامة تملأ المدينة والنصب التذكارية عالية شاهقة تذكر الأجيال بتضحيات الأسلاف. كنت أقود السيارة وأسمع الموسيقى، الطريق يكاد يخلو من السيارات، استمتع بهدوء الليل وجمال الفتيات اللاتي كن يتجولن على طرقات المدينة وأزقتها. دخلت مطعمًا أخذت منه فطائر - وهي أزكى فطائر أكلتها في حياتي - فخرجت منه وذهبت إلى الدكان لأخذ قنينة نبيذ أحمر معتق، وكانت الماركة محلية ولم أنسَ كذلك عبوات السجائر ثم سلكت طريق العودة إلى حبيبتي المستلقية على السرير الرخيم. فتحت نافذة السيارة، وضعت يدي اليسرى خارج السيارة لأتحسس أنوثة الطقس وحنانه، رفعت صوت الموسيقى لألفت انتباه الحسناوات الجميلات، قطعت أمتارًا ولم أجد فتاة واحدة، فقلت محدثًا نفسي: ربما لخير، تكفيني حبيبتي. بينما كنت أفكر في هكذا حماقات، رأيت عربة شرطة المرور تقف على بعد مائة متر أمامي. أعدت ترتيب الأمور، أغلقت نافذة السيارة، وخفضت صوت الموسيقى، عندما اقتربت منهم، كان رجل المرور يقف في وسط الشارع ولا يدع سيارة تمر إلا بعد التحقق من سلامة مستنداتها. طلب مني أن أتوقف، أوقفت السيارة جانبًا. جاء رجل الشرطة وقال: أعطني رخصة القيادة وشهادة السيارة. أعطيته كل ما أراد، ذهب إلى زميله ثم طلب مني أن أخرج من

السيارة، ففعلت. ولكن لم يتوقف عند هذه النقطة، بل طلب أن أفتح البوابة الخلفية، ففعلت. نظر إلى داخل السيارة فلم يجد شيئًا. قلت له أتيت إلى مدينتكم الجميلة هذه صباح اليوم.. لم يدعني أكمل حديثي، وسألني عن مكان الإقامة والغرض من الزيارة، فأخبرته اسم الفندق، وقلت إنني أتيت سائحًا. قال رجل الشرطي وهو ينظر إلى سيارتي الجميلة: ستُرحَّل إلى بلدك بعد أن تدفع غرامة السُكر. تعجَّبت من هذا الكلام، لأنني لم أشرب الكحول منذ أيام.. سألته: لماذا تتهمني بالشراب؟ فأخرج جهاز قياس الكحول ووضعه على جبيني، فرأيت ضوءًا أحمرًا. ثم وضعه على جبين زميله فأختفى اللون الأحمر. عندما تكون ضيفًا في بلدٍ ما، لا يُنصح بالدخول في نقاش مع الشرطة، لأن الخاسر دائمًا هو الضيف. اقترحت على الشرطي ورفاقه التسوية، فسألني عن شكل التسوية، قبل أن أجيب عن هذا السؤال، سألت عن مبلغ الغرامة الذي يدفعه السائق تحت تأثير الكحول، فأجاب الشرطي قائلًا: ثلاث آلاف من الدولارات. عند إذن فهمت اللعبة، كانت لوحة سيارتي غريبة، وأنا في ثيابي الجميلة، ظن الشرطي بأن فتى من القارة المشمسة يقود سيارة ليلًا في هذه المدينة الخالية تقريبًا من أبناء تلك الضفاف، ويسكن في فندق أربع نجوم، وربما ينوي قضاء ليلة حمراء مع إحدى الغانيات، لذلك لا يمكن أن يكون فقيرًا، مستنتجًا بأنه يجب أن نأخذ نصيبنا منه بكل السبل. وعندما تجلَّت لي الصورة بهذا الوضوح، قلت: لا أملك سوى ألفين من الروبلات، سأحتاج الألف لتزويد السيارة بالوقود، أما الألف الثانية فهي من نصيبكم. فرفض الشرطي اقتراحي وهددني بالذهاب إلى مركز الشرطة لتحرير بلاغ ومن ثَمَّ الذهاب إلى المركز الصحي لأخذ عينة من الدم للتحقق من نسبة الكحول. بدأت أفكر في حبيبتي التي لم تستطع التواصل معي لأنني نسيت الهاتف في الغرفة. لوَّح في الأفق البيروقراطية البغيضة، لم أكن

أريـد النـوم في مركـز الشرطـة تـاركًا حضـن حبيبتـي والسريـر الرخيـم، لذلـك قلـت: سـأعطيك كل مـا لـدي، أخـذ الشرطـي ألفـي روبـل ثـم قـال: تشرفـت بمعرفتـك وأتمنـى أن نلتقـي مـرة أخـرى. لم أرد عـلى سـخريته هـذه سـوى ابتسـامة غضـب وأنـا أقـول في صمتـي: يـا ابـن العاهـرة، إذا التقينـا مُجـدَّدًا، سـأجعلك تتـذوق طعـم خـراءي. عندمـا وصلـت إلى الفنـدق وجدتهـا تقـف في الاسـتقبال. أوقفـت السـيارة ثـم ذهبـت إليهـا، عندمـا اقتربـت منهـا، توجهـت إلى الغرفـة مسرعـة دون أن تتفـوه بكلمـة. دخلـت إلى الغرفـة وضعـت الطعـام وقصصـت لهـا القصـة كاملـة. حينهـا ضمتنـي في حضنـي وقالـت: ظننتـك ذهبـت مـع عاهـرة عرضـت عليـك نفسـها بـلا ثمـن. ولكـن العاهـر الرخيـص كان رجـل المـرور. دخلـت إلى الحـمام، وحبيبتـي رتبـت طاولـة العشـاء. خرجـت ومزاجـي قـد تغـيَّر للأفضـل، جلسـت بجانبهـا. تناولنـا وجبـة العشـاء وشربنـا كأسًـا مـن النبيـذ، أخذتنـي إلى حضنهـا فنسـيت الشرطـة والعـالم بـأسره ونمـت عميقًـا.

شـعرت بـألم في مؤخـرتي مـن طـول الجلـوس، لذلـك طلبـت مـن الصديـق المغامـر أن نعـود إلى السـكن الجماعـي، ويذهـب كل منـا إلى غرفتـه لينـام. قمنـا مـن المقعـد وكان العاشـقان لا يـزالان في الركـن الآخـر، يتبـادلان القبـلات. اتجهنـا صـوب السـكن، واسـتأنف المغامـر الـكلام عـن رحلتـه إلى بـلاد القوقـاز: الحديـث عـن تجربتـي ورحـلات تجعلنـي أرى المـاضي أمامـي وكأنـه يحـدث الآن، أشـعر بالمتعـة. عمومًـا، في الصبـاح بينـما كنـا نائمـين، سـمعت أحـدًا يطـرق البـاب، فاسـتيقظت وفتحـت البـاب لأجـد امـرأة تقـف، قالـت: صبـاح الخـير، هـل ترغـب في نظافـة الغرفـة؟ فنظـرت إلى السـاعة وكان الوقـت يشـير إلى الثانيـة عـشرة ظهـرًا. طلبـت منهـا أن تعـود بعـد أن نرتـب أمتعتنـا ونخـرج. اسـتيقظت حبيبتـي عـلى إيقـاع حديثـي مـع المـرأة المنظفـة. وعندمـا أغلقـت البـاب بعـد مغـادرة المنظفـة، طلبـت حبيبتـي أن أنضـم إليهـا لنقتسـم تدفـق المـاء في الصبـاح. لبَّيـتُ

النـداء دون أن أنـزع ثيـابي الداخليـة. سـألت حبيبتـي: مـاذا فعلـت بي في الليـل؟ فقلـت: السـؤال الصحيـح هـو مـاذا فعـل بنـا الليـل؟ أسـئلة جميعهـا ليسـت للإجابـة. خرجنـا مـن الحـمام، رتبنـا أمتعتنـا، تنـاول وجبـة الغـداء ثـم تحركنـا صـوب ضفـة الـرذاذ. كانـت حبيبتـي تقـود السـيارة، ولم نكـن في عجلـة مـن أمرنـا. لذلـك توقفنـا عنـد «بحيرة الضبـاب» التـي تقـع وسـط غابـة في إحـدى جمهوريـات ضفـاف الجبـال، تحسسـت ماءهـا، التقطنـا صـورًا ثـم واصلنـا المسير. عندمـا حـل الظـلام، وفجـأة ظهـر أمامنـا جبـل، شـعرنا أننـا نصعـد إلى أعـلى لأن الطريـق المظلـم كان يمـر عـبر الجبـل. نزلت عاصفـة ثلجيـة حجبـت الرؤيـة، طلبـت مـن حبيبتـي أن توقـف السـيارة، نزلـت، وقلـت لهـا دعينـي أتـولى أمـر القيـادة. كنـت في غايـة القلـق لأن الوضـع الـذي كنـا فيـه لم يحـدث لي مـن قبـل ولا أتمنـى لأحـد أن يعيـش تجربـة مماثلـه. جلسـت، تحركنـا ولم أكـن أرى أبعـد مـن متريـن، وهـي المسـافة التـي تنعكـس فيهـا ضـوء لمبـات السـيارة. قالـت فيكتوريـا: انظـر، انظـر، وأشـارت إلى عـدَّاد الوقـود. نظـرت وعرفـت أن الوقـود يكفـي مسـافة لا تتجـاوز العـشر كيلومـترات، وأقـرب مدينـة منـا كانـت تقـع عـلى بعـد ثمانـين كيلومـترًا. فأدركـت أن كل الطـرق تـؤدي إلى حتفنـا. بـدأت حبيبتـي تخاطـب المصير: نقـف عـلى قمـة الجبـل، تحـت عاصفـة ثلجيـة، الطريـق مظلـم والوقـود يـكاد ينتهـي، ولا يمكـن الوصـول إلى أقـرب مدينـة مشـيًا عـلى الأقـدام، يحـدث كل هـذا في أدغـال القوقـاز وفي الليـل؟ ثـم نظـرت إليَّ وقالـت: لا أريـد أن أمـوت، ولـو كان المـوت حتميًّـا، فأريـد أن أمـوت بكرامـة مثـل كل البـشر، وليـس هنـا وسـط الجبـال والأدغـال ونكـون لقمـة سـائغة للحيوانـات. أوقفـت السـيارة، وعانقتهـا، ثـم قلـت: لـن نمـوت - عـلى الأقـل اليـوم - ثقـي بي، سـنموت مثـل كل البشر. تحركـت بسرعة لا تتجـاوز العشرة كيلومـترات في السـاعة، وطلبـت منهـا أن تنظـر إلى الأمـام وتتذكـر حكايـات الطفولـة الجميلـة. كنـا نمـضي والجبـل يزيـد اتسـاعًا، والقلـق يسـيطر علينـا،

وشبح الموت لا يفارقنا، بعد قليل رأينا ضوءًا يشع من الخلف، توقفنا جانبًا وخرجت من السيارة. كانت سيارة أخرى تقترب منَّا، توقفت السيارة وكانت ماركة «لادا» لونها أبيض وعام صناعتها إبان حكم عزيز قرباتشوف. خرج من السيارة شابان، بعد التحية، قلت لهما: نتجه إلى ضفة ليرمنتوف، ولكن كما ترون العاصفة الثلجية تجبرنا على السير ببطء، وقبل أن أكمل حديثي، خرجت حبيبتي وقالت: وقودنا يكاد ينتهي، هل لديكما وقود احتياطي؟ فاعتذر السائق عن عدم توفر الوقود. سألته عن أقرب محطة وقود، فأخبرني بعدم وجود محطة قريبة، وقال إن المدينة ليست بعيدة، فقط خمسين كيلومترًا، ثم تمنوا لنا رحلة سعيدة وغادروا. عدنا إلى السيارة وتقدمنا لنواجه مصيرنا بشجاعة، كان مؤشر الوقود يعطي إشارات إنذار، وحبيبتي ترد عليه: اخرس، اخرس. وهو يُصفِّر غير مبالٍ بتهديدات الفتاة. عبرنا عشرين كيلومترًا، ولم تتوقف السيارة، رغم نفاد الوقود، ولكن بعض دقائق حدثت المعجزة، اختفت إشارة الإنذار، وتحول عداد الوقود إلى مائة وخمسون كيلو بدلًا عن العشرة، لم نكن نفهم ما يدور. ولكن في ذلك الوقت بدأنا نهبط من قمة الجبل، عندها أدركنا أن الوقود مع الصعود أصبح في أسفل «التنك» وعند الانحدار عاد إلى مكانه الطبيعي. نتيجة لهذا الخبر السعيد، بدأ القلق يزول، ولكن بسبب غياب الرؤية واستمرار العاصفة الثلجية لم تكتمل فرحتنا، طلبت حبيبتي أن نمضي بذات البطء والحذر حتى لا تحيد السيارة من مسارها ونجد أنفسنا في غياهب الظلام. كنت أسمع لها، لأن الأنثى تتحدث نيابةً عن إحساسها الداخلي، وفي أغلب الأحوال تكون صادقة. بعد ساعة من المشي بإرشاداتها، بدأت الرؤية أكثر وضوحًا، وبدأت العاصفة تختفي شيئًا فشيئًا، بدأ الأمل يعود، زدت السرعة إلى ستين كيلومترًا في الساعة، وعندما نزلنا من الجبل، اختفت العاصفة الثلجية تمامًا، فأصبحت

الرؤية كاملة ولكن بقي الظلام والمسافة إلى المدينة. كنا نمضي وبدأت حبيبتي تردد بعض الأغنيات بصوت منخفض. انتظمت ضربات القلب، وعادت أنفاسنا إلى مسارها الطبيعي. ظهرت أضواء المدينة، بدأت أقود بسرعة عالية، مائة كيلومتر في الساعة، ثم مائة وعشرين حتى وصلت إلى المائتين. بعد دقائق معدودة كنا في مدخل المدينة. صرخت حبيبتي بكل ما لديها من قوة، فصرخت أيضًا والدموع تنهمر من خدودنا. ذهبنا مباشرة إلى محطة الوقود، تزودنا بالوقود، وذهبنا إلى الحمام لنفرغ ثقل القلق وشبح الموت، ثم دخلنا إلى ضفة ليرمنتوف.

في تلك الضفة عاش مدة قصيرة الشاعر الروسي ليرمونتوف، لم نستطع الذهاب إلى بيته - المتحف، فقط أكلنا لحومًا مشوية في مطعم يسمى «مهرجان اللحوم المشوية»، ثم غادرنا المدينة. عند عودتنا اختلف الأمر قليلًا، وُقِّفنا في جميع نقاط التفتيش الحدودية. وفي آخر حدود تفصل بين ضفاف الجبال وضفاف الجليد، أوقفنا رجل مرور، وكان المكان خاليًا من السيارات، لم يكتفِ رجل الشرطة بمراجعة المستندات فحسب، بل بحث عن مخالفات تتعلق بزيادة السرعة التي تسجلها كاميرات المراقبة. ومن حسن حظه، وجد أن لديَّ مخالفة واحدة سُجِّلت في ضواحي ضفة الرذاذ، فقال: لن تمر حتى تدفع الغرامة. أجبت بثقة عالية لأنني كنت على معرفة بقانون المرور: سأمر دون أن أدفع، لأن القانون يعطي مهلة شهرين. أعاد لي رخصة القيادة وشهادة السيارة ثم واصلنا الطريق حتى توقفنا عند الساعة الثانية صباحًا إحدى المحطات، وكانت سيارات كثيرة تقف هنا، كان أغلب المسافرين نائمين داخل سياراتهم، فاقترحت على حبيبتي أن ننام كذلك. وفي الصباح الباكر تحركنا ولم تواجهنا مشكلة حتى وصلنا إلى العاصمة الجميلة. والآن بعد مرور أعوام على تلك الرحلة، أستطيع أن أقول إن ضفاف الجبال من أجمل المناطق التي زرتها، أهلها طيبون، لديهم

مطبخ لذيذ، ولكن بين شرطة المرور أبناء عاهرات كثر. عندما عدنا إلى ضفة الرذاذ، ورافقت حبيبتي إلى مدخل السكن، وقبل أن أتجه إلى غرفتي قالت وهي تنظر في عينيَّ: بعد هذه المغامرة، يجب أن أتزوجكِ مباشرة. فتجمدت، نسيت الكلام، كنت واقفًا وأنظر في عينيها، عانقتني ثم ذهبت إلى غرفتها. ظللت واقفًا دقيقةً ثم عدت إلى صوابي ولم أفهم إن كان ما سمعته واقعا أم خيال. في صباح اليوم التالي، ذهبت إلى محال الجواهر، أخذت خاتمًا من الذهب الأبيض وعدت إلى غرفتي، اتصلت بها وطلبت مقابلتها في المساء عند الحديقة المجاورة، فوافقت. عندما اقترب الوقت، لبست أجمل قميص لديَّ، رشقت جسدي بالعطر وذهبت. وصلت الحديقة وكنت أنتظرها. وبعد قليل رأيتها قادمة، عندما اقتربت مني أخرجت الخاتم، نظرت في عينيها - ولم أجلس على الأرض - سألتها: هل تقبلين الزواج بي؟ صمتت قليلًا، ثم قالت: نعم، نعم، نعم. ثم قفزت في حضني ويديها تُطوِّقُ عنقي.

اللغز

لغـز المصائـر غريـب، ورغـم أن البشريـة - عـبر تاريخهـا الطويـل - اسـتطاعت أن تسـبر بعـض أغوارهـا إلَّا أن كثـير مـن أوجههـا تظـل غامضـة حتـى اليـوم. يتنقـل الإنسـان منـذ طفولتـه حتـى الشـيخوخة إلى بـلاد كثـيرة، يلتقـي بأصدقـاء وأعـداء، يعيـش لحظـات سـعيدة وأخـرى لا تخلـو مـن الحـزن، وكلـما توغَّـل الإنسـان في عمـره وتأمَّـل في الكـون أصبـح أكـثر حكمـة وطمأنينـة. وإذا كان البيـت هـو المحطـة لـلأولى للإنسـان، فإنـه لا يعـرف محطتـه الأخـيرة أيـن سـتكون وكيـف ومـع مـن. منـذ لقـائي الأخـير بالعاشـق المغامـر، ميـاه كثـيرة عـبرت تحـت الجـسر. عندمـا حـكى لي رحلتـه إلى ضفـاف الجبـال، كان يـدرس في السـنة الأخـيرة، ولأننـا كنـا نلتقـي - أغلـب الأحـوال - عندمـا تهـب لنـا زينـة أشـعة مـن القـارة المشمسـة، لم نلتـقِ مجـددًا، أكمـل الدراسـة ولم أقابلـه مجـددًا. أذكـر كلامـه الأخـير معـي، وهـو يقـول «أيـام أكـثر إشراقًـا تنتظرنـا»، والآن أسـتطيع أن أقـول إننـي لا أعـرف إلى أيـن قـاده المصـير. بحثـت عنـه في الجامعـة وبـين زملائـه، ولكـن لم يدُلَّنـي أحـد عنـه، جميعهـم كانـوا يقولـون: اختفـى في ظـروف غامضـة. أمـا جـاره بالغرفـة فقـال: جمـع حقيبتـه، تمنَّـى لي حيـاة سـعيد ومسـتقبل أفضـل، ثـم خـرج في الصبـاح الباكـر دون أن يخـبرني بوجهتـه. ولأننـا نعيـش في عـصر التكنولوجيـة الرقميـة، بحثـت عنـه في شـبكات الفيـس بـوك، إنسـتجرام، فكنتاكتـي، أدناكلاسـنيكي ولكـن كل محـاولاتي بـاءت بالفشـل. لم يتبقَّـى لي سـوى التخمـين في الخيـارات المحتملـة.

بعـد قبـول فيكتوريـا عـلى طلـب الـزواج منهـا، نظـم العاشـقان عقـد قرانهـما في السـفارة بلدهـا في ضفـة الـرذاذ، وبعـد إكـمال المراسـم ذهبـا إلى أحـد المطاعـم الفخمـة واحتفـلا بدخـول بيـت الزوجيـة ولم يُدعـى أحـد

سـوى ليـزا، لأن المغامـر قـال مجيبًـا عـلى سـؤال عروسـه: لا أريـد دعـوة أحـد، لأن الأمـر يحتـاج إلى إمكانـات ماديـة، وبـدلًا عـن الـصرف في مثـل هـذه الأشـياء، أُفضِّـل توفـير المـال لـشراء أثاثـات المنـزل. وبعـد حفـل التخـرج الـذي تنظمـه الجامعـة كل عـام، جهَّـز المغامـر حقيبـة السـفر بعـد أن حصـل عـلى فيـزا سـفر إلى موطـن فيكتوريـا، وفي ذات صبـاح خـرج إلى المطـار برفقـة زوجتـه ومـن هنـاك سـافرا إلى ضفـة الجـمال النبيـذ، وكانـت الـورود تغطـي المطـار مـن كل الاتجاهـات وحتـى داخـل المطـار. نـزل المغامـر ويـد فيكتوريـا بـين إبطـه. ولمـا ضفـة الجـمال والنبيـذ. اسـتغرقت الرحلـة سـاعتين، ثـم هبطـت الطائـرة في مطـار مراتسـلافا الـدولي. كان النهار دافئًـا، تفـوح رائحـة قـدَّم جـواز سـفره مرفقًـا بجـواز حبيبتـه إلى ضابـط الحـدود، تفحَّصـه جيـدًا ثـم طلـب عقـد الـزواج، فأخرجتـه فيكتوريـا مـن حقيبتهـا وأعطتـه إيـاه. رغـم سـلامة المسـتند فـإن الضابـط قـام مـن مكانـه وطلـب منهـما أن ينتظـرا. عـاد خـلال دقائـق بعـد أن اتصـل بسـفارة بلـده في ضفـاف الجليـد واسـتفسر عـن بعـض النقـاط. أعـاد لهـما جـوازات السـفر بعـد أن وضـع عليهـما ختـم الوصـول ثـم قـال: أهـلًا بكـما في ضفـة الجـمال والنبيـذ. ذكرتـه فيكتوريـا بعقـد الـزواج، تأسـف الضابـط عـلى نسـيان العقـد ثـم أعـاده لهـما. خـرج المغامـر وعروسـه مـن المطـار وتنسَّـم عبـق عـالم جديـد قادتـه إليـه طاقـة الحـب وجـمال فيكتوريـا. كان والدهـا ينتظـر عودتهـا، وهـي لم تخـبره بزواجهـا بالفتـى المغامـر، ولكـن قالـت لـه إنهـا سـتعود ومعهـا مفاجـأة. كان يـوري يقـف عـلى بعـد أمتـار، متكئًـا عـلى سـيارته ويحتـسي قهـوة الانتظـار. في بـادئ الأمـر، لم يتعـرَّف ابنتـه، بسـبب وجـود المغامـر بجانبهـا، ويدهـا اليـسرى في إبطـه، وعندمـا اقتربـت وقالـت: بابـا. تعرَّفهـا. عانـق الأب ابنتـه، ثـم سـلم عـلى المغامـر. طلبـت فيكتوريـا مـن والدهـا الجلـوس قليـلًا في المقهـى بجـوار المطـار. جلـس العروسـان ويـوري، طلـب المغامـر كأس شـاي لـه ولعروسـته. أمـا والدهـا يـوري فلـم

يطلـب شـيئًا، إذ قـال: يـا ابنتـي، لمـا كنـتِ قـد طلبـتِ الجلـوس هنـا، فـلا بـدَّ مـن سـببٍ يسـتحق ذلـك. كان الفضـول يسـيطر عليـه، كان يريـد أن يعـرف المجهـول، ويكشـف حُجُـب الغمـوض، ولكـن لم يكـن يتوقـع حجـم المفاجـأة. ولأن لا أحـد يحبهـا أكـثر مـن أبيهـا، بـدأت فيكتوريـا تتحـدث بثقـة عاليـة، وهـدوء في الـروح، حيـث قالـت: يـا حبيبـي، أبي العزيـز، أعـرف أنـك كنـت دائمًـا تريـد أن تـراني سـعيدة، لذلـك سـاعدتني في الدراسـة ثـم السـفر لنيـل درجـة الماجسـتير. هأنـا ذا قـد أنجـزت المهمـة، بـل أكـثر مـن ذلـك، وجـدت سـعادتي وهـو الآن بجانبـي. ثـم أشـارت إلى المغامـر. كان يـوري يصغـي إلى ابنتـه ويبتسـم، حتـى آخـر كلمـة. وعندمـا سـكتت فيكتوريـا عـن الـكلام، أجـاب: يـا ابنتـي، اليـوم أنـا في غايـة السـعادة لأنـك اعترفـتِ بأنـك سـعيدة ومـاذا يريـد الأب أكـثر مـن سـعادة ابنتـه! عندهـا قامـت فيكتوريـا وعانقـت والدهـا ثـم قالـت: إذًا، لمـاذا لا تبـارك لنـا بالـزواج؟ نزلـت دمعـة مـن عينيـه، ولمـا رأتهـا، حزنـت وبـدأت تبـكي، أخذهـا والدهـا إلى حضنـه والدمـوع لا تتوقـف عـن الانهـمار. ولأن للمغامـر قلـب أيضًـا، تأثـر بالمشـهد كثـيرًا، أخـذ مناديـل، أعطـى واحـدًا لحبيبتـه، وآخـر لـلأب الحنـون، في حـين احتفـظ بالثالـث ليمسـح بـه دموعـه التـي بـدأت تتسـاقط. بعـد هـذا البـكاء الجماعـي، سـأل يـوري ابنتـه: لمـاذا هكـذا؟ عندمـا طـرح الأب هـذا السـؤال، نهـض المغامـر مـن مقعـده وقـال: سـأعود فـورًا. ثـم اتجـه إلى الحـمام. كان المغامـر يريـد أن يتركهـما عـلى انفـراد ليناقشـا بـلا حـرج. ذهـب أولًا إلى الحـمام ثـم خـرج إلى الشـارع ليدخـن سـيجارته. وبينـما كان يدخـن، جـاءت فتـاة عابـرة، نظـرت إليـه ثـم ابتسـمت، سـألها المغامـر عـن سـبب الابتسـامة، فأجابـت قائلـة: تروقنـي ملامحـك، وإذا لا تمانـع دعنـا نتبـادل أرقـام الهواتـف، فوافـق المغامـر. ثـم اسـتأنف يـوري حديثـه: منـذ نعومـة أظافـرك، كنـت أفكـر في قـدوم لحظـة زفافـك لأخـذك في يـدي وأسـلمك إلى العريـس، كان هـذا الحلـم يكـبر يومًـا

بعد يوم حتى بلغت هذا العمر، والآن جاءت الصدمة والحلم تبدَّد. كان الأب صادقًا في كلامه، لأن هذا لم يكن حلمه وحده، بل كل أب يحلم بهذه اللحظة. فأجابت قائلة: نحن فقط عقدنا قِرانًا، وحتى الآن هناك فرصة لتنظيم طقوس الزفاف بالطريقة التي تتمناها. أخذت فيكتوريا منديلًا ومحت أثر الدموع عن خدي والدها، وهنا عاد المغامر وانضم إلى أهله. وبعد أن دفع يوري الحساب خرج الجميع متجهين إلى مدينة ضفة بيتشا حيث تعيش فيكتوريا وأسرتها. عند وصولهم إلى البيت، أخذ يوري الحقائب إلى الداخل. استقبل أفراد الأسرة الضيوف بحرارة، ولم يكن أحد يعلم بزواج فيكتوريا سوى أمها. وكانت الأسرة قد أعدَّت أطباق من الوجبات الطازجة احتفاءً بعودتها التي غابت لعام وثلاثة شهور. كان المغامر في الحمام، عندما رأت كريستينا الأخت الصغيرة خاتمًا يزين أنامل أختها، فسألت: ما هذا؟ أجابت: سأخبرك بكل شيء عندما نجلس حول الطاولة لتناول وجبة العشاء. جلست الأسرة حول الطاولة، وقرأ فيكتور آيات من الإنجيل شاكرًا للرب على نعمته، ثم بدأ الناس يأكلون اللحوم والخضراوات. وكانت جدتها تقول هذه الطماطم والخيار من مزرعة المنزل، وهي من غرستهم بيدها. والأسرة السعيدة تضحك فرحًا بتعليقات الجدة، هنا قالت فيكتوريا: دقيقة صمت وهدوء، أريد أن أعرفكم بزوجي. وهناك سردت القصة كاملة منذ لحظة اللقاء الأول حتى عقد القران. اعترى شعور الفرح والدهشة جميع أفراد الأسرة سوى يانا والدة ليزا التي كانت سعيدة بزواج ابنتها. شغَّلتْ كريستينا موسيقى وبدأ الجميع يرقص وكؤوس الشمبانيا تزين أمسيتهم. استمر الحفل الأسرى حتى ساعات متأخرة من الليل، ثم ذهب كل منهم إلى غرفته ويانا كانت قد أعدت غرفة للعروسين. كانت فيكتوريا ترتب الفراش عندما رن هاتف المغامر، ولكنه لم يعره اهتمامًا. وبعد دقيقة رن الهاتف مجددًا، رد المغامر، بدأ

يسمع صوت فتاة تقول: آلو، آلو.. كان المتصل هي الفتاة التي التقاها عندما كان ترك يوري وفيكتوريا يتحدثان وخرج يدخن سيجارته، كانت الفتاة وحيدة، فتذكرت ملامح المغامر التي تسُر الناظرين، فقرَّرت أن تدعوه ليقاسمها كأس النبيذ ويغنِّي للصداقة بين الشعوب، ولكن المغامر أجاب قائلًا: آسف، ولكنك قد أخطأتِ الرقم، أتمنى لكِ ليلة سعيدة. لم تسمع عروسته ما دار من حديث، لذلك سألت عن المتصل، أخبرها المغامر بأن أحد ما أخطأ الرقم لا أكثر ولا أقل. قالت له: تعالي إليَّ. ثم ضمته في حضنها وغرقًا في العسل. منذ ذلك اليوم أصبح المغامر مواطنًا من ضفة الجمال والنبيذ، رفض أن يحصل على جواز سفر تلك الضفة قائلًا: يكفيني الحب الذي يتدفق من قلب فيكتوريا والسقف الذي نعترشه. وقد أنجبت لهما فيكتوريا طفلة.. يعمل المغامر الآن مدرسًا للغات ضفاف الجليد والقارة المشمسة في ضواحي مراتيسلافا، وقبل مدة قصيرة فتح مدرسة للرقص...

ربما عاد الصديق المغامر إلى الوطن مهد الطفولة والذكريات، وجد الحال قد تغيَّر، حيث اندلعت ثورة ديسمبر المجيدة التي أطاحت بالنظام الغاشم وعلى رأسهم الديكتاتور العاقر البدين. استوعبت الحكومة الجديدة الكوادر المؤهلة بمن فيهم العائدين من الخارج، فتحت الوزارات فرص عمل، وقدم المغامر في الوظائف التي أعلنتها وزارة الخارجية، ونسبة لتمكنه في عدد من اللغات الأجنبية وقدرة على التحليل والملاحظة وكتابة التقارير، - وبعد اجتياز المعاينات - قُبِلَ في الوزارة بدرجة سكرتير أول في القسم الأوروبي ومسؤول عن شؤون ضفاف الجليد بالتحديد. لم ينسَ الصديق المغامر حياته الشخصية، وخاصة والدته التي كانت تسأل: متى أرى أحفادي؟ ولم يكن للمغامر أجابه على هذا السؤال، ولكنه تذّكر فتاة كان يحبها خلال دراسته الجامعية في بلده انقطع الوصل بينهما قبل لحظات من السفر، ولأن

المغامـر كان سـعيدًا في عملـه، بـدأ يبحـث عـن الفتـاة، سـأل عنهـا زمـلاء الدراسـة، وأخـيرًا وجـد لهـا طريـق بعـد شـق الأنفـس. في بـادئ الأمـر، كتـب لهـا رسـالة نصيـة، يعتـذر فيهـا عـن الانقطـاع الطويـل، ثـم يوضـح فيهـا ظـروف عودتـه إلى الوطـن وطبيعـة عملـه ومـكان إقامتـه، وختـم الرسـالة برغبتـه في اللقـاء. مـع أنَّ خديجـة ودَّعتـه آخـر مـرة بخيبـة أمـل كبـيرة، فإنهـا وافقـت عـلى المقابلـة. في مسـاء الخميـس عـلى ضفـاف النهـر كان اللقـاء الأول. كان المغامـر يقـود سـيارة فارهـة اقتناهـا قبـل شـهور قليلـة. لم تكـن لحظـة اللقـاء سـهلة. كان يشـعر بأسـف وتأنيـب ضمـير عـلى الانقطـاع الطويـل، وأمـل عـلى تضميـد جـراح المـاضي وفتـح صفحـة جديـدة. كانـت خديجـة حزينـة عـلى غيابـه الطويـل، وظهـوره المفاجـئ. عندمـا اقتربـا، جـرى حـوار بينهـما:

صمت المغامر قليلًا، ثم قال:

- سعيد برؤيتك.

سألت خديجة بشكل مباشر:

- ماذا تريد؟

- لا أريد شيئًا، فقط أردت رؤيتك. شكرًا على تلبية الدعوة.

لم تكـن إجابتـه صادقـة، ولكـن نسـبة إلى خبرتـه الجيـدة في التعامـل مـع الجنـس اللطيـف، تعمـد في اختيـار هـذه الكلـمات. وبعـد ذلـك توجـه إلى سـيارته، قائـلًا: مـع تمنيـاتي لـك بحيـاة سـعيدة. خديجـة لم تكـن تتوقـع هكـذا ردة فعـل، كانـت تظـن أن الصرامـة سـتؤلمه وبذلـك سـتنتقم منـه عـلى الغيـاب. لكـن المغامـر كان يمـشي صـوب السـيارة دون أن يلتفـت إلى الفتـاة الصارمـة، وعندمـا اقـترب مـن سـيارته، سـمع خديجـة تقـول:

- توقف، توقف، ماذا بعد رؤيتي؟

عاد المغامر، اقترب منها وعانقها بشدة، قائلًا:

- لا يزال الحب باقيًا.

ثـم غـادر. كانـت خديجـة في حـيرة مـن أمرهـا، لم تفهـم مـا الـذي حدث للتـو. جلسـت في المقعـد الـذي كان أمامهـا وبـدأت تنظـر إلى النهـر وتتأمـل في الأمـواج القادمـة مـن الهضـاب الإثيوبيـة وتقارنهـا بالأمـواج التـي تتدافـع في داخلهـا. كانـت كذلـك حتـى بـدأت تتسـاقط عـلى وجههـا قطـرات طائشـة مـن أمـواج النهـر كأنهـا إشـارة مـؤازرة. هـدأت مـن صدمتهـا، ثـم غـادرت إلى البيـت. في منتصـف الليـل، عندمـا نـام المتعبـون الذيـن أرهقهـم الـصراع مـن أجـل لقمـة العيـش، وعـم الهـدوء في الطرقـات وبـين أسـوار البيـوت، كانـت خديجـة تفكـر وتنظـر في هاتفهـا، كان السـهاد يؤرقهـا في تلـك الليلـة، فكتبـت رسـالة نصيـة: لا أسـتطيع أن أنـام، إن كنـت مسـتيقظًا، فأرجـو أن تتصـل بي. لم يغـادر الصديـق المغامـر عبثًـا بعـد أن قـال جملتـه المشـهورة «لا يـزال الحـب باقيًـا»، كان يـدري أن خديجـة سـتعود إليـه باتصـال أو رسـالة لذلـك لم ينـم وكان ينتظـر. فبعـد أن قـرأ الرسـالة، اتصـل، ثـم تحدثـا طويـلًا. قالـت خديجـة:

- بعـد غيابـك، تعرَّفـتُ أصدقـاء جُـدد، وكانـت لـديَّ علاقـات عاطفيـة، ولكـن كلهـا بـاءت بالفشـل لأني لم أجـد فيهـا ملامحـك، وطلـب عـدد مـن أبنـاء عمـي الـزواج منـي ولكـن رفضـت..

رد المغامر قائلا:

- وأنـا كذلـك في الغربـة تعرَّفـت أصدقـاءً، وعشـت تجـارب عـدَّة، ولكـن لم أنـسَ أيامـي الجميلـة معـك، كنـت أفكـر بـك، ولكـن المسـافات حالـت دون الوصـول إليـك. أمـا الآن، فأنـا قريـب أجيـب دعواتـك، لا أحلـم سـوى بالبقـاء بجانبـك، العيـش معـك تحـت سـقف واحـد وإلى الأبـد.

قالت خديجة:

- لا تقل هذه الكلمات، لأنك لا تعرف ما في داخلي، لا يمكن أن تأتي بعد سنوات عدَّة، وتظن أن الكل ينتظر عودتك.

- أنا أتحدث عن رغباتي وأشارك الكون أمنياتي لعله يصغي ويجيب.

- إن كنت لا تمانع، دعنا نلتقي غدًا، في ذات المكان والزمان.

- بكل تأكيد، سيكون هذا من دواعي سروري.

قال المغامر (يس yes) احتفاءً بنجاح المرحلة الأولى من الخطة. في اليوم التالي وبعد انتهاء ساعات الدوام، ذهب المغامر إلى الموعد. لم تكن خديجة هناك، جاءت بعد ربع ساعة من الزمن المحدد. في ذلك الوقت كان المغامر جالسًا في المقعد ينتظر، اقتربت منه ثم قالت: أعتذر عن التأخير، كيف حالك؟ لم يجب المغامر على هذه الأسئلة، ولم يُعلِّق على التأخير، بل قال: هل لديك أحد في حياتك؟ فوجئت خديجة بهذا السؤال، كانت تظن أن فاتحة اللقاء ستكون مفعمة بالبوح عن الحب، لكنه كان ماكرًا. قالت: كان هناك أحد في حياتي، وأنت تعرفه جيدًا، لأنه من أحد أصدقائك بالجامعة.. افترقنا منذ مدة، وانقطع الوصل بيننا. كان الأمر مفاجئًا بالنسبة إلى المغامر، ولكن بحكم تجربته ومكره قال: لا أريد أن أعرفه، لأن الماضي لا يمكن تغييره، ولأنه صديقي، فكان من الطبيعي أن يكنَّ لك شعور حب وليس كراهية.. ثم سأل: والآن، هل بقي لي نصيب من الحب في قلبك؟ ابتسمت خديجة، وأخذت جحرًا ورمته تجاه النهر، في مشهد رومانسي لا مثيل له. قام المغامر من مكانه، ثم أخذ يدها ثم ذهبا إلى السيارة. لم يفصح عن المكان الذي يريد الذهاب إليه، ولم تسأله عن ذلك. بعد مرور ساعة من الوقت، توقفت السيارة أمام منزل أسرتها. وهناك، وبعد شراب عصير الضيافة والتعريف بنفسه، تحدث إلى والدها على

انفـراد قائـلًا: جئـت لأطلـب منـك يـد ابنتـك خديجـة. وافـق الأب عـلى الطلـب، وبعـد أسـبوع انتهـت مراسـم الزفـاف، وأخـذ المغامـر عروسـه وذهـب إلى جبـل مـرة لقضاء شـهر العسـل. عـاد مـن هنـاك بعـد أسـبوعين، ثـم زار أمـه مجـددًا، وبعـد ذلـك اسـتأنف العمـل. والآن يذهـب إلى العمـل في الصبـاح بعـد تنـاول الفطـور مـع حبيبتـه، ثـم يعـود في المسـاء محمَّـلًا بالمـواد الغذائيـة، وبعـد تنـاول الغـداء، يقـرأ مـن دفاتـر المـاضي، ويتذكـر سـنواته قبـل السـفر وأيـام الجامعـة، ثـم ينـام بـين أحضـان زوجتـه. أمـا في عطلـة نهايـة الأسـبوع يشـاهد المغامـر فيلـمًا وثائقيًّـا عـن ضفـاف الجليـد ويقـرأ الأخبـار وفنجـان القهـوة يزيـن يـده.

وربمـا عـاد إلى الضفـاف المشمسـة، ومـن المطـار ذهـب مبـاشرة إلى القريـة التـي ولـد وترعـرع فيهـا، حيـث تعيـش والدتـه. عندمـا وصـل إلى القريـة، اسـتقبله الأهـل اسـتقبال الملـوك، ذبحـوا لـه ثـورًا، ودعـوا النـاس للاحتفـال بالعائـد مـن بـلاد ضفـاف الجليـد. بعـد أيـام قليلـة مـن عودتـه، خـاض جولـة حـول القريـة، تفقَّـد المدرسـة، التيـار الكهربـائي، وخـزان المـاء، ثـم طـاف حقـول القمـح والـذرة. بعـد ختـام جولتـه، دعـا المغامـر جميـع أهـل القريـة لاجتـماع عـام، حـضر الجميـع مـن أصغـر طفـل حتـى أكـبر شـيخ. سـمع مـن أفـواه الحضـور المشـكلات الأساسـية التـي تواجههـم، ثـم قـال: خرجـت مـن هـذه القريـة منـذ سـنوات عـدَّة، تعلَّمـت في الجامعـات المحليـة والعالميـة، زرت دولًا كثـيرة، التقيـت أصدقـاءً مـن مختلـف الثقافـات والجنسـيات. والآن عـدت إلى موطنـي، قريتـي التـي ولدتنـي لأرد الجميـل. كل هـذه المشـكلات التـي تواجهنـا يمكـن معالجتهـا، ولكـن في البدايـة دعونـا نبـدأ بالمدرسـة. بخصـوص المدرسـة، سـنصونها معًـا، ونزيـد عـدد الأسـاتذة، أمـا توفـير الكتـب والدفاتـر ووجبـة الفطـور سـتوفرها الحكومـة. أمـا المسـألة الثانيـة، سـننظِّف القريـة مـرة كل أسـبوع، والجميـع سيشـارك في عمليـة النظافـة. توفـير معـدات النظافـة تقـع عـلى مسـؤوليتي. سـندرِّس

كورسـات تعليـم الكتابـة والقـراءة وأساسـيات التكنولوجيـا لكبـار السـن، حتـى يتمكـن الجميـع مـن اسـتخدام الواتسـاب، الفيسـبوك وغيرها مـن الوسـائل. كان الحضـور يسـتمع للمغامـر بدهشـة، وعندمـا انتهـى مـن حديثـه، بـدأوا يـرددون بصـوت مرتفـع: المغامـر، المغامـر، المغامـر.. تأييـدًا لأفـكاره وخططـه، رغـم أن بعـض المفـردات كانـت غريبـة عـلى مسـامعهم. عندمـا عـاد إلى البيـت، كانـت أمـه تفتخـر بـه، وأصبـح المغامـر موضـوع المسـامرات في القريـة، ولم يسـلم حتـى مـن جلسـات «الجبنـة» التـي تنظمهـا نسـاء القريـة ليـلًا ونهـارًا.

قالت أمه:

- أول مـرة يسـمع النـاس كلامًـا أسـعد نفوسـهم، لذلـك كانـوا يـرددون اسـمك.

- وأي قصص كنتم تسمعون لها؟

- حدثـت قبـل أسـبوع مـن وصولـك، قريـة «أم جضـوم» المجـاورة لنـا، تعرضـت لحريـق هائـل، والسـبب هـو أن جميـع بيـوت القريـة مبنيـة مـن القـش، وعندمـا تعـارك فـلاح مـع راعـي البقـر، أشـعل الراعـي – في الليـل والنـاس نيـام –نـارًا في منـزل الفـلاح، وكانـت الريـاح تهـب بشـدة، فعندمـا اسـتيقظ الفـلاح وأسرتـه مـن حـرارة النـار، وجـدوا حريقًـا قد نشـب بالبيـت، حـاول الفـلاح إطفاءهـا بعـد أن أخـرج زوجتـه وأطفالـه، ولكـن لم يسـتطع السـيطرة عليهـا، فنـادى الجـيران وأهـل القريـة، وقبـل أن يصلـوا إلى مـكان الحريـق، انتقلـت النـار إلى المنـزل المجـاور، ثـم إلى المنـزل الثالـث، والريـاح العاتيـة لم تتوقـف، كان النـاس يصبـون المـاء في هـذا المنـزل، وكلـما همُّـوا بإطفـاء النـار اشـتعلت في منـزل آخـر. وعندمـا حـلَّ الصبـاح، احترقـت القريـة بِرُمَّتهـا، وهربـت المـواشي إلى الحقـول، وقُتِـلَ طفـل واحـد مصابًـا بالربـو لم يسـتطع تحمـل الدخـان.

تعجَّب المغامر مما حدث، ولكن أمه قالت: لا تتعجَّب، لأن هناك قصصًا كثيرة مماثلة. ثم أضافت: عندما كنت طفلة، كنا نلعب في أزقة قريتنا عندما رأينا جموع كبيرة تركض نحو قريتنا، كنا صغارًا لذلك عدنا إلى البيوت خوفًا من أن يكونوا كائنات آكلة للحوم البشر من حكايات (الحبوبة)، ولكن بعد قليل خرج كبار القرية واستقبلوا الهاربين، وكانوا من القرية المجاورة لنا، حكوا أن قريتهم تعرضت لحريق وذبح فيها شابًا، والفاعلون هم من قوم كانوا يسكنون ليسوا بعيدًا عن القرية المحروقة، بسبب شاب ضُبِطَ يمارس الجنس مع فتاة تنتمي إلى قبيلة هؤلاء القوم. اجتمع أهل قريتنا ليجدوا حلولًا لهذه المشكلة. فاتفقوا على الذهاب إلى الشرطة، وحل المشكلة عبر القانون، ولكن الشرطة لم تحرك ساكنًا بل أيدت فعل القوم وساندتهم. عند إذن قام شيخ كبير وقال: يجب حل هذه المشكلة سلميًّا، ولا ينبغي التفكير في الثأر - على الأقل الآن - ولما كان ابنكم قد أخطأ يجب تحمل المسؤولية والعودة إلى قريتكم وإعادة بنائها، أما نحن فسنقدم لكم العون والمساعدة حتى تعود القرية إلى سيرتها الأولى. وعندما يأتي الوقت المناسب وتستعيدون قوتكم، حينها يمكن التفكير في الثأر. هكذا انتهت المشكلة ولا أعرف ما حدث بعد ذلك.

يعيش المغامر مع أمه لكبر سنها، ويعمل بمدرسة القرية، بجانب المواد الأخرى، يدرس لغات ضفاف الجليد. يذهب إلى المدرسة في الصباح الباكر ويعود في آخر اليوم، يُعِدُّ وجبة العشاء، وفي المساء يجلس بجانب أمه، يحدثها عن الضفاف البعيدة ومعاناتها وتحدثه عن الحياة ودروسها. هكذا يعيش المغامر ولا يفكر في الزواج، لأن فيكتوريا كانت تعيش في قلبه.

وربما...

الفصل الثالث

المحارب الصغير

«و أرى في المدى وجهة أمي

نهر ضوء.. زهرُ فستانها

حناءها الباهتة.. صوتها الخافت في الصبح

ثوبها.. كوب ماء معد وأبريق شاي»

مكي أحمد « التنزه على رصيف الألم»

المعيار الحقيقي للتمييز بين الشيخوخة والصبا هو الطاقة الإبداعية. لم يكن أحد يتوقع أن هذا الطفل الذي يتسكع في هذه القرية المرمية على تخوم إفريقيا، سيبني جسرًا جديدًا بين ضفاف الشرق والغرب.. لكن التلاميذ شعروا بشيء مختلف عندما قال كلمات أشبه بالقصيدة في ذلك اليوم.

استيقظ في الصباح الباكر، كان الفصل شتاءً ورياح الشمال بدأت ترسل نسماتها الباردة. لم يجد أحدًا في المنزل، إذ إن جميع أفراد العائلة ذهبوا إلى الحواشة[1] تمهيدًا لمحاربة الجوع الذي يزورهم في كل عام مرتين أو مرة واحدة في أفضل الأحوال. حسن الذي يتأهب إلى الذهاب إلى المدرسة، لم يجد حتى القنقو ليسد به الرمق. ركب دراجته الطائعة تلك وخرج بعد أن مسح جسده بزيت «الزلابية» التي صنعتها حبوبته في الأسبوع الماضي. كان الهواء يهب عكس تيار حسن، لكن براءته وإرادته كانتا أقوى بكثير من قسوة الطبيعة هناك. عشرون دقيقة كانت كفيلة للوصول إلى المدرسة التي تقع في القرية المجاورة. بينما

(1) الحقل. المزرعة.

كان حسن ذا الثانية عشرة من عمره في الطريق، التقى الصبية آشته التي كانت ترعى الماشية: «حسن، الله معاك، ترا، تعب كتير، لكن القراية سمح..». هذه الكلمات الدافئة قتلت شراهة اليأس والجوع التي كانت تنمو خفيةً داخله. ابتسم حسن في وجهها وواصل طريقه. وقف التلاميذ صفًّا واحدًا في الطابور. كانت فقرات البرنامج الصباحي روتينية: قراءة قرآن، حديث شريف، شعر، فكاهة، وبعض التدريبات العسكرية. في ذلك الصباح قرأ حسن قصيدة مرتجلة:

آشته يا حلوة زي لبن الصباح،

أنا كنت جعان، لكن شوفتك خلاني أرتاح

ناس أمَّا طلعوا الحواشة بدري وفي البيت ما في ملاح..

أنتي يا آشته سمحة زي البرتكان والتفاح.

بعدما أبقى كبير، أجيب ليك بهايم مراح.

بعد هذه الكلمات قوبل حسن بتصفيق حار من زملائه التلاميذ، إذ أدخل لونًا جديدًا من الشعر. كان الطلاب مصابين بملل من الشعر المدرسي الفصيح أو القديم الذي يُقرأ يوميًّا، لأنهم لا يحسُّونه ولا يفهمونه. منذ تلك اللحظة أصبح حسن - بالنسبة إلى التلاميذ، شاعر المدرسة المفضل. بعد انتهاء الفقرات، تحدث المدير عن ضرورة دفع الرسوم الدراسية ونثريات المعلمين، ثم أمر التلاميذ بدخول الفصول. كانت الحصة الأولى مادة الرياضيات، قرر أستاذ المادة أن يجري اختبارًا. وقبل ذلك، أمر التلاميذ بتفريغ الحقائب - وهي عملية تفتيش بخرات. بدأ التلاميذ بتنفيذ أمر الأستاذ بالتتالي، عندما جاء الدور لحسن، أفرغ حقيبته لم يجد الأستاذ أي شبهة، لكن التلاميذ ضحكوا بصوت واحد عندما رأوا نصف حقيبته مليئًا «بالقنقو». أما

حسن فكان يحلق في سماء عالية تزينها نجوم الفرح، عندما اكتشف أن هذا «القنقو» وضعته أمه في الحقيبة عندما كان نائمًا، وهو وجبة فطوره.

كانت أمه كلتوم، امرأة فارعة الطول، جميلة مثل كل نساء العالم، ابتسامتها كالندى الذي يتراقص متمهلًا فوق كل زهرة، صارمة ورقيقة في الوقت نفسه كمناخ المناطق الباردة، في الخمسينيات من العمر، تربي ابنها لوحدها. ولأن زوجها اختفى في ظروف غامضة، ربما ذهب إلى قرية أخرى بعيدة وتزوج امرأة أخرى - هكذا يفعل كثير من رجال بلاد الفيلان. لديها مزرعة، امتلكتها منذ زمن بعيد. تزرع الذرة والبقوليات والخضراوات كل حسب الفصول والمناخ. درست كلتوم القرآن الكريم، ولكنها لم تعرف المؤسسات التعليمية الأخرى يومًا. امرأة اتسمت بالحكمة حتى أصبح الناس ينادونها بكلتوم الحكيمة – الحكمة لا تُتعلُّم في المدارس. مرت سنوات عدَّة وهي تعول الأسرة وحدها دون كلل أو ملل، تذهب إلى المزرعة في الصباح الباكر، وتعود في وقت الظهيرة لتعدَّ وجبةً لابنها وتأخذ قسطًا من الراحة لتعود إلى المزرعة مجددًا.. عندما تبدأ الشمس في الاحمرار بسبب لحظات الوداع، تلملم كلتوم أغراضها وتعود إلى البيت، وكأنها تغازل الشمس التي تملأ الفراغ الذي تركه زوجها الغائب الحاضر كالسراب.

كان اليوم خميس عندما رن الجرس معلنًا بدء توزيع نتائج العام الدراسي. في ذلك اليوم «كان الصباح بهيًّا كوجه سلمى» كما قال صاحب الجدلية[1]، التلاميذ في زيهم المدرسي الجميل مثل أرواحهم. كان حسن يقف بين زملائه الثلاثة. بدأ حسن يشعر بالتوتر. وقف أستاذ خالد في وسط الطابور، في تلك اللحظة وقعت عيناه على حسن، حينها زاد توتر التلميذ القروي، ولكن رفيقه الذي بجانبه همس في أذنه سرعان

(1) يُقصد كتاب «جدلية الهامش والمركز» للأديب والمفكر السوداني أبكر آدم اسماعيل

مـا تـلاشى ذلـك الشـعور. عندمـا ذُكَـرَ أسـماء التلاميـذ مـن الأول حتـى الرابـع، كان حسـن (بطـل الأمـس) في حالـة الدهشـة، وسـؤال واحـد يـتردد في ذهنـه، لمـاذا لم يذكـر اسـمي حتـى الآن؟ هـو الـذي أحـرز المركـز الأول في السـنة الماضيـة!! لكـن الرقـم الخامـس أتى بإخبـار سـارة.. كان الأسـتاذ قـد أطلـق عـلى حسـن اسـم الغـلام مـلام.. خـرج ليجنـي مـا زرعـه طـول العـام.. لم تبـدُ ملامـح الفرحـة في وجهـه، لكـن الأسـتاذ ضمـه إلى حضنـه وقـال لـه: نحـن نثـق بـك ونعـرف أنـك تلميـذ نابـغ، الدرجـة الخامسـة ليسـت سـيئة، اجتهـد لتتقـدم إلى الأمـام في العـام القـادم. لم ينبـس حسـن بكلمـة واحـدة، أخـذ شـهادته والحـزن يمـلأ قلبـه.

ذهـب حسـن مـع أصدقائـه إلى الجـدول للاسـتحمام، تحدثـوا عـن مدى نزاهـة نتائـج العـام الـدراسي وعـن صبايـا المدرسـة. عـاد إلى القريـة متأخـرًا بعـد أن تسـكع هنـا وهنـاك. لم يجـد أمـه بالمنـزل وظـنَّ ربمـا ذهبـت إلى المسـجد لأداء صـلاة المغـرب وتأخـرت هنـاك لسـبب مـا. عندمـا وصلـت إلى منزلهـا، كان ابنهـا مسـتلقيًا عـلى العنقريـب، لكنـه نهـض حالمـا رأى أمـه. أقبـل عـلى والدتـه وارتمـى في حضنهـا لا ليخفـف مـن حـدة ألمهـا ولكـن لينـسى خيبتـه مـن إحـراز المركـز الخامـس في هـذا العـام المشـؤوم قالـت:

- كيف أنت يا وليدي؟

- أنا حزين شديد يا أمي.

- مالـك؟ عشـان مـا لقيـت أكل في البيـت؟ هـسي أنـا جيـت وبعمـل ليـك العشـاء، تـأكل لغايـة مـا تقـول بـس.. في تلـك اللحظـة سـقطت دمعـة عـلى خـد كلتـوم مـن شـدة الألم، كـم هـي قاسـية الحيـاة أحيانًـا..

لكـن حسـن أراد أن يخـبر والدتـه السـبب الحقيقـي لغضبـه، وقبـل ذلـك، خطـر في بالـه سـؤال:

- أمي الليلة اتأخرتِ في الحواشة إن شاء الله خير؟

- لأني كنت ماسكة موية عشان إخوانك التانيين يبقوا كبار برضه.

أغلب نساء العالم لديهن قدرة عالية على تذوق الجمال الخفي للحياة، وكلتوم كانت من هذه السلالة النورانية. لم تخبر ابنها بكل التفاصيل.. كانت تتأخر من زمن إلى آخر، لأنها كانت تستمتع بجمال الحقول، تتأمل في ألوان النباتات المختلفة، تُميِّز عبق كل نبته، زهرة، كانت تتجول بالحقول حافية القدمين لتشعر بالعلاقة بينها وبين الطبيعة، تميز أنواع الأعشاب عن طريق القدم والعبق. فكانت تبقى حتى مغيب الشمس تتسامر مع النباتات، تأخذ من جمالهن، وتسقيهم الماء ليظلوا على قيد الحياة.

- أمي، الليلة تسلمنا النتايج.. وأنا جيت الخامس.

- أنت فالح يا وليدي، ربنا يخليك لي.

لم تكن تهتم كثيراً بالدرجة التي أحرزها، ليس لأنها لا تبدي اهتمامًا، لكنها لا تعرف الفرق. لذلك أردفت سؤالها بسؤال آخر:

- طيب يا وليدي، إذا كملت المدرسة، مالك زعلان؟

- لأنه يا أمي أنا كنت بجي الأول، المرة دي جيت الخامس.

- ما مشكلة، السنة الجاية شد حيلك وتاني تجي الأول.

بعد تناول العشاء، قدمت كلتوم لابنها كوبًا من الحليب، ثم همت بأداء صلوتها. أما حسن استلقى في السرير بعد أن فرغ من شرب الحليب. عندما أدت شعائرها الدينية، وبدأت تنادي بصوتها الحنون: يا وليدي، يا وليدي. في ذلك الوقت كان ابنها يلحق في سماوات النوم العميق ويستبشر آفاق الحلم الجميل.

في تلك البلاد التي كان يسودها الفقر، يخيِّم شبح الندرة على حياة الناس. لذلك تخفي الأمهات في القرى المواد الغذائية مثل السكر، الزيت، اللحوم المشوية بشكل خاص. ليس بخلًا على الأبناء، بل تماشيًا مع ظروف الحياة. لكن هذه الإجراءات المشددة كانت تُخرق بين الفينة والأخرى من قبل الغزاة (الأبناء المشاكسين). عندما يقومون بحملة بحث شاملة في غيابهن. كان حسن يعتبر عضوًا سريًّا في هذه المنظمة التي تمارس السطو المباح.

في مدة الإجازة، كان حسن يتسكع حرًّا طليقًا، لأنه لم يكن يؤدي بعمل يذكر. كان يأخذ في الصباح الماشية إلى ود الحلو راعي الماشية، وبعدها يعود إلى البيت أو يذهب إلى هارون صديقه ليقضيا معًا ما تبقى من يوم. وبما أن أفراد أسرتيهما يذهبون إلى المزرعة في الصباح الباكر ويعودون وقت القيلولة ثم يرجعون ليعملوا حتى غروب الشمس، كل ذلك الوقت كان الصديقان يبتكران طرق - بكل الوسائل الممكنة - للسطو.

من زمن لآخر كانت كلتوم تفقد شيئًا من تلك المقتنيات النفيسة واللذيذة.. ولأن من يقطن في البيت شخصان (هي وابنها حسن الشقي) بدأت تشك في أن الغازي ربما يكون ابنها. وبدأت منذ تلك اللحظة رحلة البحث من الشك إلى الإيمان. سنة كاملة، هي الحقبة التي كانت كفيلة في تيقُّن الأم أن ابنها ليس قطًّا. في أوقات متفرقة من اليوم كانت تراقبه، خاصة عندما يكون نائمًا، في منتصف الليل كانت تستيقظ لتتحسس مضجع ابنها، وعندما تجده غارقًا في حنان الحلم، تعود مطمئنة لتواصل نومها، وفي النهار كذلك تفعل الشيء نفسه، وأحيانا تتمادى أكثر من ذلك وتنظر إلى أعضاء جسمه وبالتحديد الأعضاء الأشدُّ حساسية، وحين لا تجد اختلافًا بينها وبين أعضاء والده الغائب الحاضر، يزول الشك في تقطط ابنها. خلصت الأم في نهاية الأمر

إلى أن الـذي وضعتـه مـن أحشـائها كان إنسـانًا مثـل كل البـشر. ذات يـوم أعـدَّت طعامًـا مـن نـوع خـاص، شـية مـن لحـم الضـأن، ليكـون اسـتقبالًا لائقًـا بزوجهـا العائـد في مسـاء ذلـك اليـوم بعـد غيابـه الطويـل. أعـدَّت هذا الطعـام بكثـير مـن الحب والشـوق والتوابـل النـادرة، وضعتـه في كورية ذات غطـاء محكـم، ثـم أغلقـت بـاب المنـزل بالمفتـاح. كان المنـزل غرفـة مبنيـة مـن الطـين اللـبن، لديهـا شـباك صغـير وهـو أقـرب إلى ثقـب صغـير منـه إلى نافـذة، وسـور مـن القـش وراكوبـة. بعـد أن وضعـت كل الاحتياطـات اللازمـة لصـد أي غـازٍ يريـد القضـاء عـلى ثروتهـا اللحميـة تلـك، ذهبـت كلتـوم إلى الحواشـة.

في ذلـك اليـوم عـاد حسـن برفقـة هـارون إلى البيـت. كان بـاب المنـزل مغلقًـا ولم يكـن المفتـاح في مكانـه المعتـاد، هـذا يعنـي ثمـة شيء غـير طبيعي بالداخـل، فكَّـر حسـن. ومـا جعلـه يتيقَّـن مـن ذلـك، هـو أنـه عندمـا اقـترب مـن الشـباك اشـتمَّ رائحـة الشـية. ابتسـم وقـال محدثًـا نفسـه: الليلـة مـا دقسـتي يـا حاجـة!

ولأنــه لا يســتطيع الولــوج داخــل المنــزل، اســتعان بصديقــه عامــر - والصديــق في وقــت الضيــق.

سأل هارون:

- داير شنو يا فردا؟

أجاب حسن:

- تدخل بالشباك دا، تلقى شية جوَّا، املأ منو جيوبك الاثنين واطلع بسرعة.

دخـل هـارون بعـد مجازفـة ومسـاعدة مـن مدبـر العمليـة، لم يجـد صعوبـة في إيجـاد الغنيمـة لأن الرائحـة كانـت تنـادي، أنـا هنـا! خـرج بسرعـة كـما طلـب منـه حسـن. في الوقـت الـذي كان عامـر بالداخـل، غـيَّر

حسـن ملابسـه المدرسـية ليرتـدي جلابيـة. وفي عمليـة اقتسـام الـثروة، وضـع كل منهـما نصيبـه في جيبـه ثـم ذهبـا إلى مـكان خـارج القريـة ليحتفـلا بالنـصر.

نحـو السـاعة الثالثـة ظهـرًا بتوقيـت القريـة، عـادت كلثـوم. كان الأمـن مسـتتبًّا، لم يكـن هنالـك جنجويـد ولا حمـلات الدفـتردار - ليـس هنالـك عمليـات نهـب اليـوم! هكـذا كانـت تظـن، لكنهـا نسـيت أن هنـاك قـوى جديـدة تظهـر باسـتمرار - قانـون الطبيعـة. في المسـاء وصـل زوجهـا. بعـد تبـادل السـلام، اسـتجمَّ قليـلًا، ثـم دخـل ليسـتحم. في ذلـك الوقـت بـدأت كلثـوم في إعـداد وجبـة العشـاء، في تلـك اللحظـة أدركـت أن قـوة مـا تلاعبـت بأمنهـا، ونهبـت ثروتهـا ولم تـترك إلَّا القليـل. الشـية المصنوعـة بكيلـو لحـم ضـأن لا تكفـي لمـلء صحـن واحـد، هـي أخطـأت أم تغـيرت الموازيـن حـين غفلـت مـن أمرهـا فكـرت؟! ولكنهـا كفـت عـن التفكـير في هـذا الموضـوع عندمـا رأت زوجهـا خارجًـا مـن الحـمام. أعـدت المائـدة بمـا وجدتـه مـن سـلطة خـضراء، تبِـش، عجـور، جرجـير، طماطـم، بصـل... إلـخ ومـا خلفـه البرابـرة الصغـار مـن قطـع اللحـم المشـوية، وعصيـدة بمـلاح الكـول والـروب.

جلسـت الأسرة السـعيدة حـول المائـدة، اسـتطعم كل فـرد منهـا مـا اسـتطاع إليهـا سـبيلًا، لكـن حسـن لم يأخـذ إلا قطعتـين مـن الشـية في ذلـك اليـوم. لم يلفـت هـذا انتباههـا، لكـن عندمـا هـمَّ حسـن بالقيـام بعـد أن شـبع، كان حـول جيبـه أثـر زيـت. حينهـا أدركـت كلثـوم بـأن القـوى الجديـدة في هـذه المـرة بـدأت تتشـكل في عقـر دارهـا. لكـن السـؤال الـذي لم تجـد لـه إجابـة هـو، كيـف ولـج حسـن إلى الغرفـة؟ إذ إنهـا كانـت مغلقـة، والنافـذة حتـى القطـط الضخمـة لا تسـتطيع الدخـول مـن خلالهـا فكيـف دخـل هـذا الشـيطان الصغـير؟ وبالطبـع حسـن أنكـر فعلتـه جملـة وتفصيـلًا، ادعـى أن هـذا الزيـت مـن بقايـا زيـت الزلابيـة التـي خبَّأهـا

مـن زملائـه عندمـا كانـوا يتسـكعون. بحـدس الأم العفـوي العميـق، عرفـت كلتـوم أن حسـن لا غـيره، هـو مـن عـبر الحـدود بـلا تأشـيرة دخـول، لكـن بـشريٌّ يدخـل إلى غرفتهـا مـن هـذا الثقـب؟! هـذا لم تسـتطع كلتـوم أن تفهمـه، لذلـك قـررت أن تراقـب لتتأكـد مـن أن ابنهـا حسـن هـذا، بـشري أم كديـس؟ تيقَّنـت كلتـوم مـن بشريـة ابنهـا، واطمأنـت عندمـا شرح لهـا أن عمليـة عبـور الحـدود تسـللا، تمـت بمسـاعدة قـوى خارجيـة.

انقضـت العطلـة، وفتحـت المـدارس أبوابهـا معلنـة سـنة دراسـية جديـدة. كان تلـك هـي السـنة الأخـيرة بالنسـبة إلى حسـن مـن مرحلـة الدراسـية الأساسـية. هـو العائـد بخيبـات العـام المـاضي.. سـيكبر هـذا الصبـي ويـدرك أن الحيـاة قائمـة عـلى قانـون التناقـض. في أثنـاء العطلـة مـا بـين العـام السـادس والسـابع، وضـع حسـن خطتـه للعـام الـدراسي الختامـي وجوهرهـا تحقيـق المركـز الأول والعبـور إلى المرحلـة الثانويـة مرفـوع الـرأس. منـذ اليـوم الأول، كان حسـن يعـود إلى البيـت بعـد انتهـاء اليـوم الـدراسي، يتنـاول مـا يجـده مـن طعـام ثـم يشـعل المصبـاح التقليـدي «حبوبـة ونِّسـيني»، يجلـس عـلى الأرض، يقـرأ سـاعات طويلـة حتـى تطلـب منـه أمـه الذهـاب إلى النـوم. كان هـذا ديدنـه طـوال العـام.

جـاءت لحظـة الحصـاد، بعـد ثلاثـة أيـام سـوف تبـدأ امتحانـات شـهادة الأسـاس، هكـذا يسـمونها هنـاك. في ذلـك العـام لم تكـن هنـاك مشـكلة تقـف أمامـه سـوى عـدم المقـدرة في دفـع الرسـوم الدراسـية، ولأن في ذلـك العـام كان هطـول المطـر قليـلًا أثَّـر بشـكل مبـاشر في نسـبة الإنتـاج، وهـذا مـا أدى إلى عـدم قـدرة كلتـوم في توفـير هـذا المبلـغ، ولأن النسـاء القرويـات عزيـزات النفـس، لم تطلـب مـن أحـد مسـاعدتها ماليًّـا.. ولتجـاوز هـذه المعضلـة عملـت في مزرعـة أخـرى عـدة أيـام. كانـت المشـكلة تكمـن في أن المدرسـة أعلنـت مـدة زمنيـة قصـيرة جـدًّا لسـداد الرسـوم. مـن عيـوب المؤسسـات أنهـا ليسـت محيطـة بأحـوال النـاس، ولا تـدري كيـف يعيشـون.

بينما كانت كلتوم تذهب إلى العمل في مزرعة الكاشف، التقت أخاها كمال العائد من بلاد الغربة. وبعد تبادل السلام معه، طلبت من كمال أن يأتي إليها في المنزل عندما يجد الفرصة لذلك.

في صباح اليوم التالي، بينما كانت كلتوم تحتسي الشاي، سمعت صوت كمال يقول: السلام عليكم. ردَّت التحية ووضعت كوب الشاي. دخل أخوها وجلس بجانب أخته، سألته عن الحياة في الغربة، أجاب كمال قائلًا: إن الأجور بلاد الغربة لا بأس بها، رغم أنه كان يرعى الماشية هناك. لكن كانت له بعض المآخذ حول معاملة الكفلاء وأصحاب العمل. كان حسن يسمع كل ما يقال لكنه تظاهر بالنوم، ربما ليعطي كبار السن مجالًا في الحديث. بعد أن تحدثا طويلًا، همَّ كمال بالذهاب بحجة أن في المنزل ضيوفًا ينتظرونه. وعندما كان خارجًا أعطى أخته حقيبة صغيرة كان بداخلها مبلغ من المال وهدايا لها ولابنها.. خطف حسن الحقيبة من يد أمه حالما خرج خاله ليشبع الفضول الذي كاد يقتله. عاد حسن في اليوم التالي إلى المدرسة حاملًا بشريات حل الأزمة المالية، دفع الرسوم الدراسية ونجا من جحيم ضحايا الأمية والفاقد التربوي.

الامتحان الأول في العام الدراسي الأخير كان التربية الإسلامية، عند الثامنة صباحًا. حضر حسن إلى المدرسة برفقة زملائه الذين كانوا يسكنون في القرية نفسها وكانت وسيلة المواصلات التي أقلتهم هي عربة بوكس صُنِعَت في اليابان في العام قبل قرن من الزمان. عند دخول التلاميذ إلى الفصل، كانت الإدارة المعنية بالأمر قد قامت باللازم من توزيع الأوراق التي تحتوي على أسئلة الامتحانات، تحديد أماكن الطلاب، ووضع ديباجات أرقام الجلوس للتلاميذ في الأماكن المحددة. كان عدد الجالسين مائة طالب من سبع قرى مختلفة: كان حسن من قرية طيبار، وصديقه من قرية جيتار، أما صديق صديقه من قرية

نيسـان، أمـا القـرى الأخـرى فيعملـه صديقـي السـكران. جميـع الطـلاب الآن في أماكنهـم بعـد أن تركـوا حقائبهـم عنـد مدخـل الفصـل، لا يحملـون سـوى أقلامهـم وآمالهـم بغـد أفضـل. كانـت الأسـئلة عـلى النحـو التـالي:

السـؤال الأول: مـا هـي أول آيـة نزلـت في القـرآن، مـكان نـزول الآيـة وأسـباب النـزول؟

السؤال الثاني: اكتب الآيات العشر الأولى من سورة يس.

عندمـا قـرأ حسـن هـذه الأسـئلة، توقـف متأمـلًا ولم يقـرأ مـا تبقـى مـن أسـئلة، ثـم قـال في نفسـه: يعنـي مـا ممكـن أنـا أكـون أذكى مـن اللجنـة التـي وضعـت الامتحـان! هـسى الفايـدة شـنو مـن السـؤال الأول؟ بـدل مـا يكـون السـؤال عامـل كـدا، كان أحسـن يكـون كـدا: مـا هـو معنـى الآيـة الأولى التـي نزلـت في القـرآن، والحكمـة مـن الآيـة؟ قـرر حسـن إغـلاق بـاب التفكـير وبـدأ في الإجابـة مـن آخـر سـؤال. خـرج الطـلاب، منهـم مـن كان يشـعر بسـعادة، والبعـض الآخـر بحـزن، أمـا حسـن فـكان لا يبـالي بـشيء. اليـوم التـالي كان امتحـان اللغـة العربيـة، وبعـده كانـت مـادة الجغرافيـا، ثـم مـادة التاريـخ، الرياضيـات وكانـت مـادة اللغـة الإنجليزيـة خاتمـة الامتحانـات.

ساحرة الغابة

بعـد مـرور أربعـة أشـهر مـن امتحـان مـادة اللغـة الإنجليزيـة، كان جميـع الطـلاب ينتظـرون النتائـج وبظهورهـا يعـرف الطالـب إن كان قـد أحـرز النسـبة التـي تؤهلـه إلى الالتحـاق بالمرحلـة الثانويـة أم خـسر المعركـة. في ذات نهـار اسـتوائي حـار بـدأت لجنـة الامتحانـات مؤتمرهـا الصحفـي، كان البـث يجـري عـبر المحطـات الإذاعيـة والتلفزيونيـة، ولأن القـرى في ذلـك الوقـت لم تعـرف شاشـات التلفزيـون، كان تلاميـذ القـرى وبعـض المهتمـين مـن أوليـاء الأمـور يجلسـون حـول الراديـو الصغـير لسـماع المؤتمـر الصحفـي. جميـع الأسـماء التـي أُعلِنـتْ كانـت غريبـة لأهـل القـرى، تبـدد الأمـل بـأن يكـون أحـد تلاميذهـا مـن ضمـن قائمـة المئـة الأوائـل. لم تكـن المشـكلة في القـدرات العقليـة لطـلاب القـرى، بـل كانـت في غيـاب البيئـة المحفِّـزة لصنـع التميُّـز والنجـاح، والدليـل عـلى ذلـك أن بعـض أسـاتذة تلـك المـدارس كانـوا مـن الذيـن رسـبوا في امتحانـات المرحلـة الثانويـة أو لم يكملـوا الدراسـة الجامعيـة. وكانـت الجهـات المسـؤولة تسـمح لهـم بذلـك لأنهـم يعملـون بأجـور ضعيفـة. لم يُعلَـن عـن اسـم حسـن أيضًـا، لذلـك قـرر الجميـع انتظـار النتائـج عـبر مراكـز الامتحانـات. كان النـاس في القريـة يجتمعـون للتسـلية ولعـب الـورق (الكوتشـينة، الليـدو، الضمونـة، الضالـة).. يفـي أماكـن محـددة بالأحيـاء - بعـد العـودة مـن الحقـول، يلعبـون حتـى مـن منتصـف النهـار حتـى السـاعة الثالثـة عـصرًا، ثـم يعـودن إلى العمـل مجـددًا، بعـد ذلـك يواصلـون اللعـب. في أثنـاء ذلـك، يتحدثـون عـن قضايـا مختلفـة ومتكـررة. في ذلـك الوقـت كان الموضـوع الأكـثر إثـارة ومتعـة هـو نتائـج الامتحانـات. ويكـون مصـدرًا للتباهـي إذا كان التلميـذ محـرز المرتبـة الأولى ذا صلـة بأحـد الحضـور. كان اسـم حسـن مـن ضمـن

الأسـماء المتداولـة في تلـك الجلسـات، ولم يكـن هـذا مفاجئًـا لأنـه كان يحـرز نتائـج ممتـازة طـوال السـنوات الماضيـة. عندمـا عـاد المديـر مـن المحافظـة حامـلًا النتائـج كان اليـوم يوافـق الجمعـة. سرعـان مـا عرفـت القريـة بذلـك، إذ لا أسرار في القـرى، كل شيء معـروف والمعلومـات تـوزع بالمجـان. أحـرز حسـن النتيجـة الأولى عـلى مسـتوى المدرسـة. كانـت أمـه تتباهـى وسـط زميلاتهـا في جلسـات الجبنـة، رغـم أنهـا لم تكـن تعـرف بالضبـط مـا هـي الفائـدة الملموسـة مـن هـذه الورقـة التـي تحمـل أسـماء المـواد الدراسـية وبعـض الأرقـام، تتباهـى لأن القريـة بأكملهـا كانـت تتحـدث عنـه. تتباهـى نسـاء القريـة عـادة بوشـم الحنـاء عـلى الأرجـل أو بتسريحـة الشـعر، ولكـن يحـدث في العـام مـرة واحـدة أن تتباهـى امـرأة مـا بتفـوق ابنهـا. في الجانب الآخـر كان التلاميـذ يبحثـون عـن حسـن ليعـبروا عـن فرحتهـم بتفوقـه، كـما لا ننـسى أن هنـاك مـن تنهشـه الغـيرة مـن تصـدر هـذا القـروي القائمـة. كان حسـن في ذلـك اليـوم يرعـى الماشـية ولم يعـد إلى القريـة حتـى مغيـب الشـمس، ذهـب صديقـه وأخـبره بـأن القريـة كلهـا تتحـدث عـن نجاحـه خاصـة والدتـه وهـي ترتشـف كاسـات مـن القهـوة مـع زميلاتهـا. اتجـه الصديقـان بـكل بـطء لأن الاحتفـال الحقيقـي لم يكـن يحـدث في القريـة وإنمـا داخـل قلبـه. كان صديقـه يسـأله عـن المدرسـة الثانويـة التـي يرغـب في الالتحـاق بهـا، فـردَّ أن هـذا لا يهمـه كثـيرًا، لأن بيئـة المـدارس في القـرى لا تختلـف كثـيرًا، لكـن يفضـل أن تكـون المدرسـة قريبـة بعـض الـشيء مـن قريتهـم حتـى يسـتطيع العـودة في إجـازات نهايـة الأسـبوع لمسـاعدة أمه. لم تكـن جميـع القـرى لديهـا مـدارس، فمثـلًا تتوفـر في بعضهـا مدرسـة أساسـية وثانويـة، وفي بعضهـا الآخـر مدرسـة أسـاس فقـط، وهنـاك قـرى أخـرى فـلا تملـك حتـى مدرسـة واحـدة فيضطـر الأطفـال إلى الذهـاب إلى مـدارس مجـاورة. أُختـير حسـن في مدرسـة تعـد الأفضـل في المحافظـة، وهنـاك بـدأت مرحلـة جديـدة مـن حياتـه.

إن الهدوء والبطء اللذين تتسم بهما حياة الأرياف، ليسا إلّا انعكاسًا للسكينة الرابضة في روح إنسانها. في الصباح الباكر يذهب الفلاحون إلى حقولهم الوافرة والسخية. التلاميذ يستيقظون بحيوية ونشاط، يذهبون إلى قاعات الدرس وشغف المعرفة يملأ أرواحهم. والنساء يرتِّبن المنزل المبعثر، هنا كوب ماء تحت السرير، وهناك في البعيد كرسي وسخ تغوطت عليه طيور «ود دبرك» وأخواتها.. والحديث عن رعاة الماشية يطول، فهم أكثر الناس قدرة على مواجهة الذات، يقضون ساعات طويلة في الحقول البعيدة منفردين مع ماشيتهم وأغنامهم. لديهم عالمهم الخاص، حتى الطعام الذي يعدونه له نكهة مختلفة، أما الشاي فيمكن أن يلهمك قصيدة شعرية كاملة، فهو يُعدُّ على نار من مخلفات الماشية على مهل لأن راعي البقر ليس على عجل من أمره، فهو سيد وقته، لا تعرف إذا كان الراعي من يصنع الشاي أم الشاي يصنع طقسًا ممتعًا لسيده؟ إذا جئت عابرًا بالقرب من مملكته، تلسعك نكهة الشاي فيدعوك لتشاركه كوبًا خفيفًا الدم، لا تدري إن كنت ترتشفه أم يرتشفك، يزيل عنك عناء اليوم ويمحو غبار الحقول، تتجه إلى مسعاك وكأنك خرجت من البحر توًّا.. وستكتمل سعادتك إن رأيت فتيات القرى عائدات من الحقول أو جالسات بجانب جداول الماء يغسلن غبار الحياة، يجمِّلن المكان، يزدن الحياة اخضرارًا، يرسلن إلى الشمس قبلات حنان وهي ترد بخيوط من شعاع فتتبدل ألوان الفساتين وتزداد ابتسامتهن بريقًا. الطبيعة في الأرياف تستمر في تناغمها الأول كما وجدت منذ الأزل، كل يؤدي دوره وفق ما تملي عليه الفطرة السليمة. القروي يعرف مواعيد صلاة الظهر من خلال امتداد ظله، ويعرف إن كان اليوم سيهطل مطر أم لا، ومن أين سيأتي الجهة الشمالية أم الجنوبية، الشرق أم الغرب، يعرف كل هذه الأشياء دون أن يستمع لنشرات الأحوال الجوية.

كانت المدرسة الثانوية التي التحق بها حسن تقع في الجزء الغربي من القرية، محاطة بأشجار السنط والنيم، أعطتها جداول الماء التي تحفها من كل الاتجاهات منظرًا خلَّابًا يسر العابرين والدارسين فيها. بالرغم من أنها كانت مشتركة بين الطلاب والطالبات مع وجود حائط يفصل بينهم، فإن حسن كان يسمع أصوات الصبايا عندما يقدمن الأناشيد في الطابور الصباحي، ورؤية الطالبات بشكل يومي كانت أسهل لأن الطريق إلى المدرسة لم يكن مفصولًا بحائط. مثلما كان هو وأصدقاؤه يستمتعون برؤية صدور الفتيات المراهقات في طريق المدرسة أو العودة منها، كانت الفتيات أكثر سعادة بتبادل النظرات وتوثيق ملامح الطلاب للمسامرات الليلة.

إذا كان التحدث لفتاة في الشارع ممنوعًا في قرية ما، فيعتبر شيئًا طبيعيًّا في أماكن أخرى، إذا كانت النساء يذهبن إلى الحقول لمساعدة أزواجهن وأسرهن، فلا يتعدى نشاط المرأة في بعض القرى الأعمال المنزلية. لكل قرية مزياتها، على الرغم من أنها تتشابه فيما بينها، تختلف عادات الناس من قرية إلى أخرى. إذا كان الأطفال في المدارس الأساسية يدرسون مختلطين بين البنين والبنات، لا تسمح بعض القرى بذلك، لكل عادة جذور ثقافية ولا توجد مرجعية دينية في التفريق بين الأطفال في الدراسة. كانت هناك بعض الصعوبات التي واجهت حسن عندما انتقل إلى قرية «ماراز» لدراسة المرحلة الثانوية. لم تكن هناك سكنات خاصة بالطلاب القادمين من قرى أخرى. لذلك حلَّ حسن ضيفًا على منزل سليمان – صديق والده. كان رجلًا كريمًا، قليل الكلام. كان حسن يسكن وَحْدَهُ في غرفة منفصلة تقع في الزاوية الشرقية من المنزل، لم تخصص هذه الغرفة له، بل كان يسكن فيها أبناء سليمان الذين تفرقوا الآن بين العاصمة والدول المجاورة، لم يبق سوى الابن الأكبر الذي يعيش مع زوجته. وكان لسليمان ابنة تدعى أميرة ذات

العشريـن ربيعًـا، أكملـت المرحلـة الثانويـة لكنهـا لم تلتحـق بالجامعـة، لأن والدهـا لم يسـمح بذلـك. كان يعتقـد أن الجامعـات ليسـت للنسـاء، لأنهـا تفسـدهن، تلتحـق الفتـاة بالجامعـة، تلتقـي شـابًا وتنشـأ بينهـما علاقـة عاطفيـة مزيفـة، يسـتدرج الشـاب الفتـاة أولًا إلى الحدائـق والمقاهـي تطمـئن لـه ثـم يذهـب بهـا إلى الغـرف المغلفـة ويفـض بكارتهـا، بهـذا يكـون سـليمان قـد فقـد ابنتـه. هكـذا كانـت نظرية الرجـل الحكيـم وفقًـا للمعايير القديمـة. لهـذا السـبب ظلَّـت أمـيرة بمنـزل أبيهـا في انتظـار العريـس، إذ تكمـل الجامعـة الأسريـة في تربيـة الأطفـال وغسـل الأواني وتقديـم جسـدها لرجـل - ربمـا لم تحبـه - كل ليلـة حتـى يأخذهـا المـوت. كان حسـن قبـل سـاعتين مـن موعـد الطابـور الصباحـي، يصـلي الصبـح، يقـرأ آيـات مـن القـران الكريـم، يسـتحم إذا توفـر المـاء، يرتـدي قميصـه الأبيـض والبنطـال الأسـود ثـم ينطلـق إلى المدرسـة. في الطريـق كان ينظـر إلى نوافـذ البيـوت، مـع ذلـك لم يكـن يبحـث عـن شيء محـدد. فقـط الرؤيـة إلى النوافـذ كانـت عـادة أتى بهـا مـن بيتـه، ربمـا لأنـه كان يتذكـر سرقـة قطـع اللحوم المشـوية. ذات صبـاح بينـما كان ينظـر إلى النوافـذ، وجـد فتـاة تبتسـم لـه، سرعـان مـا كـف حسـن عـن النظـر، لأن تبـادل الابتسـامات في القريـة كان يعتـبر أمـرًا غايـة في الخطـورة، ربمـا سـيتعرض إلى الـضرب في حـال ضُبِطَ مـن قبـل أخـي الفتـاة أو أي رجـل آخـر عابـر. واصـل حسـن طريقـه وضربـات قلبـه تـزداد مـن شـدة الخـوف. كان يلتفـت بـين الفينـة والأخـرى، لأن ثمـة وسـواس داخـلي كان ينخـر صـدره ويبـوح سـاخرًا: «حسـن يـا حسـن، رجـل يحمـل عصًـا يركـض خلفـك، اسـتعد لعقابـك». منـذ ذلـك اليـوم اختفـت عـادة رؤيـة النوافـذ واختفـت معهـا ابتسـامة الفتـاة إلى الأبـد.

كانـت السـنة الدراسـية الأولى مليئـة بالمفاجـآت. حسـن الـذي كان قـد سـطع نجمـه في مرحلـة الأسـاس، أصبـح مهـددًا بمنافسـة قويـة، لأن المعايـير هنـا تختلـف، عـدد الطـلاب كبـير، إضافـة إلى أنـه بعيـد عـن

موطنـه.. الموطـن عامـل مؤثـر جـدًّا في الشـعور بثقـة النفـس، لاعبـو كـرة القـدم يفهمـون ذلـك جيـدًا. لم يخطـط حسـن في إحـراز مراكـز متقدمـة، كان هدفـه الأسـاسي إكـمال المدرسـة الثانويـة بـأي شـكل ثـم الالتحـاق بإحـدى الجامعـات. كان الأسـاتذة في تلـك المدرسـة يمتـازون بالحيـاد، يقـدِّرون مجهـود الطـلاب، ينصفـون بينهـم ويمـدون يـد العـون لمـن يطلـب المسـاعدة. والسـنة الأولى في مثـل هـذه المـدارس تعتـبر فرصـة للتعـارف واكتشـاف قـدرات الطـلاب. في أثنـاء الحصـص الدراسـية، كان حسـن يجلـس في المقعـد الأمامـي بالقـرب مـن النافـذة مـع ثلاثـة طـلاب آخريـن.. ذات مـرة بينـما كان الأسـتاذ يُـدرِّس مـادة الإنتـاج الزراعـي وكان موضـوع الـدرس «زراعـة القطـن في بـلاد الفيـلان» كان حسـن يـترك أذنيـه في الفصـل وينظـر عـبر النافـذة، رأى الأسـتاذ هـذا السـلوك الغريـب وشـعر بعـدم تقديـر للمجهـود الـذي يبذلـه مـن أجلهـم، فقـرر أن يختـبره: حسـن، اليـوم نتحـدث عـن القطـن، وذكرنـا خـلال هـذا الـدرس معلومـات كثـيرة بهـذا الخصـوص. فـردَّ حسـن: نعـم يـا أسـتاذ. واصـل الأسـتاذ حديثـه: أذكـر أنـواع القطـن؟ فأجـاب: للقطـن ثلاثـة أنـواع، طويـل التيلـة، قصـير ومتوسـط التيلـة. رد الأسـتاذ: الإجابـة صحيحـة. فاسـتقبل الطـلاب إجابتـه بالتصفيـق الحـار. لم يفهـم حسـن سـبب ردة الفعـل هـذه، كان يظـن أن أي طالـب في الفصـل يعـرف هـذه المعلومـة، لأنهـم أبنـاء القـرى، منهـم مـن ولـد في الحواشـة، وآخـر ولـد بالقـرب مـن جـدول المـاء ونشـأ بـين المحاصيـل الزراعيـة، فـلا يحتاجـون إلى قـراءة هـذه المعلومـات مجـددا. إجابـة حسـن لم تفـرح الطـلاب فحسـب، بـل بـددت ظنـون الأسـتاذ أيضًـا، لذلـك عندمـا انتهـى الـدرس، طلـب منـه الأسـتاذ أن يقابلـه في المكتـب. ذهـب الطالـب - الـذي كان ينظـر عـبر النوافـذ – للمقابلـة. فقـال لـه الأسـتاذ: أظنـك ذكيًّـا جـدًّا، فكانـت إجابتـك مصـدر سـعادة بالنسـبة إليَّ وإلى الطـلاب، فقـط لا أفهـم لمـاذا كنـت تنظـر إلى النافـذة في أثنـاء الـدرس؟ فأجـاب بأنـه رأى

قـد عصافـير تغنـي فـوق الأشـجار فقـرر أن يشـاركها الشقشـقات، ولكـن أذنـاه كانتـا معـه. ابتسـم الأسـتاذ، وأمـره بالذهـاب لتنـاول وجبـة الفطـور. خـرج مسرعًـا حتـى لا يمـضي ويجـد الأكل قـد نفـد. لا يحـب القرويـون الانتظـار عندمـا يكـون الأكل أمامهـم، كالعاشـق الـذي يسـتقبل حبيبتـه العائـدة مـن السـفر، يراهـا بالمطـار تكمـل إجـراءات الدخـول ولا يسـتطيع عناقهـا. وفي الطريـق إلى البيـت، قابـل حسـن أحـد زملائـه بالـدرس، قـال لـه: قـدرت تحـرج الأسـتاذ، هـو ذاتـه كان قاصـد يحرجـك.. عشـان كـدا صفقنـا ليـك. ابتسـم حسـن لهـذه الكلـمات ثـم قـال: إنـه عـلى عجلـة مـن أمـره. ثـم ركـض. كان سـليمان ينتظـره والأكل كاد يـبرد. أعتـذر عـن التأخـير غـير المقصـود، ثـم تنـاولا وجبـة الفطـور. شربـا الشـاي الـذي أعدتـه أمـيرة ثـم انطلـق مجـددًا إلى المدرسـة لإكـمال مـا تبقـى مـن دروس، منـذ ذلـك اليـوم عُـرف حسـن وسـط الطـلاب «بحسـن الـذكي».

نسبة إلى توفـر الأكل بالمنـزل لم يكـن حسـن ورفاقـه في حاجـة إلى المـال، النـاس هنـاك لا يتداولـون الأوراق النقديـة كثـيرًا لأن معظـم احتياجاتهـم مـن مـواد اسـتهلاكية يجنونهـا مـن حقولهـم. أمـا النشـاط الترفيهـي لحسـن ورفاقـه، فـكان ينحـصر في لعـب كـرة القـدم، التجـول في الغابـة الصغـيرة خلـف القريـة والمجـاورة للمدرسـة أو السـباحة في الترعـة والتـي كانـت تمثـل المـورد الوحيـد للـري والـشرب (النـاس ودوابهـم). كان حسـن يكتسـب شـهرة مـن يـوم لآخـر بـين زملائـه، حتـى إن بعـض الطالبـات سـمعن بقصته وكيـف أجـاب عـن سـؤال الأسـتاذ دون جهـد أو تفكـير. طلـب أسـتاذ جابـر مـن الطـلاب أن يسـتعدوا لأمـر مهـم يـود الإعـلان عنـه، صمتـوا ووجهـوا التفكـير نحـو الحديـث المرتقـب، بـدأ الحديـث: أيهـا الطـلاب الكـرام، كـما تعلمـون جيـدًا، أن امتحانـات نصـف العـام قـد اقتربـت وأرى أن هنـاك بعـض الصعوبـات تواجهكـم في فهـم مـادة اللغـة العربيـة، لذلـك قـررت أن أنظـم دروسًـا إضافيـة مسـائية، سـتبدأ مـن يـوم غـد بنسـبة ثلاثـة دورس

في الأسبوع وسوف تستمر مدة شهر، أتمنى من الجميع الحضور دون تأخير. عندما أكمل الأستاذ كلامه، رفع حسن يده ليطرح سؤالًا، تحدث يا حسن قال الأستاذ، كان سؤال حسن مفاده هل هذه الدروس الإضافية مدفوعة الثمن أم لا، فأجاب الأستاذ بأن تكلفة الدرس الواحد مئة جنيه لا غير، وذكَّر الطلاب بأن الدفع سيتم عند انتهاء الدرس مباشرة. لم يعلق حسن، لزم الصمت، وغادر إلى المنزل كما فعل زملاؤه. تناول وجبة الغداء بعد أن أخذ قسطًا من الراحة، خرج يتجول قليلًا في الغابة.. ظل هناك مدة قصيرة ثم عاد. في غرفته قرأ بعض القصائد وأعاد قراءة دروس اللغة العربية، وأدرك أن المادة لم تكن بتلك الصعوبة التي صورها الأستاذ. كان أحد زملاء حسن جاء عابرًا بغرفة حسن وسأله عن سبب غيابه من الدرس الإضافي، فردَّ حسن بأنه ضد فكرة التعليم الإضافي مدفوع الثمن، لذلك قرر أن يبقى في البيت ويدرس وَحْدَهُ ثم سأله: هل لديك ما يكفي من المال حتى تدفعه للدروس الإضافية؟ فأجاب زميله بأنه لا يملك، وأن والده يقترض من أحد أقربائه ليعطيه، فقال حسن: إذًا لماذا تفعل ذلك؟ يكفي أننا ندفع الرسوم الدراسية المفروضة علينا من الحكومة، كان أجدر للأستاذ أن يُقدِّم هذ الدروس دون مقابل مادي إن أراد حقًّا المساعدة، فوافقه زميله الرأي ثم قال: أعرف أن أستاذ جابر يهمه فقط جمع المال، لكن لا أستطيع الغياب، لأنني أخشى العقاب. فقال حسن، ربما أنت صائب، لكنني لن أذهب إلى هذه الدروس الإضافية. في اليوم التالي، كان الطقس حارًّا، والشمس تكاد تسقط من شدة اقترابها من كوكب الأرض. أدى حسن طقوس الصباح المعتادة، جمع حقيبته القديمة تلك حيث يضع فيها دفاتر الدراسة وبعض الكتب، بعد ذلك ذهب إلى المدرسة. من سوء حظه كان الدرس الأول في ذلك اليوم اللغة العربية، دخل الطلاب إلى الفصل، جاء أستاذ جابر، ألقى

التحيـة ثـم سـأل عـن الطـلاب الذيـن تخلفـوا عـن درس الأمـس، وكان صوتـه المضطـرب يـدل عـلى شـعوره بالغضـب تجـاه الغائبـين. بـدأ بمراجعـة درس الأمـس الإضـافي، كان يسـأل الطـلاب بصـورة عشـوائية، لكنـه كان يعلـم مـن غـاب عـن درس الأمـس. عندمـا جـاء الـدور لحسـن، قـال أسـتاذ جابـر: عـرِّف النكـرة والمعرفـة يـا حسـن، دون أن يفكـر حتـى ثـواني، قـال حسـن: إنـه لا يعـرف الإجابـة الصحيحـة. هـل أنـت غبـي؟ هكـذا كانـت ردة فعـل الأسـتاذ، فاندهـش الطـلاب لهـذه الكلـمات الفظـة! إذ إن الجميـع كان يعـرف لباقـة وذكاء حسـن. لكـن الأسـتاذ قالهـا عـن قصـد.. رد حسـن: أنـا لسـت غبيًّـا يـا أسـتاذ، فقـال الأسـتاذ: إذًا بالأمـس لم تحـضر الـدرس الإضـافي، فأضـاف حسـن: تقصـد الـدرس الإضـافي المدفـوع؟ هـل حـضرت أم لم تفعـل؟ فأجـاب بأنـه لم يحـضر، فـأراد أسـتاذ جابـر أن يعـرف السـبب، قـال حسـن: إنـه لم يكـن هنـاك سـبب لعـدم حضـوره، فقـط إن مزاجـه كان سـيئًا! ليـس مـن المتعـارف في المـدراس هنـاك أن يغيـب الطالـب لمزاجـه السـيئ، هـذه الإجابـة كانـت بمنزلـة إسـاءة وعـدم تقديـر واحـترام للأسـتاذ.. غضـب الأسـتاذ غضبًـا شـديدًا، فطلـب منـه أن يخـرج مـن الفصـل وينتظـره بالمكتـب. الطـرد مـن القاعـة يعتـبر عقابًـا وإهانـة للطالـب، أو هكـذا كان يفهمـه الطـلاب، فخـرج حسـن وبقـي حيـث طُلِـبَ منـه أن يبقـى. رغـم أن الطـلاب كانـوا يشـعرون بتعاطـف مـع حسـن، فإنهـم التزمـوا الصمـت، لأن أي تعبـير عـن رفـض لقـرار الأسـتاذ بشـكل جماعـي يعـد تمـردًا يعاقـب عليـه المديـر، حتـى إن كان الطالـب عـلى حـق، لأن مثـل هـذه المواقـف تقلـل مـن هيبـة الأسـتاذ، أو هكـذا كانـت تظـن الإدارة. خـرج الأسـتاذ مـن الفصـل عائـدًا إلى المكتـب حيـث كان حسـن ينتظـره، أمـا بقيـة الطـلاب ظلـوا هنـاك اسـتعدادًا للـدرس الثـاني «تاريـخ بـلاد الفيـلان الحديـث». لم يكـن حسـن وَحْـدَهُ بالمكتـب، بـل كان هنـاك أسـتاذ ود المصطفـى الـذي يـدرِّس «مـادة الرياضيـات»، كان حسـن قـد شرح لـود المصطفـى قصتـه مـع

أستاذ جابر والأسباب الحقيقية لعدم حضور الدروس الإضافية، فعبَّر أستاذ الرياضيات عن صواب رأيه ووعده بأن يعالج المشكلة. أنت لا تحترم الأستاذ لذلك سوف تُطرد من هذه المدرسة ولن تستقبلك أي مدرسة أخرى، عليك أن تعود إلى قريتك ليربيك والداك من جديد.. هكذا بدأ أستاذ جابر حديثه مع حسن، وكان ود المصطفى يستمع، فاعتذر حسن ووعد بأنه لن يكرر هذا الخطأ مجددًا. هذه كانت خطة ود المصطفى لاحتواء الأزمة. طلب جابر من حسن أن يعود إلى الفصل بإيعاز من ود المصطفى، وبعد تلك الحادثة أصبحت الدروس الإضافية تُقدَّم للجميع الطلاب بلا مقابل مادي. تمضي الأيام ولا شيء يتغير في الأرياف، ينتظر الفلاحون موسم الحصاد ليجنوا ما غرسوه، وينتظر راعي الماشية نهاية الشهر حتى يتسلم الرسوم الشهرية لكل بقرة، أو ماعز، كما يتشوَّق موظف الضرائب إلى موسم الحصاد حتى يُرهِق المزارعين بجمع الضرائب الباهظة، وبالقدر نفسه ينتظر التلاميذ نهاية العام الدراسي ليعودوا إلى ذويهم بعد غياب طويل -»كل يغني على ليلاه». في المساء كان حسن يخرج برفقة زميله سعد إلى الغابة ليقرأ قليلًا، ثم يعودان إلى البيت قبل غروب الشمس. كان بعض الطلاب يؤمنون بالأسطورة التي تقول بأن وقت الأصيل هو الوقت الأنسب لمراجعة الدروس وفهمها، وكان حسن من ضمن المؤمنين بتلك الأسطورة.. كانت الغابة جميلة مثل أغلب الغابات في أرياف العالم، ليست هناك حيوانات متوحشة، ولكنها لا تخلو من الثعابين، لا تنبت فيها ورود ولا تجود بها فطريات، حتى إذا ظهر فيها فطر، لا أحد يدري، لأن الناس هناك لا يأكلون الفطريات، أو ليست من ضمن المأكولات المحببة لديهم. بالإضافة إلى أن أطفال القرى والقرويين عمومًا لا يعرفون إذا كان الفطر صالحًا للأكل، وكانوا يسمونه بزب الواطة[1].

(1) كلمة «الزب» يُقصد بها العضو الذكري، أما «الواطة» في اللهجة السودانية تعني الأرض.

لأن الفطـر يشـبه القضيـب، ولما كان ينبـت في الأرض، هـذا يعنـي أن لـلأرض قضيـب. في القـرى تُعطـى الأشـياءُ أسـماءً بأشـكالها. بينـما كان حسـن وسـعد عائـدان مـن الغابـة إلى البيـت، وجـدا فتيـات يدرسـن في الغابـة، ومـا إن ظهـر الشـابان تعرفـت إحـدى الفتيـات حسـن، كانـت الأخبـار تصـل إلى الطالبـات بشـكل لا يقـل سرعـة عـن رسـائل الإيميـل، فقصـة حسـن مـع أسـتاذ جابـر قـد سـمع بهـا كل الطـلاب والطالبـات في اليـوم نفسـه الـذي حدثـت فيـه، كـما سـمعن مـن بعـض الطـلاب عـن حسـن الـذكي، فسـألن عـن سـبب هـذه التسـمية، فـشرح أحـد الطـلاب لعـدد كبـير مـن الطالبـات الـلائي أتـين إلى منزلـه لزيـارة أختـه الطالبـة أيضًـا، وكانـت هـذه الفتـاة مـن ضمـن الحضـور. قالـت الفتـاة: أنـت حسـن الـذكي، كيـف تجـري الاسـتعداد للامتحانـات؟ فـردَّ حسـن بـأن الأمـور تـسري عـلى مـا يـرام، ثـم سـأل الفتـاة عـن اسـمها، فقالـت إنهـا تدعـى ياسـمين. لم يتحـدث حسـن كثـيرًا معهـا لأن سـعد قـد همـس في أذنـه قائـلًا: يـا فـردا خلينـا نتفكفـك قبلـما يشـوفنا زول. كان التحـدث إلى الفتيـات يعـد شـيئًا بالـغ الخطـورة وانتهـاكًا للأعـراف والتقاليـد، لذلـك انـصرف حسـن ورفيقـه. عندما ابتعـدا قليلًا، قالت ياسـمين بصـوت عـالٍ: نـأتي إلى هنـا كل مسـاء، وسـأكون سـعيدة برؤيتـك. فرفـع حسـن إبهامـه في إشـارة إلى الـرضا، لكـن دون أن يلتفـت، ربمـا حـدث صغير مثـل هـذا قـد ينتهـي بعـراك لا ناقـة لـه فيـه ولا جمـل. عندمـا اقتربـا مـن القريـة، سـأل سـعد: حـاسي بي شـنو مـن كلام ياسـمين، قالـت ليـك حتكـون فرحانـة بشـوفتك، بكـرة ح تمـشي الغابـة؟ فأجـاب حسـن بـأن حدسـه يمـلي عليـه تعرُّفهـا عـن قـرب، وأنـه – بعـد سـماع العبـارات الجميلـة – بـدأ ينظر إلى القريـة كأنهـا أجمـل مـكان في العـالم، ولديـه رغبـة في القـراءة سـاعات أطـول مـما كان يفعـل في السـابق.

قال سعد:

- خايـف تلقـى ليـك ضربـة في راسـك الكبـير دا بعـكاز حـاج أحمـد أبـو

ياسـمين، خلينـي نكمـل المدرسـة بسـلام.

لم يعلـق حسـن عـلى مـا سـمعه مـن نصيحـة، بـل غـيَّر موضـوع النقـاش بسؤال:

- حتعمل شنو لمن ترجع البيت؟

- زي كل مـرة، نعـضي، بعـداك بذاكـر شـوية، تـاني مـا في شيء غـير النـوم. وأنــت برنامــج شــنو؟

- الليلة ما داير أي عشاء، بس بقرا لغاية الصباح.

- الحاصل شنو يا عمك؟

فقـال حسـن بأنـه يشـعر بطاقـة خارقـة في داخلـه تحثـه عـلى القـراءة، ثـم أضـاف قبـل أن يفترقـا: نتلاقـى بكـرة في المدرسـة، تصبـح عـلى خـير. فتمنـى لـه سـعد ليلـة هادئـة ثـم افترقـا. عندمـا وصـل حسـن إلى بيتـه، بـدأ يسـأل نفسـه، مـن أيـن انبعثـت هـذه الطاقـة؟ هـل وضعـت ياسـمين صوتهـا في قلبـي؟ لمـاذا لم تبـارح أذني جملـة «سـأكون سـعيدة برؤيتـك»؟ لم يجـد حسـن إجابـات لعلامـات الاسـتفهام هـذه، ولم يكـن يعـرف بـأن مرحلـة جديـدة مـن حياتـه قـد بـدأت بسـبب هـذه الطاقـة الخفيـة. بعـد أن تنـاول العشـاء مـع ود سـليمان، الرجـل الطيـب المحـب لفعـل الخـير، جلـس يـدرس مشـعلًا لمبتـه حبوبـه ونِّسـيني[1]. اسـتمر في القـراءة حتـى الثانيـة صباحًـا، عندمـا نظـر إلى سـاعته القديمـة وأدرك أن الوقـت قـد تأخـر، أطفـأ اللمبـة واسـتغرق في النـوم.

في اليـوم التـالي، التقـى سـعد عنـد مخـرج المدرسـة، وطلـب منـه الخروج معًـا عنـد المسـاء إلى الغابـة، وافـق سـعد بـشرط ألا يتحدثـا إلى الفتيـات في حـال اللقـاء بهـن، فقـال حسـن بأنـه لـن يتحـدث إليهـن، لكـن إذا بـدأت

(1) مصباح تقليدي يعمل بالجازولين

الفتيات بالكلام فعليهما – على الأقل – الإجابة. عند الرابعة مساء، التقى العاشق الصغير رفيقه وتوجها إلى الغابة. كان موضوع النقاش في تلك اللحظة حول موعد الامتحانات وما هي الأسئلة المتوقعة، هل ستكون سهلة أم صعبة وما إلى ذلك. كان سعد يشعر بخوف أكثر كلما اقترب موعد الجلسة الأولى، ويقول بأن المرحلة الثانوية مختلفة، لذلك لا يعرف طبيعة تقديم الامتحانات، فيجيب حسن بأن التركيز يجب أن يكون في مضاعفة ساعات المذاكرة، ولا ينبغي الاهتمام بطرق تقديم الامتحانات. عندما اقتربا من الغابة، هبت رياح خفيفة من جهة الجنوب، فبدأت أغصان الأشجار تتراقص على أنغام العصافير العائدة إلى أعشاشها، نظر حسن إلى أعلى ورأى وجه ياسمين في الأفق.. كانت ياسمين تجلس هناك وبجانبها رفيقاتها، عندما نظر حسن شعر بتوتر، بدأ العرق يسيل على جبينه، فسأله سعد: مالك يا فردا، إن شاء الله خير؟ فأجاب بأنه يشعر بألم خفيف في بطنه. كان وقت الأصيل والشمس تنذر بالرحيل القريب، لذلك لا يمكنه أن يشعر حسن بحرارة، رغم أن الشمس في قرى إفريقيا حارقة، فإن الطقس يكون لطيفًا عند الأصيل. عندما اقتربا من الفتيات، حاول حسن أن يتمالك نفسه، رغم أن التوتر يعد أمرًا طبيعيًا، خاصة عندما يكون بسبب الحب. ألقت ياسمين التحية حالما رأتهما، رد كل من حسن وسعد التحية دون أن يتوقفا، حتى لا يراهما أحد وهما يقفان مع الفتيات، كيف الحال؟ مستعدين للامتحانات؟ سألت ياسمين وهي تمشي خلفهما ببطء مثل جدية عذراء، أجابها حسن بأنه يقرأ ساعات طويلة في المدة الأخيرة ويشعر باطمئنان من ناحيته، وطلب منها عدم القلق، بل التركيز والقراءة ساعات طويلة.. قالت ياسمين إنها رأت في الحُلُم أنها قد التحقت بالجامعة، وتتمنى أن ترى حسن هناك حتى تستطيع التحدث إليه والجلوس معه مدة أطول وأن تحظى بحرية في

الـكلام، وأضافـت: أتمنـى أن أشـوفك هنـاك في الجامعـة. بهـذه الأمنيـة أنهت ياسـمين حديثهـا عائـدة إلى رفيقاتهـا. كان هـذا اللقـاء نقطـة تحـول في حيـاة حسـن، أدرك بـأن الفرصـة الوحيـدة لمقابلـة ياسـمين والبـوح لهـا بشـعوره وطاقاتـه الهائلـة عـبر الالتحـاق بالجامعـة. كان العاشـق الصغـير يؤمـن بمـا قالتـه ياسـمين، وحـدة قيـاس الأشـياء والمعلومـات لـدى الأطفـال والمراهقـين هـي الحـدس، لذلـك لم يشـكك حسـن أن الحلـم يمكـن أن يتحـول إلى واقـع معيـش. قـال لرفيقـه بأنـه سـيفعل كل مـا بوسـعه لتحقيـق هـذا الحلـم، وأن بعـد عامـين ونصـف مـن الآن سـيذكر سـعد هـذه اللحظـة. لم يفتـح حسـن الكتـاب الـذي كان يحملـه في تلـك الأمسـية، ولم يعـد العـرق يسـيل عـلى جبينـه بعـد الآن. طلـب مـن رفيقـه أن يذهبـا إلى جـدول المـاء ليسـبحا قليـلًا، وكأنـه يريـد أن يغسـل غبـار الأيـام ليفتـح صفحـة جديـدة مـن حياتـه. اسـتطاعا السـباحة بـلا خـوف، لأن الجـدول لم يكـن عميقًـا. كان حسـن يقفـز في المـاء، ثـم يخـرج، فعـل ذلـك عـدة مـرات. بعـد أن عـاد إلى البيـت، أخـرج ورقـة، أراد أن يكتـب شـيئًا مـا، ولكـن حضـور سـليمان بوجبة العشـاء حـال دون ذلـك. بعـد أن عـاد الرجـل الكريـم إلى زوجتـه الطيبـة، أمسـك حسـن بالقلـم وكتـب «طاقـة كبـيرة في قلبـي، حـب ياسـمين يحلِّـق في الأفـق، الطريـق إلى مطـار الحـب يحتـاج إلى عامـين، وقـود الطريـق: القـراءة، الإيمـان ثـم القـراءة».

توقـف عـن الذهـاب إلى الغابـة في المسـاء، لأن السـر الـذي كان يشـده إلى هنـاك قـد انكشـف، والفريسـة قـد أفصحـت عـن نفسـها، أمـا طريقـة اصطيادهـا تحتـاج إلى اتبـاع منهـج محـدد، لذلـك كان يقـرأ في غرفتـه. ولأن المدرسـة كانـت تعطـي إجـازة مـدة أسـبوع ليسـتعد الطـلاب للامتحانـات، اسـتغل حسـن هـذه الفرصـة وأصبـح لا يتحـرك خـارج محيـط المنـزل. اسـتطاع في خـلال أسـبوع المـرور عـلى جميـع المـواد، وقـد خصـص يومًـا واحـدًا لـكل مـادة، لم يجـد صعوبـة في فهـم المـواد الدراسـية لأنهـا أغلبهـا

كانـت تتطلـب الحفـظ. نظـام الحفـظ هـذا سـيلقي بظلالـه لاحقًـا عـلى حسـن وزملائـه عندمـا يلتحقـون بالجامعـة، يدركـون أن إمكاناتهـم النقديـة والتحليليـة ضعيفـة، لأن المـدارس لم تؤهلهـم عـلى هـذا الأسـاس. غـدًا يـوم السـبت، امتحـان «مـادة التاريـخ»، جـاء سـعد عنـد المسـاء إلى حسـن مسـتفسرًا عـن الأسـئلة المتوقعـة لامتحانـات الغـد، فقـال حسـن لا أميـل إلى تخمـين الأسـئلة المحتملـة، بـل أفضـل تغطيـة المـادة بِرُمَّتهـا، فقـال رفيقـه بـأن قـدرة الحفـظ والفهـم تتفـاوت مـن طالـب لآخـر، لذلـك يـأتي طالبـا المسـاعدة وأنـه يؤمـن في قـدرات حسـن التخمينيـة، فقـال حسـن بأنـه أيضًا يكـره هـذه النظـام الـذي يرغـم الطـلاب عـلى الحفـظ، لكـن التحـدي هـو الطريـق الأنسـب للنجـاح، فسـأل سـعد مسـتوضحًا، فأجـاب حسـن، بـأن إذا النظـام الـدراسي يريـد أن يجعلنـا أغبيـاءً فعلينـا أن نكـون أغبيـاءً بامتيـاز، أن نحفـظ الكتـب كلهـا ونطلـب المزيـد، مـع ذلـك نـدري أن لا فائـدة كبـيرة في المسـتقبل مـن هـذا الجهـد الـذي نبذلـه. فهـم سـعد مغـذى الـكلام، ثـم ألـحَّ عـلى إيجـاد إجابـات عـن أسـئلته، فقـال حسـن: متوقـع سـؤال عـن الثـورة الفيلانيـة وتاريـخ سـقوط العاصمـة، أيـن ومتـى قُتـل جـردون، ربمـا سـؤال عـن دور الخليفـة في الثـورة، إذا كانـت الأسـتاذة تمتلـك شـجاعة كافيـة سـتطلب منـا كتابـة نـص مختصر عـن هـروب الفـارس الهـارب، أمـا السـؤال الأخـير سـيكون عـن السـلطان ذقنـه؟ عـاد سـعد إلى بيتـه تـاركًا زميلـه وَحْدَهُ، تنـاول وجبـة العشـاء، وهـي عصيـدة بمـلاح روب، لكـن هـذا النـوع مـن الأكل لم يكـن بشـكل يومـي، لأن أمونـة زوجـة سـليمان كان تنـوع في وجبـات العشـاء. إذا كان اليـوم عصيـدة بمـلاح روب فغـدًا سـيكون كـسرة بمـلاح خـضرة، أمـا يـوم الخميـس فتكـون المائـدة عامـرة باللحـم، وهـو اليـوم الوحيـد الـذي يشـم فيـه حسـن رائحـة اللحـم. رغـم ذلـك كان يشـعر بشـكر كبـير. غـدًا هـو اليـوم الأول للامتحانـات، لذلـك جلـس يقـرأ. بـدا الليـل قصـيرًا جـدًّا عندمـا نظـر حسـن إلى سـاعته وأدرك أن الوقـت

يقترب من الثالثة صباحًا، فقرر أن يخلد إلى النوم ويستيقظ بعد ثلاث ساعات ليعيد ما قرأه من مادة التاريخ ثم يذهب إلى المدرسة. في أثناء نومه، رأى حلمًا: «حسن داخل قاعة الامتحان، الطقس جميل، أستاذة مادة التاريخ في مزاج جيد، تُوزَّع أوراق الأسئلة والبداية من حسن، قبل أن ينظر إلى الورقة، أخذ نفسًا عميقًا، ونظر إلى من حوله فوجد التوتر يسيطر على رفيقه، فهمس بأن الأسئلة أسهل مما توقعا، ابتسم سعد، بعد ذلك نظر حسن إلى الأسئلة فوجدها كما توقعها تمامًا سوى السؤال الأخير مختلفًا: (كيف استطاع حسن التأقلم مع حياة هنا، وما هو دور ياسمين في ذلك؟) استيقظ ولم يجد ورقة امتحان أمامه أو مقعدًا يجلس فيه، وإنما كان مستلقيًا في عنقريبه القديم.. فكر فيما رآه من حلم، وعلاقة ياسمين بمادة التاريخ، فلم يجد إجابة. كان الوقت يقترب من التاسعة فركض إلى الحمام، أدى طقوس الصباح، لكنه لم يتناول كوب الشاي الصباحي، جمع أغراضه ثم اتجه مسرعًا إلى المدرسة. بينما هو في الطريق، أطلَّ سعد على ذاكرته، وحديثهما بالأمس بخصوص الأسئلة المحتملة، لذلك عندما وصل إلى المدرسة بحث أولًا عنه، وجده دون عناء، لأن قاعة الامتحان كانت واحدة، والمكان الذي يجلس فيه سعد كان معروفًا، اقترب منه وسأله إذا كان قد جهز إجابات حول الأسئلة المحتملة، وقال إن حلمًا قد زاره في الليل ورأى ورقة الامتحان تحتوي على جميع الأسئلة التي تحدثا عنها بالأمس، بالإضافة إلى معلومات عن ياسمين، لكن السؤال الأخير ليس ضروريًا. فقال سعد إنه قد قرأ طوال الليل. لم تمر ثلاث دقائق حتى دخلت أستاذة إقبال إلى القاعة حاملة معها أوراق الأسئلة، بعد التحية، وزَّعتها وبدأ الطلاب بالإجابة. خرج حسن قبل عشر دقائق من نهاية الزمن، أما سعد فبقي حتى طلبت أستاذة إقبال منه الخروج.. وبينما كان سعد في فناء يبحث عن رفيقه، كان حسن يقف عند مخرج المدرسة ينتظره. عندما التقيا، كان سعد

يريـد أن يلكمـه، لكـن أدرك أن حسـن ليـس نبيًّـا ليعلـم الغيـب، فقـال: ركبّتنـي ماسـورة. لم تكـن أسـئلة الامتحـان كـما توقعوهـا، مـع ذلـك أجـاب حسـن عـن جميـع الأسـئلة، لأنـه كان يريـد أن يصـل إلى أعـلى مرحلـة مـن الغبـاء لذلـك حفـظ 90 % مـن المقـرر، أمـا سـعد فأجـاب عـن 80 % مـن الأسـئلة.. اسـتغرقت الامتحانـات مـدة أسـبوعين مـن الزمـن، كانـت أجمـل الأيـام لبعضهـم، أمـا البعـض الآخـر فـكان يشـعر ببـطء في عجلـة الزمـن، والقلـق لا يـدع مجـالًا للنـوم، سـطع نجـوم بعـض الطـلاب، وهنـاك مـن فكر في تـرك الدراسـة والبـدء في نشـاط آخـر.

بعـد الجلسـة الختاميـة. كان حسـن يقـضى لياليـه تلـك مشـغولًا بالتفكير في ياسـمين وكيفيـة لقائهـا بالجامعـة. أتى يـوم السـبت، كان الطـلاب يسـألون عـن النتائـج الأوليـة. عندمـا كان حسـن يقـف في الممـر المـؤدي إلى قاعـة الـدرس، جـاءت أسـتاذة محاسـن تسـأله:

- هل أنت تدرس في الصف الأول؟
- نعم يا أستاذة محاسن.
- هل تعرف الطالب حسن آدم حسون؟
- دا أنا ذاتو يا أستاذة.

رغـم أن أسـتاذة محاسـن كانـت تـدرس مـادة الدراسـات البيئيـة لم تكـن تتوقـع أن هـذا الطالـب هـو مـن تبحـث عنـه. أفاقـت مـن الدهشـة وطلبـت منـه أن يذهـب معهـا إلى المكتـب، لم يفهـم الغـرض مـن الذهـاب، لكنـه لبَّـى الدعـوة. كان بالمكتـب عـدد كبير مـن الأسـاتذة، فقالـت أسـتاذة محاسـن، هـذا هـو حسـن، فشـعر الطالـب بتوتـر خفيـف، ربمـا هنـاك جريمـة مـا ارتكبـت فأخطـأت الأسـاتذة في تعـرُّف المجـرم، جـاءت هـذه الفكـرة في ذهنـه، ولكـن عندمـا عانقتـه أسـتاذة إقبـال التـي كانـت تـدرس مـادة التاريـخ، اختفـى التوتـر.

- أنـت طالـب ممتـاز، النتائج الأوليـة تقـول بأنـك قـد تحـرز أعـلى معــدل في الفصــل.

- ممكن أعرف درجاتي؟

- 48 في مادة التاريخ والدرجة الكاملة 50.

- و المواد التانية؟

- لا أعـرف بالضبـط، لكـن أظـن أن درجاتـك كلهـا عاليـة، لكـن لا أسـتطيع أن أعطيـك تفاصيـل أخـرى، لأن كل أسـتاذ مسـؤول عـن معلومـات المـادة التـي يدرسـها فقـط.

- شـكرًا، يـا أسـتاذة. قـال حسـن ثـم غـادر. كاد يحلـق مـن شـدة الفــرح، ويقــول ســألتقي بــك يــا ياســمين، شــكرا ياســمين.

كانـت علاقـات الطـلاب في مـدارس الأريـاف تبنـى عـلى أسـس محـددة. الأذكيـاء منهـم تجدهـم يبنـون علاقـات الصداقـة مـع بعضهـم. وكذلـك أبنـاء القريـة الواحـدة يتواصلـون مـع أبنـاء الوطـن الأصغـر، هـذا لا يعنـي أن العلاقـات الإنسـانية محصـورة عـلى نطـاق ضيِّـق، بـل يربـط الجميـع أواصر صلـة مختلفـة. عـبر حسـن هـذا الإطـار الضيـق وأصبـح معروفًـا لـدى أغلـب الأسـاتذة، والطـلاب. كان سـعد صديقـه المقـرَّب جـدًّا وقـد شـهد معـه اللقـاء الأول لياسـمين. ولأن مـا يحـدث في المدرسـة لم يكـن ينفصـل عـن حيـاة القريـة، كان الطـلاب يشـاركون أقاربهـم بعـض الأحـداث المهمـة، وحسـن كان موضوعًـا للحديـث في بعـض مناسـبات القريـة، فأصبـح عـدد كبـير مـن النـاس يعرفـون اسـمه وملامحـه والبعـض الآخـر يعـرف أن هنـاك طالبًـا مـن قريـة أخـرى يُدعـى حسـن الـذكي. سـليمان وأسرتـه كانـوا فخوريـن جـدًّا بابـن صديقهـم، وأن المجهـود الـذي كان يبـذل – مـن تقديـم الطعـام، المسـكن والملبـس في بعـض الأحيـان - لم يكـن عبثًـا. فـكان سـليمان

عندما يلتقي أصدقاءه وجيرانه يحدثهم عن حسن بدلًا من الحديث عن أبنائه، مفندًا كل الإشاعات التي تقول إن استضافة طلاب من قرى أخرى سنوات طويلة مسألة مرهقة ماديًّا ومعنويًّا وبلا جدوى. كان يؤمن بعمل الخير، أن يكون سخيًّا مثل الحقول التي لا تميز بين الناس، تعطي ثمارها الجميع، أو الشمس التي تمنح الإنسان الدفء أينما كان بصرف النظر عن خلفيته. كان سليمان يستمد الحكمة من أسرارها الطبيعية وتجلياتها الصافية، لذلك كان ينظر إلى حسن كما لو كان ابنه، يشعر بسعادة من دعمه وتقديم الغالي والنفيس له.

كان حسن يعود إلى قريته خلال إجازة نهاية العام ليساعد والدته في النشاط الزراعي وأحيانًا يسافر إلى العاصمة من أجل العمل هناك ليجمع تكاليف الرسوم الدراسية. في إحدى تلك الإجازات سافر حسن إلى العاصمة، وكان يسكن مع أقربائه، بحث عن عمل لكنه لم يجد، فاقترح عليه أحد الأقارب بأن يبيع ماء الشرب المثلج. كان عمال البناء وغيرهم - طبيعة عملهم تتطلب شراب الماء بين الفينة والأخرى - يشترون الماء الباردة من الباعة المتجولين، فأصبح حسن يبيع الماء لهؤلاء. طلب منه عمال البناء أن يجلب لهم الماء بشكل يومي ليأخذ أجره في نهاية الأسبوع، يوم الخميس، فوافق حسن البريء ابن القرية. كان يأتي متحمسًا كل صباح، ثم يأتي مرة أخرى منتصف النهار، ويسقيهم مرة أخيرة قبل انتهاء دوام العمل. ولأن حسن لا يتسلم أجره إلا نهاية الأسبوع، كان يأخذ قرضًا من أحد الأقارب ليشتري الثلج، إضافة إلى تكاليف المواصلات والأكل. أتى يوم الخميس، كان حسن يشعر بسعادة بالغة لأنه على بعد ساعات معدودة من تسلم أول مرتب له، استيقظ في الصباح الباكر، تأنّق، نظّف جركن الماء، ملأه ووضع فيه الثلج، ثم خرج من البيت متجهًا إلى عمال البناء، ولكن وجد المكان خاليًا إلا من حارس البيت. لم يعرف ابن القرية سبل النصب، ولم

يكـن يتوقـع بـأن النـاس ينصبـون بهـذه السـهولة. قـال لـه حـارس المبنـى إن العــمال قـد أنهـوا عملهـم وذهبـوا، لـن يأتـوا إلى هنـا مجـددًا.. كانـت هـذه أول خدعـة يتعـرض لهـا في حياتـه، لم يحـاول حسـن أن يسـأل عـن عنـوان سـكنهم أو مـكان العمـل الجديـد لعـمال البنـاء. كان الحـزن وخيبـة الأمـل يخيـمان عليـه، لم يكـن يـدري بـأن العـالم هنـا يهتـم بالعائـد المـادي أكـثر مـن القيـم التـي تـربى عليهـا، رغـم أن عـمال البنـاء قالـوا لحسـن بـأن مسـقط رأسـهم الأريـاف، فإنهـم اسـتطاعوا أن يخدعـوه. والـشيء الـذي زاد الطـين بلـة هـو أن حسـن كان يفكـر في الوعـد الـذي قطعـه بإعـادة القـرض يـوم الخميـس. والآن لم تكـن هنـاك أي فرصـة للإيفـاء بالوعـد، مـن أيـن لـه بهـذا المبلـغ، فهـو لا يعـرف سـوى عـدد قليـل مـن النـاس في هـذه العاصمـة الملعونـة، وهـم أقربـاؤه الذيـن يسـكن معهـم. والنـاس هنـاك إذا لم ترجـع دينًـا أخذتـه يسـتحيل أن يقرضونـك مـرة أخـرى. عـاد حسـن إلى البيـت وتحـدث مـع الدائـن بشـكل صريـح وكيـف نصبـوا عليـه عـمال البنـاء. فـردَّ عليـه قريبـه بـأن المـدن الكبـيرة وبالتحديـد العاصمـة تحـدث فيهـا هـذه الأشـياء، وأن هـذه التجربـة سـتعلمه الكثـير، وطلـب منـه ألا يشـعر بالقلـق إزاء القـرض، بـل أكـثر مـن ذلـك اسـتقرضه مبلغًـا آخـر وشـجعه بالمواصلـة في العمـل. بالرغـم مـن أن فكـرة تـرك العمـل والعـودة إلى القريـة كانـت تـراوده، فـإن التشـجيع الـذي وجـده مـن قريبـه جعلـه يعيـد النظـر، فقـرر أن يواصـل العمـل لكـن في مجـال آخـر «ماسـح أحذيـة». أخـذ المبلـغ الـذي أعطـاه قريبـه وذهـب إلى السـوق، اشـترى معـدات العمـل الجديـد ثـم عـاد إلى البيـت. اسـتفسر عـن نظـام العمـل ماسـحًا للأحذيـة والأماكـن المناسـبة للقيـام بمثـل هـذا النـوع مـن العمـل، فأخـبره مـن عـاش في العاصمـة أوقاتًـا طويلـة ولديـه تجربـة في هـذا المجـال. وعندمـا سـأله أحدهـم عـن سـبب تغيـير العمـل، قـال إنـه يريـد تسـلم الأجـر حالمـا يـؤدي العمـل. في صبـاح اليـوم التـالي، خـرج إلى العمـل. كان يتجـول في طرقـات المدينـة، يخاطـب

السكان بكشكوشه[1] معلنًا عن رغبته في الكسب الحلال، فلبى النداء أناس كثر بما في ذلك فتاة جميلة كانت تهم بالذهاب إلى الجامعة أو ربما بلقاء رومانسي. كان يؤدي المهمة، يأخذ الأجرة مباشرة. كان يفعل هذا حتى غروب الشمس، فعاد إلى البيت وجيبه مليئًا بالنقود. كانت هذه هي المرة الأولى التي يجني فيها حسن نقودًا بهذه الكمية. في المساء أعاد إلى الدائن قرضه واطمأن. كان يخرج كل يوم في الصباح الباكر ويعود إلى البيت قبل غروب الشمس بوقت قصير، استمرَّ الحال هكذا مدة شهرين. في هذه المدة استطاع أن يجمع تكاليف الرسوم الدراسية وتكاليف الهدايا لأمه وتبقى قليل من المال يكفي لشراء تذاكر العودة ولتغيير ثيابه القروية.

رتَّب حسن حقيبته قبل يوم من عيد الأضحى، اشترى كل الاحتياجات والهدايا، ثم رمى معدات العمل في سلة المهملات وعاد إلى القرية. كانت أمه تنتظره بشوق ولهفة شديدين. أتى حسن محملًا بالهدايا والحنين، سألته أمه والسعادة تغمرها بعودة فلذة كبدها من العاصمة والحياة هناك، فقال حسن إن القرية أفضل، والناس هنا أطيب، أما هناك المال أكثر والكذب أكثر. فسألته أمه، عن الشيء الذي افتقده كثيرًا؟ هل رعاة البقر مثل رعاتنا هنا؟ فأجاب حسن بأن لا رعاة هناك، وأنه افتقد وجه أمه وصياح الديك في الصباح الباكر.

لم تكن السنة الثانية تختلف عن الأولى كثيرًا، كان حسن يشعر بتأقلم كامل مع بيئة القرية، وأن صوت ياسمين لم يفارقه أبدًا، وعندما سافر إلى العاصمة ونصب عليه عمال البناء، كان يتذكر المدرسة وأمسيات الغابة ولقاءه الأول بساحرة الغابة، لذلك كان يستمر في العمل دون ملل، وأنه تجاوز الخدعة الأولى في حياته بسبب تذكره اللقاء المرتقب في الجامعة، وأن العمل كان تمهيدًا للرحيل إليها بعد عام. ذهب إلى

(1) الكشكوش: آلة موسيقية صغيرة من الحديد يستخدمها ماسحو الأحذية لجذب الزبائن.

المدرسة، استقبله العم سليمان وأسرته بترحيب حار، وسألوه عن الإجازة والسفر إلى العاصمة، فحكى لهم حكايات مختلفة، ثم قدَّم لهم بعض الهدايا ووضع مبلغًا متواضعًا في جيب العم سليمان الذي غضب من هذا الأمر، وطلب منه أن يأخذه. في العام الثالث، كان حسن يتذكر - كل صباح وقبل النوم - العبارة التي كتبها في العام الأول بعد لقائه ياسمين «طاقة كبيرة في قلبي، حب ياسمين يحلِّق في الأفق، الطريق إلى مطار الحب يحتاج إلى عامين، وقود الطريق: القراءة، الإيمان ثم القراءة» ويختم في سره بكلمة (آمين). يصعب على الإنسان أن يتذكر شيئًا واحدًا كل يوم، لكن حلمه كان أكبر. في ذلك العام لم يكن يزور أصدقاءه أو زملاءه، فقط كان يتجول في الغابة مرة واحدة في إجازة نهاية الأسبوع. البرنامج اليومي بالنسبة إليه كان: «عند السادسة صباحًا يستيقظ من النوم، يقرأ حتى الثامنة صباحًا، يقوم بطقوس الصباح وعند التاسعة يكون في المدرسة، يحضر جميع الدروس بما في ذلك الإضافية، يعود إلى البيت عند الثانية ظهرًا، ينام حتى الرابعة عصرًا، يستيقظ لتناول وجبة الغداء، ثم يقرأ حتى السابعة، وعند التاسعة مساء يتناول وجبة العشاء، ثم يواصل القراءة حتى منتصف الليل ويخلد إلى النوم»، هذا الروتين الممل استمر مدة ثمانية أشهر باستثناء أيام الزيارة التي يقوم بها لأمه. قدَّم الطلاب امتحانات «التاريخ، الجغرافيا، الرياضيات، اللغة العربية، اللغة الإنجليزية، التربية والدراسات الإسلامية، الإنتاج الزراعي، الدراسات العسكرية». ذرف كثير منهم الدموع في اليوم الأخير للامتحانات حزنًا لفراق الزملاء، والطالبات زرفن الدموع لفراق المعجبين. بعد مرور شهرين من تلك اللحظة، أُعلِنت نتائج امتحانات الشهادة الثانوية، كان حسن قد أحرز معدل الحلم، 85 %، وهو معدل يسمح للطالب بالالتحاق بجامعة مرموقة، وسيعلم حسن لاحقًا أن ياسمين قد أحرزت 87 % وقُبِلا بجامعة واحدة.

عالم مفتوح

إن قُـدِّر للإنسـان أن يولـد مرتـين، فـإن الـولادة الثانيـة لحسـن كانـت عنـد التحاقـه بالجامعـة. بالرغـم مـن أنـه لم يكـن يحلـم بالدخـول في هـذه الجامعـة، فـإن لقـاءه ياسـمين - الفتـاة القرويـة - دفعـه إلى تحقيـق ذلـك. مـرت ثـلاث سـنوات منـذ النظـرة الأولى لياسـمين في غابـة القريـة في عـصر ذلـك اليـوم، والآن يتلهـف لرؤيتهـا هنـا لـكي يخبرهـا بوفائـه الوعـد العظيـم. كانـت الجامعـات هنـاك تتسـم - كـما هـو الحـال في بقيـة دول العـالم – بالبيروقراطيـة والإجـراءات المملـة (كشـف طبـي، تسـجيل، اختيـار التخصـص الدقيـق، دفـع الرسـوم الدراسـية البحـث عـن سـكن). ولأن حسـن كان قـرويَّ المنشـأ، كان عليـه أن يجـد غرفـة بالسـكن الجامعـي. لذلـك توجـه منـذ وصولـه إلى المدينـة الجامعيـة في رحلـة البحـث عـن مـأوى بـدلًا عـن الذهـاب إلى الكليـة. عندمـا دخـل إلى المدينـة الجامعيـة وبـدأ يسـأل مـشرف السـكن، قابلـه الأخـير سـاخرًا مـن جهلـه، وأوصـاه بالذهـاب إلى الجامعـة أولًا، ليقـوم بإجـراءات التسـجيل والكشـف الطبـي، ثـم العـودة لإكـمال إجـراءات السـكن. خـرج مـن المكتـب دون أن يتضجـر، لكنـه عـاد مسـتفسرًا: عليـك اللـه، مـا عـارف لـو ياسـمين قبلوهـا هنـا في الجامعـة؟ فأجـاب المـشرف بـأن الياسـمين وكل الـورود الأخـرى موجـودة هنـا. لم يفهـم المـشرف السـؤال ولم يفهـم حسـن الإجابـة، لذلـك واصل طريقـه إلى الكليـة. كان حسـن في ذلـك اليـوم مهندمًـا بطريقـة متمدنـة؛ بنطـال جينـز أسـود وقميـص أبيـض وعـلى رأسـه قبعـة عليهـا حرفـين NY. عندمـا يقـع نظـرك عليـه، تظـن أن هـذ الشـاب قـادم للتـو مـن إحـدى الـدول الأوربيـة. في أثنـاء قيامـه بتلـك الإجـراءات، كان ينظـر يمنـة ويـسرة عـلى أمـل أن يـرى ياسـمين بـين وجـوه الصبايـا المشرقـات في الصبـاح، لكنـه لم يكـن

محظوظًا في ذلك اليوم. أنهى الإجراءات بمساعدة من زملائه الجدد. كان اليوم التالي مخصصًا لاجتياز اختبار التخصص. اختار حسن دراسة اللغة الروسية كتخصص أساسي، وبجانب ذلك كان على جميع طلاب المستوى الأول دراسة اللغة العربية والدراسات الإسلامية وتاريخ بلاد الفيلان. كانت الأقسام تُجري معاينات حتى يُقبَل الطالب، وهي أسئلة عامة عن التخصص. طرح رئيس القسم على حسن هذه الأسئلة: لماذا اخترت دراسة اللغة الروسية؟ ما هي عاصمة روسيا؟ ومن هو الرئيس الروسي؟ أجاب الطالب عن السؤال الأول قائلًا: هل هناك خيار آخر؟ الجامعة تضيِّق علينا الخيارات، ليس أمامي أي خيار آخر، لذلك اخترتها. أما إجابة السؤال الثاني، فقال: عاصمة روسيا موسكو، والرئيس لا أعرفه. كان رئيس القسم لطيفًا وعالمًا في مجاله، لديه خبرة كبيرة في مثل هذه الأمور، لذلك قبل حسن، وأعطاه جدول المحاضرات ورقم المجموعة التي سيدرس معها، والتي كانت تتكون من عشرين طالبًا وطالبة، ولكن عدد الحسناوات أكثر. خرج الطالب من المكتب، ولم تكن لديه فكرة عن اللغة الروسية، وماذا سيفعل بهذه اللغة بعد التخرج. سيتذكر حسن هذا اليوم عندما يقوده المصير إلى مكان ما بعد سنوات. قدم الطلاب الجدد إلى الجامعة من كل بقاع الفيلان. نسبة الفتيات كانت تفوق عدد الشباب. أصيب حسن بالذهول عندما رأى هذا الكم الهائل من الطلاب، وبدأ يشعر برعب، يفكر في طرق التأقلم مع حياة العالم الجديد، وكأنه في بلد آخر وأبناء غير أبناء جلدته. حظي حسن بمأوى بالسكن الجامعي، برفقة شخصين آخرين. كانت الغرفة تقع في الدور الأخير في البناية ذات الخمسة طوابق. مر أسبوع على بداية العام الدراسي، وحسن يتعرَّف معالم الجامعة: المكتبة، المطعم، المسجد، الحمام، وقاعات المحاضرات، وكذلك الحدائق الداخلية التي يمكن أن يقضي فيه أوقات الفراغ. كان حسن قادمًا

بالتـزام المرحلـة الثانويـة ذاتـه. يذهـب إلى جميـع المحـاضرات، لا يغيـب أبـدًا. يقـرأ بالمكتبـة سـاعتين ثـم يعـود إلى فراشـه في السـكن الجامعـي. أتى امتحانـات السمسـتر الأول. ولأن المـدة الأولى مـن المرحلـة الجامعيـة تعـد الأصعـب بالنسـبة إلى الطـلاب الجـدد، كان الخـوف يسـيطر عـلى الجميـع. بـدأت المكتبـات تضـج بالقـرَّاء.

عـلى الرغـم مـن أن حسـن كان مـن أميـز الطـلاب داخـل قاعـة الـدرس، فإنـه لم يلحـظ ذلـك لـو لم تـأتِ تلـك الفتـاة في ذلـك اليـوم وتطلـب منـه المسـاعدة في اللغـة الروسـية. كانـت الفتـاة تدعـى عـزة، مـن فتيـات العاصمـة، تسـكن مـع أسرتهـا، وتبـدو في ملامحهـا علامـات راحـة البـال ووفـرة المـال، فقـال حسـن: مـا عنـدي مانـع تـب، دا لـو كنـت عـارف أجوبـة للأسـئلة حقتـك، فقالـت عـزة: عـلى مـدار الثلاثـة أشـهر، كنـت تجيـب عـن جميـع أسـئلة أسـتاذ اللغـة الروسـية، وكنـت تحـرز درجـات عاليـة في الاختبـارات، بعـد ذلـك كلـه، تظـن أنـك لـن تسـتطيع الإجابـة عـن أسـئلتي؟ ثـم أضافـت: أعتقـد أنـك لا ترغـب في مسـاعدتي. عندمـا سـمع هـذه الكلـمات أصابـه الذهـول، أولًا بسـبب لغـة أهـل المدينـة وثانيًـا عـلى مديحهـا لـه. ثـم شـكرها عـلى تسـليطها الضـوء عـلى أشـياء لم ينتبـه إليهـا، وبـدأ يصغـي للأسـئلة بإمعـان. كانـت الأسـئلة عـن القواعـد العامـة للغـة، وتصريـف الأفعـال والعبـارات العامـة، فكانـت هـذه المعلومـات راسـخة في ذهنـه كالنقـش في الحجـر، لأن الأسـتاذ كان يكـرر هـذه المعلومـات بشـكل يومـي. أدى حسـن المهمـة مثلـما شرح لهـم الأسـتاذ. كانـت عـزة في غايـة السـعادة، لذلـك أبـدت رغبـة في تعرَّفـه عـن قـرب، فسـألته عـن مـكان ميـلاده، والمدرسـة الثانويـة التـي درس بهـا والدرجـة التـي أحرزهـا في امتحانـات الشـهادة الثانويـة، فقـال حسـن إنـه وُلِـدَ في قريـة طيبـار، تقـع غـرب الفيـلان، أمـا المدرسـة الثانويـة تمـسى «مـاراز». فقالـت عـزة: أنـت شـاب ذكي، لأن الالتحـاق بهـذه الجامعـة مهمـة أشـبه بالمسـتحيلة،

خاصة إن كنت من القرى، أنا درست في واحدة من أفضل المدارس في العاصمة، ومع ذلك أدرس على النفقة الخاصة. فقال محدثا نفسه: لكن أنا كان معاي ياسمين، يا الله ياسمين ياخ. لم يلتقِ حسن ياسمين على الرغم من مرور شهور من التحاقهما بالجامعة. وكانت تدرس في كلية أخرى تقع على بعد أمتار معدودة من الكلية التي يدرس فيها هو. وسبب ذلك عدم وجود وسيلة للتواصل، لأن حسن لم يكن يملك هاتفًا، وكان بعيدًا عن وسائل التواصل الاجتماعي، وكذلك ياسمين ساحرة الغابة.

كانت الحياة في الجامعة تضج بالفاعليات الثقافية، والسياسية، والاجتماعية، في مساء كل يوم، كانت الأحزاب السياسية تنظم «أركان نقاش»، أما الجمعيات الثقافية كانت تنظِّم قراءات شعرية، وجلسات موسيقية. تلتف الطالبات الحسناوات حول الشعراء، يقرأون قصائد عن الحب، والخيانة، عن البطولات والتضحيات، وقصائد أخرى لا معنى لها، لكنها في كل الأحوال كانت تتوج بتصفيق الحسناوات فيظن الولد - الذي لم يقل شيئًا – أنه قد قال كل شيء ولم يترك كلمة للأجيال القادمة. وفي بعض الحلقات تجد شاعرات الخيبة.. خرجت فتاة من غدر ما للتو ولم تستطع أن تهزم السهاد، فكتبت قصيدة تعبر فيها عن خيباتها، ثم تأتي لتقف وسط السرب لتردد شقشقات الخسران. كان حسن يقف في إحدى هذه الحلقات ويسمع الشعر، لم تكن هذه المرة الأولى التي يسمع فيها هذا النوع من الفن، فهو من قرأ نصًّا لآشته في المدرسة الابتدائية، لكن لغة الشعر هنا بدت له مختلفة نوعًا ما، فلم يفهم ما يقال بالضبط، لكنه كان يشعر براحة بال. وذكريات الغابة ولقاءات ياسمين كانت تتدفق في مجاري مخيلته، استمر حسن في السماع نصف ساعة من الزمن، ولم يشتت تركيزه سوى لمسة على كتفه، فالتفت ليجد شابًّا يسلم عليه، فرد السلام،

ثـم سـأله: بتعرفنـي ولا شـنو؟ فأجـاب الشـاب: طبعًـا، كيـف الـكلام دا مـش درسـت في مدرسـة «أم مـاراز»؟ شـوفتك هنـاك، أنـا اسـمي عبـد الباقـي، كنـت في الدفعـة القدامـك، دخلـت الجامعـة السـنة الفاتـت.. فأعـاد حسـن التحيـة بعنـاق، ثـم قـال: أنـا اسـمي حسـن. كان لـدى عبـد الباقـي رسـالة سريعـة يريـد أن يوصلهـا لـه ويمـضي، لذلـك طلـب منـه التنحـي جانبًـا، فوافـق. عندمـا ابتعـدا عـن الـسرب والشـعراء الصعاليـك، قـال عبـد الباقـي: نحـن جايـين مـن مدرسـة واحـدة، رغـم أنـه مـا اتقابلنـا في «مـاراز»، لكـن دايـر أديـك معلومـة مهمـة، فقـال حسـن: شـكرًا ليـك كتـير واللـه. عندهـا واصـل عبـد الباقـي: إذا مـا رسـبت ولا في مـادة واحـدة حتـى التخـرج، حتكـون عنـدك فرصـة كبـير تشـتغل في الجامعـة، وحتـى لـو مشـيت في أي مؤسسـة تانيـة حيقبلـوك طـوالي. فقـال حسـن: أنـا جيـت مـن الأريـاف، وبقولـوا نـاس العاصمـة بـس بقبلوهـم في الشـغل. الـكلام دا صحيـح؟ أجـاب قائـلًا: الـكلام دا صحيـح، لكـن لا الحاجـة مـا قاعـدة تنطبـق عـلى الجامعـة دي، هنـا في مسـاواة بـين الطـلاب، والمعيـار الوحيـد للنجـاح في الامتحانـات أو الاختيـار في الشـغل كعضـو هيئـة التدريـس هـو التوفـق الأكاديمـي.. أنـت اعمـل العليـك بعـداك تشـوف بـراك. ذهـب عبـد الباقـي في سـبيله تـاركًا حسـن يفكـر فيـما سـمع مـن حقائـق مذهلـة. بعـد دقائـق، بينـما كان عائـدًا إلى الـسرب والشـعراء، رأى فتـاة تجلـس في المقعـد تـشرب القهـوة وبجانبهـا شـاب، كانـت ياسـمين، فلـم يصـدق حسـن عينيـه، اقـترب منهـما ثـم نـادى: ياسـمين، التفتـت الفتـاة ثـم سـألت، حسـن الـذكي؟ حينهـا تأكـد حسـن مـن أن التـي يراهـا هـي ياسـمين، وأن عينيـه لم تكذبـا، سـلم عليهـا، وقـال إنـه كان يبحـث عنهـا طـوال هـذه المـدة، فقالـت ياسـمين: أنـا برضـو كنـت بتذكـرك، ولكـن مـا اتلاقينـا خالـص.. ثـم أضافـت: دا صديقـي سـعيد، قاعديـن نـدرس سـوا، اتعرَّفتـه قبـل شـهرين. سـلم حسـن عـلى سـعيد، واسـتأذنهما وغـادر المـكان متجهًـا إلى غرفتـه. كان حسـن قـد شـعر بـبرود

مـن طـرف ياسـمين، ولم تكـن هـي كـما كانـت في الغابـة، تلاشـت اللهفـة، والنظـرات المليئـة بالحيـاة والشـوق، كانـت تنظـر إليـه وكأنـه زميـل مثلـه ومثـل بقيـة الطـلاب في الجامعـة، وحتـى عندمـا اسـتأذن حسـن المغـادرة، لم تطلــب منــه ياســمين البقــاء، ولم تســأله عــن مقابلــة أخــرى ولا حتــى عـن وسـيلة تواصـل، باختصـار أصبـح حسـن بالسـنة إليهـا ذكـرى، والمـاضي ذهــب ولــن يعــود. الآن ياســمين في العاصمــة، وســط خيــارات كثــيرة، وعــالم أوســع وأرحــب مــن عــالم القريــة.. أدرك حســن أن ياســمين كانــت سـببًا فقـط للتأقلـم في عـالم القريـة ودافعًـا للتوفـق الأكاديمـي في المدرسـة الثانويـة، وأنـه يشـعر بامتنـان تجاههـا، ولم ينـدم بالـبرود الـذي أحسـه مـن طرفهـا. كانـت حالتـه الروحيـة كأنهـا تقـول لـه: ولياسـمين فضـل كبـير عـليَّ، ومحبـة في قلبـي بحجـم حقـول القمـح وغابـات الأريـاف، لكـن يجـب ألَّا أمنِّـي النفـس بقصـص وحكايـات جديـدة معهـا. فلتعـش حكاياتهـا مـع سـعيد أو أي شـاب آخـر، وعـليَّ أن أبحـث عـن طريـق نجـاتي وحـدي. عـاد حســن إلى الغرفــة ووجــد البــاب مغلقًــا، عندمــا تحســس جيبــه لم يجــد شـيئًا، كان المفتـاح مـع جـاره عثـمان الـذي يتسـكع في فنـاء الجامعـة، فعـاد حســن ليبحــث عنــه، وفي طريقــه إلى هنــاك رأى فــرًّا وكــرًّا بــين الشرطــة والطـلاب. كان هـؤلاء الطـلاب خرجـوا مظاهـرة للتعبـير عـن رفضهـم الغـلاء ورفـع الدعـم عـن السـلع الأساسـية، فأخـذ حسـن أول حجـر رآه عـلى الأرض ورمـاه في اتجـاه عربـة الشرطـة، ركـض رجـل الشرطـة نحـوه، لكـنَّ هـذا تذكـر مسـابقات الطفولـة في أزقـة القريـة لذلـك انتظـر حتـى اقـترب منـه رجـل الشرطـة بعـد ذلـك ركـض. كان الشرطـي يطـارده، لم يتوقـف حسـن عـن الركـض ولم يتوقـف رجـل الشرطـة عـن ملاحقتـه، أصبـح الأمـر ممتعًـا لحســن، فتوقــف قليــلًا حتــى اقــترب رجــل الشرطــة مجــددًا، ثــم واصــل الجـري مـرة أخـرى ورجـل الشرطـة مـن خلفـه، بعـد عـشر دقائـق وجـد حســن نفســه بالقــرب مــن حدائــق الحــرب والســلام التــي تقــع بالقــرب

مـن وزارة التربيـة والتعليـم، نظـر حسـن صـوب الـوزارة ثـم قـال محدثًـا نفسـه: كنـت أظـن دراسـة الرياضيـات والكيميـاء أكـثر أهميـة مـن الركـض، لكـن التجربـة تثبـت عكـس ذلـك.. التفـت إلى الخلـف ليجـد رجـل الشرطـة جالسًـا مـن شـدة التعـب فأخـرج حسـن لسـانه سـاخرًا مـن الشرطـي، ثـم اتجـه إلى غرفتـه ليجـد جـاره عثـمان في حضـن الكتـب اسـتعدادًا لتقديـم امتحانـات السمسـتر الأول.

كانــت تلــك هــي المــرة الأولى التــي يشــارك فيهــا في مظاهــرة ضــد السـلطة، رغـم أنهـا لم تكـن في الحسـبان، فـإن الأمـر كان ممتعًـا لـه وفُتِحـت أمامـه بوابـة جديـدة مـن الحيـاة. أدرك أن المطالبـة بالحقـوق هنـا يحـدث عـبر المواجهـة المبـاشرة مـع السـلطة وليـس عـن طريـق التضجـر والشـعور بعـدم الرضـا كـما يحـدث لـدى مزارعـي القريـة والرعـاة. كانـت الجامعـة مشـهورة بالإسـهام في التحـولات التـي حـدث في ضفـاف الفيـلان، وكان طلاب الجامعـة يتفاعلـون مـع قضايـا البلـد، ويعـبرون عـن همـوم المجتمـع، لذلـك المظاهــرة التــي شــارك فيهــا حســن (بالركــض) لم تكــن الأولى ولا الأخــيرة، سيشـهد حسـن جـولات مماثلـة كثـيرة في مقبـل السـنوات.

مـن حسـن حـظ الطـلاب في هـذه الجامعـة، أنهـا تتميـز بموقـع جغـرافي فريـد، مـن جهـة الشـمال يحيطهـا النهـر العظيـم، الـذي يعطـي الجامعـة منظـرًا خلابًـا ومختلفًـا باختـلاف فصـول العـام، في الخريـف، تفـوح رائحـة الطـين بعـد هطـول المطـر، تنبـت الأعشـاب والحشـائش وقليـل مـن الـورود. أمـا الشـتاء فـكان يكسـو الجامعـة ثوبًـا مـن الضبـاب، وفي الصيـف يجـري العـرق مـن عـلى جبـين الطـلاب. رغـم أن الديكتاتوريـة العسـكرية كانـت تخنـق البـلاد، فـإن أبـواب الجامعـة كانـت مفتوحـة عـلى مصراعيهـا طـوال اليـوم، يُسـمح للطـلاب بالوجـود داخـل فنـاء الجامعـة في أي وقـت، مـع ذلـك تُغلَـق قاعـات الـدرس والمكاتـب بعـد انتهـاء الـدوام حتـى لا تُفقـد مسـتندات وذاكـرة الأجيـال. كان معظـم الطـلاب الذيـن يقطنـون بالسـكن

الجامعي قد قدموا من الأرياف والمدن البعيدة، أما أبناء وبنات العاصمة وأطرافها فكانوا يسكنون بالمدينة مع أسرهم. كان كثير من الطلاب يعودون إلى سكناتهم بعد انتهاء اليوم الدراسي، ليأخذوا قسطًا من الراحة، وفي المساء يعودون إلى الجامعة، يتسامرون حول قضايا مختلفة: عاطفية، عن المستقبل، وأخرى سياسية، وبين أولئك الطلاب كان من يأتي إلى المكتبة في المساء ليقرأ كتبًا متنوعة، لكن حسن لم يكتشف هذا إلا في بداية العام الدراسي الثاني.

بعد يوم الركض الجميل مع الشرطي، وجد حسن جاره غارقًا بين صفحات الكتب. لم يسأله عن المظاهرة، وضع حسن حقيبته، ثم ذهب إلى الحمام ليتحرر من الحمل ويلبي النداءات البيولوجية. كانت هناك غرفتان للاستحمام في كل طابق، كل الطلاب يقضون حوائجهم هناك، لذلك كان يمكن أن تأتي وتجد جميع الحمامات مشغولة فتضطر إلى الانتظار طويلًا.. دخل حسن إلى غرفة الحمام بعد انتظار طويل، لكن الطالب الذي خرج للتو لم يتغوط في المكان المخصص، فلعن الفاعل والمفعول به، ثم عاد إلى غرفته. هذه المظاهر كانت طبيعية في السكن الجامعي، لأن كثيرًا من الطلاب أتى من مناطق لا تعرف الحمامات الحديثة، الناس في الأرياف يتغوطون في المزارع والحقول المجاورة لمنازلهم، ولم يكن حسن استثناءً، لكنه كان يجيد وضع مؤخرته في وسط المرحاض، لذلك لا يترك أثرا بعد التخلص من القذارة. عندما عاد إلى الغرفة، أخرج دفترًا كان يسجل فيه ملاحظات عن مادة عن الفلكلور والحضارة الفيلانية، ثم بدأ يقرأ، ولكنه فجأة ضحك بصوت عالٍ عندما قرأ هذه العبارة «طبقات ود ضيف الله، والسجادة الطيارة» لم يعلق جاره على هذا الضحك لأن الهم كان أكبر، فصمت حسن وواصل القراءة تأهبًا للامتحانات.

انطلقت الامتحانات في يوم الأحد، وكانت الجلسة الأولى مادة اللغة

العربيـة لجميـع طـلاب المسـتوى الأول. حتـى ذلـك الوقـت اسـتطاع حسـن أن يبنــي صداقــات لا بــأس بهــا، أغلبهــم كانــوا يدرســون معــه في القســم. أهميــة الصداقــة في كل الأزمنــة تكمــن في أن الإنســان يــرى انعكاســه في إنســان آخــر، يطلعــك الصديــق عــن مواطــن القــوى والضعــف فيــك، يســاندك ويصــوِّب مســارك إذا حــدت الطريــق.. كان حســن وأصدقــاؤه يقــرأون ســاعات طويلــة، يحلمــون بتقديــم كل الامتحانــات بشــكل جيــد، يخمــن أحدهــم الأسئلة المتوقعــة وهكــذا.. نــزل امتحــان اللغــة الإنجليزيــة بــاردًا عــلى قلــب حســن وزملائــه، ثــم قــدم حســن امتحــان اللغــة الروســية وبعدهــا الامتحانــات الأخــرى، لم يجــد حســن صعوبــة ســوى في مــادة اللغــة العربيــة لذلــك كان يتمنــى الحصــول عــلى درجــة المــرور فقــط. ظهــرت نتائج الامتحانــات بعــد شــهر مــن تقديــم آخــر مــادة، كان اللوحــات التــي تعلَّــق عليهــا نتائــج الامتحانــات تعــج بالطــلاب، صفــوف طويلــة، أسر الطــلاب أيضًــا أتــوا لرؤيــة حصــاد أبنائهــم. كان حســن في ذلــك اليــوم نائمًــا بغرفتــه في الســكن الجامعــي، ولم يكــن يعــرف أن الفــرح والعويــل هــما ســيدا الموقــف الآن بالجامعــة، حتــى أتى جــاره عثــمان وأخــبره بظهــور النتائــج، ركــض حســن إلى الكليــة للمشــاركة في حفــل النتائــج، ومــن حســن حظــه كان في صــف الذيــن يبكــون فرحًــا.. بعــد وصولــه، لم يســتطع حســن رؤيــة النتائــج مبــاشرة، لأن الجمــوع الغفــيرة لم تكــن تســمح بالتقــرب إلى اللوحــة، فانتظــر حســن حتــى قــلَّ عــدد الحضــور، ثــم اقــترب عــرف درجاتــه ثــم انطلــق عائــدًا إلى الغرفــة، ولمــا بلــغ مدخــل الســكن الجامعــي وجــد صديقــه طــلال، فأخــبره بالنتائــج التاليــة: اللغــة الروســية 80 %، اللغــة الإنجليزيــة 70 % الدراســات الســودانية 90 %، أمــا الدراســات الإســلامية 86% واللغــة العربيــة 51 %. كان عثــمان في غايــة الفــرح، قــال لحســن: أنــت في الطريــق الصحيــح، امــضِ بهــذه الوتــيرة ولا تحِــد عــن الطريــق. بعــد تقديــم امتحانــات المــدة الدراســية الأولى، مُنِــحَ الطــلاب إجــازة مــدة شــهر. كان حســن يجلــس

بالمدينـة الجامعيـة، لأن الوضـع المـادي لم يكـن يسـمح لـه بالسـفر إلى القريـة لرؤيـة أمـه، كان حسـن يقـرأ ثـم يقابـل بعـض الأصدقـاء والمعـارف للقضـاء عـلى وقـت الفـراغ. بـدأت المرحلـة الثانيـة مـن السـنة الدراسـية الأولى، أصبـح حسـن معروفًـا لـدى رفقائـه، وزادت نسـبة النسـاء في قائمـة أصدقائـه، بـدأ يشـعر براحـة وفـرح، ثـم بـدأ يشـتاق إلى المحـاضرات، وجلسـات شرب القهـوة والشـاي بحدائـق الكليـة والجامعـة، مـع ذلـك لم ينقطـع عـن الزيـارات المسـتمرة للمكتبـة، ثـم إنـه اكتشـف أماكـن جديـدة مثـل أماكـن الحناكيـش وأماكـن تدخـين المخـدرات، رغـم أن حسـن لم يكـن مـن المدخنـين، إضافـة إلى اكتشـاف حسـن مطعـم بالكليـة المجـاورة.. بـدأ حسـن يشـعر بالتأقلـم عـلى الوضـع الجديـد، وأصبـح مـن صنَّـاع الحيـاة اليوميـة في الجامعـة. بعـد نهايـة العـام، بـدأت حفـلات الـوداع في جميـع الكليـات. كان حسـن ورفاقـه يذهبـون هنـا وهنـاك، وفي إحـدى الحفـلات رأى حسـن ياسـمين ومعهـا شـاب آخـر، فقـال في نفسـه: مثلـما اسـتطاعت ياسـمين أن تلهمنـي، سـتلهمك أنـت أيضًـا يـا صديقـي. انتهـت الحفـلات، وعـاد الطـلاب مـن حيـث أتـوا، فلـم يبـقَ في السـكن الجامعـي سـوى حسـن وعـدد قليـل مـن الطـلاب، الذيـن كانـوا في رحلـة البحـث عـن المعنـى.

عالم خفي

انتهت إجازة العام الدراسي الأول وبدأت مرحلة جديدة من حياة حسن.. لم يعد طالبًا جديدًا بعد الآن. تعرَّف أصدقاءً جددًا، ولم يجد صعوبة في تعود حياة المدينة الجامعية، سوى الحمامات المتسخة. في الثلاثة شهور التي ظل فيها في أثناء إجازة العام، تعرَّف قيم التعاون والتعاضد بين الطلاب داخل السكن الجامعي. كانوا يتبادلون المواد الغذائية، يُدعى الرفاق لتناول وجبة الفطور أو العشاء. وأكثر من ذلك، كانوا يقدمون الدعومات المادية عند الحاجة، يتشاركون آخر جنيه موجود داخل المدينة الجامعية، وعندما يعلنون إفلاسهم، كان أصحاب المطاعم والمقاهي يقدمون الأكل والشرب إلى حين سداد التكاليف المالية.. عندما تمطر السماء نقودًا. لم يعرف الطلاب في السكن الجامعي خاصة ثلاث وجبات، كان المقتدرون منهم يتناولون وجبتين فقط، أما الطالب الذي يتلقَّى العون المادي بشكل غير منتظم ليس لديه جدول ثابت للأكل، أحيانًا يأكل مرة واحدة في اليوم، وتأتي أيام يقاوم الجوع بالنوم الطويل. مع ذلك، كان الطلاب يتَّسمون بعزة نفس وكرامة غير طبيعية، لذلك لا يسألون الناس، يواجهون المصير وحدهم. من وقت إلى آخر كان حسن يعمل بائعًا متجولًا. ذات مرة ذهب إلى «سوق القانص» ليبيع هاتفه الوحيد حتى يسد رمقه، ولكن أتى رجل شرطي من الخلف ورفع حسن في عربة الكشة. لم يدرك حسن ماذا يريد الشرطي، وظن أنه لم يتركب جريمة، أخرج هويته ليثبت أنه طالب.. فقط أتى ليجد حلًّا للجوع المستشري في وسط العاصمة، لكن رجل الشرطة لم يعر اهتمامًا لحسن وهويته، بعد ساعة من الزمن وجد حسن نفسه داخل الحراسة «القسم الشمالي - الفيلاني» هكذا كان

المبنـى معنونًـا. بعـد انتهـاء الإجـراءات الروتينيـة مـن تسـليم للأغـراض، مثـل الحـزام، وسـاعة اليـد وغيرهـا، اقتيـد حسـن إلى غرفـة الحراسـة. كانـت الغرفـة صغـيرة، مسـاحتها سـتة عـشر مـترًا مربعًـا، وبابهـا أعمـدة حديـد متشـابكة، الحوائـط خاليـة مـن الدهـان، ورغـم الطقـس الحـار، فإنهـا كانت خاليـة مـن نظـام التبريـد. كان بالداخـل ثمانيـة نـزلاء وتاسـعهم حسـن. كانـت هنـاك ثـلاث غـرف أخـرى مجـاورة وشرفـة لا تطـل إلى أي جهـة. يخـرج المحبوسـون مـرة أو مرتـين في اليـوم، في الصبـاح عندمـا يـأتي رئيـس الحراسـة ليتفقـد النـزلاء، أو بالنهـار عندمـا يُسـمح لهـم بذلـك. حـان وقـت الأكل. خـرج المحبوسـون إلى الشرفـة بعـد أن فُتحـت الأبـواب، ووزَّع الشرطـي قطعـة خبـز واحـدة لـكل حبيـس، بعـد ذلـك وُضِـعَ إنـاء كبـير فيـه شـوربة عـدس وأمرهـم بـالأكل. في غضـون ثـوانٍ كان الإنـاء فارغًـا وكذلـك الأيـادي. بـدا الأكل لذيـذًا، لكنـه قليـل، فطلـب حسـن مـن الشرطـي أن يـأتي إليـه بماء وأكل، ثـم ناولـه مبلغًـا مـن المـال. عـاد رجـل الشرطـي ومعـه المـاء ووجبـة الغـداء. عندمـا أخـذه حسـن ودخـل إلى الغرفـة، أخـذ أحـد رفقـاء الحبـس المـاء دون اسـتئذان، نظـر إليـه حسـن بغضـب وناولـه الأكل أيضًـا.. كانـت هـذه المـرة الأولى التـي يجـد حسـن نفسـه في هكـذا مـكان، لذلـك لم يعـرف كيـف يتعامـل. عندمـا انتهـى وقـت التنـزه في الشرفـة، طلـب حسـن مـن رجـل الشرطـي أن يسـمح لـه بالبقـاء حتـى الصبـاح، لأن نفسـه ضاقـت مـن النزيـل الوقـح الـذي أخـذ المـاء والأكل، فسـمح لـه الشرطـي بذلـك، أصبـح حسـن يمـشي مـن نهايـة الشرفـة إلى بدايتهـا وهـي ليسـت كبـيرة، فطولهـا لا يتجـاوز العـشرة أمتـار أمـا عرضهـا الخمـس أمتـار، لم يكـن حسـن يتحـدث إلى أحـد، لا يـأكل ولا يـشرب، فقـط كان يفكـر في سـبب وجـوده في هـذا المـكان، ويسـأل نفسـه عـن الجريمـة التـي ارتكبهـا، فلـم يجـد إجابـة. كان الحـارس يراقـب سـلوك حسـن، وعندمـا رأى القلـق يسـيطر عليـه اقـترب منـه وقـال:

- يا فردا، ما تقلق، كدا كدا الزمن بمشي، فشنو خليك عادي.

- يـاخ أنـا مـا عـارف ذاتـه سـبب جيتـي هنـا شـنو، عشـان كـدا واللـه مـا بقـدر أكـون عـادي.

- عارفـك، دايـر تقـول أنـت مظلـوم، بـدون مـا تقـول أنـا مصدقـك واللـه، لكـن المسـألة جايـة مـن فـوق.

- قصدك شنو؟ كيف يعني جاية من فوق؟

طلب الحارس من حسن أن يقترب قليلًا، ثم قال:

- أنـت قايـل نحـن قاعديـن نجيـب زول هنـا برانـا، دي أوامـر جايـة مـن فـوق.

- يعني أنت هسه ما مبسوط من قاعدنا هنا في الحراسة؟

- واللـه لـو عـليَّ أنـا، هـسى بفتـح الحراسـة دي وبخـلي أي زول يشـوف رزقـه ويـن، إلَّا النـاس العندهـم بلاغـات كبـيرة، زي سرقـة وقتـل، وكـدا..

- يـا سـلام، كـدا بـردت قلبـي يـا جنابـو، لأنـو واللـه كنـت شـاميكم كيـف، أنـت نـاس البوليـس ديـل تحديـدًا، لكـن فيكـم أولاد حـلال معناتـو.

عندما سمع الحارس هذا الكلام قال:

- نحـن عارفـين أنـو نـص الشـعب مـا بـدور البوليـس، لكـن نحـن في النهايـة إخوانكـم، جايـن مـن نفـس البيـوت، قاعديـن نمـشي الحفـلات زيكـم، ونبـكي في الوفيـات برضـو، لكـن المسـألة جايـة مـن فـوق.. الزمـن حيوريكـم.

- لالا يا صاحبك، أنا والله مصدقك.. اديني رقم تلفونك بعدين الواحد لو طلع بسلام، يتواصل معاك..

- المهم شنو، أنت هسه اكسر الحنك، وفكر في حاجات سمحة عملتها زمان، وجكس الجامعة وكدا وبدون ما تشعر تلقى الصباح جاء وبعداك تمشي المحكمة، القاضي يشطب القضية وتتفكفك.

فهم حسن الدرس وبدأ يفكر في ياسمين، والفتاة الجميلة التي رآها في الجامعة ويخطط في تعرُّفها، ثم تذكر أيام المدرسة الثانوية وجولاته مع صديقه سعد عند وقت الأصيل. بدأ المؤذن ينادي الناس إلى صلاة الصبح، والطيور تغرد معلنة اقتراب شروق الشمس، أما هو فبدأ يفكر في المحكمة، والتهمة التي سيقدمها الشرطي للقاضي. تعب حسن من الأرق، فتوقف عن المشي ذهابًا وإيابًا في الشرفة. جلس، وبعد دقائق معدودة استغرق في النوم على أرض الشرفة. كانت الساعة تشير إلى السابعة صباحًا عندما أتى رجل الشرطة وفتح باب الحبس. كان حسن لا يزال نائمًا، لكن الضوضاء التي كانت تصدر من النزلاء أجبرته على اليقظة. ولأن ساعات اليد كانت ممنوعة داخل الحبس، لم يكن حسن يعرف كم الوقت الآن، فتذكر الوسائل التي كان يعرف بها الوقت عند الطفولة في القرية. صمت قليلًا، نظر إلى النافذة فرأى أشعة الشمس، فأدرك أن الصباح قد عسعس. طلب العسكري من النزلاء أن يجلسوا في صفوف منتظمة لأن رئيس الحبس سيأتي في غضون دقائق، فامتثلوا إلى أوامره. كان رئيس الحبس رجلًا طويل القامة، ممتلئ البطن كبطن امرأة تتأهب لولادة طفل تحمله لشهور تسعة، كانت مؤخرته كبيرة كأنها سلسلة جبال النوبة، يجلس على الكرسي بصعوبة، لذلك ساعده الشرطي. طلب الرئيس من الشرطي أن يعطيه العدد الكلي للنزلاء. خمس وثلاثون حبيسًا - قال، بعد ذكر أسباب الحبس،

فعرف حسن جريمته «الخلل بالنظام العام»، فتعجب من ذلك وسأل محدثًا نفسه: كيف أخللت بالنظام العام يعني أنتو لوايطة ولا شنو؟ قام رئيس الحراسة من المقعد بمساعدة الشرطي للمرة الثانية وخرج من الحبس. عاد الحرس بعد أن قاد رئيسه إلى الخارج، وقال: هيا إلى الخارج، «الدِّفار» جاهر، وهي العربة الكبيرة التي تقل المحبوسين إلى قاعة المحكمة. ركب حسن ورفاقه، طلب الحرس منهم أن يجلسوا على سطع العربة، امتثلوا إلى الأوامر، تحركت العربة إلى المحكمة وحسن يقتله الشعور بالذل والإهانة.. دخل المتهمون إلى قاعة المحكمة ثم جلسوا في الأماكن المخصصة لهم. قدم العسكري ملفات المتهمين. بدأ القاضي بالاطلاع عليها، يقرأ ملفًا بعد آخر دوَّن في صمت تام، عندما فرغ من قراءة التهم، حكم بإلغاء أو شطب ثلاثين قضية من جملة الخمس وثلاثين. كان القاضي رجلًا حكيمًا، يدرك تمامًا أن هؤلاء المتهمين يصارعون من أجل الوجود، لكن الحكومة لديها سياسة معينة لإفقار الشعب وإذلالهم، لم يكن يستطيع القاضي محاربة السلطة في العلن وَحْدَهُ، لكنه يستطيع أن يحكم بالعدل داخل قاعة المحكمة. حسن الذي خرج من الحبس بعفو أصدره القاضي عليه وعلى زملائه، بدأ يفكر في الأمر، أدرك أنه قضى يومًا كاملًا في الحبس بتهمة الإخلال بالنظام العام، لكن القاضي لم يُدِنْ أيًّا منهم، هذا يعني أن هناك خللًا عامًّا بمؤسسات الدولة، مع ذلك هناك بريق أمل بغد أفضل لأن في بلادنا يوجد عساكر وقضاء عادلون، هكذا كان لسان حاله. عندما عاد حرًّا طليقًا إلى السكن الجامعي، قابل عند مدخل السكن أحد زملائه الذين يخدمون برابطة الطلاب، فسأله عن الحال والأحوال، فحكى له عن الحبس وكيف أخذه رجل الشرطة عندما كان يحاول أن يجد سبيلًا يسد به الرمق، فتعجب عبود ثم قال: كان أفضل أن ترشي بتاع الشرطة بخمسة جنيهات وتتفكفك، لأن ناس البوليس ديل ناس

زيِّنـا، عشـان مرتباتهـم ضعيفـة قاعديـن يسـترزقوا مـن المواطنـين. كانـت المؤسسـة في بـلاد الفيـلان تعـاني فسـادًا في كل المسـتويات، الـرِشى تـؤدي دورًا كبـيرًا في حـل المشـكلات وصناعتهـا وهكـذا المحسـوبية، لكـن حسـن القـروي، وبتجربتـه المتواضعـة عـن أمـور المدينـة وأسرارهـا، لم يخطـر في بالـه هـذه الأشـياء، لكـن حديـث عبـود جعلـه يتذكـر حـواره مـع الحـارس ومفـردات كان يكررهـا العسـكري قبـل أن يقـوده إلى الحبـس، سـأل حسـن: يعنـي شـنو «خـارج نفسـك»؟ فأجابـه عبـود قائـلًا بأنهـا تعنـي اشـتري حريتـك برشـوة. كان الحبـس درسًـا قاسـيًا ومهـمًّا لـه. لـذا بـدأت رحلـة الشـك في كل شيء. الشـك في الجامعـة والقضـاء، الصداقـة، في الفقـر والغنـي، الشـك في المـرأة، في المدينـة والقريـة، الشـك في عدالـة السـماء والأرض، الشـك في جـدوى الدراسـة، في السـكن الجامعـي، و«صحـن الفتـة»، الشـك في بائـع الشـاي، والبروفيسـور، الشـك في التاريـخ والمسـتقبل وطـال الشـك حتـى ياسـمين وجمالهـا. كـما يقـال فكـرة واحـدة يمكـن أن تغـير حياتـك، ليلـة واحـدة في الحبـس كانـت بدايـة جديـدة في حياتـه. عندمـا فتحـت الجامعـة أبوابهـا للعـام الجديـد، أول قـرار اتخـذه هـو الرحيـل إلى غرفـة جديـدة. كان حـدس حسـن يقـول: يجـب تغيـير كل شيء. تمزيـق الدفـتر الـذي كان يحتـوي عـلى أرقـام هواتـف الأصدقـاء كانـت الخطـوة التاليـة، حـاول أن يغـير المجموعـة التـي يـدرس معهـا، لكـن رئيـس القسـم رفـض قائـلًا إن لوائـح وقوانـين القسـم لا تسـمح بذلـك، فخـرج حسـن مـن المكتب يكيـل الشـتائم عـلى القسـم ورئيسـه حتـى يخفـف مـن وطـأة خيبـة الأمـل. عـاد إلى الغرفـة ورمـى الملابـس كلهـا في سـلة المهمـلات، ولم يـترك سـوى بنطـال واحـد وقميـص كانـت أمـه قـد أهدتـه إيـاه عندمـا عـادت مـن موسـم الحـج، ناسـيا عـدم امتلاكـه مـالًا ليبتـاع بـه أغراضًـا جديـدة. عـلى مـدار الثلاثـة أشـهر التاليـة كان حسـن يمـشي إلى الجامعـة مرتديًـا بنطـالًا وقميصًـا واحـدًا، يغسـلهما يوميًّـا بالليـل، وعنـد الصبـاح يكويهـما. إذا كان

حسـن في السـنة الأولى يزيـن شـعره، وينصـل بنطالـه ويتبـع الموضـة في كل شيء، فـالآن، توقـف عـن الحلاقـة التـي تتـماشي ومتطلبـات الموضـة، ليـس هنـاك جينـز حتـى ينصلـه. تخـلى عـن أصدقـاء المـاضي، وحتـى المقعـد الـذي يجلـس فيـه بمكتبـة الجامعـة غـيَّره، والحديقـة التـي كان يجلـس فيهـا إضافـة إلى ذلـك، غـيَّر المطعـم الـذي كان يتنـاول فيـه وجبـة الفطـور، وأصبـح يهتـم بقـراءة كتـب التاريـخ والفلسـفة، وعلـم النفـس والاجتـماع والروايـات وغيرهـا.

أمـا عبـود فـكان طالبًـا متوسـط القامـة، بطنـه بـارز قليـلًا بسـبب حبـه الأكل الخبـز، وشراب البيبـسي، ينحـدر مـن الجنـوب الشرقـي الفيـلاني، لذلـك يسـكن بالمدينـة الجامعيـة، يـدرس في المسـتوى الرابـع، كان يسـبق حسـن بعامـين ويعمـل سـكرتيرًا اجتماعيًّـا في رابطـة الطـلاب بالكليـة. كان شـابًّا طيـب القلـب، هـادئ الطبـع، ابتسـامته لا تغيـب عـن شـفتيه، يكـون حـاضرًا عندمـا تطلبـه للمسـاعدة، لا يملـك الكثـير مـن الثيـاب، لذلـك تجـده يرتـدي قميصًـا واحـدًا كل يـوم ولكنـه نظيـف، يهتـم بتزيـين شـعره بشـكل أسـبوعي، لأن الحلاقـة في السـكن الجامعـي كانـت بـلا مقابـل، أو مقابـل تزيـين الشـعر يطلـب الحـلَّاق أن تدعـوه لوجبـة فطـور أو غـداء، وإن لم يكـن بمقـدورك، فيكتفـي بـكأس قهـوة أو شـاي. بالرغـم مـن الجامعـة كانـت ترصـد ميزانيـة للروابـط، فـإن عبـود ورفاقـه كانـوا شرفـاء لا يعرفـون الفسـاد، لا يدخـرون لأنفسـهم شـيئًا مـن تلـك الميزانيـة، يوجهونهـا في خدمـة الطـلاب وحـل مشـكلاتهم التـي لا تنتهـي. في ذلـك اليـوم، أخـبر حسـن بجنـاح ورقـم غرفتـه، ثـم قـال: إذا عايـز أي مسـاعدة، ممكـن تجـي غرفتـي، دا لـو مـا لقيتنـي في الجامعـة. لم يعطِـه حسـن رقـم هاتفـه لأنـه لم يكـن لكليهـما هاتـف. عندمـا قـرر حسـن تغيـير حياتـه، ظـل مـدة شـهر مـن دون أصدقـاء، حتـى كان قليـل الـكلام مـع جيرانـه الجـدد. لكـن صـورة عبـود لم تغـب عـن ذهنـه، شـعر أن هـذ العبـود هـو الشـخص المناسـب

للتواصل معه في هذه المرحلة. في ذات صباح جميل، ولما كان ذاهبًا إلى الكلية، قرر زيارته، لذلك غيَّر مساره واتجه نحو غرفة عبود التي تقع في جناح الأيمن ورقمها (111). طرق الباب، لا أحد يجيب، كان الباب مطليًّا باللون الأخضر الفاتح، طوله متران وعرضه سبعون سنتمترًا، أعاد حسن طرق الباب مرة أخرى ولم يجبه أحد، لم يكن الباب موصدًا ولم يكن مشرعًا، دلف حسن إلى داخل الغرفة، كانت بها سريران، وكل سرير به طابقان، الغرفة مصممة لأربعة أشخاص، ولكن لم يكن هناك أحد سوى شخص واحد مستلقٍ على السرير في الطابق الأسفل، فنادى حسن بلطف: عبود، عبود، فاستيقظ الشاب من نومه. لم يكن عبود وإنما جاره، كان شابًّا نحيلًا، ذا خمس وعشرين ربيعًا، أشيب الشعر، يرتدي قميصًا أبيض، وبنطالًا أسود وبجانبه كتاب غلافه بنيُّ اللون مكتوب عليه «جبران خليل جبران». اعتذر حسن، وقال إنه أتى هنا قاصدًا عبود، ولأنه لم يجب أحد عليه، فدخل حتى يتأكد، ثم أضاف: أنا حسن، فقال الشاب بصوت يدل على الرغبة مجددًا في النوم: عبود فات الجامعة ولكن يرجع زي الساعة أربعة. ولم يتفوه بكلمة أخرى. خرج حسن وذهب إلى الكلية. فكَّر أن يمر بمكتب الرابطة ليقابل عبود، لكن وقت المحاضرة قد اقترب لذلك واصل المسار. كانت القاعة تشبه المكتب، وهو مكتب، يسع عشرين طالبًا، وبها سبورة وحاسب آلي، إضافة إلى مكتبة صغيرة. طرق حسن الباب، وكان زملاؤه قد دخلوا وجلسوا في مقاعدهم، فأذنت له الأستاذة في الدخول، جلس في مؤخرة القاعة وكانت بجانبه فتاة، قصيرة القامة، خجولة الملامح، خصل شعرها الطويل كانت تهرب من الوشاح، لذلك استطاع حسن رؤيتها، ثم أخذ تنهيدة عميقة وانتبه إلى حديث الأستاذة.

كانت المحاضرة عن الروائي الروسي الشهير دوستويفسكي، تحدثت الأستاذة حديثًا مختصرًا عن سيرته وأعماله. بدأت بتاريخ ومكان

الميلاد، أسرة الأديب ومكان الدراسة، ثم بداية المسيرة الفنية وأهم أعماله الروائية. لم يتذكر حسن تاريخ الميلاد ولكن «الجريمة والعقاب» ترسَّخت في رأسه ولم يستطع أن ينسى هذا الاسم، كان يذكره بالحبس وكيف تلقَّى عقابًا دون أن يقترف جريمة، فقال في نفسه: لا بدَّ من قراءة هذه الرواية ثم ردَّدَ اسمها «الجريمة والعقاب». خرج من القاعة والجوع يسيطر عليه والمعدة تئن، والجيب فارغ، فقرر حسن الذهاب إلى مكتب رابطة الطلاب بحثًا عن عبود لا ليسأله المال، بل ليتسامر قليلًا. وفي الطريق رأى لافتة مكتوبًا عليها مكتبة الكلية، فتذكر «الجريمة والعقاب» كانت المكتبة مبنى متوسط الحجم، لا يوجد دهان على الحائط الخارجي، لكن بالداخل كان المبنى مطليًّا باللون الأبيض، مليئًا بالرفوف، وفي كل رفٍّ عشرات الكتب، عند المدخل وجد «أمين المكتبة» وهو المسؤول عن المكتبة، ومرشد للقراء، يلبي الطلبات، ويعرف أماكن الكتب. كان رجلًا، طويل القامة، أصلع الرأس، يرتدي قميصًا بأكمام قصيرة، والنظارة تزين وجهه البشوش، أسنانه صفراء اللون بسبب التبك «الصعود»، لم يكن نحيلًا ولا بدينًا، كانت تفوح منه رائحة الكتب القديمة، تشير محياه إلى أنه رجل طيب القلب، لكنه قليل المعرفة، يقرأ فقط عناوين الكتب ولا يهمه ما بداخلها. اقترب منه حسن وسأله: عايز لي رواية بعنوان «الجريمة والعقاب» للأديب الروسي دوستويفسكي؟ كان أمين المكتبة يسمع هذا الاسم أول مرة، وحتى يكون صادقًا مع نفسه والطالب، طلب منه أن يبحث عن الرواية في الرف المخصص للأدب الأجنبي. كانت المكتبة مزينة بصورة تسر النفس، كل رف مخصص لحقل معرفي محدد، كتب التاريخ مرصوصة لوحدها في رف خاص، وكذلك الأدب، والجغرافيا، الفلسفة، كتب الأديان، اللغات، علوم الحاسوب، علم النفس، والإعلام.. اقترب حسن من رف الأدب الأجنبي فرأى رواية «الحرب والسلام» لليو تولستوي،

ثـم روايـة «الآبـاء والأبنـاء» تورغينيـف، «مائـة عـام مـن العزلـة» للأديـب الكولمبـي ماركيـز، لكـن حسـن نـسي اسـم الـروائي. اسـتمرَّ البحـث طويـلًا ولم يتوفـق حسـن مـن العثـور عـلى فريسـته. لم تكـن «الجريمـة والعقـاب» مـن بـين الكتـب التـي تـثري رف الأدب الأجنبـي، فقـرر أخـذ روايـة «مائـة عـام مـن العزلـة» وخـرج متجهـا إلى مكتـب الرابطـة بحثًـا عـن عبـود. كان المكتـب يقـع في الجانـب الغـربي مـن الكليـة وبابـه رمـادي اللـون، مسـاحته لم تكـن كبـيرة، تسـع لعـشرة أشـخاص، لديـه نافـذة واحـدة صغـيرة، الحائـط كان مطليًّـا باللـون الأزرق السـماوي. عندمـا أراد حسـن الدخـول، رأى عبـود الـذي كان يهـم بالذهـاب إلى المطعـم لتنـال وجبـة الفطـور، فسـأل حسـن: يـا عبـود، سـلامات. شـكلك مـا عرفتنـي؟ رد عبـود: كيـف الـكلام يـا حسـن، معقولـة لكـن، نحـن اتقابلنـا اليـوم داك لمـن العسـكري أخـد تلفونـك. ثـم دعـاه إلى المطعـم، لم يـتردد حسـن في قبـول الدعـوة التـي أتـت مـن السـماء، وضرب عصفوريـن بحجـر واحـد كـما يقـال. بينـما كانـا ذاهبـين قـال عبـود: واللـه جازفـت لي خمسـة جنيـه كـدا قـال قـصَّ عـشرة جنيـه مـن زميلـو مرطـب كـدا، شـكلو أبـو جـاء مـن الخـارج، المهـم شـنو، أنـت ظهـرت لي في الزمـن المناسـب، فقلـت نتقاسـم الجومـة مـع بعـض. ضحـك الرفيقـان فرحًـا ثـم واصـلا الطريـق.

كانـت المطاعـم داخـل الجامعـة تقـدم أنواعًـا مختلفـة مـن المأكـولات: الطعميـة، الفـول، الفتَّـة، اللحمـة المفرومـة، الشـاورمة، الشـيبس، الهـوت دوج، وبالطبـع الخبـز. لا يعـرف الفيلانيـون تنـاول أي وجبـة دون أن يتوفـر الخبـز.. لـكل صنـف مـن هـذه الأكلات عشـاقه، وهـذا العشـق يـأتي مـن القـدرات الماديـة أو حجـم الجيـب. كانـت الفتَّـة تعـد أرخـص الوجبـات، لذلـك السـواد الأعظـم مـن الطـلاب يحبونهـا، وتـأتي الطعميـة في المرتبـة الثانيـة مـن حيـث الأسـعار المناسـبة، أمـا الهـوت دوج والشـيبس كان يطلبها الطـلاب مـن الأسر الميسـورة الحـال وغيرهـم (أولاد الطفيليـين والانتهازيـين،

أو العائدين من المهجر بعد قضاء عشر سنوات من الرعي وما إلى ذلك). تناول عبود وحسن كمية كبيرة من الفتَّة. بعد أن قضيا على الوليمة المدبرة بصعوبة بالغة، شربا ماء من الزير الذي كان بالقرب من المطعم، ثم شعرا بالسعادة. بينما كان الطالبان السعيدان عائدين إلى الكلية، تحسس حسن جيبه فوجد فكة حديد تساوي الخمسة جنيهات، فدعا عبود إلى كوب شاي عند العم الحكيم والماكر. كان العم رجلًا في الستينيات من العمر، قصير القامة، جميل المنظر، نصف شعره أشيب، يداه ليست خشنة، قليل الكلام، يبعث الفرحة في النفوس، ليس جشعًا، يرتدي ثياب الطبَّاخين المهرة، يميل إلى الجنس اللطيف أكثر من الطلاب، ينسج حول حدائق روحه قصص حب سرعان ما تتفتح أزهار يانعة في كلماته، يميز الطالب الذكي من غير المكترث. بدأ يعمل في بيع الشاي والقهوة عندما كان في ربيعه الثلاثين. أخذ حسن كوبًا من الشاي، أما عبود فقال إنه يفضِّل القهوة لأنها تساعده في إيجاد حلول لمشكلات الطلاب. حكى حسن عن زيارته إلى الغرفة، وعن جاره، وعن ضفائر الفتاة في المحاضرة، وختم كلامه برواية «الجريمة والعقاب» التي لم يجدها. فقال عبود، إن جاره يدعى مروان، يدرس بالمستوى الثاني في ذات الكلية، لكنه لا يأتي إلى المحاضرات، يحب القراءة، يكتب الشعر لكن لا ينشره، ليس لديه أصدقاء ولكن لديه معجبات. كان لحديث عبود عن جاره أثر كبير في نفس حسن، فقال محدثًا نفسه: ربما مروان، يعيش مرحلة تحوُّل في حياته، وهي المرحلة التي تنتظرني أيضًا. فرغا من تناول القهوة والشاي، ونهض عبود متجهًا إلى مكتب الرابطة، قائلًا لحسن إن المحاضرة ستبدأ عند الثانية ظهرًا، ثم نظر إلى الساعة التي كان يلبسها في يده اليمنى وكانت تشير إلى الواحدة والنصف ظهرًا، ثم سأل حسن: عايز أي خدمة؟ فنفى حسن، لكنه قال إنه سيكون سعيدًا بلقاء عبود من زمن إلى آخر بغرض المسامرة، فأبدى

عبـود اسـتعداده لذلـك، ثـم أضـاف: الكليـة مليانـة بالبنـات الجميـلات، عشـان كـدا أحسـن تلقـى ليـك عصفـورة تفرحـك برضـو. فابتسـم حسـن ثـم ذهـب كل منهـما إلى حـال سـبيله.

تنحـسر مسـاحة الحريـة في البلـدان ذات الطابـع الشـمولي. جسـمت الدكتاتوريـة ثلاثـة عقـود مظلمـة في بـلاد الفيـلان، فأصيبـت مخيلة الشـعب بالجفـاف، وانحـسر الإبـداع في كل النواحـي. حتـى مواعـدة الفتيـات كانـت تتـم خفيـة وفي غايـة المخاطـرة. عـلى الرغـم مـن أن الجامعـة كانـت تتميـز ببيئـة مختلفـة ومسـاحة الحريـة فيهـا أوسـع مقارنـة بالشـارع العـام، فـإن الجفـاف طالهـا أيضـا. في أيـام الخميـس، كانـت بعـض التنظيـمات السياسـية الطلابيـة – وهـي امتـداد للمكونـات السياسـية الخارجيـة – تنظِّـم نـدوات وأركان للنقـاش، وغيرهـا. كان جـدول محـاضرات حسـن خفيفًـا لذلـك وبعـد نهايـة المحـاضرة، ذهـب حسـن إلى «شـارع السراب والأوهـام»، هـذا الشـارع يعـد المعلـم الأبـرز في الجامعـة، يبـدأ مـن المدخـل الرئيـسي للجامعـة وينتهـي حتـى المكتبـة المركزيـة، كانـت تُنظـم فيـه الفاعليـات الرئيسـية، والنـدوات السياسـية وأركانـا للنقـاش. عندمـا وصـل حسـن هـذا المـكان، كانـت هنـاك لوحـات عـدَّة في كل واحـدة ممهـور عليهـا اسـم التنظيـم السـياسي وبعـده «ركـن نقـاش» بعـد قليـل.. عندمـا رأى حسـن هـذه العبـارات واللوحـات، قـرر أن ينتظـر ويسـمع مـاذا سـيقول هـؤلاء. كان يريـد أن يجـرب كل شيء، أن يكتشـف أشـياء وقيـمًا جديـدة. كان يبحث عـن طريقـه الخـاص للعبـور في رحلـة الحيـاة هـذه. بـدأت الهتافـات مـن هنـا وهنـاك، احتشـد عـدد كبـير مـن الطـلاب، حينهـا دخـل شـاب متوسط القامـة، يرتـدي جينـزًا أسـود وقميصًـا أصفـر اللـون وفي يـده «كريسـتال» وفيـه سـائل شـفاف، لم يميـز حسـن إن كان ذلـك مـاء أم شيء آخـر. بعـد أن ألقـى التحيـة عـلى الحضـور، وشـهداء الحركـة الطلابيـة والوطـن، بـدأ يتحـدث، وكان عنـوان حلقـة النقـاش «الحـروب الأهليـة في الفيـلان الأسـباب

والحلـول». كان حسـن يقـف جانبـا دون أن يفوتـه شـيئًا مـن الحديـث. بعد دقائـق، ذهـب حسـن إلى حلقـة أخـرى كانـت مجـاورة، ومحور النقـاش كان «البطالـة في بـلاد الفيـلان: الأسـباب والحلـول»، وبعدهـا توجـه إلى الحلقـة الثالثـة وموضوعهـا «الهويـة: هـل الفيلانيـون عـرب أم أفارقـة؟». لم يسـتطع حسـن أن يذهـب إلى حلقـة رابعـة، لأن العناويـن عكـرت مزاجـه وشـعر بالتقيـؤ. اتجـه إلى غرفتـه ليسـتريح قليـلًا وينـسى كل مـا رآه وسـمعه. كانـت الصـورة الذهنيـة لحسـن عـن الحلقـات عـلى النحـو التـالي: تـدار في هـذه الحلقـات نقـاش عـن القيـم السـامية، وأن المتحدثـين يتسـمون بالصـدق، لكنـه شـعر أن مـن يتحـدث عـن الهويـة والبطالـة والحـروب الأهليـة كان يفعـل ذلـك فقـط مـن أجـل الكسـب السـياسي، تخـرج الكلـمات مـن فمـه فارغـة، خاليـة مـن المعنـى، فـأدرك حسـن مـرارة المشـهد، وأسـقط النـدوات والنقاشـات السياسـية مـن اهتمامـه. بـدأ يفكـر في خيبـة أملـه، وأدرك أنـه حتـى الآن اسـتطاع نسـيان الأصدقـاء والمعـارف القدامـى. وكذلـك مقعـده في المكتبـة والقسـم، المطعـم الـذي كان يتنـاول فيـه وجبـة الفطـور، وبائعـة الشـاي، والحديقـة التـي كان يجلـس فيهـا. قبـل أن يصـل حسـن المتعـب إلى غرفتـه لينـام، رأى مـروان رفيـق عبـود بالغرفـة يحتـسي الشـاي ببعـض الزلابيـة، فاقـترب منـه. قـال مـروان:

- مالـك حزيـن كـدا؟ لـو مـا مسـتعجل تعـال اقعـد، اشرب ليـك شـاي كـدي.

جلس حسن ثم قال:

- يـاخ نـاس شـارع الأوهـام والأسـاطير ديـل عكـروا مزاجـي، يـا زول الواحـد بتكلـم كأنـو منقـذ للبشريـة، لكـن الأحـزاب حقتـم سـبب الخـراب ذاتـه.

قبل أن يكمل قاطعه مكي:

- كويس والله، فهمت الدرس مبكرًا يا صديقي.

- تقصد شنو، لا يعني أنت متفق معاي؟

- أنت قايل الخلاني ما أمشي الجامعة شنو؟ ياخ أنا بعد شهر مما دخلت الجامعة، عرفت أنه الموضوع دا ضارب عشان كدا، ما عندي ليهم حاجة.

بدا كلام مروان مثيرا، فطلب حسن مزيد من التوضيح:

- يعني ما عندك حاجة للسياسيين ولا للجامعة ذاته؟

- ياخ ما عندي حاجة ليك ذاته.. هههههههه، عمومًا: انتبه لكلامي دا كويس بعداك أنت حر، القصة يا صاحبي واضحة وبسيطة شديد: طيب لو بديت ليك من المظاهرات، الطلاب ديل كل شهر تقريبًا طالعين مظاهرات لأسباب مختلفة، ودا كلام جميل لأنه أولاد الحرام ديل لازم يسقطوا، لكن هل يوم شفت واحد من أولاد التنظيمات السياسية ديل في مظاهرة؟ وبالذات في الصفوف الأمامية؟ ياخ البومبان دا قاعدين يشربوا الأولاد الكويسين بس، القاعدين يطلعوا عشان عندهم قضية. طيب، المسألة التانية، الناس القاعدين يغشوا البنات، ناس منو؟ ياخ كلو يوم تلقي ليك بت قاعدة تبكي لأنه واحد ود حرام بكون طلّع ديننا – بكل ما تحمل الكلمة من معنى، نحن شغالين نحنِّس في البنات يوميًا، لأنه الواحدة بتكون عايزة تخلي الجامعة أو تعمل في نفسها حاجة.. طيب هم يطلعوا دين البنات ونحن نقعد نصلح في أعطابهم؟ بعداك الواحد يقيف ليك في شارع الفشل ويتكلم ليك عن القيم وكسم!

- كان مـروان يتحـدث كالـذي يتـذوق علقـمًا، أراد حسـن أن يخفـف عليـه هـذا المـذاق قائـلًا: طيـب دقيقـة، يعنـي نفـس النـاس ديـل هـم بعـداك ببقـوا قـادة في البلـد؟ وتتحـول المشـكلات لي بـرا، وكـدا؟

- أنـت قايـل الـوزراء وأغلـب المسـؤولين جـوا مـن السـماء؟ كانـوا قاعديـن هنـا بكوركـوا بالقيـم السـامية، العدالـة والمسـاواة، نحـن شـعب واحـد، بعـداك الواحـد لمـن يمـشي يكـون قائـد حـرب، ويـدق مرتـو أو بناتـو في البيـت.

- أنـا عايـز لي شـاي تـاني، أجيـب ليـك معـاي؟ سـأل حسـن بعـد أن فـرغ مـن الكـوب الأول دون أن يشـعر.

حينها قال مروان:

- جيـب شـاي ولا عرقـي ذاتـه، النـاس ديـل طلعـوا ديـن البلـد وتـاني محتاجـين قـرون عشـان نقـدر نحصـل العـالم ونعيـش بكرامـة. دا لـو بعديـن جـوا الحكـم نـاس كويسـين عندهـم بصيرة.

- طيـب أنـت الـكلام الكنـا قاعديـن نسـمعوا عـن الجامعـة وتاريخها ووو، كلـو الـكلام دا طلـع حنك سـاي؟

- عظمـة الجامعـة في الفريـق المهمـل، المـا ظاهـر، ديـل لـو مـا هـم، كنـا دايمـا في الحضيـض، أمـا الساسـة والإدارة وغـيره وتاريخـا، الـكلام دا كلـه أسـطورة سـاي. انتهـى.

اكتشـف حسـن عـالم السياسـة في يـوم واحـد، ثـم محـاه في ذات اللحظة. بـدأ ينظـر إلى الأشـياء مـن زاويـة جديـدة.. إذًا مـاذا بعـد؟ قـال حسـن محدثًـا نفسـه؟ ولكـن قبـل أن يجـد إجابـة لهـذا السـؤال، داهمـه النـوم، وفي الحلـم رأى طيـف خديجـة.

فتـاة، بطعـم النعنـاع، سـمراء اللـون، بهيـة الملامـح، نحيلـة وطويلـة مثل شـجرة الصفصـاف، لهـا عينـان صافيتـان مليئتـان بالحنـان والحيـاة، شـعرها مجعـد بـلا نهايـة كمـوج البحـر، صدرهـا يشـبه الأرض الخصبـة تنبـت فيهـا برتقالتـان، ابتسـامتها تبعـث الطمأنينـة في النفـوس، لم تكـن مؤخرتهـا واضحـة في الحلـم، لكـن حسـن يظـن أنهـا كانـت كتلتـين صغيرتـين. تسـبق حسـن بعـام دارسي، وكليتهـا كانـت تقـع عـلى بعـد أمتـار مـن قسـم اللغـة الروسـية، بهـا أجمـل حدائـق الجامعـة وأجمـل الفتيـات، تجـاور النهـر مـن الناحيـة الشـمالية، يـأتي النسـيم في الخريـف لتـزداد الحسـناوات جـمالًا وتمتلـئ دواخلهـن اخـضرارًا.. ولأن الشـارع المطـل عـلى النهـر يعـج بالمـارة، كان العابـرون يتوقفـون قبالـة الكليـة ليتأملـوا جمالهـا هـي ورفيقاتهـا. عندمـا اسـتيقظ حسـن مـن نومـه، تملكتـه رغبـة في مقابلـة هـذه الفتـاة. بالرغـم مـن أن الحلـم لا يمـت للواقـع بصلـة، فإنـه كان يؤمـن بوجـود فتـاة بهـذا الاسـم والملامـح. تذكَّـر حينهـا حديـث عبـود وأيقـن أن المخـرج الوحيـد مـن هـذه النفـق المظلـم والحصـار الـذي فرضـه عـلى نفسـه هـو الأنثـى. مثلـما الأم تجعلنـا نحـب الحيـاة ونحلـم بمسـتقبل أفضـل ونرتكـب حماقاتنـا الجميلـة، فـإن الأنثـى مـن تجعلنـا نعـبر مسـيرتنا بأمـان.

في ذلـك الصبـاح كان اليـوم ماطـرًا، رتَّـب حسـن حقيبتـه وارتـدى قميصه الوحيـد، فـوَّح جسـده بقليـل مـن العطـر وخـرج إلى الكليـة. المسـافة بـين الجامعـة والسـكن كانـت قصـيرة. هنـاك شـارع يمتـد مـن الاتجـاه الجنـوبي ويمـر حتـى مدخـل الجامعـة، مـن الصعـب أن تسـميه شـارعًا، لأنـه أشـبه بالزقـاق. كان الباعـة المتجولـون يعرضـون بضاعتهـم عـلى أرصفتـه، مثـل: الفـول المدمـس، وعيـش الريـف.. وهنـاك أرفـف مزينـة بكتـب مختلفـة أما بائـع التبـغ فـكان العلامـة البـارزة هنـاك. عـلى الرغـم مـن أن مسـتجدي القيـادة يوقفـون سـياراتهم بشـكل عشـوائي مسـببين بذلـك زحامًـا عـلى الرصيـف، فـإن الباعـة المتجولـين لا يبارحـون أماكنهـم. بسـبب محبـة

العابريـن للشـاي والقهـوة، لا يوجـد رصيـف يخلـو مـن بائعـات الشـاي الكادحـات مـن أجـل الكسـب الشريـف. ولأن الزقـاق كان يعـد معـبرًا للطلاب والطالبات، تجد محبي الجمال والعاطلين عن العمل يشغلون مقاعد بائعات الشاي لمشاهدة جمال طالبات. ولما كان حسن ذاهبًا إلى الكلية في ذلك اليوم، بدأ ينظر في أرصفة الزقاق بين الفينة والأخرى علـه يجـد ملامـح خديجـة، لكـن الحـظ لم يحالفـه، وعندمـا بلـغ مدخـل الجامعـة، طلـب منـه الحـرس بطاقـة الهويـة، أعطـاه إياهـا دون أن ينطـق بكلمـة، فنظـر الحـرس إلى البطاقـة مـن الجانبـين ثـم سـمح لـه بالدخـول. عندمـا أراد أن يدخلهـا في جيبـه، سـقطت منـه. إذا بفتـاة ترفـع البطاقـة وتمدهـا لـه. كانـت ذات ملامـح خديجـة، فشـعر حسـن بتجمـد في أطرافـه، يـداه لا تتحـركان، ولسـانه لـزم الصمـت وكأنـه نـسي الـكلام، حينهـا قالـت الفتـاة: خـذ بطاقتـك، وإلا أعدتهـا حيـث كانـت. عـاد حسـن إلى صوابـه وأخـذ البطاقـة ولم يتفـوه بكلمـة، لأن الفتـاة لم تكـن وحدهـا. كان بجانبهـا شـاب يحـدق إلى عـين حسـن وكأنـه يريـد أن يقـول لـه «كسـمك». قـال حسـن في نفسـه: دي مـا الطريقـة المناسـبة للقـاء الأول. ثـم شـكر الفتـاة وذهـب إلى حـال سـبيله. ثـم أنـه لم يكـن متيقّنـا إذا كانـت هـذه خديجـة أم فتـاة أخـرى، لأن كل السـيناريو حـدث وهـو نائـم، حلـم مـا زاره مـن حيـث لا يحتسـب فـلا يمكـن السـماح لـه بالتسـبب في عـراك منـذ الصبـاح. كان الشـارع الـذي يـؤدي إلى الكليـة يبـدأ مـن البوابـة الخارجيـة. عـلى امتـداد هـذا الشـارع توجـد عـوالم رهيبـة وعجيبـة، حديقـة غايـة في الجـمال، يسـميها حسـن بضفـاف الحيـاة، جميلـة وبريئـة كابتسـامة الأطفـال، تزينهـا الخـضرة مـن كل الاتجاهـات وبهـا سـياج قصـير طولـه لا يفـوق المـتر، مـن الطـوب الأحمـر، ولديهـا ممـرات صغيرهـا كأنهـا شـيدت لجـولات العشّـاق في سـاعات الأصيـل. كانـت الـورود بأنواعهـا المختلفـة منتـشرة كالنـدى في الأعشـاب. وفي فصـل الشـتاء تتسـاقط أوراق الأشـجار لتزيـد الحديقـة بهـاءً.

أما نـوَّارة الحديقـة فقـد كانـت المـرأة التـي تصنـع الشـاي والقهـوة. كان حسـن ينظـر يمنـة ويـسرة، فـيرى هنـا طالبـة حسـناء وهنـاك حسـناوات أُخـر، كان يـرى ملامـح خديجـة في وجـوه كل الحسـناوات، يـردد في نفسـه: هـذه خديجـة، أم تلـك، أم التـي في البعيـد؟ وبـدأ صوتـه يعلـو: خديجـة. فوجـد نفسـه كالمجنـون الـذي يحـدث نفسـه، وضـع يـده في فمـه فجـأة ليمنعـه مـن الثرثـرة.. مـرت ثـوان معـدودة حتـى اسـتطاع أن يسـيطر عـلى الوضـع. في تلـك اللحظـة خـرج عبـود مـن مكتـب الرابطـة، رآه حسـن وأصبـح ذهنـه مشـغولًا بالشـخصية الماثلـة أمامـه. لم يكـن عبـود في ذلـك الصبـاح في كامـل بهائـه، كان قميصـه يخلـو مـن الـزر الأوسـط، وبطنـه البـارز قليـلًا كان مكشـوفًا، فنبَّهـه حسـن بـأن يعيـد الأمـور إلى صوابهـا، ثـم واصـل طريقـه معتـذرًا بـأن وقـت المحـاضرة قـد اقـترب. كانـت المحـاضرة في ذلـك اليـوم حـول اللغـة الإنجليزيـة، وكانـت الأسـتاذة أجنبيـة أتـت مـن بـلاد الفرنجـة. عـلى الرغـم مـن قلـة عـدد الأسـاتذة في الجامعـة، فإنهـم كانـوا الأكـثر شـهرة، كان هنـاك أسـتاذة مـن روسـيا، رومانيـا، الصـين، ألمانيـا فرنسـا ويوغسـلافيا، وكانـت أسـتاذة اللغـة الإنجليزيـة في ذلـك اليـوم مـن الدولـة في آخـر القائمـة. دخـل حسـن إلى قاعـة الـدرس، ولم يكـن عـدد الطـلاب كبـيرًا، جلـس في المقعـد الأمامـي، بـدأت الأسـتاذة المحـاضرة بتقديـم نفسـها، ثـم تعرَّفـت الطـلاب. كانـت تسـمى إيزولـدا في الخمسـينيات مـن العمـر، شـقراء، متوسـطة الطـول والحجـم، ترتـدي بلـوزة بيضـاء وقميصًـا أخـضر اللـون، صوتهـا رنـان ولكنـه مفعـم بالهـدوء. كان حسـن ينظـر إليهـا بإعجـاب، وربمـا هـذه المـرة الأولى التـي يـرى فيهـا «خوجايـة». كانـت المحـاضرة عـن مهـارات الكتابـة في اللغـة الإنجليزيـة، لم يتذكـر حسـن تفاصيـل كثـيرة عـن المحـاضرة، لكـن لم ينـسَ أبـدًا مـا قالتـه الأسـتاذة، حينـما طُـرِحَ سـؤال عـن معايـير تقييـم مسـتوى الطالـب، فقالـت إنهـا تـدرك المشـكلات التـي يعانيهـا الطـلاب، لذلـك تعتمـد عـلى معـدل التطـور الـذي

يحـرزه الطالـب مـن أول محـاضرة وحتـى نهايـة العـام. انتهـت الـدرس وخـرج حسـن وكأنـه يحلـق في السـماء، قـال محدثـًا نفسـه بلغـة فصيحـة: رغـم المشـهد الصباحـي، وصـورة عبـود التـي تذكـرني بأنـني في بـلاد الفيـلان، أدركـت أن هنـاك عـوالم أخـرى جميلـة تضـج بأمثـال خديجـة وإيزولـدا.

كان الوقـت ينقـضي مسرعًـا في الحيـاة الجامعيـة وكأنـك تمـشي عـلى شـاطئ نهـر موسـكو بجـوار الحبيبـة. كانـت السـنة الثانيـة في الجامعـة مليئـة بالخيبـات والأمـل. ازدادت سـاعات الجلـوس في المكتبـة، وبدورهـا ازدادت آلام المؤخـرة، يقـترح زمـلاء الدراسـة تنظيـم لقـاءات دوريـة لمراجعة المـواد، لكـن حسـن يرفـض عقليـة القطيـع. جـاءت عـزة تطلـب المسـاعدة مـرة أخـرى، فأبـدا حسـن اسـتعداده، قائـلًا في نفسـه: مـا بقـدر أرفـض للبـت السـمحة دي، وكـمان بتذكـرني بأمـي. وفي إجـازة نصـف العـام التـي لا تتجـاوز الشـهر، بقـي حسـن بالسـكن الجامعـي برغـم بؤسـه وكآبتـه، ولم يغـادر إلى القريـة. كان يفضـل توفـير تكاليـف السـفر والاسـتفادة منهـا في زيـادة وجبـات اليـوم، بـدلًا مـن تنـاول وجبـة الفطـور، بـدأ حسـن يتنـاول وجبتـين، ليـس هـذا فحسـب، بـل يحتـسي كوبـين مـن الشـاي في اليـوم الواحـد. وفي إجـازة نهايـة الأسـبوع، دعـا عبـود إلى العشـاء. كانـت دعـوة مـرة واحـدة فقـط، لكـن كان يعتـبر حدثـًا كبـيرًا. ثلاثـون يومـًا مـرت دون أن يشـعر بهـا. وبـدأ الفصـل الثـاني. رأى حسـن ملامـح خديجـة أكـثر مـن مـرة في الحلـم وداخـل الحـرم الجامعـي، أمـا إيزولـدا فغابـت تمامًـا، لأن الكليـة خصصـت أسـتاذًا جديـدًا ليـدرِّس مـادة اللغـة الإنجليزيـة، فـازداد الطـين بلـة. كان الأسـتاذ الجديـد نحيـل القامـة وقـح التعامـل، لا يبـدى احترامـا للطـلاب، لديـه تصـورات سـيئة عـن الطـلاب وتصـور زائـف عـن نفسـه، كان أسـتاذًا يجيـد «رمـي المسـامر تحـت الإطـارات» وفقًـا للقـول الـروسي المأثـور، فقـرر أن ينـأى بنفسـه ولا يقـع تحـت أنظـاره حتـى لا يصبـح هدفًا. كان حسـن يجلـس هادئـًا في الصـف الخلفـي، يكتـب ملاحظاتـه ويخـرج،

كان يفعل ذلك باستمرار حتى نهاية العام الدراسي. في اليوم الختامي، وبينما كان شعور الفرح والحزن يتخلل الطلاب، التقت عزة حسن وأهدته هاتفًا محمولًا، لكنه رفض تسلمه، فألحت عزة، لكن بلا فائدة. افترق الجموع وعاد حسن إلى غرفته، أما عزة فذهبت مكسورة الخاطر ولم تفهم دواعي الرفض. لم تقدم له الهدية، لأن حسن كان معدمًا، ولكنها أرادت أن ترد الجميل وتشكره للمساعدة، لكن القروي عزيز النفس رفض الهدية. سينطلق العام الدراسي الجديد بعد ثلاثة أشهر. وسيظل حسن في السكن الجامعي، وفي الأمسيات سوف يقوم بجولات على ضفاف النهر، وسيأكل كميات كبيرة من الفول المدمس. سيزور عبود من زمن إلى آخر وهناك ستحدث المفاجأة! يشتاق حسن الآن إلى أمه، وهي تحلم برؤيته. لكن ستظل الآمال معلقة إلى حين إشعار آخر.

المدير الرومانسي

ظـل حسـن بالسـكن الجامعـي طـوال إجـازة العـام. كان وحيـدًا بالغرفـة، إذ إن جيرانـه قـد عـادوا إلى ذويهـم، لم يكـن يسـتقبل ضيوفًـا لأنـه قطـع علاقتـه بزملائـه القدامـى. كان عبـود الـذي يعمـل برابطـة الطـلاب، الشـخص الوحيـد الـذي يعرفـه. ذات يـوم شـعر بملـل وكآبـة بسـبب الوحدة، فقـرر أن يمـرَّ عـلى غرفـة عبـود ليفضفـض عـن همومـه قليـلًا، عندمـا طـرق البـاب، كان عبـود وجـاره مـروان يتنـاولان وجبـة الفطـور بالمطعـم المجـاور لسـكنهم، رأى عبـود شـخصًا يقـف عنـد بـاب الغرفـة، تـرك الأكل، وذهـب ليتعرَّفـه. كانـت المطاعـم متراميـة في كل أركان المدينـة الجامعيـة، لـكل جنـاح مطعمـه الخـاص مـع ذلـك كان للطـلاب حريـة التنقـل وحريـة تنـاول الوجبـات في أي مطعـم وفقًـا للرغبـة وبـلا قيـود. عـلى الرغـم مـن أن جميـع المطاعـم تقـدم - تقريبًـا - أنـواع متطابقـة مـن الأكل، فـإن الطـلاب كانـوا يحبـون التغيـير. تغيـير المـكان كان يعطـي نكهـة خاصـة لـلأكل، أو هكـذا كان يبـدو لهـم. عندمـا اقـترب عبـود مـن الغرفـة عـرف أن الواقـف هـو حسـن.

- مرحبًا بيك، شكلك جيت زاير؟

- آي والله، دقيت الباب لكن ما في زول فتح، افتكرتك نايم.

- مـا في زول في الغرفـة، أنـا وجـاري قاعديـن نفطـر، أرح نفطـر سـوى. قـدم عبـود الدعـوة.

- شـكرًا ليـك، لكـن أنـا بنتظـرك هنـا، كمِّـل فطـورك وبعـداك نتونـس.

لكن عبود ألح عليه أن يذهبا معًا. اتجه الاثنان نحو الوليمة والطاولات الفارغة، كان المطعم يقدم وجبة العدس، والفاصوليا كانت تعد وجبة فخمة، إضافة إلى الفول والفتة. كانت وجبة الفطور التي يتناولها عبود وجاره في ذلك اليوم أيضًا الفتة، صحن كبير بداخله عشرون قطعة خبز مبللة بماء الفول المغلي، وعرش من البصل الأخضر، وزيت السمسم أعطى صحن الفتة طابعًا جماليًّا فريدًا وزاد شهية الأكل.

قال عبود وهو ينظر إلى زميله:

- دا زميلي حسن طالب بالكلية، ثم وأضاف: ودا جاري مروان.

علق حسن:

- ياخ معقولة، اتقابلنا قبل كدا لمن جيت أزورك وما لقيتك. بعداك صحبك عزمني شاي قبل كدا.

حينها قال مروان:

- إن شاء الله اتصالحت مع الأسطورة؟

جلسا حول الطاولة، استأنف الجميع الأكل، وأخذ الحديث طابعًا جماعيًّا. سأل عبود عن الأحوال والأخبار، وهو سؤال عام يطرحه الناس كمقدمة، بعد ذلك بدأ الحديث يأخذ طابعًا أكثر خصوصية. فهم حسن أن هذا السؤال كان موجهًا له، إذ إن عبود ومروان كانا يسكنان غرفة واحدة.. بدأ قائلًا: كل شيء تمام، مرات بحس بالملل، لكن أظن دي حالة عامة، خاص للناس الساكنين براهم، مش كدا؟ كان السؤال مفتوحًا، لذلك حاول مروان أن يجب عنه: كلامك صحيح، لكن الملل دا مقدور عليه، بس تقري. كانت هذه الجملة تدل على أن المتحدث لديه تجربة مماثلة، وكيف أن القراءة ساعدته في التغلب

علـى الملـل والوحـدة.. أراد حسـن أن يتأكـد، فسـأل: مـا تقـول لي مريـت بحالـة زي دي برضـو؟ صمـت مـروان ولم يعـط إجابـة عـن السـؤال، فتدخـل عبـود قائـلًا: جـاري دا عـاش أي حالـة ذاتـو، ليهـو سـتة شـهور مـا دخـل الجامعـة القريبـة دي، صحبـك قاعـد في الغرفـة وشـغال قرايـة قرايـة بـس. بعـد الانتهـاء مـن تنـاول وجبـة الفطـور قـدم حسـن دعـوة لهـما لاحتسـاء الشـاي أو قهـوة. ذهبـوا إلى شـارع «الـبركان النائـم». كان هـذا الشـارع يعـد أشـهر مـكان لتنـاول المشروبـات السـاخنة، وتـدور فيـه المناقشـات السـاخنة أيضًـا حـول قضايـا مختلفـة، مثـل خيبـة الأمـل في الحـب، السياسـة، كـرة القـدم وحتـى سـوء الأوضـاع المعيشـية في السـكن الجامعـي. ولكـن لهـذا الشـارع مزيـة واحـدة، هـو أن باعـة المشروبـات السـاخنة يتسـمون بالكـرم، يقدمـون الشـاي والقهـوة للجميـع، لمـن يملـك مـالًا وللمعدمـين. جلـس حسـن ورفاقـه تحـت شـجرة ظليلـة، والأشـجار هنـاك كريمـة أيضًـا، تحمـي الطـلاب مـن حـرارة الشـمس، رغـم قلـة عددهـا فـإن أغصانهـا ممتـدة علـى طـول الطريـق. بينـما كانـوا يحتسـون الشـاي، قـال عبـود: يـا حسـن، باقـي أسـبوع واحـد بـس مـن بدايـة العـام، مـا تقلـق، الملـل دا كلـو بنتهـي لمـن الجامعـة تفتـح، عـلى الأقـل تلقـى ليـك بـت جميلـة تقـشر بيهـا. أراد حسـن أن يعلـق عـلى هـذه النصائـح، ولكـن قاطعـه مـروان قائـلًا بضحكـة سـاخرة وبلغـة تشـبه الشـعراء: عبـود لم يعـش تجربـة عاطفيـة واحـدة حتـى الآن ويريـد أن يعطـي نصائـح حـول الحـب والعلاقـات العاطفيـة.. ضحـك الجميـع. ثـم أضـاف: مـن الأفضـل أن تتحـدث عـن رابطـة الطـلاب والسياسـة، أمـا التجـارب العاطفيـة فدعهـا لأهلهـا. كان هـذا الـكلام مثـيرًا ويسـتند إلى العقـل. قـال حسـن: أتفـق معـك تمامًـا يـا فـردا، ثـم ضحكـوا مجـددا. كان عبـود يعـد مـن أنقـى الطـلاب الذيـن التقاهـم حسـن، كان شـخصًا كريمًـا، لا يعـرف الحقـد أو الضغينـة، تـراه يبتسـم وابتسـامته دائمًـا صافيـة صادقـة، فقـال معلقًـا عـلى كلام مـروان: أنـت صائـب، ليسـت لي أي

علاقـة، ولكـن لـديَّ معجبـات فـارق النـوم عيونهـن منـذ مـدة طويلـة، في انتظـار رحمتـي، يأتـين إليَّ كل يـوم بالكليـة، هنـاك مـن تقـدم دعـوة لتنـاول وجبـة الفطـور، وأخـرى لاحتسـاء الشـاي والثالثـة لا تـشرب العصـير في غيـابي، وكل هـذه الدعـوات حيـل لقضـاء وقـت معـي، والغريـب في الأمـر، أنـك لم تلحـظ أننـي أعـود إلى الغرفـة متأخـرًا بشـكل دائـم. اسـتخدم عبـود لغـة فصيحـة ليخفـي المبالغـة في كلامـه، ربمـا كان يقابـل فتيـات - بحكـم عملـه في رابطـة الطـلاب - وليـس معجبـات كـما يقـول، إضافـة إلى ذلـك لم يذكـر عبـود الموضوعـات التـي كان يجـري النقـاش حولهـا، ولا اسـم أنثـى معجبـة واحـدة. علـق مـروان بعـد صمـت طويـل: أظـن أن سـبب عودتـك متأخـرًا يعـود إلى الـصراع مـع الوجـود، إذ إنـك تجـوب المدينـة الجامعيـة برمَّتهـا لتجـد لنـا مـا نسـد بـه الرمـق. ثـم ضحـك الجميـع بمـا في ذلـك حسـن. انتهـى حفـل المشروبـات السـاخنة وأرادوا المغـادرة، وقبـل ذلـك يجـب دفـع الحسـاب، تحسـس حسـن جيبـه ولم يجـد مـالًا، قـال إنـه قـد نـسي النقـود في الغرفـة، وطلـب منهـما الانتظـار ليذهـب ويعـود بالنقـود، اعـترض عبـود عـلى هـذا المقـترح، وقـال إنـه مـن يقـوم بذلـك لأن غرفتـه أقـرب، وافقـه مـروان الـرأي، ركـض عبـود إلى الغرفـة.

قال حسن:

- في اليوم داك، لمن جيت غرفتكم، شفتك شايل كتاب.
- كتاب لجبران خليل جبران.
- لمن تخلص منّو، ممكن تديني أقراه؟
- انتهيـت مـن قرايتـو قبـل فـترة، ممكـن تاخـدو الليلـة لـو عايـز، ثـم أضـاف مـروان: عنـدي كتـب تانيـة مفيـدة، بديـك ليهـم لمـن تكمـل كتـاب جـبران.

- من متين قاعد تقرا كتب؟

- أوو، بدري والله، تقريبًا من الثانوي. وأنت؟

- بديت السنة الفاتت، لكن في الثانوي يمكن قريت كتاب واحد. هسى عندي رغبة أقرى طوالي.

عاد عبود ومعه عشرة جنيهات، وكانت تكلفة الشاي خمسة جنيهات. اتجه الجميع إلى غرفهم بعد أن دفعوا تكاليف المشروبات الساخنة. كان هذا اللقاء – رغم بساطته – قد فتح بابًا جديدًا في حياة حسن. في اليوم التالي من اللقاء، ذهب حسن ليأخذ كتاب خليل جبران، وهناك دار حديث مطول بينه ومروان، حكى الأخير عن خيبته أمله في الجامعة، إذ إن تصوره – قبل الجامعة – كان مختلفا لذلك لم يعد يذهب إلى المحاضرات، وظل طوال العام بالغرفة يقرأ من مكتبته ويكتب الشعر أحيانًا، مع ذلك يرى أنه لا مفر من الجامعة ويجب أن يكمل الدراسة تحت كل الظروف. سأل حسن عن المشكلات التي واجهته، لأن الكلام عن خيبة الأمل في الجامعة فيه تعميم. أجاب مروان بأن المواد التي تُدرَّس في أغلب الأحوال لا تقدم له إضافة معرفية، الأمر الثاني يتمثل في البيروقراطية المتجذِّرة في كل المعاملات سواء كان في الجامعة أم السكن.. باختصار أشعر بفراغ ما، وأبحث عن ضوء في هذا النفق المظلم. استفسر حسن إن كان لمروان أصدقاء، أجاب بأنه لديه عدد من الأصدقاء، يلتقيهم من زمن إلى آخر، وهناك صديقة واحدة لكنه لم يلتقها منذ مدة طويلة لأنها تركت الجامعة وبقيت في البيت.

كانت شمس الخريف ساطعة، قرر حسن أن يقوم بجولة سريعة في أزقة الجامعة ليرى المستجدات. بعد ذلك أخذ كوبًا من الشاي من العم الحكيم الماكر. كانت الجامعة تلبس ثوبًا جديدًا، الأشجار

الخضراء والورود تملأ جميع أركانها، الحدائق في أبهى صورها، الطالبات الحسناوات يجلسن حول الحدائق مثل العصافير في أغصان الشجر، وجداول الماء مليئة.. وبينما كان يشرب حسن الشاي، سمع فتاة كانت تجلس بجانبه تتحدث في الهاتف وتقول: المدير الجديد طلع رومانسي خالص. هذه العبارة لخصت الصورة العامة للجامعة، ومهدت له الطريق الذي كان يحاول أن يجد عنوان مناسبًا لمقال يفكر في كتابته. أراد حسن أن يتحدث إلى الفتاة ثم يدفع تكاليف القهوة كعلامة شكر، لكنها غادرت حين غفلة. تحسر لمغادرتها وأصبح يردد هذه العبارة: المدير الرومانسي، المدير الرومانسي. قام من مقعد الحديدي الذي كان يسبب ألمًا في مؤخرات الطلاب. لم يدفع تكلفة الشاي، لأنه لم يكن يملك ثمنه، أخذ خطوته الأولى نحو قاعة الدرس. عندما كان حسن يجلس بالمقعد، وبدلًا من سماع حديث الأستاذ، كان يردد بصوت منخفض: المدير الرومانسي.

ذهب حسن مباشرة إلى المكتبة وبدأ يكتب مقالًا بعنوان «المدير الرومانسي»: عرفت الجامعة ومنذ نشأتها مديرين كثر، قضى أغلبهم أربع سنوات على كرسي الإدارة، أصدروا فيها قرارات عدة، منها الصائبة وأخرى لا تخلو من الحماقات. وهناك قلة منهم ظلوا في الكرسي عامًا وربما شهورًا. يأتي مدير جديد يطور البيئة الجامعية اعتمادًا على تجربة المديرين السابقين، هكذا كان الأمر، حتى جاء مدير أحمق، لا يملك رؤية، قلبه مليء بالحقد تجاه الجامعة، فعرَّب الجامعة، سرق الكتب، أصبحت المكتبة فقيرة، حزينة، ولم يترك منبعًا معرفيًّا واحدًا إلَّا أخذه إلى جامعته التي بناها من مال الشعب. ولم يكتفِ بذلك، بل فصل الأستاذة الأكفاء، وقيَّد من حرية الطلاب في الأنشطة الثقافية والسياسية وحتى من المسامرات العاطفية، بمنعه لهم من الوجود عند المساء، وغادر إلى جامعته بعد أن ظل فيها

مديـرًا أربـع سـنوات، والآن يشـعر بالفخـر لمـا أسسـه، وأصبحـت جامعتـه الأقـوى والأفضـل في بـلاد الفيـلان مـن حيـث المعايـير العالميـة للجامعـات، رغـم كل ذلـك ظلـت جامعتـه خاليـة مـن الطـلاب. خلفـه آخـر، قـرأ كتـب التاريـخ، الفيزيـاء، الكيميـاء والآداب وغيرهـا، لكنـه لا يعـرف كيـف يطبـق معرفتـه عـلى أرض الواقـع، أصبـح مديـرًا لأنـه يحمـل درجـة بروفيسـور، ولكـن لا فائـدة ملموسـة للمجتمـع مـن هـذه الدرجـات. لم يحـرك سـاكنًا، ثـم مـضى إلى مزبلـة التاريـخ. وبعـده جـاء مديـر جديـد، وهـو في واقـع الأمـر كان تاجـرًا رأسـماليًّا، لذلـك قـال لنائبـه مـن أول يـوم مـن تعيينـه: ليـس لـديَّ وقـت لإدارة مثـل هـذه الأماكـن، ولكننـي أحـب أن ينادينـي النـاس بــ «السـيد المديـر». أرجـو منـك أن تقـوم بالـلازم. أسـمح لـك أن توقِّـع بـدلًا عنـي، وتصـدر القـرارات، وسـأعطيك حافـزًا إضافيًّـا لكـن سـيبقى راتبـك كـما هـو. كان ذلـك المديـر يعمـل طبيبًـا داخـل الفيـلان وخارجـة، لديـه عياداتـه الخاصـة، لا يحتـاج إلى راتـب الجامعـة ولكـن يحـب أن يقـدم نفسـه في المحافـل المحليـة والدوليـة مديـرًا جامعـة. ذات مـرة فُصِـلَ عـدد مـن الطـلاب بسـبب تخلفهـم عـن دفـع الرسـوم الدراسـية، نَظَّـمَ رفاقهـم مسـيرة احتجاجًـا عـلى ذلـك، وبـدأوا يطوفـون حـول الجامعـة تنديـدًا بالقـرار. أجـرى النائـب اتصـالًا مـع مديـر الجامعـة يطلـب منـه إلغـاء القـرار إعفـاء الطـلاب مـن الرسـوم الدراسـية، وكان ردُّ المديـر المتعجـرف: ومـن أيـن سـنغطي الفـارق في ميزانيـة العـام؟ لم يكـن عـددًا كبـيرًا، وهـذا يعنـي أن العجـز المـادي كان محـدودًا جـدًّا، لا تزيـد قيمتـه عـلى الراتـب الشـهري للمديـر. بعـده جـاء مديـر ذو توجـه عقائـدي، لم يكـن يختلـف عن زملائـه السـابقين في التوجـه السـياسي - رغـم أنـه حـاول أن يخفـي ذلـك - كان القائـد العـام «العظيـم» ورئيـس الدولـة يطلـب مـن جميـع المديريـن تنفيـذ سياسـات الحـزب، ومنـع الأنشـطة السياسـية والثقافيـة التـي يمكـن أن تـؤدي إلى إسـقاط النظـام، لم يكـن القائـد العظيـم حكيـمًا بمـا فيـه

الكفايـة، لأن الأنشـطة الثقافيـة والسياسـية جـزء أسـاسي مـن حيـاة الإنسـان ومنعهـا يعنـي منـع الإنسـان مـن الحيـاة، والنتيجـة سـتكون اختناقًـا ثـم انفجـارًا. قـرر هـذا المديـر الأخـير الاهتـمام بالبيئـة أولًا، فغـرس الأشـجار والـورود في جميـع أركان الجامعـة، أعـاد تأهيـل الحدائـق الصغـيرة والكبـيرة، أصبحـت الميادين مخـضرة، وبلـورات المـاء تتسـاقط مـن هنـا وهنـاك. غـيَّر كل هـذا بشـكل مفاجـئ - ويجـب أن نقـدر ونثمـن هـذا العمـل – عندمـا عندنـا بعـد انقضـاء الإجـازة السـنوية، وجدنـا الجامعـة كالعـروس في ليلـة زفافهـا. نجـح هـذا المديـر في تـرك انطبـاع جيـد عنـه، كنـا نشـعر بالرضـا لأنـه وفَّـر لنـا أماكـن ملائمـة للتنـزه، لكـن مـاذا خلـف ذلـك؟ مـا الـذي يرمـي إليـه؟ ربمـا تنتظرنـا مفاجـآت أخـرى، فلنسـتعد». كان حسـن ينـوي نـشر هـذا المقـال في الجريـدة الأسـبوعية التـي تصدرهـا رابطـة الكليـة، لذلـك ذهـب إلى مكتـب الرابطـة بحثًـا عـن عبـود. وفي الطريـق رأى مـروان عـلى بعـد عـشرة أمتـار، فغـيره مسـاره.. كان حسـن يتبـع مـروان الـذي كان يمـضي نحـو حديقـة الكليـة. أسرع حسـن الخطـوات، كان يتمنـى أن يلتفـت مـروان إلى الخلـف، ولكـن بقـي التمنـي تمنِّيًـا. دخـل مـروان إلى الحديقـة، ثـم وقـف قـرب شـجيرة صغـيرة كانـت تجمـل الحديقـة، وتحتهـا كان شـخصان. جـاء حسـن وألقـى التحيـة. ردَّ مـروان التحيـة وقـال: أتعـرَّف النـاس دي، عـمار وخديجـة. لم يتفـوه حسـن بكلمـة واحـدة، تسـمَّر تمامًـا، وكأن قاموسـه اللغـوي فـرغ فجـأة، بـدأ العـرق ينـزل مـن جبينـه شـيئًا فشـيئًا. الحلـم الـذي رآه ذات يـوم بـدأ يحـدث مجـددًا أمامـه الآن، هـذه الفتـاة هـي نفسـها، الملامـح والتفاصيـل الأخـرى حتـى الابتسـامة. قالـت خديجـة: بعـرف الشـاب دا، اتقابلنـا عنـد مدخـل الجامعـة العـام المـاضي. حينهـا عـزز عـمَّار مـا قالتـه. جمـع حسـن قـواه ثـم سـألها: دا حبيبـك؟ فاحتـار الجميـع بمـا في ذلـك مـروان، ولم يسـتطع أحـد أن يجيـب.. شـعر حسـن بأنـه لم يكـن موفقًـا في طـرح السـؤال، فحـاول تصحيحـه بسـؤال

آخـر: أقصـد هـل عـمار صديقـك؟ تدخـل مـروان لاحتـواء الموقـف، وقـد شـعر أن حسـن كان متوتـرًا نوعًـا مـا، فطلـب منـه أن يجلـس.. قـال عـمار: سـعيد بمعرفتـك يـا حسـن، بتـدرس بالكليـة؟ فأجـاب حسـن باختصـار: نعـم. كانـت خديجـة – بطبيعـة الأنثـى، تشـعر بـأن شـيئًا مـا يـدور في ذهـن حسـن، وهـذا الـشيء ربمـا جميـل، فقـط عـبَّر عنـه بهـذه الصـورة لأنـه لم يتوقـع هـذا اللقـاء.. قالـت إنهـا تـود احتسـاء كـوب مـن القهـوة ثـم نهضـت واتجهـت إلى بائعـة المشروبـات السـاخنة - المـرأة الجميلـة، الطيبـة والحنونـة التـي تجلـس في ركـن نـاءٍ بالحديقـة. عندمـا غـادرت، بـدأ حديـث الرجـال. سـأل مـروان بصريـح العبـارة: الحصـل شـنو بينـك وبـين خديجـة؟ فحـكى حسـن القصـة كلهـا ابتـداء مـن الحلـم وختامًـا بحادثـة المدخـل. كان عـمار يسـمع الـكلام بهـدوء في بـادئ الأمـر، لكنـه أصبـح يتململ، لم يتوقـع أن تكـون الحكايـة بهـذه الصـورة، وعندمـا أكمـل حسـن حديثـه، أخـذ لكمـة قويـة في وجهـه. قـام حسـن وأعـاد اللكمـة. لـولا تدخـل مـروان لتـضررت حشـائش كثـيرة مـن عـراك الثوريـن الهائجـين. عـادت خديجـة ومعهـا أربـع أكـوب قهـوة، أعطـت كل واحـد نصيبـه. لم تركـض تورُّمـا في الوجـوه بسـبب أن اللكـمات لم تكـن بالـوزن الثقيـل، لكنهـا شـعرت أن يـد عـمار كانـت ترتجـف عـلى غـير العـادة. همسـت في أذنـه قائلـة: مالـك أنـت متوتـر؟ الحصـل شـنو؟ فقـال عـمار مراوغًـا: كل شيء تمـام، بـس الجـو حـار شـوية. المنـاخ الاسـتوائي يمكـن أن يسـبب توتـرًا، فالبعـض يقـول عـن فصـول السـنة في تلـك البـلاد مازحًـا: لدينـا فصـل حـار، وآخـر حـار جـدًّا، وثالـث فائـق الحـرارة. ولكـن عـمَّار في ذلـك المسـاء لم يكـن متوتـرًا بسـبب الجـو، وإنمـا بالتهديـد الـذي شـعر بـه. احتـسى الشـباب العشـاق القهـوة، ثـم تحدثـوا عـن الجامعـة، والعـام الـدراسي، والمسـتجدات التـي طـرأت في البيئـة الجامعيـة. ذكـر حسـن أنـه كتـب مقـالًا للتـو، كان الاسـم مثـيرًا للاهتـمام خاصـة للحسـناوات، فطلبـت خديجـة أن تقـرأ المقـال إذا سـمح

لها بذلك. أخذته وقرأته بنفس واحد، أشادت بأسلوب حسن ورؤيته الثاقبة للأشياء، وكان عمَّار يشعر بألم من هذا الإطراء.. قالت خديجة: أنصحك أن تنشر هذا المقال في الصحف وذكرت له صحيفة بعينها كانت تسمى «أجراس الجمال». قرر مروان العودة إلى السكن الجامعي ليأخذ قسطًا من النوم. كان النوم بمنزلة وجبة الغداء، وهو السلاح السري لمحاربة الجوع، أما حسن فقرر أن يذهب إلى مكتب الرابطة لمقابلة عبود. عندما همَّ بالذهاب، قالت خديجة: سعيدة بمقابلتك، وأتمنى أشوفك مرة تانية. غادر حسن والسعادة تملأ قلبه. التقى عبود، واتفقا على نشر المقال في العدد القادم. بعد ذلك عاد إلى غرفته لتناول وجبة الغداء (النوم). كان ذلك اليوم يعد نقطة تحول في حياته التي بدأت تكتسب طعمًا جديدًا. أصبح الحلم واقعًا، والفتاة التي حلم بها بدت ألطف من الحلم نفسه، لكن هناك تحدٍّ واحد، فهو عمار، كيف العمل؟! عندما وقف حسن أمام المرآة التي تزين حائط غرفته، ابتسم ولكنه رأى خده الأيمن منتفخًا بعض الشيء، تحسسه، شعر بألم طفيف، تذكر أن كل هذا بسبب العراك الذي حدث توًّا. لم يغضب من ذلك، قال في نفسه: هذا الثمن الذي يجب أن أدفعه. دخل الحمام، عاد إلى الغرفة وأراد أن ينام، لكنه غير رأيه، أخذ قلمًا وكتب هذين البيتين على نسق الشعر القديم:

إن أردت يومًا الوقوع في الحب

استعد لضرب الخدود

إن لم تدفع ثمنًا لما تحب

أعلم أن كنزك منهوب

منذ ذلك اليوم بدأ حسن يهتم بمظهره أكثر، استلف مبلغًا من المال وابتاع قميصًا إضافيًّا، أزرق اللون مثل السماء، ومزيلًا للعرق.

ولأن حلاقة الشعر كانت بلا مقابل، أصبح حسن يحلق شعره مرة كل أسبوع، وذقنه مرتين في الأسبوع. لم يلتقِ حسن خديجة مرة أخرى إلا بعد مرور شهر من اللقاء الأول. خلال هذه المدة يمر على الحديقة في الصباح والمساء وعندما لا يجدها، يذهب إلى كليتها ولكن بلا فائدة. هذا الغياب كان سببه وعكة صحية ألمت بها مدة أسبوع، بعد ذلك جاء عريس من أبناء عمها، باركه الأهل ولم توافق عليه العروس، فحُبِست في البيت ومُنِعت من الذهاب إلى الجامعة كوسيلة للضغط، لكن المحاولة لم تنجح. صمدت خديجة حتى النهاية. تركوها تعود إلى دراستها. أما ابن عمها فعاد حزينًا من حيث أتى. هذا التقليد كان سائدًا في المجتمعات ذات الطابع العشائري القبلي. الانتماء إلى القبيلة يحظى بقبول واسع، وهناك قبائل لا تزوج بناتها لرجل من قبيلة أخرى، فقط لأنه من قبيلة أخرى. وكانت خديجة ضحية هذا النظام القبلي. قال لها والدها: والله يا بتي، إذا أبيت محمود ابن عمك، اتذكري انو في زي محمود كتار، منتظرينك تكملي الجامعة بس. قصد والدها أن يقطع الأمل في داخلها، وأن لا خروج من نطاق القبيلة مهما كلف الأمر. لم يكن حسن يدرك كل هذه المشكلات التي تنتظره في حال الظفر بقلبها، ولكن هذا لم يكن يهمه. الأمر المهم بالنسبة إليه الآن هو أن هذه الفتاة تعطيه سلامًا داخليًّا، تجعله يحس نكهة النعناع الذي على كوب الشاي، ويتنشق النسيم القادم من ضفاف النهر بصفاء، وعندما يكون في المكتبة لا يفكر بأحد، يكون في حالة تركيز كاملة والوقت سيعالج من أفسدته القبيلة. عادت خديجة وذهب الظمأ من قلب حسن. التقيا في ذلك الصباح في منتصف الطريق المؤدي إلى الكلية، وكانت خديجة وحدها. بعد التحية والسلام، قال حسن إنه لم يرها منذ مدة طويلة، ثم أضاف: بقيت أجمل من زمان، الحصل شنو؟ ابتسمت خديجة على هذه المغازلة، ثم ذهبا إلى الشيخ بائع

المشروبات الساخنة. كانت هذه المرة الأولى التي يجلس فيها حسن معها على انفراد، وبينما كان يطلب قهوة وشاي، نظر إليه الرجل العجوز وغمز بعينه قائلًا: أخيرًا اتعلمت يا حسن. كان العجوز يظن أن حسن قد وقع في حبها - وقد كان صائبًا. عندما قرر حسن ملاطفتها، لم يكن ذلك من وحي خياله. للحزن جماله الخاص، مثل أوراق الشجر في فصل الخريف، كثير من الحسناوات يصبحن أكثر جمالًا عند خوض تجربة حزينة، أو فقد عزيز. وربما جمال الحزن أكثر بريقًا من جمال الفرح والسعادة. بعد احتساء القهوة، اتفقا على المقابلة مجددًا، وذهب كل منهما إلى قاعة المحاضرات. سيكتشف حسن لاحقًا أن عمار كان معجبًا فقط، ولم يكن حبيبها، وكان يحاول التقرب منها ويفعل كل شيء من أجلها. يذهب معها حتى محطة المواصلات، ولا يغادر حتى تجد سيارة تقلها. كان عمار بريئًا، طيب القلب، لكنه متعصب في بعض المواقف، لم يخض تجربة عاطفية من قبل، لذلك لم يكن يفهم مكر النساء. لا يستطيع حسن أن يجزم بأن خديجة كانت تستغل عمار، لكن هي طبيعة النساء، لا يملن كثيرًا إلى الرجل الذي يقدم كل شيء من أجلهن، خاصة في الإعمار الصغيرة. لم يظفر عمار بقلبها، رغم المحاولات المتكررة، لأنها لم تكن تتوقع منه جديدًا، فهو قد منحها كل شيء من الوهلة الأولى، أما حسن فكان يمشي ثابت الخطى، مدعومًا بتجربته مع ياسمين.

كان العام الدراسي الثالث يمضي بسرعة بالغة، أو هكذا كان يشعر حسن. محاضرة بعد أخرى، لقاء بعده آخر، الأحزاب السياسية لا تكف عن الضجيج والعنف. ذات مرة، كانت هناك ندوة سياسية، تحدث فيها قيادي بالحزب الحاكم، اعترض الطلاب على دخوله الجامعة، خاصة طلاب إقليم مكلوم الذي شهد إبادة جماعية، كانوا يعتقدون أن هذا المتحدث مسؤول بصورة مباشرة عن أحداث القتل

والاغتصاب وحرق القرى التي كانت تحدث في الإقليم.. حُشِدَ عدد كبير من الطلاب وآخرون مناصرين للقضية، ونظموا مخاطبة سياسية بالقرب من الندوة. لم يرق هذا الفعل لقيادي الحزب، لذلك أمر بضرب الطلاب ثم خرج من الجامعة. جاء عدد كبير من قوات الأمن هجموا على طلاب إقليم مكلوم بالسيخ والهراوات وحتى السلاح الناري. استمرت المعركة ساعات طويلة. عند غروب شمس ذلك اليوم، غابت معها روح أحد الطلاب إثر طلقة غادرة في صدره. كان يدرس بإحدى الكليات، عرف بين زملائه بالكرم والتهذيب والأخلاق العالية. كان ذلك اليوم الأكثر حزنًا بالنسبة إلى حسن منذ دخوله الجامعة، رغم أنه لم يكن مشاركًا في الأحداث بالمعنى السياسي للكلمة، ولكنه كان مؤازرًا فقط، لأن الفطرة السليمة تكره الظلم أيًّا كان مصدره. صارت الجامعة حزينة، أدرك أن روح الإنسان الفيلاني رخيصة في نظر الحاكم وحاشيته، ولكن ما العمل؟ كان يطرح هذا السؤال، بلا إجابة. عاد إلى السكن ولم يتناول وجبة العشاء في ذلك المساء كوسيلة للتعبير عن حزنه. فقط جاء إلى شارع البركان أخذ كوبًا من الشاي، جلس وحيدًا والحزن يسيطر عليه.. بعد مرور وقت قصير، جاء مروان عابرًا دون أن يقصده، ولكن عندما رآه يجلس وحيدًا، انضم إليه ليؤازره. تحدثا معًا عن مقتل الطالب، وعن العنف عمومًا.. طرح حسن سؤالًا يقول فيه: ما الحل؟ كيف نوقف العنف دا؟ جاء الرد صافيًا وعاريًا، قال مروان: يجب تغيير النظام. لا أعرف كيف لكن لا يوجد حل سوى تغيير النظام. بس في مشكلة واحدة، مسألة تغيير النظام مفروغ منها، لكن ما تتفاءل شديد، لأنه السياسيين وجهين لعملة واحدة. كان حسن يُكِن احترامًا كبيرًا لمروان، لأنه من جمعه بخديجة وأعطاه كتاب «النبي» لجبران خليل جبران وعرض عليه مكتبة كاملة وفك شفرة الأسطورة. عاد حسن إلى غرفته، وقبل الخلود إلى النوم، كانت هذه

الكلـمات تريـد أن تخـرج مـن شريـان الـدم فكتـب في رثـاء الطالـب القتيـل:

«منكم طلقة ومنَّا شهيد

الحياة تمضي لينبت الشهيد قمحًا،

سنبلة، وفي كل سنبلة ألف رغبة في الحياة والحرية.

سيقول القاتل: عفا الله عما سلف

وابـن الشـهيد يجيـب: لكننـي لسـت اللـه. أنـت مـن نـسي اللـه حـين قتلـت أبي!

يتملق القاتل: لم يكُ أبوك طائعًا وكان خارجًا عن القانون

لكن ابن الشهيد كالشمس، تمنح الدفء وتحرق الطغاة!

الشر يوهمكم بالنصر الأبدي، والسلاح يعزز ذلك الوهم

لكن الحق باق، كالأمل يموت آخر

أجبن من في الأرض، من يواجه الفكرة بالنار

فلتمضي آلة البرابرة، وعجلة الحياة تذهب عكس ذلك.

قديمًا، في الحكاية، الخير منتصر دائمًا

وفي قاموس البرابرة الشر أنبل!

وأما في قاموس الحياة والعلم، الحقيقة منتصرة دائمًا».

بعـد إكـمال هـذه السـطور، تنفـس حسـن بعمـق، وخلـد إلى النـوم. لم يكـن لديـه وأمثالـه سـلاحًا آخـر لمواجهـة آلـة البرابـرة، سـوى التعبـير عـن رفـض الظلـم بمـا أوتـوا مـن وسـائل، فكانـت الكتابـة وسيلة متاحـة وإضافة إلى أنهـا تخليـد وتوثيـق للشـهيد. الحيـاة تمـضي والحـزن والفـرح متلازمـان.

علـى الرغـم مـن أن حادثـة القتـل كانـت صادمـة وتركـت حزنـا في نفـوس الطـلاب، فـإن حسـن ورفاقـه اسـتمروا في العيـش آملـين في النـصر القريـب.

مثلـما كانـت الحيـاة الجامعيـة تشـهد أحـداث عنـف وقتـل، كانـت في المقابـل تشـهد أحـدث أخـرى جميلـة. يحتفـي الطـلاب بأعيـاد الميـلاد. تقـام حفـلات بدايـة العـام الـدراسي، واسـتقبال الطـلاب الجـدد. تُنظَّـم دورات كـرة قـدم بـين الكليـات، وحفـلات التخـرج التـي تنظمهـا الجامعـة كل ثلاثـة أعـوام. كل ذلـك كان يطفـئ عـلى حيـاة الجامعـة جـمالًا فريـدًا. يجـد بعـض الطـلاب أصدقـاء جـدد، وهنـاك مـن يلتقـي بفتـاة جميلـة تصبـح – لاحقًـا أو في الحـال – حبيبتـه. في ذلـك اليـوم، كان حسـن في مـزاج جيـد عندمـا ذهـب إلى حديقـة الكليـة. جلـس في المقعـد، أخـرج كتابًـا لمؤلـف اسـمه مصطفـى حجـازي وعنوانـه «سـيكولوجية الإنسـان المقهـور» كان حسـن قـد أصابـه الملـل مـن قـراءة المنهـج الـدراسي، فـأراد قـراءة كتـاب آخـر ليتعـرَّف معلومـات جديـدة. أدرك أن الإنسـان الـذي يظهـر العنـف في التعاطـي مـع الأحـداث، يعـاني قهـرًا في عقلـه الباطنـي، ربمـا تعـرض لعنـف في صغـره، أو يتعـرض إليـه الآن في العمـل أو البيـت، لذلـك عندمـا يواجـه موقفًـا مـا يبـدأ معالجـة الأمـر بالعنـف، لأنـه الوسـيلة الأقـرب إلى ذهنـه، وخاصـة عندمـا يكـون في مواجهـة مـن أضعـف منـه قـوة أو أصغـر سـنًّا. تعجـب حسـن لهـذا الأمـر وبـدأ يفهـم سـلوك الطـلاب الذيـن يظهـرون العنـف ومسـتعدين حتـى لقتـل زملائهـم مـن الطـلاب. بينـما كان يفكـر في هـذا الـشي، شـعر بلمسـة عـلى كتفـه، التفـت فوجـد خديجـة تقـف مـن خلفـه، فـرح لرؤيتهـا نهـض ودعـاه بالجلـوس - أغلـب الرجـال يتعاملـون بشـهامة عنـد حضـور الحسـناوات. قالـت خديجـة: اليـوم يوافـق عيـد ميـلادي. ردَّ حـس قائـلًا: حأتذكـر اليـوم دا، ومـا بنسـاهو خالـص. وأضـاف: كيـف قاعـدة تحتفـلي بعيـد ميـلاد؟ تفاجـأت خديجـة لهـذا السـؤال، لأنهـا كانـت تنتظـر تهنئـة وليـس سـؤالًا.. صمتـت قليـلًا وقالـت: عـادة بسـتقبل التهـاني مـن

أصدقـائي وصديقـاتي، ولكـن الليلـة مـا في زول هنـأني حتـى الآن. فعلـق حسـن قائـلًا: احتـمال لغايـة نهايـة اليـوم تجيـك التهـاني. ثـم دعاهـا لتنـاول عصـير. ذهبـا إلى الكافتيريـا، ابتـاع حسـن عصـير برتقـال، قدمـه لهـا وأخـذ لنفسـه كـوب شـاي، واكتفـى بالبرتقالـة التـي عـلى صدرهـا. شـعرت الفتـاة بسـعادة لهـذا الاهتـمام، تحدثـا قليـلًا، ثـم افترقـا. عـاد حسـن إلى غرفتـه، ثـم كتـب لهـا رسـالة تهنئـة يقـول فيهـا:

«خديجة، العصفورة الجميلة،

كل الحمائم والفراشات

من حولك ترفرف،

كل سنة وورد أكثر»

كانـت خديجـة تعشـق الكلـم الجميـل. عندمـا اسـتقبلت هـذه التهنئـة، كان وقعهـا عـلى قلبهـا بمنزلـة صـلاة المسـاء. رغـم النـص القصـير الـذي كتبـه حسـن، فإنهـا كانـت صادقـة، مفعمـة بالأحاسـيس والأمنيـات الجميلـة. وهـذا مـا شـعرت بـه خديجـة، ولم تكـن تريـد شـيئًا أكـثر مـن ذلـك: الشـعور الصـادق.

كان حسـن في المـاضي يبحـث عـن خديجـة، ولكـن بعـد عيـد الميـلاد تغـيرت قوانـين اللعبـة. في ذلـك الصبـاح الشـتوي الدافـئ، جـاءت خديجـة إلى كليتـه، جلسـت في مقعـد عـلى ركـن هـادئ بالحديقـة وتنتظـره كالقطـة التـي تقنـص فـأرًا. كان حسـن في تلـك اللحظـة يحـاول حفـظ قصيـدة للأديـب الـروسي بوشـكين تسـمى «كنـت أحبـك»، ولم تخطـر في ذهنـه فكـرة عـن تلـك الفتـاة السـمراء الجميلـة بعطرهـا الفريـد. كان حسـن يختـار لـكل نشـاط مـكان محـدد: إذا أراد قـراءة شـعر، يذهـب إلى النهـر، يجلـس بـين الخـضرة والمـاء يسـتمع إلى شقشـقات العصافـير، ورذاذ المـاء يتسـاقط مـن

حين إلى آخر.. أما لقراءة القواعد النحوية للغة، كان يذهب إلى المكتبة، ينظر إلى الرفوف المكدسة بالكتب، وإلى الكراسي والطاولات، يحاول مقارنة القواعد النحوية بالطريقة التي رُتِّبَتْ بها الرفوف والكراسي، فيعثر معنى محدد.. ولقراءة كتب الفلسفة كان يختار الركن الأخير من كافتيريا قسم الفلسفة الذي كان في سطح الكلية، يأخذ قهوة خالية من السكر، كان يظن أن الفلسفة تسمو بالنفوس، لذلك يختار قمة المبنى ليكون هناك توافق بين العلو الجسدي والروحي. يزور متحف التاريخ الطبيعي مرة واحدة كل أسبوع وبالتحديد في أيام الأحاد ليتأمل أشكال الكائنات الحية والميتة. كانت خديجة تنتظر وتنتظر والفريسة لم تظهر بعد، فقدت الأمل من كثرة الانتظار وهمت بالذهاب. نهضت من المقعد ثم جلست، كان يعتريها إحساس غريب، فكلما يطول الانتظار، كلما كبرت صورة حسن في داخلها، لذلك كانت في حيرة من أمرها، ماذا تفعل، تنتظر أكثر أم تذهب؟ بينما كانت هذه الأفكار تضج بداخلها، جاء حسن عابر بجانبها، ولكنه لم يرها.. أرادت خديجة أن تناديه، ولكنها لم تفعل لأنها رأت فتاة جميلة كانت بصحبته. كانت تلك الفتاة عزة - زميلة حسن بالقسم. كانا ذاهبين إلى مكتبة الكلية لاستعارة بعض الكتب بغرض التجهيز والإعداد امتحانات. ولكن من يستطيع أن يقنع خديجة بذلك حتى تهدأ؟ كانت خديجة تتوتر شيئًا فشيئًا، تبللت راحة يدها، قررت أن تتبعهما، ولكن كبرياء النساء المزيف منعها وبقيت تحترق بسبب التشويش الذي أحدثته عزة. ظهر حسن في تلك اللحظة عائدًا من المكتبة، وكان وحيدًا هذه المرة. عندها نادته بصوتٍ عالٍ حتى انتبه الطلاب الذين كانوا في فناء الكلية. جاءها وقال: أجمل فتاة في الجامعة واقفة قدامي، الواحد عايز شنو أكتر من كدا؟! ثم ضحك هههههههه.. رغم أن التعبير كان رائعًا والكلمات مفعمة بالشعور الحميم، فإنها بدت خالية من المعنى لذلك لم تصدقه.

قالت: منتظراك من قبيل، ولمن جيت ماشي مع البت، عملت نفسك ما شايفني. أجاب: صحيح كلامك، شوفتك، لكن كنت مستعجل، آسف والله. ثم دعاها إلى تناول وجبة الفطور. لم تستجب خديجة للدعوة، قالت إنها ترغب في تناول شاي بالحليب والجلوس قليلًا، وبعد ذلك ستركض إلى قاعة الامتحان.. أحضر حسن كوبين من الشاي والحليب ثم جلس بجانبها. قالت: أردت أن أحتسي هذا الشاي بجانبك لعل الامتحان يكون لطيفًا مثلك.

بالفعل، كان الامتحان لطيفًا كما تمنت، لذلك عندما خرجت من القاعة ركض إلى حديقة بحثًا عنه. لم تعرف البشرية حتى الآن هدية أغلى وأسمى من العناق.. كانت خديجة ترغب في معانقته لتعبر عن شكرها. تذكرت أن حسن قد أرسل لها رسالة تهنئة عبر الهاتف، أخرجت هاتفها المحمول وبدأت تبحث عن الرقم. اتصلت، كان المجيب شخصًا آخر لكنه ليس غريبًا طلب منها أن تعيد الاتصال بعد خمس دقائق. عندما جاء مروان إلى غرفة حسن وجده نائمًا، ولكن صرير الباب جعله يستيقظ.. خذ الهاتف، ستتصل بك أنثى بعد قليل، قال هذا ولم يذكر اسم خديجة. رن الهاتف، أجاب حسن وعرف صوتها. اتفقا على المقابلة، لبس قميصه ثم خرج. عندما كان في السلم، ضحك أحد الطلاب، التفت إليه ليعرف الأمر، أشار الطالب إلى الأسفل، فضحك حسن وعاد إلى غرفته ليرتدي البنطال الذي نسيه. كان اللقاء رومانسيًّا بنكهة الصداقة، قالت له وهي تنظر إلى عينيه: كان الامتحان لطيفًا مثلك، تعال إلى حضني.. لم يكن تبادل الأحضان متعارفًا في الحياة الجامعية، ولكن الطلاب كانوا يجدون حيلًا لإطفاء عطشهم. ولأن الشمس غابت لتوها، والظلام بدأ يعم الإرجاء، اقترب حسن منها وتعانقا. كان هذا العناق هو الأول في حياته، لم يعرف ملامسة النهدين أبدًا، شعر برعشة سماوية تعم جسده، تانك البرتقالتان تحملان طاقة

لا يضاهيها شيء. بعد ذلك اليوم، أصبحا يتقابلان قبل كل امتحان، يشربان الشاي معتقًا بنكهة النعناع، ثم يذهب كل منها إلى المعركة.

أصبح للجامعة وقع خاص، والأيام كانت تمضي مسرعة. في مساء اليوم الختامي، التقى الجميع (حسن، خديجة، مروان، عمار)، أعطى كل منهم ملخصًا عن العام الدراسي. تحدث حسن عن أن أفضل شيء حدث له في هذا العام هو تعرُّف أصدقاء جدد، وذكر أنه قد فكر في ترك الدراسة والعودة إلى قريته والبقاء بجانب وأمه، لكن تلك الفكرة أصبحت في ذاكرة النسيان، وذهنه الآن مشغول بإكمال الدراسة بنجاح. وخديجة من جانبها قالت إنها لم أفكر يومًا في ترك الدراسة: واجهتني في بداية العام بعض المشكلات الأسرية، لكن بتوفيق من الله استطعت التغلب عليها، وسعيدة بمعرفتكم جميعًا، وخاصة أنت يا حسن. ثم أشارت إليه بالبنان. أما عمار فقال: كانت السنوات الماضية أجمل بلا تحديات، ولكن مع مرور الوقت ظهرت تحديات جديدة، لكنني واثق من تجاوزها. تحدياته ليست لها علاقة بالدراسة، بل كان يقصد من وجود حسن بجانب خديجة. بعد ذلك بدأ مروان في الحديث: بما أنو اليوم هو الأخير، أقترح عليكم نمشي مطعم «أبا زر» نتعشى، والمطعم عندو «كوارع» عجيبة، ما في زيها في المدينة دي كلها. ضحك الجميع على هذا الاقتراح، ليس لأنه يدعو للسخرية، بل لأنه لم يكن متوقعًا. اتجه الجميع نحو «الكوارع» التي لا تضاهى.

التحوُّلات

لغـز الحيـاة لا يمكـن سـبره. حـاول الإنسـان عـبر التاريـخ الوصـول إلى إجابـات لأسـئلة كـبرى تتعلـق بوجـوده، نجـح في بعضهـا، وأخفـق في البعـض الآخـر. النقـاش حـول ماهيـة الـروح قديـم قـدم الإنسـان نفسـه، وعـبر التاريـخ لم يتوصـل البـشر إلى خلاصـات نهايـة حـول هـذا الموضـوع. مثلـما السـؤال عـن الغيـب ظـل شـائكًا وغامضًـا.

سـافر حسـن إلى القريـة لزيـارة أمـه بعـد غيـاب دام ثـلاث سـنوات. بـدا نحيـلًا ولكـن ملامحـه أجمـل مـما كان. اسـتقبلته كلثـوم. كانـت فرحـة لرؤيتـه وحزينـة للوهـن الـذي أصابـه. ظـلَّ هنـاك شـهرًا ثـم عـاد إلى العاصمـة. خـلال تلـك المـدة، كانـت أمـه تعـد لـه الوجبـات الدسـمة، مـن الدجـاج والحـمام وأحيانـا الأسـماك الطازجـة، وطلبـت منـه أن يبقـى بالمنـزل ليسـتجم، ويـؤدي صلواتـه والباقيـات الصالحـات. كان الابـن مطيعًـا، محبًّـا لأمـه لذلـك رضخ إلى الأمـر. كان يقيـم الصـلاة مـن وقـت إلى آخـر، ولكـن ليـس حسـب وصايـا النبـي محمـد. حيـاة الأريـاف، عـلى الرغـم مـن بسـاطتها والفقـر المدقـع الـذي تعيشـه، فإنهـا لا تخلـو مـن المراسـم الاجتماعيـة والمناسـبات. تقـام حفـلات الـزواج مـرة واحـدة كل أسـبوع، كـما لا تتوقـف حفـلات الحصـاد: الموسـيقى الفلكلوريـة تدنـدن يومًـا بعـد آخـر، الفلاحـون يرقصـون فرحًـا بنجـاح الموسـم الزراعـي. بعـض الشـبان يذهبـون إلى منـزل العجـوز التـي تعـصر الخمـر، يجلبـون أباريـق مليئة بالمريسـة، وفي المسـاء ينظمـون جلسـات سريـة بحضـور الفتيـات القرويـات الجميـلات، في ذلـك اليـوم، قـرر محمـود – جـار حسـن - الـزواج مـن ابنـة عمـه. قامـت الأسرة بتجهيـز كل متطلبـات العـرس، وذهـب والـده إلى السـوق ابتـاع ثـورًا كبـيرًا للوليمـة، قدمـوا دعـوة للأهـل والأصدقـاء لحضـور مراسـم الزفـاف

الـذي سـيقام يـوم غـد.. في اليـوم التـالي، أعـدت نسـاء القريـة أطبـاق الأكل بأنـواع مختلفـة وجـاء الضيـوف مـن كل حـدب وصـوب، وقـد بلـغ العـدد خمسـمائة شـخص لأن جميـع القـرى المجـاورة جـاءت لحضـور المناسـبة. شـح اللحـوم يعـد أحـد أبـرز مظاهـر الفقـر، لذلـك يحـرص النـاس عـلى حضـور مناسـبات الأفـراح لأنهـا فرصـة مناسـبة لتـذوق طعـم اللحـوم.. مـع ذلـك عندمـا يحـضر القـروي مناسـبة مـا، لا يعـود إلى بيتـه دون وضـع مبلـغ مـن المـال في «صنـدوق العريـس» وهـي سـمة تـدل عـلى المـؤازرة. إن الـذي يتـذوق طعـم اللحـوم في المناسـبات هـو مـن يحـضر مبكـرًا، لأن الثـور الواحـد لا يكفـي هـذا العـدد الكبـير. بعـد أن تنـاول وجبـة الغـداء، يبـدأ التجهيـز للحفـل المسـائي: يجتمـع النـاس عنـد الأصيـل، يُدلَّـك العريـس بأنـواع مختلفـة مـن العطـور المحليـة، وهـي مُعـدَّة فقـط لمثـل هـذه المناسـبات. يطـوف المحتفـى بـه وأقربـاؤه والأطفـال حـول القريـة ثـم الخـروج إلى الترعـة.. ثـم يُـزفُّ العريـس إلى عروسـته في مشـهد يعـد هـو الأروع عـلى الإطـلاق، وهـذا التقليـد قديـم تعـود جـذوره إلى الممالـك الإفريقيـة القديمـة. بعـد عـودة العروسـين إلى البيـت، تُقـدَّم وجبـة تسـمى «عشـاء العريـس». أمـا في الطـرف الآخـر، فنجـد فتيـات القريـة يتجمَّلـن، يلبسـن أزهـى الملابـس، ويضعـن أحمـر الشـفاه، والعطـر النسـائي الـذي لا تفـوح رائحتـه إلَّا في أيـام المناسـبات. كان حسـن أيضًـا يعـد نفسـه لحضـور هـذا الحفـل. بعـد غيبتـه الطويلـة مـن القريـة كان لا بـدَّ لـه مـن الظهـور بشـكل سـاحر. عـلى الرغـم مـن أن حسـن كان لا يخـرج مـن البيـت نـزولًا لرغبـة أمـه، فـإن القريـة كلهـا عرفـت بمجيئـه. ليـس هـذا فحسـب، بـل قابـل نصـف القريـة. النـاس هنـاك يحبـون زيـارة الضيـف سـوى بدعـوة أو بغيرهـا. بينـما كان محمـود العريـس يقـوم بمهمتـه الليليـة المرحـة تجـاه العـروس، دقـت الطبـول وارتفـع صـوت الموسـيقى في السـاحة المجـاورة، الفتيـات الجميـلات في أبهـى صورهـن، وبعـض النسـاء والرجـال الذيـن

أضنتهم الشيخوخة يتأملون. بدأ الرقص، وتذكرت العجوز مغامراتها الأولى، والفتاة الجميلة تحلم بمقابلة الأمير الصغير. ظهر حسن في وسط هذه الحشود. كان أنيقًا ورائحة العاصمة تفوح منه، ولكن تغيرت ملامحه عندما أدرك أن الفتيات كنَّ يسخرن منه لأن عظام وجهه كانت ناتئة من شدة النحول.

في اليوم التالي، زار حقول القمح الخضراء، والبقر التي ترعى من حولها وراعي الأغنام الذي يعد فطوره، فتذكر طفولته، وكيف كان يرعى الأغنام ويستحم في الترعة، ثم تذكر يوم الهروب العظيم عندما كان هو وأصدقاؤه يسرقون الفول من المزرعة وظهر صاحبها فجأة يحمل عصا كبيرة، فركضوا وهو خلفهم حتى استطاعوا الإفلات منه بأعجوبة. كانت لهذه الذكريات وقع جميل على نفسه، أزالت عنه إحساس الحزن بسبب سخرية الفتيات في الحفل. ودَّع حسن والدته وحمل حقيبته القديمة ثم اتجه إلى العاصمة لمواصلة الرحلة. كان سكان القرية يسافرون إلى المدن الكبيرة في يومي الخميس والإثنين، لأن وسائل المواصلات متاحة مرتين في الأسبوع لقلة عدد المسافرين، أما نوع السيارات التي تقل الناس إلى المدن الكبيرة فكان أشهرها «اللوري» وهي أولى المركبات التي دخلت إلى بلاد الفيلان وقد أتى بها المستعمر. لم تكن رحلة حسن من القرية إلى العاصمة سهلة، لأن أغلب الطرقات كانت سيئة، والطقس جافًّا وحارًّا، يأتي الغبار من كل الاتجاهات، لكنه لم يمتعض من هذا الأمر، لأنه لم يكن يعرف طريقة أخرى، أما العاصمة فكانت تختلف عن الريف، لذلك ظن حسن أن العاصمة دولة قائمة بذاتها. بعد وصوله إلى السكن الجامعي، دخل غرفته ونام من شدة التعب، استيقظ عند المساء وشعر بالجوع، قرر ترتيب ثيابه قبل الذهاب إلى المطعم لتناول العشاء، وبينما كان يرتب ثيابه، وجد دجاجتين مشويتين داخل حقيبته، ففرح وشكر أمه على

هــذه النعمــة. ثــم أخــذ دجاجــة واحــدة وذهــب إلى غرفــة صديقيــه.. كان عبــود ومــروان في حــيرة مــن أمرهــما، لأن المــال قــد نفــد وكانــوا يفكــرون في إيجــاد جنيهــات قليلــة لتدبــير شــؤون العشــاء. لم يكــن ظهــور حســن متوقعًا في تلــك الأمســية، لأنــه لم يخطــر أحــدًا بقدومــه. إذ إن القــرى لا تعــرف شــبكات الاتصــال، لذلــك الهواتــف النقالــة لا معنــى لهــا في الأريــاف. بعــد التحيــة والســلام، قــال حســن: خلونــا نتعــشى بالطريقــة القرويــة. لم يفهــم مــروان مــا يعنيــه، ولكــن عبــود فهــم الإشــارة عندمــا رأى جنــاح الدجاجــة يطــل مــن الكيــس الــذي كان في يــد العائــد مــن القريــة. تناولــوا العشــاء، ثــم ذهبــوا إلى ركــن المشروبــات الســاخنة، وهنــاك حــكى حســن عــن رحلتــه، ولاحــظ عبــود ومــروان زيــادة في وزنــه. عندمــا ســألوا عــن الســبب، ذكــر الكــرم الــذي فــاض مــن قلــب أمــه، وشُــورب الدجــاج والحــمام والأســماك الطازجــة. كان المســاء جميــلًا، لم يعكــر صفــوه إلَّا قــول مــروان: هــل تتذكــر خديجــة؟ رأيتهــا في ذلــك اليــوم تتمــشى برفقــة شــاب عــلى شــاطئ النهــر، أظنــه قــد نجــح في سرقــة قلبهــا. ســقط كــوب الشــاي مــن يــد حســن. عندمــا ســمع هــذا الخــبر. اســتفسر، لكــن مــروان قــال إنــه لا يملــك تفاصيــل أكــثر، وأضــاف: تنتظــر بــس لغايــة مــا الجامعــة تفتــح أو تمــشي بيــت أبوهــا. لم يســتطع البقــاء طويــلًا، وبعــد ســقوط الكــوب، نهــض مــن المقعــد وعــاد إلى غرفتــه. لا يؤمــن النــاس في بــلاد الفيــلان بصداقــة النســاء والرجــال. عندمــا يــرون فتــاة وشــابًّا يتجــولان في الشــارع أو حديقــة عامــة، التفســير الوحيــد لهــذه الظاهــرة يذهــب إلى الحــب والعلاقــات العاطفيــة، ولم يكــن حســن اســتثناءً.. لم يســتطع حســن أن يســتغرق في النــوم مبكــرًا في تلــك الليلــة، حــاول نســيان مــا ســمعه لكــن بــلا فائــدة، تذكــر أيــام المدرســة الثانويــة وياســمين وكيــف أن الزمــن يمــضي بسرعــة. لكــن الســؤال الأهــم خطــر في بالــه، مــاذا أريــد مــن خديجــة؟ مــاذا تعنــي لي خديجــة؟ طــرح حســن هذيــن الســؤالين عــلى نفســه، وكان يبحــث عــن إجابــة صادقــة. حالــة المكاشــفة

والتعري مع الذات. في الأخير توصل إلى أنه ليس متيقّنًا إن كان واقعًا في حبها، لكن شعور جميل يعتريه عندما يراها ويسمع صوتها، وتشتعل دواخله حين تشع ابتسامتها الآسرة.. ثم طرح سؤالًا فلسفيًا شاعريًا: من أنا في عالم خديجة، هل ينبت اسمي وردًا في حديقة قلبها؟ هل يزورها طيفي عندما تنام؟ وعندما تصحو هل تحسني في نسمة الصباح التي تداعبها؟ جاء النوم بملائكته الطيبين. في المنام، رأى حسن أنه يداعب عذراءه الفاتنة في فناء الجامعة. وفي أثناء ذلك فاجأته بالحديث عن الحبيب الموعود الذي يحمل بعضًا من ملامحه.

من حسن حظه كان الواقع مختلفًا عن الحلم الذي رآه. بدأ العام الدراسي وفي الصباح اتجه إلى محاضرة الأدب الروسي المعاصر، وكانت الأستاذة التي تدرس هذه المادة تدعى أنجلينا، روسية الأصل، قدمت في نهاية الثمانينيات من برفقة زوجها من بلاد الفيلان الذي تلقى الدراسة في الاتحاد السوفيتي آنذاك وأصبح شاعرًا مشهورًا. كتب قصائد عدَّة تغنى بها فنانون كبار. كان حسن يستمتع بحضور محاضراتها الشائقة، وكان شغفه يزداد يومًا بعد يوم، والأستاذة التي درست الأدب بمعهد غوركي للآداب في موسكو. كانت تحدث الطلاب عن الشاعر بوشكين ودوستويفسكي وكأنها ترعرعت بينهما. بعد سنوات، سيحزن حسن كثيرًا على الرحيل المفاجئ للأستاذة من هذه الدنيا وسيكتب مرثية يكون وقعها في نفوس الحضور عظيم.

تغيرت ملامح خديجة كثيرًا وأصبح أكثر إشراقًا، عندما التقى بها حسن في ذلك اليوم بصحبة صديقتها، قالت: هذه صديقتي، ندرس معًا، حدثتها عنك. سيقام مساء اليوم حفل «بنادي الحرية والسلام والعدالة» عند السابعة مساء. سأل حسن: وماذا يعني هذا؟ أجابت خديجة: أقترح عليك أن تذهب معنا لأن معبود الشباب سيكون بطلًا للأمسية. كان حسن يحب الفن وخاصة الغناء، ولكن لم يحضر

حفـل موسـيقي مـن قبـل. كان يظـن أن بطنـه أولى بثمـن التذكـرة مـن الفنانـين، لكـن عندمـا جـاء الحديـث عـن فنـان الشـباب، غـيَّر رأيـه، كان مسـتعدًا لدفـع آخـر جنيـه في جيبـه، لأن هـذا المطـرب - حسـب تقديـره - كان النمـوذج الحقيقـي للفنـان. في المسـاء التقـى عشـاق الفـن الثلاثـة قبالـة النـادي، وكانـت السـاعة تشـير إلى السادسـة والنصـف، بعـد أن أخـذ تكاليـف التذكرتـين مـن خديجـة ورفيقتهـا، ابتـاع حسـن ثـلاث تذاكـر ثـم أخـذ أي واحـد منهـم مقعـده في انتظـار قـدوم بطـل المسـاء. كان الفنـان يتأخـر لدقائـق في أغلـب الحفـلات، ولذلـك تأويـلات مختلفـة: هنـاك مـن يظـن أنـه يتأخـر بسـبب تدخـين «البنقـو»، فهـو لا يحـب الصعـود إلى المسرح قبـل أن ينهـي تدخـين سـيجارته، ويعتقـد آخـرون أن فسـاد الـوكلاء هـو سـبب في ذلـك، لعـدم التزامهـم بالعقـود. لـكل أسـطورته، ولا يعلـم الحقيقـة إلا هـو. ظهـر المغنـي كالبـدر في الليلـة الظلـماء، ضـج المـكان وتعالـت الأصـوات، بـدأ يشـدو. صمـت الجميـع وكأن أصواتهـم قـد سُرِقَـتْ، فقـط الدمـوع كانـت تتحـدث، والمطـرب يعـرض إبداعـه بصوتـه الفريـد الرخيـم. اسـتمر الحفـل سـاعتين مـن الزمـن، خـرج الجمهـور وعلامـات الـرضى تغطـي وجوههـم كالمـرأة التـي قامـت مـن فـراش الحـب لتوهـا. كان حسـن ورفيقتيـه في غايـة السـعادة. يمشـون في الطريـق ويـرددون الأغنيـات التـي اسـتمعوا إليهـا قبـل قليـل، ولكـن مسـاء الصيـف كان قصـيرًا، وإذا كان بمقـدرة حسـن البقـاء خـارج المنـزل حتـى سـاعات متأخـرة مـن الليـل، فـإن العـادات والتقاليـد لا تسـمح لخديجـة ورفيقتهـا بذلـك. حـان وقـت العـودة، ذهبـوا إلى محطـة المواصـلات، وبعـد أن تحركـت الحافلـة حاملـة خديجـة وآخريـن، عـاد حسـن إلى السـكن الجامعـي مشـيًا عـلى الأقـدام وكان يـردد «اخـترت أنـت طريـق طويـل، سـكة مـا زي سـكتك». بعـد ذلـك المسـاء، اكتشـف حسـن جانبًـا جديـدًا مـن حيـاة العاصمـة. الحفـلات المسـائية، والتجـول ليـلًا في الطرقـات مـع صديقـه، كان يتمنـى أن يفعـل ذلـك مـع

خديجـة، ولكـن التقليـد لا يسـمح بذلـك والشرطـة تترصـد العشـاق.

كاد العـام الـدراسي ينقـضي، وهـو لم يبـحْ بالحـب بعـد. كان يلتقـي خديجـة ثـلاث مـرات كل أسـبوع، يقـضي معهـا وقتًـا جميـلًا. وكان النقـاش حـول قضايـا مختلفـة، مثـل المسـتقبل، ودور الجامعـة في بنـاء شـخصية الإنسـان، والحيـاة مـا بعـد الجامعـة وكل منهـما يحـكي خططـه مـا بعـد التخـرج. في امتحانـات السمسـتر الأول، أحـرز حسـن نتائـج جيـدة، ولكـن خديجـة رسـبت في ماديـتن.. شـعر حسـن بذنـب تجاه هـذا الفشـل، وظـن أنـه السـبب في ذلـك، لكـن خديجـة طمأنتـه قائلـة: أتحمـل وحـدي هـذا الفشـل. بعـد تقييـم التجربـة، اتفـق حسـن وخديجـة عـلى ارتيـاد المكتبـة، وحضـور جميـع المحـاضرات، قـال حسـن: كل يقاتـل في خندقـه بـكل ما أوتي مـن قـوة. التزمـا عـلى تنفيـذ الخطـة عـلى أكمـل وجـه، فكانـت النتائـج مدهشـة. بينـما كان الطـلاب في انتظـار النتائـج، جـاءت الصدمـة. نقلـت وسـائل الإعـلام خـبرًا مفـاده أن فنـان الشـباب الأول قـد رحـل إلى الأبديـة بعـد صراع طويـل مـع المـرض. لم يسـمع حسـن بهـذا الخبر في الحـال، كان نائمًـا، وعندمـا اسـتيقظ وذهـب إلى العشـاء، وجـد أغلـب الطـلاب يتحدثـون عـن هـذا الرحيـل الحزيـن. عندمـا عـرف بذلـك، عـاد إلى غرفتـه وتذكـر الحفـل الأخـير بنـادي «الحريـة والسـلام والعدالـة» برفقـة خديجـة ورفيقتها. شـعر بقسـوة الحيـاة. حـزن بشـدة ثـم بـدأ يخاطـب الفنـان الراحـل:

كدا برضو تفوتنا وتنسانا؟

بمـاذا أغـواك الغيـاب؟ بصبايـا الأعـالي أم بمسـارح تعـج بحضـور أكـثر أناقـة حتـى ترحـل عنَّـا في هـذه الأوقـات الحرجـة؟ هـل مللـت منَّـا، نحـن مـن نشـبع منـك شـهوة الجـمال؟ وكـم مـن طفـل يسـد بخبـزك الرمـق!

أنـت لا تبحـث عـن خلـود لأنـك ولـدت خالـدًا، لكـن الغيـاب لا يكمِّـل ذاتـه إلَّا بحضـورك.

إذًا كيف حققت له هذه الأمنية العظيمة؟

لا أحـد يملـك شـيئًا كي يوفيـك حقـك، سـوى يـد القـدر. رغـم هـذا نريـدك أن تظـل مـلاكًا كـما أنـت دائمًـا بجانبنـا. أتعـرف لمـاذا نحبـك؟ وأغنياتــك تــضيء عتمــة آلامنــا، وتهدهــد العشَّــاق. وفي ليــالي الوحــدة تشــاركنا الســهاد!

الودعـوا ارتحلـوا: لـن أتحـدث عـن قامتـك الفنيـة المتفـردة والحنجـرة المشـعة التـي تضاهـي الـلازورد، وإنسـانيتك التـي تكفيهـا شـهادة أولاد الحيـاة - الشـوارع، لكـن مـا يؤلمنـي هـو ترملنـا مثلـما ترملـت مسـارح الإبـداع والغنـاء الجميـل! مـن بعـدك يضفـي لليـالي نكهـة فريـدة؟

ملاك حتى في لحظة الأنانية:

حتـى لا تكـون الصدمـة غـير محتملـة عـلى المحبـين يرشـو المغنـي عصفـور الغيـاب، ليحلِّـق بـه رويـدًا رويـدًا: أرغـب في لقـاء أخـير مـع أصدقـائي هنـا وفي المنفـى، يقـول المغنـي الراحـل. لـك مـا تريـد.

مـن أي كوكـب هـذا الكائـن الـذي لا تحتمـل خفَّتـه، بكلـمات ميـلان كونديـرا!»

اختلفـت مصائـر حسـن وخديجـة. لم يصبـح هـو حبيبًـا بالمعنـى ولم تسـتطع هـي الظفـر بقلـب الأمـير الصغـير أيضًـا. عـلى الرغـم مـن أن وجودهـما جنبًـا إلى جانـب أسـهم بشـكل مبـاشر في النجـاح الـذي حققـه حسـن، ولم يكـن لخديجـة أن تكمـل الجامعـة لـولاه. كل منهـا كان يشـعر بذلـك، لكـن لا أحـد يبـوح بالحـب. ضمَّـت قائمـة الـشرف في ذلـك العـام ثلاثـة طـلاب، كان حسـن أبرزهـم. تُقسَّـم السـنة الدراسـية إلى فصلـين، يـدرس الطـلاب فصـلًا في بـلاد الفيـلان، أمـا الفصـل الثـاني في بـلاد السـلافيين، لم يكـن يتصـور الجامعـة مـن دونهـا، لكنهـا الآن في مواجهـة مصيرهـا

بعيدًا عن هذا المكان. كان عليه التأقلم مع الوضع الجديد والتركيز في الدراسة، لأن بعد ثلاثة أشهر ستفتح له الحياة بابًا جديدًا صوب إمبراطورية الجليد.

رغم هذا الأمل، والفرصة الكبيرة التي تنتظره، فإنه كان حزينًا بفراق خديجة. يذهب إلى المحاضرات وكأنه مرغم عليها. توقف عن زيارة الأماكن التي كانت تذكِّره بها، وكذلك كف عن تناول الشاي بالنعناع. ذات يوم عندما كان جالسًا في فناء الكلية وحيدًا وغارقًا في التفكير، جاء عبود وتحدث معه عن انتخابات اتحاد الطلاب، وسأله إذا كان يريد المشاركة أم لا؟ فقال: لا أريد سوى شيء واحد، أن أكون بجوار خديجة. أخرج عبود هاتفه القديم وأعطاه، قائلًا: أمسك التليفون دا واتصل بيها تجيك الجامعة، في كل الأحوال الناس بعد التخرج بكونوا قاعدين في البيت. كان عبود صادقًا فيما قاله، لأن نسبة كبيرة من الطلاب في ذلك الوقت، بعد التخرج، لا يجدون عملًا، يجلسون في البيت، وبعد الإصابة بالاكتئاب، منهم من يهاجر إلى عبر البحر، وآخر يدخل إلى عالم المخدرات والكحول، أما الأكثر حظًّا فيتزوج من أول فتاة يقابلها وتتحمل الأسرة تكاليف الزواج، وبعد مرور ثلاثة أشهر من ليلة الزفاف يحدث الطلاق الأول، وبعد عام يصل الأمر إلى طريق مسدود. أخذ حسن الهاتف واتصل. لم تتردد خديجة في تلبية الدعوة، واتفقا على أن تزور الفتاة الجامعة مرتين في الأسبوع، على أن يتكفل هو بجزء من تكلفة المواصلات.

في ذات مرة عندما دخل حسن إلى القاعة، وكانت المحاضرة عن الأدب الروسي المعاصر، لم تكن أنجلينا هناك، وسمع أنها قد رحلت عن الحياة.. كانت هناك أستاذة أخرى، فارعة الطول، مشبعة بالحياة، تتوشح الثوب السوداني بالطريقة الروسية، رائحة عطر خفيف تفوح من ناحيتها، منعمة وكأنها لم تر الشمس منذ سنوات طويلة.. كانت

الأستاذة تُدعى ليلى، في الخمسينيات من العمر، ولكن حبها الحياة جعلها تبدو وكأنها في الثلاثينيات، عادت من روسيا لتوها، بعد أن عاشت هناك أكثر من عقدين، مصقلة بتجارب الدنيا والآخرة، رأت كل شيء، شفيفة، صادقة وكريمة، تحب الخير للناس، تتعامل مع الجميع باحترام وكرم. كانت تقدم الشاي بالحليب للطالب الذي لا يتأخر، وإذا تأخر أحدهم، تعطيه شكولاتة صغيرة، وتعده بأخرى أكبر إذا لم يتأخر ثانيةً.. كان حسن لا يصدق أن هذه الأستاذة من عائلة البشر، أو أنها ملاك تمشي على قدمين وتلبس الثوب الفيلاني. على الرغم من أن المحاضرة كانت عن الأدب، بدأت الأستاذة الحديث عن روسيا وثقافتها بشكل عام فقالت: إن الروس يحبون الحياة والاحتفالات، فلديهم عيد الربيع، يحتفلون بعيد المرأة، أما عيد النصر الذي يقام في التاسع من مايو كل عام يعد الأهم، لأن هذا الانتصار غير مجرى التاريخ وهو انتصار بطعم الدم والدموع، ورأس السنة من أهم الأعياد: كل الأسر بلا استثناء تحتفل بهذا العيد والمدن لا تنام. كانت الأستاذة تتحدث، وحسن لا يتوقف عن الدهشة، لأنه يسمع هذه القصص أول مرة، ويتخيل كل هذه الأعياد، وملامح الروس في الطرقات.. عندما توقفت عن الكلام، سألها: ما هو نوع الهدايا التي تقدم في مثل هذه المناسبات؟ أجابت: هناك هدايا عديدة، ولكن عيد المرأة هو عيد الورود: في هذا اليوم كل امرأة تستقبل باقة ورد كهدية، ولا أنسى أن أقول إن هناك عيد الرجل أيضا، وفيه تهدي المرأة أنواعًا مختلفة من الهدايا مثل الكنياك والويسكي والفودكا، والمرأة الروسية تحب كل أنواع الهدايا، لأن في الثقافة الروسية الهدية دلالة للمودة والتقدير، ثم قالت: والآن دعونا نتحدث عن الأدب، لكن قبل ذلك، أردت أن أقول الطقس هناك بارد، الجليد يتساقط سنويًا مدة أربعة اشهر أو أكثر. يأتي الدفء في شهر يونيو ويوليو، لكن هناك أمر يجب أن

يعرفه كل من ينوي السفر إليها. يمكن تجنب البرد بلبس المعاطف الدافئة، والأحذية الدافئة.. ولا تنسوا لبس قبعة البرد. إذا اتبع الإنسان هذه النصائح فيمكن أن يتجول بالمدينة ساعات طويلة دون أن يشعر بالبرد. أرادت الأستاذة مواصلة الحديث، لكن الوقت لم يسعفها، فأنهت المحاضرة. وعلى الرغم من أن موعد السفر إلى روسيا كان بعد ثلاث أشهر، بدأ كل واحد منهم بتجهيز حقيبته للسفر إلى بلاد السلافيين.

عندما جاءت خديجة إلى الجامعة بدعوة منه، تحدثت عن الواقع الجديد ومرارة الجلوس في البيت. قائلة: في سنوات الدراسة كانت الجامعة تزرع فيَّ الأمل بغد أفضل، حتى أكملت الجامعة. عندما خرجت إلى الحياة، لم أكن أتوقع هذه الصدمة، والإحساس بأن كل ما فعلته لا قيمة له، لا توجد فرص عمل. لم يعلق حسن على هذا الكلام، بل نهض قائلًا إنه سيعود بعد قليل، وطلب منها أن تنتظره. عاد ويحمل معه عصير برتقال، قدمه لها وقال: من الخطأ أن نظن أن الطريق إلى المستقبل مفروشًا بالورود، ستواجهنا جميعًا صعوبات، ولكن علينا أن نؤمن بغد أفضل ونعمل من أجل ذلك حتى التنهيدة الأخيرة. اتفقت خديجة مع هذا الرأي، ثم سألت: هل تعرَّفت أصدقاءً جددًا؟ أدرك حسن أن هذا السؤال يستبطن مآرب أخرى، فحاول أن يبدو واضحًا، قال: لم أتعرَّف أصدقاءً جددًا، ولكن التقيت صديقة جديدة، تدرس بالكلية نفسها، فتاة لطيفة وجميلة، أتوقع مستقبلًا مزهرًا لصداقتنا. كان هذا الخبر محزنًا ومفرحًا بالنسبة إليها. الحزن مصدره الإحساس بظهور منافسات، أما الفرح فبسبب حاجته إلى أنيس في غيابها. استمر اللقاء ساعات، وعندما همَّت بالذهاب، قالت: يوم الخميس عازماكم أنت ومروان غدًا خضرة بالكسرة في البيت وحتكون معاي زميلتي الكنا في الحفل معًا. عندما غادرت خديجة، قال حسن محدثًا نفسه: يعني علاقتنا بقت قوية للدرجة دي؟ تعزمني في البيت بالبساطة دي؟

في بـلاد الفيـلان ليـس متعارفًـا أن يـزور فتـى فتـاة في منزلهـا، إلَّا في حـالات نـادرة وفي مناطـق معينـة.. زيـارة فتـاة في بيتهـم قـد يكـون سـببًا لحتفـك. المجتمـع الـذي لا يؤمـن بصداقـة النسـاء والرجـال لا يمكـن أن يتقبـل مثـل هـذه الزيـارات. أمـا الحـالات النـادرة التـي ذكرتهـا كانـت تتـم عندمـا يسـافر الوالديـن، وتطمـئن الفتـاة بـأن لا أحـدَ في البيـت سـوى الأطفـال الصغـار، يمكـن أن تدعـو أصدقاءهـا إلى البيـت مـع ذلـك تتخـذ كل الحيطـة والحـذر. يمكـن أن يـزور شـاب فتـاة في حالـة الأفـراح والأحـزان، لأن في هـذه المناسـبات لا يُسـأل أحـد عـن هويتـه، فيمكـن للصديـق التعيـس أن ينصهـر بـين الجماعـة، وينظـر إلى صديقتـه دون أن يلاحـظ ذلـك أحـد. حسـن الـذي لم يرفـض طلبًـا لخديجـة عـلى الإطـلاق، كان لا بـدَّ أن يلبـي هـذه الدعـوة، ولكـن الخـوف مـن المـوت قـد يعيـق كل شيء.. ذهـب بحثًـا عـن مـروان، لأن كـما يقـول المثـل «مـوت الجماعـة عـرس». لم يجـده في غرفتـه، ذهـب إلى ركـن المشروبـات السـاخنة، فـكان مـروان مختبئًـا تحـت شـجرة النيـم، عندمـا رآه حسـن، فـرح وأخـذ نفسًـا طويـلًا. أراد أن يخـبره بالدعـوة، لكـن عـرف أن المختبـئ تحـت الشـجرة كان عـلى علـم.

سأل حسن:

- رأيك شنو؟

سأل مروان ليتأكد:

- بخصوص الدعوة؟

- آي، شايف مشي البيت دا عادي ولا ما في داعي؟

- مـا عـارف أنـت شـايف شـنو، ولكـن أنـا ح أمـشي عشـان اسـتمتع بالملوخيـة.

كان مـروان يتحـدث بثقـة عاليـة وهـدوء في الصـوت، شـعر حسـن

أن الأمر لم يكن بالخطورة التي يظنها، وأن هذه أوهام لا أساس لها، لأن الصديقة التي تعرفهما منذ سنوات لا يمكن أن تعرضهم للخطر بهذه السهولة، بل على العكس من ذلك، تحاول خديجة أن تكرمهم، وتعبر عن تقديرها لهذه الصداقة، وربما تخطط للكشف عن سر ما جميل.. بهذه الأفكار طمأن حسن نفسه، وقال: إذن، سنلتقي بعد غد عند مدخل الجامعة، ومن هناك سنتجه إلى الملوخية والطباخة الماهرة. عندما كان المدعوان ذاهبان، كان حسن يقول محدثًا صديقه: خديجة قالت إنو صاحبتا حتكون معاها، عشان كدا خلينا نتفق، قصدي إذا الأمور مشت ظابطة، فأنا بختار خديجة، ما تنسى الكلام دا، عشان ما تمسك بُنية هناك. ضحك مروان بصوت عالٍ عندما سمع هذه الكلمات حتى التفت الركاب، الذين أرهقهم الفراغ، وكانوا يبحثون عن شيء يكسر صمتهم الممل. رد مروان على حماقات حسن قائلًا: جاء صوت الغريزة مبكرًا، خلينا نشبع العرمة دي بالملوخية ونعود بسلام.

عندما وصل حسن ومروان إلى منزل خديجة، كانت الفتاة الجميلة تنتظرهم في باب المنزل، غطت الابتسامة وجهها فرحًا بقدوم الأصدقاء، في ذلك الوقت كانت سارة رفيقتها تعد الطعام، لذلك لم تخرج لاستقبلهما. كان البيت واسعًا، مساحته نحو خمسمائة متر مربع، يتألف من طابقين، وفناء كبير مزين بالشجيرات والزهور كأنه حديقة صغيرة، الحائط الخارجي خالٍ من الطلاء، أما الوجه الداخلي كان مطليًّا باللون الأبيض. طلبت خديجة أن يدخلا إلى الصالة، وهي الغرفة التي تقابل الباب الخارجي مباشرة. عندما جلسا، جاءت سارة تحمل سفرة كبيرة، فيها أنواع مختلفة من الأكلات الطيبة، وضعته على الطاولة التي كانت في وسط الصالة، فرأى حسن أصناف «الملوخية المفروكة» «صحنًا كبيرًا مليئًا بالخضراوات»، «كسرة»، «صحنًا آخر فيه شرائح من

اللحـوم مشـوية». عندمـا كان ينظـر إلى هـذه الأصنـاف ويبتسـم، ذهبـت خديجـة إلى المطبـخ وعـادت بإبريـق فيـه عصـير ليمـون. أمـا مـروان، فتذكـر حديـث الأمـس، وقـال هامسًـا: حسـن، حسـن، أبوهـا حيجـي بعـد شـوية، خليـك جاهـز يـا فـردا. تغـيرت ملامحـه في الحـال، بـدا متوتـرًا، نـسي المائـدة العامـرة التـي أمامـه، وسـأل خديجـة، بعـد أن شـكرها عـلى هـذه الدعـوة: ويـن باقـي النـاس؟ لم يكـن يهمـه أحـد، كان يخـشى مـن عـودة الوالـد، لأن خديجـة لم تكـن لديهـا إخـوة يكبرونهـا سـنًّا.. أجابـت: باقـي النـاس حيجـوا بعـد شـوية. فأضـاف حسـن سـؤالًا آخـر: أبـوك برضـو؟ فقالـت: إن والدهـا مسـافر ولـن يعـود قريبًـا، ربمـا في عيـد الأضحـى. تنفـس حسـن الصُّعـداء عندمـا سـمع هـذا الخـبر، وعـادت شـهيته. أمـا مـروان، الـذي كان يعلـم بسـفر والدهـا، فـكان يـأكل ويرمـي بنظراتـه تجـاه حسـن مـن وقـت لآخـر. كان الأكل زكيًّـا، طاعـمًا وفريـدًا. لم يتـذوق حسـن مـلاح خـضرة بهـذه اللـذة مـن قبـل. رغـم أن الطـلاب لا يأكلـون اللحـوم في السـكن الجامعـي لأنهـا غـير متوفـرة، لم يكـترث هـو بصحـن اللحـوم المشـوية التـي تزيـن الصفـرة، كان يـأكل الملوخيـة بنهـم واسـتمتاع، كلـما يفـرغ الصحـن يطلـب المزيـد ثم المزيـد، شـعر وكأنـه في منـزل أمـه. أم صديقـه فـكان يـأكل بشـهية أيضًـا إلا أنـه يأخـذ مـن كل شـجرة ثمـرة كـما يقـال، تـارة مـن اللحـوم، ومـن صحـن الخـضراوات تـارة أخـرى ولا ينـسى نصيبـه مـن الملوخيـة. مـن طبائـع المـرأة هنـاك أنهـا لا تـأكل كثـيرًا، خاصـة في حـضرة الضيـوف، فكانـت خديجـة تأخـذ قطعـات صغـيرة مـن الخـضراوات، كأنهـا طفلـة صغـيرة. عندمـا لاحـظ حسـن ذلـك، قـال متعجبًـا: مالـك قاعـدة تـاكلي كـدا؟ رد مـروان: في غيابنـا تـأكل خديجـة كميـات كبـيرة، وفي حضرتنـا تشـعر بالخجـل.. وسـارة كذلـك. ضحـك الجميـع عـلى هـذا الـكلام الـذي أضفـى عـلى الحقيقـة نكهـة المـزاح. بعـد الانتهـاء مـن الوليمـة، شرب حسـن ورفاقـه عصـير الليمـون، ثـم أتـت خديجـة بإبريـق شـاي. بعـد احتسـاء الشـاي، خرجـوا عائديـن. في الطريـق

اقترح مروان المرور على منزل «بائعة العرقي» لتكتمل فرحة المساء.. كان حسن وصديقه لأول مرة يتذوقان طعم العرق، شرب كل واحد منهما كأسين.. قال مروان: كنت أعرف أن والد خديجة مسافر، لكن ما كلمتك، أقبل اعتذاري. أما حسن فقال: اعذرني برضو، لأني كذبت عليك وقلت عندي قروش. كان مروان عندما اقترح المجيء إلى مكان العرق، لقد قال لحسن: الكمساري أخد كل القروش المعاي، إذا فضل معاك قروش، ممكن تمشي لي ست العرقي، ونظبط وضعنا. والآن، بعد أن شربا كأسين، اعترف كل منهما بكذبته، عندها قام مروان بهدوء قائلًا لبائعة العرق: أدخن لي سيجارة كدا وبرجع. خرج ولم يعد. بعد دقيقة خرج حسن ولم يجده، عندها أخذ حذاءه في يده ثم هرب.. بينما كان يركض، رأى شخصًا أمامه يركض أيضًا، فقال لنفسه: دا الكلب مروان بس، ما في غيرو.. كان مروان يهرول ويقول محدثا نفسه: «يا حسن، العصيدة التي صنعتها بيدك، ستأكلها وحدك». منذ ذلك اليوم، كلما اشتمَّ حسن رائحة العرق، أو سمع به أو رأى كؤوسه، تذكر الهروب العظيم. وكلما أكل ملوخية، أو تنشق رائحتها أو سمع عنها، كان يتذكر ملامح خديجة وابتسامتها العريضة المشرقة والمترعة بالحياة.

الحياة تمضي، لا تتوقف ولا تنتظر أحدًا. أدرك حسن هذه الحقيقة، وقرر التوقف عن فعل الحماقات. لم يزر بيت العرق مجددًا ولم يعبر بذلك الطريق مرة أخرى. وجهة كل اهتمامه للدراسة، وكانت محاضرات الأدب الروسي المعاصر التي تقدمها الأستاذة تشجعه على التركيز والحلم برؤية روسيا قريبًا. كان يقرأ كثيرًا، يلتقي خديجة من زمن لآخر، ينام ساعات طويلة حتى يقاوم الجوع. العالم الحديث يهتم كثيرًا بالمظهر الخارجي للإنسان والوسط الجامعي ليس استثناء. كان زملاؤه يظنون أنه ميسور الحال، ولم يشعر أحد بدرجة البؤس الذي كان يعيشه داخل السكن الجامعي سوى أصدقاء الخبز والملح (مروان وعبود).

عندما اقترب موعد امتحانات الفصل الأول، قالت أستاذة التاريخ الروسي في المحاضرة الأخيرة: امتحان مادة التاريخ سيكون من هذا الكتاب تحديدًا، لذلك أرجو منكم قراءته جيدًا. كان الكتاب يتألف من مائتين صفحة، يتحدث عن روسيا القديمة، ودخول المسيحية في الإمبراطورية الروسية، ثم عن الغزو التتري المنغولي لروسيا، والفصل الأخير كان مخصصًا للحرب العظمى للدفاع عن الوطن (الحرب العالمية الثانية) وانتصار الاتحاد السوفيتي على هتلر. بعد انتهاء المحاضرة، اتجه حسن صوب المكتبة وبدأ يقرأ الكتاب من الصفحة الأولى التي تحتوي على اسم المؤلف ودار النشر.. عندما أعلن أمين المكتبة عن موعد إغلاق المكتبة، كان حسن قد قرأ خمسين صفحة، خرج واتجه إلى الكلية، حيث توجد قاعات مخصصة للقراء ليلًا، جلس حسن واستأنف القراءة، كان يقرأ ثم يضحك تارة، ويبكي تارة أخرى بسبب المعلومات التي كان يكتشفها، عند الثانية صباحًا قرأ حسن الكتاب بأكمله. كان الجوع قد سيطر عليه وتذكر أنه لم يأكل منذ الفطور، بحث هنا وهناك ولم يجد شيئًا، عاد إلى الغرفة ولم يستطع النوم، خرج مجددًا في رحلة البحث عن الطعام، عندما جاء إلى المطعم المجاور لغرفته، وجده مغلقًا، تسلل داخله، كان المطبخ خاويًا إلا من الخبز الجاف. أخذ حسن كمية كبيرة منها، ووضعها في صحن كان مرميًا على السطح، صب عليه ماء ثم تناول وجبة العشاء الدسمة هذه. ثم عاد إلى الغرفة لينام سعيدًا. في الصباح، استيقظ وشعر بالكسل، أراد أن يعود إلى النوم مجددًا، لكنه تذكر بأن محاضرة الأدب الأخيرة ستقام بعد قليل، قال في نفسه: هذه فرصة جيدة، يمكن رؤية الأستاذة الرائعة، والتحدث إليها وطرح أسئلة أخرى والاستماع إليها بمتعة. ذهب إلى المحاضرة قبل دقيقتين، فوجد نصيبه من الشاي بالحليب. بدأت الأستاذة تقول: سعدت جدًّا بقضاء وقت معكم، وتحدثنا خلال هذه

الشـهور الثلاثـة عـن روسـيا كبلـد جغـرافي، ثـم خصصنـا وقتًـا للحديـث عـن الثقافـة الروسـية، وأخـيرًا تحدثنـا عـن الأدب. عليـه، سـأعطيكم ملامـح عامـة عـن الامتحـان: سـيكون هنـاك سـؤال عـن الأدبـاء الـروس الذيـن حـازوا عـلى جائـزة نوبـل وسـنفرد حيـزًا عـن الأديـب الـذي رفـض تسـلم جائـزة نوبـل والأسـباب وراء ذلـك. سـيكون هنـاك سـؤال عـن ظهـور تيـارات جديـدة في الشـعر الـروسي المعـاصر، والشـعراء الذيـن يمثلونـه، سـأقول لكـم إن ألكسـاندر بلـوك أحدهـم. في الأخـير سـأختم لكـم الامتحـان بسـؤال ثالث عـن الأديـب الـذي كتـب روايـة عظيمـة عـن الحـرب مـع نابليـون، وإذا كتـب أحدكـم اسـم دوستويفسـكي، فلـن أتقبـل هـذه الإجابـة. أتمنـى لكـم التوفيـق وإلى لقـاء قريـب. عندمـا أكملـت الأسـتاذة حديثهـا وخرجـت، كان الطـلاب في ذهـول مـن هـذا الأسـلوب الرائـع، أسـلوب فيـه إثـارة وتشـويق بـل ذكاء. خـرج حسـن مـن القاعـة واتجـه نحـو المكتبـة، طلـب مـن أمـين المكتبـة جميـع الكتـب التـي لهـا علاقـة بـالأدب الـروسي والثقافـة الروسـية، أحـضر أمـين المكتبـة عشريـن كتابًـا، وقـال: يـا ابنـي، عندمـا تكمـل قـراءة هـذه الكتـب، سـأعطيك المزيـد.. ثـم تمنـى لـه التوفيـق، وذهـب. كان يقـرأ مقتطفـات مـن كل كتـاب، حتـى حـان موعـد إغـلاق المكتبـة، فخـرج ثـم ذهـب إلى المطعـم، تنـاول وجبـة العشـاء أولًا حتـى لا يـأكل الخبـز الجـاف مـرة أخـرى.

انقـضى الفصـل الأول مـن العـام الـدراسي. قـدَّم الطـلاب أفضـل مـا عندهـم وأحـرزوا نتائـج مشرفـة. بسـبب ذلـك، نظَّـم القسـم احتفـالًا صغـيرًا بهـذا النجـاح وكانـت المبـادرة مـن رئيسـة القسـم آنـذاك. فـرح الجميـع، ثـم طلبـت أسـتاذة سـعدية مـن الطـلاب أن يعـدوا أنفسـهم للسـفر، أن يسـتخرجوا جـوازات السـفر في أقـرب وقـت ممكـن. كانـت خديجـة تنتظـر خـروج حسـن مـن الاحتفـال حتـى تنظـم لـه احتفـالًا آخـر، لأنهـا كانـت أكـثر النـاس فرحًـا بنجاحـه.. عندمـا التقيـا، أخبرهـا بأنـه ينـوي زيـارة

أمـه قبـل السـفر، ولكـن عـدم توفـر المـال كان عائقًـا. أول مـرة يتحـدث معهـا عــن مشــكلاته الماديــة، ربمــا لأن لــكل شيء نهايــة، أو كأنــه يريــد أن يتحـرر مـن بعـض القيـود التـي لهـا علاقـة بالعـادات والتقاليـد وربمـا الكبريـاء، ثـم إن خديجـة ليسـت شـخصًا غريبًـا. قالـت لـه: مـا تحـزن، كل شيء حيكـون ميـة الميـة. ذهبـا بعـد ذلـك إلى شـاطئ النهـر وبقيـا هنـاك حتـى الحاديـة عـشرة مسـاء، لأن خديجـة قـررت التمـرد عـلى والتقاليـد ولـو مـرة واحـدة في الحيـاة.. وفي لحظـة الـوداع، وضعـت في جيبـه مبلغًـا مـن المـال دون أن يشـعر بذلـك. عندمـا ذهـب إلى المتجـر وأراد أن يخـرج قطـع نقـود معدنيـة ليبتـاع سـيجارة، وجـد ورقتـين نقديتـين بقيمـة مائـة جنيـه، غمرتـه السـعادة، وقـال ممازحًـا نفسـه: لـو كنـت عـارف إنـك كريمـة للدرجـة دي وحلالـة مشـكلات، كان حكيـت ليـك عـن كل المشـكلات مـن أول يـوم. رتَّـب حقيبتـه في تلـك الليلـة، وفي الصبـاح سـافر إلى والدتـه ليأخـذ العفـو والمباركـة. يؤمـن الغالبيـة العظمـى مـن الفيلانيـين بـأن دعـوة الأم مسـتجابة، لذلـك يطلـب النـاس دعواتهـن، يسـافرون مـن أجلهـا، يقطعـون مسـافات طويلـة. كـما يحـذرون مـن أن تدعـو الأم عليهـم، ولهـذه العـادة جـذور ثقافيـة ودينيـة، حيـث يُعلَّـم الأطفـال منـذ نعومـة الأظافـر احـترام الكبـار والوالديـن، ولـلأم نصيـب خـاص مـن الاحـترام، وربمـا يـأتي هـذا مـن الأسـطورة التـي تقـول بـأن «الجنـة تحـت أقـدام الأمهـات». لا أحـد يعـرف مـا مـدى صحـة هـذا القـول، ولكـن يؤمـن بـه كثـير مـن النـاس. عندمـا وصـل حسـن إلى القريـة، كانـت أمـه قـد عـادت مـن المزرعـة لتوهـا، وكانــت تجلــس عــلى الســجادة بعــد الانتهــاء مــن أداء صــلاة المغــرب.. عندمـا رأت ابنهـا أشرق وجههـا رغـم الظـلام الحالـك، وكان هـو قـد جـاء محمــلًا بالفواكــه: كيلــو مــوز، وســتة قطــع برتقــال، وكيــس مــن الخبــز. كانــت هــذه الفواكــه تُعــرف في قريتهــم بفواكــه العاصمــة، لأن الســكان لا يتذوقــون طعمهــا إلَّا عندمــا يعــود أحــد أبنــاء الأسرة مــن هنــاك، ولا

توجد مخابز في القرى، لذلك كان لكيس الخبز وقع جيد في النفس، لو علم أهل القرى جودة المواد الغذائية التي يأكلها (مثل العصيدة، الخضراوات الخالية من الأسمدة والمواد الكيميائية الأخرى - الجرجير، الطماطم، العجور، والجزر... إلخ) لما أصابهم الحنين إلى فواكه العاصمة وأكياس الخبز المحشوة بالخميرة. عانق حسن أمه، وشعر أن لا مكان في الدنيا أكثر أمانًا ودفئًا من حضن أمه، ولا عطر أطيب وأزكى من عطرها. جهَّزت أمه العشاء الذي كان يتألَّف من عصيدة ولبن.. بينما كان حسن يأكل بشراهة بالغة، كانت هي تعد القهوة. أخرجت الموقد ثم أشعلت الفحم، بدأت تحمص البن.. أخبرها سبب الزيارة، وقال إنه سيعود إلى العاصمة غدًا، لأن هناك إجراءات كثيرة يجب القيام بها قبل السفر إلى إمبراطورية الجليد. على الرغم من أنه كان يملك وقتًا كافيًا لإكمال الإجراءات التي ذكرها، فإن سبب العجلة كان أمرًا آخر. لم يكن يرغب في مقابلة فتيات القرية لأنه لم ينسَ كيف سخرن منه في آخر زيارة. كانت أمه تفتخر في داخلها بالنجاح الذي حققه ابنها، ولكن من جانب آخر كانت حزينة لفراق ابنها الوحيد، ولم تكن تعرف ما يخبئه السفر لفلذة كبدها.

في الصباح الباكر ودَّع حسن أمه، حمل حقيبته واتجه مشيًا على الأقدام إلى قرية «أبو طويلة» المجاورة ليجد وسيلة مواصلات تقله إلى المدينة الكبرى، ومن هناك يتجه نحو العاصمة. كان يمشي وحيدًا، والظلام لم ينقشع بعد، والشمس لم تنشر ضياءها، وبينما كان يمشي، رأى في البعيد كلابًا، ولأن كلاب الأرياف لا يمكن الوثوق بهم، غيَّر حسن مساره قائلًا في نفسه: «الكثرة تغلب الشجاعة». عندما وصل وجد الحافلة التي تقل الناس إلى المدينة الكبرى، ركب إذ كان بالمداخل عدد من المسافرين.. كانت الحافلة تسع أربعين راكبًا، مقاعده من الخشب، والغبار كان يتطاير من هنا وهناك. جلس حسن بعد أن وضع حقيبته

تحت المقعد الخشبي المتسخ. جلس أمامه شيخ يحمل دجاجتين. سأله حسن: كم سعر الدجاجة الواحدة؟ أجاب الشيخ بتهذيب: خمسة جنيهات، ولكن إذا أخذت الاثنتين، بديك ليهم بي ثمانية جنيهات، أي واحدة بي أربعة. لم يكن حسن يريد أن يشتري، لكن أراد أن يجد أنيسًا يقتل به الزمن حتى يصل إلى المدينة. من الظواهر الشائعة في القرى والأرياف، الطيور والحيوانات المنزلية في أغلب وسائل المواصلات، خاصة تلك التي تحمل القرويين إلى التسوق.. تجد أحدهم يحمل دجاجات، وآخر يحمل صندوقًا بداخله ست حمامات، وهناك ثالث تراه يقف بالقرب من العجل السمين الذي ينوي بيعه ليقضي به دينًا أو يقيم عرسًا لابنه الوحيد. وعندما تصل الحافلة إلى محطتها الأخيرة، تجد ثياب الركاب مغطاة بمخلفات الطيور وغيرها. هكذا كان يعيش الناس في القرى والسعادة تغمرهم. ومن هذه البيئة خرج حسن والآن ينوي السفر إلى أرض لا تشبه بلاده. وصل المسافرون إلى المدينة بعد تسعين دقيقة قضوها في الطريق الوعر، كانت الحافلة تتوقف كل عشرين دقيقة، تارة بسبب نفاد الزيت، وتارة أخرى بسبب الوحل الذي يعيق الحافلة من العبور، فيضطر الركاب إلى النزول حتى يخف الحمل، بعد ذلك يعودون إلى مقاعدهم.

على غير العادة كان حسن في هذه المرة يملك بعض النقود، أما قلبه فكان دائمًا مليئًا بالأمل والطموح. باعت أمه خمس جوالات ذرة ووضعت ثمنها في جيبه عندما كان يودعها. دخل إلى المطعم، أكل اللحوم المشوية، والعدس، وشرب زجاجة بيبسي، ثم أشعل سيجارته، هذه الأجواء كانت بالنسبة إليه بمنزلة احتفال. في الطرق السريعة التي تربط بين المدن، توجد محطات كبيرة، وهي مطاعم وبقالات كثيرة بُنِيَتْ أو أسِّسَت في مكان واحد، وفيها محطة وقود، إضافة إلى مراكز لخدمات السيارات وقطع الغيار، ومركز للشرطة. في أغلب الأحوال

تكـون هـذه المحطـات منفصلـة عـن القـرى والمـدن. في هـذه المحطـات يقـف المسـافرون، يأكلـون ويشربـون، يقضـون حوائجهـم.. أمـا البائعـة المتجولـون فيأتـون مـن القـرى والمـدن القريبـة ليعرضـوا بضاعتهـم، وفي المسـاء يعـودون سـعداء مـما كسـبوه مـن مـال. المحطـة التـي توقـف فيهـا حسـن واحتفـل بوليمتـه تسـمى «كمبـو دبيـب»، وبينـما كان يدخـن سـيجارته، رأى حسـن رجـلًا كبـيرًا يجلـس عـلى الأرض، اقـترب منـه وسـأله: أنـت بخـير يـا حـاج؟ فلـم يجـب الرجـل. أخـرج حسـن خمسـة جنيهـات ووضعهـا في يـده.. حينهـا قـال الرجـل: كنـت حـاسي بالجـوع، لكن اسـتحيت يـا ولـدي. تمنـى لـه النجـاة واتجـه نحـو البـص المـؤدي إلى العاصمـة. لم يفهـم حسـن مصـدر هـذا الكبريـاء وعـزة النفـس، الرجـل يتضـور جوعًـا ولكنـه يسـتحي مـن السـؤال، المـوت أهـون لـه مـن أن يسـأل.. ربمـا مثـل هـؤلاء مـن يصنعـون فارقًـا في الحيـاة. الطريـق مـن محطـة «كمبـو دبيـب» إلى العاصمـة لم يكـن شـاقًّا هـذه المـرة، لأن الحكومـة أهَّلـت الشـارع بسـبب زيـارة الأمـير الـذي أتى إلى الفيـلان وطـاف القـرى والأريـاف بغرض الاسـتثمار في الزراعـة، فـأرادت الحكومـة أن تـترك انطباعًـا جيـدًا في نفسـه وتقـول لـه إن البنيـة التحيـة للأريـاف متطـورة، فتذكـر حسـن المقولـة الشـعبية التـي تقـول «مـن وراء الملـوك نلـوك». عندمـا وصـل إلى العاصمـة، كانـت خديجـة تنتظـره في «السـوق الكبـير» وهـي سـوق كبـيرة، تنطلـق منهـا الحافـلات السـفرية إلى الولايـات وبهـا تحـط رحالهـا. حمـل حقيبتـه واتجـه بصحبتهـا إلى السـكن الجامعـي، ولأن قانـون السـكن لا يسـمح بدخـول النسـاء (درءًا للفاحشـة كـما يقولـون)، طلـب منهـا أن تنتظـره بالقـرب مـن المدخـل ليضـع أغراضـه ثـم يعـود. رجـع يحمـل كيسًـا بـه طماطـم وفـول مدمـس جـزءًا مـن الـزاد الـذي وضعتـه أمـه. مثلـما يحمـل النـاس إلى الأريـاف فواكـه العاصمـة، فـإن سـكان القـرى يقدمـون لهـم الهدايـا مـما يزرعـون. لا أحـد يتوقـع أن يسـتقبل عنبًـا مـن الأريـاف، لأنهـا لا تنبـت هنـاك. فرحـت

خديجة بكيس الطماطم والبصل، وضعته داخل حقيبتها، فبدا ثقيلًا نوعًا ما، أعادته لحسن على أن تأخذه عند المغادرة إلى البيت. لم يستمر اللقاء طويلًا، تحدث صديقها عن رحلته ثم ذكر أنه في غاية السعادة باقتراب موعد السفر إلى موسكو، بعد ذلك سألها: عايز شنو من موسكو؟ لم تكن خديجة تعرف ما تريده بالتحديد، وليس من عادة الفيلانيات أن تسأل شخصًا عن نوع الهدية التي تريدها. كان لخديجة ما يكفي من الشجاعة، لذلك قالت: عايزة لي حاجة فريدة، ما ضروري تكون غالية، لكن بس نادرة. جاءت بائعة الشاي تسأل: أتريدون شايًا أم قهوة؟ فأجاب قائلًا: قهوة لي ولصديقتي. واستأنف: أتمنى أشوفك مرة تانية قبل السفر. أبدت موافقتها، ثم حملت كيس الطماطم والبصل بعد أن فرغا من شراب القهوة وغادرت إلى البيت. أما هو فنهض من مقعده ودخل إلى السكن. وبينما كان يمشي، قرر زيارة عبود ومروان. ذهب إلى غرفتهما، وجد مروان يقرأ مستلقيًا على السرير، أما عبود فكان يقف أمام الحمام ينتظر خروج الطالب ثقيل الدم الذي ظل داخل الحمام أكثر من نصف ساعة. طلب حسن أن يمضيا إلى شارع البركان لتناول كوب من الشاي والتحدث قليلًا. خرجا من الغرفة. عندما رأى عبود هذا المشهد، طلب من الذي يقف خلفه في الصف أن يعطيه إشارة حالما يخرج الطالب ثقيل الدم واتجه إلى صديقيه، اقترب منهما وسأل واضعًا يده على بطنه: ماشين العشاء بدوني؟ مالك نسيتني يا صديقي في اللحظة دي؟ وكان الكلام موجهًا لحسن، فرد قائلًا: ماشين نشرب شاي بس، وخلينا ليك رسالة في الترابيزا مكتوب فيها مكاننا. قال عبود: بحصلكم هسه. ثم عاد إلى صف الحمام. كان عبود يتضور جوعًا، وظهور حسن كان يعني توفر وجبة العشاء. خرج الطالب ثقيل الدم، فقال له عبود: الحمام ما مكان لي دق الحلاوة، كان طيب تصلي الصبح برضو عليك الله. لم يعلق

الطالب على هذا التوبيخ، ولكن زملاءه الواقفون في الصف ضحكوا بصوت عال على هذه سخرية. لم يبقَ عبود في الحمام سوى ثلاث دقائق، ليس لطفًا منه، أو تكرمًا على الوقفين في الصف، بل كان يخشى أن يذهب حسن إلى النوم قبل أن ينضم إليهما. اتجه عبود إلى شارع البركان و»البشكير» على كتفه. في ذلك الوقت كان صديقاه في انتظار وجبة العشاء التي يعدها الطباخ فرحًا. وعند مجيء عبود، كانت وجبة العشاء على الطاولة التي يجلس حولها أصدقاؤه. جلس ولم يتفوه بكلمة، كان يأكل بشراهة، أما مروان كان يأكل وكأن الشهية فارقته من سنين.. قال حسن: عشر أيام من الآن سأكون في موسكو، بلاد العم لينين، بوشكين والحرب والسلام. علق مروان على هذا الكلام قائلًا: لا تنسَ أن تُقرِئ السلام للعم لينين، وقل له عمال الفيلان متحدون. فضحك عبود فرحًا بالقضاء على آفة الجوع، ثم قال: بلغ العم لينين بأن ربما الدين أفيون الشعوب هناك، أما في السكن الجامعي فإن الجوع هو أفيون الشعوب، ثم عبَّر عن رغبته في كوب شاي. أما مروان فلا يحتسي سوى القهوة. وضع حسن بعض الجنيهات على الطاولة وغادر إلى الغرفة لأن النعاس قد داهمه. في اليوم التالي، التقى حسن أبكر والطاهر – زملاء الدراسة – وذهبوا إلى السفارة الروسية. في الاستقبال تحدث حسن باللغة الروسية معرفًا عن هويتهم، وذكر الغرض من المجيء. كان القنصل شابًّا لطيفًا، فطلب منهم - باللغة العربية - الدخول إلى صالة الضيوف والانتظار. لم ينتظروا طويلًا، جاء القنصل وأخذ جوازات السفر طلب منهم الانتظار.. منذ تلك اللحظة ظل بداخلهم انطباع جيد عن تلك البلاد وشعبها. بينما كانوا في الانتظار، قال الطاهر: هناك اختلاف كبير بين الموظف الفيلاني والروسي في التعامل، فأجاب حسن: هذا الاختلاف مصدره التنشئة. لم يختلف أبكر مع هذا الرأي، ولكنه أضاف: عندما نسافر إلى روسيا سنواجه

صعوبة في التعامل، لأننا اعتدنا الهمجية وعدم احترام الموظفين لنا كعملاء. فردَّ حسن معلقًا: دعنا نذهب أولًا، بعد ذلك لكل حادث حديث. طلب منهم القنصل أن يدفعوا رسوم فيزا الدخول في البنك الذي يقع قريبًا من السفارة، ثم يعودوا لتسلم التأشيرات. خرج الطلاب واتجهوا صوب البنك مشيًا، لكن الحارس الذي يقف في مدخل السفارة نصحهم باستئجار ركشة لتقلهم إلى هناك قائلًا: وقت الفطور قرَّب، عشان كدا أحسن تصلوا قبل الموظفين ما يطلعوا. كان الحارس صادقًا فيما ذهب إليه، إذ إن البيروقراطية تعدُّ إحدى أكبر المشكلات التي تعانيها المؤسسات هناك، فيأتي الموظف متأخرًا، ويقوم بواجباته ببطء وكأنه مجبور على العمل، وإذا جاء وقت الفطور، يترك مكان عمله ويستغرق ساعة على الأقل، ثم يستغرق ساعة أخرى في احتساء الشاي أو القهوة، وأخيرًا يدخن سيجارته في عشر دقائق بعد ذلك يعود إلى مكان عمله ليجد صفوفًا مكدسة من العملاء. يبدأ في تقديم الخدمات، وبعد ساعة يوقف العمل، قائلًا: حان وقت صلاة الظهرة. يذهب إلى المسجد وبعد انتهاء الصلاة، يقرأ آيات من القرآن الكريم، ثم يعود مجددًا إلى العمل وهو راض عن نفسه، لأنه أدى فرائض الله. بعد النصيحة الغالية التي سمعوا بها، لم يتردَّد حسن ورفاقه في استئجار ركشة. عندما اقتربوا من نافذة المعاملات، قال الموظف: ما تخلوا زول يقيف وراكم، لأني بخلص ليكم وبمشي الفطور طوال، فشكر حسن ورفاقه الحارس على النصيحة. تسلم كل واحد منهم جوازه وغادروا السفارة متجهين إلى التسوق. عندما وقفت الحافلة أمام الجامع الكبير، نزل الطلاب وذهبوا إلى متجر الملابس، اشترى حسن معطفًا، جينز كحلي اللون، وقميصًا ورديًا. أما أبكر فأخذ جينز أيضًا وتي شيرت. لم يشترِ الطاهر شيئًا لأن والده قد أرسل له من بلاد المهجر حقيبة مليئة بالثياب. بعد ذلك اتجه جميعهم إلى «سوق منقو»، بغرض شراء

بعض المواد الغذائية. عندما عادوا إلى السكن الجامعي، كان كل واحد منهم يحمل كيسًا ثقيلًا.. كان حسن يحمل في كيسه: زيت سمسم، زيت فول، كيلو سكر، ثلاثة كيلو من العدس، بلح يزيد على الكيلو قليلًا. أما الطاهر فكان يحمل: عبوة طحينية، كيلو أرز، بصل مجفف، شرموط[1]، وكيلو من الويكة،[2] ولم ينسَ الملح أيضًا. والأخير، أبكر كان يحمل جميع الأواني اللازمة لصناعة الطعام وكأنه مطبخ يمشي على قدمين، وبعض من التوابل. لاحقًا، عندما يصلون إلى موسكو، سيضحك الشخص الذي سيستقبلهم في المطار بعد رؤية الحقائب الثقيلة هذه، قائلًا: لا مانع في أخذ بعض المواد الغذائية النادرة، ولكن أتظنون أن موسكو خالية من الملح؟ هل أتيتم للدراسة في بلد حتى لا يتوفر فيه حتى الملح؟ ثم يدرك حسن ورفاقه مدى سذاجتهم. اقترح أبكر والطاهر وضع جميع الحقائب الثقيلة بغرفة واحدة، وكانت غرفة حسن المناسبة لهذا الغرض. في مساء ذلك اليوم أخبرتهم رئيسة القسم بأن تذاكر السفر جاهزة، وأن موعد الرحلة سيكون يوم غد عند الحادية عشرة مساءً. في كل العالم يعرف الناس موعد سفرهم قبل أسابيع ربما شهور، ولكن تفشي البيروقراطية في تلك البلاد جعلت حسن ورفاقه يعملون بموعد سفرهم قبل يوم واحد من موعد الرحلة. اعتذرت رئيسة القسم على هذه المفاجأة السارة والمحزنة في الوقت نفسه قائلة: فقط قبل ساعات من الآن تسلمت المبلغ المالي من السيد وكيل الجامعة. اتفق حسن ورفاقه على الخروج من السكن الجامعي مبكرًا لتفادي أي مفاجآت أخرى غير سارة. عاد كل منهم إلى غرفته. فأجرى حسن مكالمة طويلة، تحدث فيها مع خديجة، أخبرها بموعد السفر واعترف لها في الحب وتمنى أن يراها مجددًا. كانت

(1) لحمة مجففة تستخدم لصناعة الأكلات الشعبية.

(2) البامية المجففة والمسحونة لصناعة الوجبات المحلية.

خديجة غير سعيدة لسماع هذا الاعتراف في هذا الوقت، اعتراف أشبه بـ»علوق الشدة» لا يسمن ولا يغني من جوع. قالت: ليه اسي، لمن جيت مسافر؟ احتمال ما أشوفك تاني. لم يكن حسن يتوقع ردة فعل هذه، شعر بألم حاد وكأن قلبه يتقطع، قال لها: ما حبيتك قبل كدا، ولا حأحبك. ثم أنهى المكالمة، ثم خرجت منه هذه الجملة: كسم كدا ذاتو!!

في اليوم التالي، جاء أبكر والطاهر إلى حسن قبل الموعد المحدد. كانا يتوجسان من مفاجآت الطريق. في ذلك الوقت كان حسن قد عد الحقائب وارتدى ثيابه، لذلك خرجوا إلى الطريق حيث محطة المواصلات. بينما كانوا ينتظرون الحافلة، نزل عبود ومروان من على سيارة «الهايز» استأجرها عبود ورفيقه لتقل حسن وزملاءه إلى المطار.. فكانت المفاجأة الأجمل. عند وصولهم إلى المطار، كان الأساتذة في انتظارهم، لم يتحدثوا إلى الطلاب كثيرًا، فقط تمنوا لهم رحلة سعيدة. قبل الدخول إلى صالة المغادرة، وقف حسن جانبًا، أشعل سيجارته الأخيرة في أرض الوطن، وتحدث مع عبود عن الأيام الجميلة والحزينة وعن وعود المستقبل. وعند الوداع، قال مروان: أوصيك بصبايا موسكو والنبيذ المعتَّق. ابتسم، ثم افترقوا. بعد أن عبروا نقطة التفتيش عند مدخل المطار، التفت حسن ليلقي نظره أخير على أصدقائه، لم يجدهم، ولكن رأى خديجة تقف لوحدها هناك، تحت المظلة. فأراد أن يعود إليها، لكن موظف الأمن منعه قائلًا: الخروج ممنوع. فأرسل حسن قبلة عبر الهواء ثم اختفى. لم تكن الإجراءات داخل المطار معقدة، وكأن البلد تسعد لمغادرة أبنائها. أكمل حسن وزملاؤه إجراءات الوزن والتسجيل في وقت وجيز، ثم وضع الضابط ختم الخروج على جوازات السفر. ظلوا في صالة الانتظار حتى موعد الإقلاع. ذهب أبكر إلى الحمام لقضاء حاجته، فبدأ حسن والطاهر يعلقان، قال حسن: هل يعقل أنه

آخر حاجة يقوم بيها الزول قبل السفر هو التغوط في الوطن؟ فأجاب صديقه قائلًا: هذا التغوط ليس على الوطن، وإنما على رأس الديكتاتور وحوارييه. بدت الفكرة مسلية، لذلك عندما عاد أبكر، ذهب الطاهر وتغوط أيضًا من بعده حسن. جاء النداء: «السادة المسافرون عبر الخطوط الجوية القطرية إلى موسكو، نرجو منكم التوجه إلى البوابة رقم 6». توجه حسن ومن معه إلى البوابة، حيث كانت الحافلة ينتظرهم. ركب الجميع، وتحركت الحافلة. كانت المستضيفة - المبتسمة دائمًا - تقف عند مدخل الطائرة وتوجه المسافرين. عندما اقترب منها حسن، أخذت «البرودينع تيكت» وقالت: المقعد رقم (13-A)، قال لها:Thanks[1] على المعلومة القيمة، ثم عبر. كان يجلس في المقعد المجاور للنافذة، وكان الطاهر وأبكر بجواره. عند الحادية عشرة بالضبط، أقلعت الطائرة. وعلى متنها كان حسن يرى عبر النافذة، إلى الأعالي، يقول: بعيدًا عن الديكتاتورية، أنا والله وبعض من الخواجات. في اليوم التالي عند الحادية عشرة صباحًا، حطت الطائرة رحالها في مطار «دوموديدوفا» الدولي. ومنذ تلك اللحظة، تغير حسن. واجه صعوبات عدة: بيئية، ثقافية ودينية. اكتشف مدن، أشياء وأماكن، ونساء دفعنه إلى الموت والمغامرة.

(1) شكرا0 - الترجمة عن الإنجليزية

أزمنة الجائحة

1

بالحب وحده ينجو الإنسان.. هذا ما كانت تؤمن به زينة.

لذا، في عصر الجائحة لم تتذكَّر أحدًا سوى حبيبها – تذكَّرتني أنا.

بعد أن مضى نصف قرن بتوقيت الروح وفقد كل منا الأمل، جاء الفيروس التاجي وأيقظ الحب في القلوب.

كم الساعة الآن؟ سألتُ عندما رن هاتفي، لكن ماذا يعني لي الوقت الآن، إذا كان العالم برمته منهمكًا في التفكير بالفيروس الذي يتوشَّح تاجه ساخرًا من الرأسمالية والمركزية الواهمة؟! كان رَقَم الهاتف ينتهي بصفر...

- كيفك أنت؟ هكذا بدأت زينة حديثها. بدلًا أن أتذكَّر خساراتي ومغامراتي القديمة – كصدى طبيعي لوصيتها – تذكرت فيروز الرحباني في عرشها الخالد. جميع الكلمات هنا تلبس زيًّا واحدًا (فيروس- تاج، فيروز – عرش).

- أنا بخير، لكني أشعر بحزن خفيف لطيف، بسبب طول الغياب.

قلت لنفسي مطمئنًا:

- لا أعرف إن كنت صادقًا في إجابتي هذه، لكن لا يهم. نحن الآن في وقت التحولات العظيمة.

قالت:

- كان لديَّ حلم بأن أراك وأستنشق عطرك عبقك لكن الحلم تبدَّد.

أجبت مطمئنًا:

- الحلم لا يموت إلا بموتنا.

- أجل، هذا ما أقصده، سأموت قريبًا بسبب فيروس باغتنا في حين كنا نائمين.

- لن تعبري إلى الماوراء قبل لقيانا - قلت هذا أو كما قال – وأنا أستحضر بطولاتي السابقة والقادمة.

قالت زينة:

- عندما ضلَّت بصيرتي الطريق، رأيت الضوء في انعكاسك داخلي لذلك اتصلت بك.

- نحن في مرحلة تحولات كونية، أعرف أن العلو يرعب الكثيرين - التاج دائمًا في القمم - لكن الرعب لا يفيد، العبور إلى الماوراء هو جزء من الرحلة التي بدأت مذ ولدنا. لا تدعين الذعر يسيطر، فلنعدُّ أرواحنا للقائنا الرومانسي.

- فهمت الدرس.

ثم أضافت:

- تقصد، أن أعقم روحي بعطرك، أن أستمع لموسيقى التفاؤل لأحافظ على نضرتنا، أن أدخِّر ما يكفي من طعام الحب لأن العالم كله في حَجْر عاطفي. أما القبلات سأدخرها لك... أتدري، أن العالم كله يدخر الآن دفء الأحضان وحتى القبلات لأن من القُبل ما قتل؟!

2

كان الصباح جميلًا كابتسامة زينة. استيقظت وأفكارٌ كثيرة تمزح في دواخلي. ماذا أفعل كفاتحة ليومي؟ سألت نفسي. قهوة بنكهة إفريقيا الحارة ومساج مائي لا يضران.

عندما تبقَّى رشفات قلائل من قهوتي، قررت أن أتصل بها، لأوشِّح صباحي دفئًا أنثويًّا، لكن زينة باغتتني باتصال.

- Hello، كيفك؟ أشعر بكحة خفيفة، أتمنى أن تكون كحة فحسب...

لم تكمل حديثها بصوت مسموع، لكن على مستوى اللاوعي، كانت تقول: أخاف من الفيروس التاجي، آمل ألَّا تكون هذه أحد أعراضه.

قلت مطمئنًا:

- كحة وستمر مثل السفن العابرة دومًا إلى الغياب.

- تعرف، أفكر في السفر، لكن أخشى ألّا أحصل على تأشيرة دخول...

- ههههههه.

ضحكت، لكنها لم تفهم سبب هذه الضحكة، لذلك نعتتني بالمتخلِّف!! قلت لها:

- ستقومين قريبًا بجولة حول العالم من دون تأشيرة دخول.

- أصدق ما تقول. ثم سألتني: هل للجائحة فوائد للبشر؟

فأجبت قائلا:

- وقتٌ طويل مضى، مياه كثيرة جرت تحت الجسر منذ أن بدأ

الإنسـان يفكـر بشـكل أنـاني، أو ربمـا هكـذا كان دائمًـا، في الوقـت الـذي يمـوت فيـه الأطفـال جوعًـا في بقـاع كثيرة، يسـتمتع آخـرون في مـدن أخـرى بـترف الحيـاة، مليـارات الـدولارات تتعفـن في مخازنهـم أو في حسـاباتهم البنكيـة. بينـما ينـام آلاف النـاس في الأرصفـة ولا يعرفـون منـازل غيرهـا، يرتمـي البعـض الآخـر في أحضـان البنايـات الشـاهقة والأسرة الفارهـة. فقدنـا قيمـة الإنسـان والإنسـانية فقـدت قيمتهـا السـامية منـذ وقـت طويـل. والآن، عندمـا زارنـا الفـيروس التاجـي، أدركنـا أننـا – جميعًـا – في مركـب واحـد، إمـا أن نصـل إلى الضفـة الأخـرى جميعًـا، وإمـا نغـرق جميعًـا. كلنـا نشـترك مصـيرًا واحـدًا.

عندئذٍ استطردت قائلة:

- أظـن أن هنـاك دورس أخـرى مـن زيـارة الضيـف غـير المرغـوب فيـه هـذا. الأول: إلغـاء الحـدود. للأمانـة الفكريـة، - المُفكِّـر جيجيـك أول مـن فطـن لهـذه المسـألة – إذا كانـت الإنسـانية تكـترث لوجودهـا، فعليهـا أن تعيـد النظـر في قيمهـا العليـا. أولى هـذه القيـم تتعلـق بالحـدود الجغرافيـة، إذ إن الفـيروس التاجـي ضرب كل بقعـة في كوكـب الأرض، معلنًـا ألا جـدوى للحـدود. أليـس هـذا كافيًـا في إعـادة النظـر في القيـود التـي فرضناهـا عـلى أنفسـنا؟ أليـس مـن الأفضـل أن نُفكِّـر في اتحـاد وتعـاون، ونـترك كل العـالم يتحـرَّك بحريـة لمـا كنـا في مركـب واحـد أمـام هـذه الجائحـة؟

3

ولأن زينة كانت في مزاج متقلب باستمرار، لكنها في حاجة دائمة إلى الحب. في ظل تلك الظروف الصعبة التي كان يعيشها العالم في أزمنة الجائحة، كان من السهل جدًّا للإنسان أن يخرج عن سيطرته. كان الناس في حالة «الجرادة داخل السروال»، التوتر المستمر. لذلك لم أكن أحتاج إلى مزيد من الضغط النفسي والذهني، يكفي أن الرعب كان يمشي في الطرقات ليلًا ونهارًا. لذلك كان عليَّ أن أحافظ على ما أملك. هل لاتزال تؤمن بالحياة وبانجلاء الكارثة قريبًا أم استسلمت وأصبحت في انتظار الحلقة الأخيرة من نهاية العالم؟ وأهم من ذلك كله، كيف لي أن أشبع رغبتها الدائمة في الحب؟ سألت حدسي؟ فأجابني: يجب أن ينعكس ذلك في السلوك، مثل ألَّا تنسى الأعياد المهمة بالنسبة إليها، عيد الميلاد، عيد المرأة، عيد الزواج، عيد الأم.. أن تقدم التهاني والهدايا بقدر ما استطعت إلى ذلك سبيلًا. لم يخطر على بالي من قبل بأن للمرأة أعياد بهذه الكثرة. تساءلت ما إذا كان هناك إمكانية لتخفيض هذا الكم الهائل من الأعياد، حتى يقل - في المقابل - كمية الهدايا؟ عمومًا هذا مصيرنا كرجال، علينا مواجهته حتى إذا كان النساء يفكرن في اختراع عيد إضافي لا نستطيع أن ننكره. فليحتفل العالم بأعياد النساء بدلًا من صنع الحروب والكوارث. والآن وأنا أفكر في زينة، أشعر بأنها تسبح في بحر الأحلام السعيدة، بعد أن استلمت صك الضمان، وبأن هناك رجلًا يفكر فيها ليلًا ونهارًا. ينتظر لقاءها، ليسافر بها إلى الضفاف البعيدة للعيش معًا حتى التنهيدة الأخيرة. على الرغم من أن حلمها يظل كان يلامسني، فإنني كنت أفكر في أشياء أخرى. كان ذهني مشغول بالتفكير في المطارات المغلقة، ضحايا الفيروس التاجي، أصدقائي،

مرتبـات لاعبـي كـرة القـدم، أسـعار النفـط والعطـب الـذي أصـاب ذاكـرة الإنسـانية.

Willows House
منشورات
ويلوز هاوس